من اللغة تبدأ ثورة التجديد

عثمان شبوب

لا يمكن لثورة شعبية أن تنجح وتحقق اهدافها الا اذا كانت اللغة الوطنية فيها تحتل مكانتها الطبيعية. كما ان المضمون الحقيقي للثورة هو تحقيق مقومات الشخصية الوطنية وفي طليعتها اللغة. لان اللغة هي رمز القومية الرئيسي ، ويستحيل على اى شعب ما ان يغير مصيره الى الافضل بواسطة لغة اجنبية عنه. والشعب الذى يفقد لغته يفقد حريته واستقلاله. وهذه الفقرة التى ساوردها هنا للاميرال قيدون الوالى الفرنسى على الجزائر اثناء الاحتلال تكفى للدلالة على دور اللغة فى الحفاظ على الامة. يقول هذا الوالى فى خطاب توجه به الى الآباء البيض سنة ١٨٧١ :

« انكم اذا سعيتم الى استمالة الاهالى بواسطة التعليم وبواسطة ما اسديتم اليهم من احسان قد قدمتم بعملكم هذا خدمة جليلة للبلاد الفرنسية. فليس فى وسع فرنسا ان تنجب من الابناء ما يكفى كى تعمر بهم الجزائر. وصار من اللازم ان يستعاض عنهم بفرنسة مليونين من البرابرة الخاضعين لسلطاننا. واصلوا عملكم بحنكة ودربة وحيطة ، ولكم منى التاييد ، وفى امكانكم ان تعتمدوا على كل الاعتماد» (مجلة العالمين الصادرة فى باريس اول افريل ١٩٢٥) .

وكتب الكاردينال لافيجرى ايضا مانصه : « اذا كسبنا ثقة الشعوب بالاحسان وتعليم الصبيان (الفرنسية طبعا) فلا بد ان ياتى يوم ينفصم فيه ما يربط بينها من عرى بكيفية تلقائية ، فلا دنى هزة هى تسقط ، كالثمرة الناضجة ، ونجنى نحن قطوفها » .

فاللغة الوطنية ليست فقط وسيلة للحفاظ على الشخصية وضمان تماسكها وانما هى الى ذلك اساس كل نهضة حقيقية شاملة. وكل الحركات الثورية فى العالم كانت قضية اللغة بالنسبة اليها هدفا استراتيجيا ثابتا. وليست قضية شكلية كما يقول بعض قصيرى النظر عندنا. فالفرنسيون مثلا ، لم يكد يمضى على ثورتهم اربعة اعوام حتى اجتمع رجال الفكر منهم للنظر فى قضية اللغة على اى نحو يتصورونها ، وفى اى اتجاه يوجهونها ، ولا عادة بنائها على خطة جديدة تتفق وروح ثورتهم. وكونوا لهذا الغرض سنة ١٧٩٥ معهدا جديدا اسموه : « المعهد القومى للعلوم » ومن بين اقسام هذا المعهد الاساسية ذلك القسم الذى يبحث فى تحليل الاحساسات والافكار وعلاقة اللغة به ، باعتبارها الوسيلة الاساسية لنشاة المعرفة الانسانية وتطويرها. وضم هذا القسم باحثين من جميع الاختصاصات ، ومن جميع الاتجاهات الفكرية والثقافية لا فرق فى ذلك بين الملحد والمؤمن ، واليسارى واليمينى ، لانهم جميعا يعتبرون أن البحث فى اللغة لا ينبغى أن يتاثر بالاختلاف العقائدى والاديولوجى .

وأورد نموذجا آخر من الفيتنام آمل ان يتدبره اولئك الذين يتصورون اللغة مسالة شكلية ، ويرمون الدعوة الى حمايتها بالتعصب والشوفينية. يقول الاستاذ تران هيوتيك الرئيس المساعد للجمعية العامة للطب فى الفيتنام : « ان اللغة القومية مقدسة ، ينبغى ان تكون هى لغة التعليم العالى فى بلد يتمتع باستقلال حقيقى ، فى بلد ذى سيادة. حر وديمقراطى. هذه هى الحقيقة الواضحة » .

والواقع ان تجارب الشعوب ومختلف الثورات الحقيقية فى ميدان اللغة معروفة ولا تحتاج الى تكرار. وهى عند ذوى العقول السليمة بديهية عقلية واضحة. ولكننا فى الجزائر ما نزال مع الاسف فى حاجة الى تكرار مثل هذه البديهيات ما دامت مصيبتنا فى هؤلاء الذين نسميهم ضحايا الاستلاب الثقافى قائمة .

* * *

ونستعرض الآن بعض العينات من تفكير هؤلاء فيما يخص وضع اللغة ووظيفتها :

اللغة اداة لا غير :

يرى بعض هؤلاء ان اللغة لا تعدو أن تكون اداة شكلية لنقل الافكار والنظريات. وينبغى الا نتمسك بقضايا شكلية .

وبالرغم مما تكشف عنه هذه النظريه من فقدان لروح الاعتزاز بالشخصية وللشعور الوطنى • نقول : ان جل الباحثين فى قضايا اللغة وعلم الاجتماع والنفس يكادون يتفقون على ان الابداع الحقيقى لا يكون الا باللغة الوطنية • وان ما هو وطنى فى مضمونه لا يمكن التعبير عنه بعمق ، يبرز كل تفاصيله بلغة غير وطنية •

وان استعمال لغة اجنبية تنشا عنه نتيجتان : فكرية ، ولسانية • فالواقع الجزائرى الذى نريد وصفه مثلا باللغة الاجنبية يكون قد وقع ادراكه بنسق لسانى اجنبى عنه• وبهذا فان هذا النسق يكون غير قادر على الابلاغ بامانة •

يقول السيد مالك حداد الكاتب الجزائرى باللغة الفرنسية : « ان الكلمات وهى معد اتنا اليومية ليست فى مستوى افكارنا بله عواطفنا ، وليس هناك الا توافق تقريبى بين فكرتنا العربية والفاظنا الفرنسية » •

فاللغة ليست لمجرد التعبير عن افكار تكونت ، بل هى جزء لا يتجزأ من عملية التفكير نفسها • بل ان تكوين الافكار وثيق الصلة بتكوين الكلمات•

انظر مثلا الى الانسان عندما يتناول الطبيعة من حوله بكل ما فيها ومن فيها تجد لالفاظ اللغة التى يستخدمها وطرائق تركيبها جذورا عميقة فى هذه الطريقة المستخدمة : فاختلاف لغة عن لغة فى التعبير عن الزمن مثلا ، ايضا ، ينشا عنه اختلاف فى اللفتة العقلية عند اصحاب اللغتين : فقد يكون موضوع الاهتمام عند فريق هو ان تجىء الافعال فى اللغة دالا على الضبط الزمنى بين حادث سبق ، وحادث لاحق• فى حين يكون الاهتمام عند الآخر هو مضمون الاحداث لا ترتيبها الزمنى •

* * *

ويقول آخرون : انه من الاحسن والافيد الاعتماد على اللغة الاجنبية فى دراسة العلوم والتقنيات • وحصر مجال اللغة الوطنية فى المواد النظرية • وهذا خطأ كبير • لانه كما قال الاستاذ عبد الله المازونى : « من الخطر الكبير من اية جهة كانت ان نوجد نهجا ثقافيا تكون فيه التقنية مقطوعة عن اللغة القومية• اذ تكون نتيجة هذا فى العاجل ان ننفر من العربية شبابا همه النجاعة ، ومهجته متجهة الى العلوم الصحيحة التى هى علوم الطبيعة• وان نوهمه ان اللغة الاجنبية وحدها القادرة الى التعبير عن العقول والتقنية وان لا مناص منها اذا أردنا ان نضع انفسنا ، وان نقتحم العالم العصرى » • كما ان القيم لا يمكن تكوينها الا من خلال واقع محدد : جغرافيا ولغويا فى آن واحد • وان الثقافة الوطنية انما تتشكل مما تقوم به الامة ـ اية امة ـ من تاليف ما أكتسبته من العلوم والفنون والآداب • وان اللغة الوطنية تمثل عنصر تلاحم لاغنى عنه • فلا بد من اقتحام اللغة الوطنية مجالات العلوم حتى نحس بعمق ، بانتمائنا الى العصر •

* * *

وهناك ايضا مسالة الازدواجية التى يدعو اليها البعض •

يقول الجاحظ عند التعرض للترجمة والنقل فى عصره : « ومتى وجدنا الترجمان قد تكلم بلسانين علمنا انه قد ادخل الضيم عليهما• لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخرى وتاخذ منها

وتعترض عليها • وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة ، وانما له قوة واحدة استفرغت تلك القوة عليها •••» •

ولابـــن خلدون رأى فى الازدواجية اللغوية ويسميها : مخالطة العجمة » : « ملكــة ممتزجة من الملكة الاولى » ومفاده ان خطر الازدواجية كبير على اللسان الاصلى لانها تبعد المتعلم عنـه وكانه يدعو الى التقيد بلغـــة واحدة اصلية فى تعليم الاطفال حتى تقوم ملكتهم الاولى ، يقـول : « لان البعد عن اللسان الاصلى انما هو بمخالطة العجمة • فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عـن ذلك اللسان الاصلى أبعد • لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التى كانت للعرب • ومن الملكة الثانية التى للعجم • فعلى مقدار ما يسمعونه من العـــجم ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى » •

ويقول عالم اللغة المعروف مارتينى : « لكـل لغة نظامها الخاص بها فى مجال معطيات التجربة فتعلم لغة ثانية لا يعنى وضع علامات جديدة على اشياء معروفة بل يقتضى ان يقع تحليل آخر لما يهدف اليه الابـلاغ اللغوى » فبمجرد ما يتحول المرء من لغة الى اخرى يفقد جزءا كبيرا من روح اللغة الاولى •

وفى هذا المعنى يقول ايضـــا : فيما يخص الدراسة النظامية وهى يجب ان تبتدئ ـ فيمـا نعتقد ـ حوالى السادسة من العمر وان تستمر الى الخامسة عشرة ، نلاحظ فى البداية ـ حتى حوالى الثانية عشر ـ ان الازدواجيين متاخرون ذهنيا من وحيدى اللسان ؟ ••• وفيما بعد نشاهد الاذكياء من التلامذة الازدواجيين يتقدمون على اذكياء التلامذة الوحيدى اللغـــة •

على انه يمكن ان نضيف اعتبارات اخرى ذات قيمة منها ان الازدواجية قد تكون صدمـة تظهر آثارها مثلا بنوع من التمتمة لدى الازدواجيين كما ان الطفل اذا ما مارس لغة ذات اعتزاز قــد ينفر عن اللغة الثانية ، مما يؤدى الى شيء مـن عدم الاستقرار يعبر عنـــه بالمركب • وتوضح الاحصائيات ببلاد الغال ما يتبع الازدواجية مـن الصعوبة لدى الطفل غير الموهوب ، ولا غرو ان هناك حملا اضافيا لا يمكن الطفل أن يتحمله ••» •

* * *

لا اود ان يفهم من هذا كله اننا ضد اللغـات الاجنبية ، او اننا نريد غـــلق الابواب والنوافذ عن نسيم الثقافة العالمية • فهذا ما لا يقول بـــه عاقل • لكن الازدواجية المضرة والخطيرة فى رأيى انما تتمثل فى ذلك الانفصام بين الفكر والحيـاة الوطنية فى جميع ابعادها • فالفكر هـو حصيلة التفاعل الحي بين عناصـــر الثقافة والشخصية وظروف البيئة المحلية وحركة التطور الاجتماعى والنفسى ولن يتم ذلك الا باللغة الوطنية • هذا من الناحية النظرية • ومن الناحية العملية فالازدواجية يعنى ان اللغة الوطنية تدخـــل فى مسابقة غير متكافئة • وكلنا نعلـــم ان العربية اذ تدخل هذا السباق وهى ما تزال مثقلة بأوزار عهود الانحطاط والجمود •• وفى وسط يعيش حالـــة استلاب ثقافى وحضارى ستخسر السباق •

ورأيى الخاص ، ان ظاهرة الازدواجية ينبغى ان ننظر اليها على انها مرحلة من مراحل التطور ، وأنها تدخل فى حركة جدلية واسعة الابعاد • فاذا كانت المرحلة الاولى هى مرحلة الانعزال ، والمرحلة الثانية هى مرحلة التفتح على الفكر العالمى مع

تجاهل الثقافة الوطنية او التنكر لها· فان المرحلة الثالثة ــ ونامل ان نكون في بدايتها ــ هي الرجوع الى الثقافة الوطنية بروح ومفاهيم جديدة ·

* * *

واما القضية الاخرى التى تثار من خلال هذا الحوار حـــول التعريب ، فهي قضـــية العامية والفصحى· وهذه القضية قديمة ووقع حولها نقاش واسع في المشـــرق العربي خاصة· وكان انيس فريحه مثلا يقول : « ان العربية ليست لغة الكلام فلا يرجى منها ان تعبر عن الحياة الواقعية كمـا تستطيعه العامية· والدليل ظاهر ، فانك لا تستطيع ان تقول بالفصحى ما تقوله بالعامية· واذا نقلته الى الفصحى اتى جافا ، قاسيا ، خلوا من العنصر الانساني » · وما يزال الحوار حول هذه المسالة حتى الآن ·

والواقع ان ظاهرة العامية ليست ظاهرة تنفرد بها اللغة العربية ، فقد عرفتها كل اللغات تقريبا · ووقائع التجارب الآن على مستوى العالم العربي تؤكد ان نشر التعليم ، وتعميم الثقافة بالوسائل التقنية الحديثة ، ومبادرة بعض البلدان ، ومن بينها الجـــزائر ، الى تفصيح كثير من المفردات الدارجة ونشاطات المعاهد اللغوية والمجامع في البلاد العربية · كل ذلك من شانه ان يوفر الجو الطبيعي لســـيادة الفصحى لتكون لغـــة الحياة اليومية والثقافـــة ·

* * *

اما المسالة الاخرى التى تثار ايضا فهي ادعاء البعض ان التعريب يؤدي الى انخفاض المستوى· ومع اقراري بهذا الضعف· فهو ليس وقفا عـلى الاقسام المعربة ، فهو ضعف عام متجانس نجـده ايضا في الاقسام غير العربية· وكان ينبغي ــ لو توفر الشعور الوطني والارادة الثورية ــ ان يدرس هذا الضعف بهدف تجاوزه لا ان يكون تبريرا لتخريب التعريب ·

واما القول بان المعربين عاجزون· فيمكن الرد عليه باننا منـذ الاستقلال وكل امورنا الادارية والثقافية والعمرانية وغيرها بايدي هؤلاء· فاي اصلاح ادخلوه على حياتنا· انهم كما قال الاستاذ عبد الله شريط في مقال له عن هذا الموضوع · مكبلون بالقيود الفرنسية· واقفلوا جميع النوافذ المطلة على النماذج الانسانية الاخرى · واقـول ايضا ان هذا العجز قاسم مشترك بين الجميع · واذا كان هناك فـــرق فهو في درجـــة الوطنية والاعتزاز الوطني فقط ·

* * *

اما المســـالة الاخرى فهو ادعاء البعض ممن ينتسبون زورا الى التقدمية· ان التعريب شعار ترفعه الرجعية في هذا الظـــرف بالذات لتغطية قضية الثـــورة الزراعية· وان التـــعريب ردة شوفينية ·

اقول لهؤلاء ان التعريب ليس هذا او ذاك · انه في احدى وجوهه مشكل صـــراع طبقي بين الاغلبية الساحقة ، وبين الاقلية المتعلمة باللغـة الاجنبية· وان تحليل الاصول الاجتماعية لكـلا العنصرين يوضح من يقف فعلا ضـــد جميـــع الاختيارات الاساسية للثورة ومن بينها الثـورة الزراعية· ولا شـــك بناء على هذا التحليل ان المعربين ومعهـم الجماهير الشعبية العريضة لا يوجد أي تناقض بينهم وبين الثورة الزراعية · هذا مـــن الناحية النظرية المنطقية· ومـــن الناحية التاريخية ، وبتتبع ســـير حركة التحرر الوطني الجزائري يتبين لنا ان الريف كان الوعـاء الذي

حمي الثقافة العربية الاسلامية من التلاشي. وهذا التلاحم بين الفلاحين وكل الفئات الكادحة والثقافة الوطنية هو الذي يفسر العمق الخلقي للثورة الجزائرية الذي يتألف من كلمتين : الارض واللغة.

والريف بعد ان انتزعت منه الارض تحول الى قلعة حصينة قاومت عملية المسخ الثقافي . فهناك اذن امتزاج عضوي بين النضال من اجل استعادة الارض ومقومات الامة وفي طليعتها اللغة. وهذا الامتزاج هو الاساس الايديولوجي للثورة الجزائرية .

ولنا ان نتساءل : من هم المتحمسون للتعريب والثقافة الوطنية ككل ، ومنهم المعارضون له ؟ ان الرغبة في تعلم اللغة الوطنية موجودة بصورة واضحة بين الجماهير الشعبية الواسعة. اما المعارضون فهم الاقلية التي تسيطر وتملك جميع ادوات السلطة الحقيقية .

وادعو هؤلاء الى تامل التحول الاجتماعي في بلادنا منذ الاستقلال حتى الآن . فسيجدون ان هذه الطبقة الثقافية تتحول شيئا فشيئا الى طبقة لها امتيازات اقتصادية واجتماعية متناقضة مع مصالح الجماهير الشعبية .

والواقع ان الصراع حول وضع اللغة والثقافة الوطنية ومستقبلها لا يضع في مقدمة المواجهة هذه الطبقة البيروقراطية والجماهير الشعبية فحسب ، ولكنه يضع ايضا قمة الدولة باعتبارها المعبرة عن اهداف الثورة .

فاحتكار هذه الاقلية لجميع السلط الادارية وغيرها يقف وراء التعثر في حركة التعريب الى درجة ان بعض الآباء اصبحوا يحتجون عندما يعين ابناؤهم في الاقسام المعربة. ويقولون كانت الفرنسية في العهد الاستعماري لغة الخبز والحياة واليوم هي كذلك . فلماذا نحرم ابنائنا ؟

صحيح انه يوجد من بين المعربين من له اتجاه او موقف ايديولوجي مخالف . ولكنه يوجد ايضا منهم متحمسون لاختيارات الثورة ، ونفس الظاهرة تلاحظ بالنسبة لغير المعربين .

واما مسالة اثارة موضوع التعريب في هذا الظرف ، ظرف معركة الثورة الزراعية واعتباره تشويشا لسير هذه المعركة. فتاويل ساذج. ولو درسوا بالعمق تاريخ انطلاق الحركات الاشتراكية في العالم لتوصلوا الى نتائج مهمة تساعدهم على انضاج ثقافتهم . ان اول قضية بادر لينين بعد انتصار الثورة هو اصلاح اللغة الروسية لا استبدالها بلغة اخرى . وانه في سنوات المجاعة كان لينين يتحدث ويعبيء الجهود للقضاء على الامية ولم ير اي تعارض بين تعليم اللغة الروسية لأفراد شعبه وبين استمرار تطبيق الاشتراكية . ويقول لينين : « شعب يعتمد في حياته الفكرية والثقافية على لغة اجنبية لن يتمكن ابدا من التحرر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. لان اللغة الاجنبية ستبقى وقفا على طائفة ذات امتيازات ثقافية. ومن ثم تؤول الى امتيازات اقتصادية واجتماعية وسياسية .

وكان هدف الحزب الشيوعي الفيتنامي منذ الايام الاولى لتاسيسه اعادة الاعتبار للغة الوطنية والعمل من اجل سيادتها . يقول السيد نغوين فان هوين : كان الحزب منذ تاسيسه الاول يصدر قراراته وتوجيهاته ومنشوراته ونداءاته باللغة الفيتنامية . وكانت القضايا العقائدية والسياسية تقدم بلغة الشعب. صدرت كتب عن الماركسية باللينينية وحررت في مرحلة الكفاح السري

باللغة الفيتنامية وانتشرت فى جميع انحاء الوطن واثرت تاثيرا عميقا على مختلف طبقات الشعب» ·

فهل نتهم لينين والشيوعيين الفيتناميين عندما يــؤكدون على دور اللغــة الوطنية بالشوفينية والرجعية ؟ ان الخطر الحقيقى ليس هو التعريب بالنسبة للثورة الاشتراكية · وانما الخطــر فى هذه الظاهرة : وهى اننا فى ظرف عشر سنوات انتشرت اللغة الفرنسية على نطاق لم يصل اليه الاحتلال الفرنسى طيلة حكمه الطويل ، وان عدد الكتب الفرنسية ـ ونقتطف هنا بعض ما جاء فى تصــريح للوزير الفرنسى السابق رونى بورون عارض به ريموند كرطى فى ندوة تليفيزيونية حيث ذكر ان عدد الكتب المستوردة من فرنسا بالنسبة للجزائر ، هو خمسة اضعافها سنة ١٩٦١ · وما نتج وينتج عن هذا من نزوع محموم نحو التقليد واعتبــار النموذج الغــربى الراسمالى اعلى المستويات الثقافية والحضارية ·

ونلاحظ بازاء هذا ذلك التقتير المقصود فيمــا يتعلق باستيراد الكتاب العربى وما ينشا عن ذلك من مضاعفات على حركة التعريب ·

وهنا نتساءل اليس انتشار ما يسمونه انفسهم ، بالثقافة الغربية الراسمالية عن هذا الطريق وغيره هو الذى يهدد نجاح الاشتراكية ؟ ! ومع ذلك لم نشاهد هؤلاء يتخذون اى موقف تجاه هذا الخطر·

* * *

ينبغى ان تقف هذه المزايدة والثرثرات العقيمة البعيدة عن الواقع الموضوعى للجماهير الشعبية ، هذه الشعارات التى تخــدع بردائها الثورى الظاهرى ، وتخفى فى طياتها خواء الفكر والبعد عن الواقع· ووضع المسالة على وضعها الصحيح وهو ان التعريب يعنى : ثقافة وطنية بلغة وطنية وعلى اسس شعبية ثورية ·

واملنا اخيرا ان نعمل جميعا على تطوير اللغة الوطنية بحيث تحقق شرطين : ان تحافظ عــلى عبقريتها اولا · وان تكون اداة للتوصيل والابلاغ لا مجرد وسيلة للترنم بها · وبهذا ندخل مــع الانسانية عصــر التفكير العلمى الذى يواجه المشكــلات ·

عثمــان شبـوب

على هامش المؤتمر الثانى للتعريب

نحو خطة شاملة لتطوير اللغة العربية



عبد الحميد مهرى
الامين العام لوزارة
التعليم الابتدائى والثانوى

لعل أهم ما نستخلصه من مناقشات المؤتمر الثانى للتعريب وتوصياته هو الشعور المتزايد لدى المشاركين فيه بالحاجة الى خطة شاملة ودقيقة تنظم الجهود التى تبذل لتطوير اللغة العربية ٠

فقد لمس الجميع مدى التخبط الذى ينجم عن فقدان مثل هذه الخطة فى كل قضية من القضايا التى تناولها البحث فى المؤتمر ٠ واذا كان المؤتمرون قد عبروا ، أكثر من مرة ، عن تقديرهم للجهود التى بذلتها الهيئات العلمية العربية وبعض الافذاذ من العلماء العرب لتطوير اللغة العربية العلمية والنتائج التى وصلوا اليها فانهم أدركوا بدون شك ان فقدان خطة مدروسة لتنظيم هذه الجهود فى المستوى العربى العام هو السبب فى عجز هذه الجهود عن تفجير ثورة لغوية ترقى الى مستوى طموح المجتمع العربى المعاصر وتطلعاته ٠

وقد ساعد تقلص بعض الافكار السلبية (مثل انعكاس التمزق السياسى على العمل اللغـوى والاتكال على اصالة اللغة لتضمن تطورها ، وضعف الايمان بضرورة العمل العربى المشترك الخ ...) فى هذا المؤتمر ، على الاقتناع بامكانية وضع خطة للعمل فى المستوى العربى العام . فاندفـع المؤتمرون لتقديم مقترحات بناءة ضمن بعضها فى التوصيات الاخيرة . وهذه نتيجة ايجابية الى ابعد الحدود اذا وجدت من المسؤولين فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب تنسيق التعريب من يتعهدها بالرعاية والتطبيق .

ولكن تصور هذه الخطة لم يتحدد بعد بما فيه الكفاية ، وليس على المؤتمر فى هذا لوم . لان هذا الموضوع لم يكن مندرجا اساسا فى جدول اعماله. كما انه من الصعب ان نزعم بان المؤتمرين خرجوا بتصور موحد لهذه الخطة بالرغم من طابع الشمول الذى اتسمت به التوصية الاخيرة .

وقد يكون من المفيد ان نجمل عناصر هذه الخطة كما برزت من خلال توصيات المؤتمر ومناقشاته ومن اللقاءات الخاصة التى جمعت بين المؤتمرين حتى يستقر النقاش حولها بعد المؤتمـر وحتى يشترك فى هذا النقاش عدد اكبر من المهتمـين بقضايا اللغة العربية وهذا مما يساعد حتما على بلورة هذه العناصر وترتيبها حسب اهميتها . ولهذا فان الترتيب الذى نورد فيه هذه العناصر لا يتضمن حكما بالاولوية بل هو مجرد سردلقضايا كلية تتداخل فى بعض الاحيان حتىليصعب عزلها عن بعضها . وهذه العناصر ، كما يبدو لى ، هى :

اولا : ان العمل الذى يبذل الآن لتطوير اللغة العـربية العلمية غـير كاف من الناحية الكمية ومن الضرورى ايجاد طرق جديدة لعمل الهيئات القائمة واشتراك هيئات اخرى فى هذه المهمـة لسد هذا العجز الكمى .

ان المجامـع العربيـة الثلاثـة فى القـاهرة وبغـداد ودمشق قامت بجهـود كبـيرة لملاحقة ركب العلـم ولكـن التنسيـق بينهـا مـن جهـة وبينهـا وبـين بعض الجامعات والهيئات التى اهتمت بالمصطلحات العلمية كان غير كاف وقد تاتى هذه الجهود بنتائج اكبر لو اضطلعت جميع الهيئات التى تستعمل اللغة العربيـة فى العمل والتدريس بالاسهام فى وضع المصطلحات وقام بينها وبين المجامع حوار دائم ومنظم تتولى فيه المجامع مهمة الاشراف والقيادة ويمكن مـن وضع المصطلحات وتحقيقهاوتجربتها فى مستويات مختلفة من مسار ينطلق من المجامع ويعود اليها ويشارك فيه المجمعيون والممارسون للغة العلميـة جميعا . ويمكن ان يقوم بهذه المهمة فى الاقطار العربية التى ليس فيها مجامع اما بعض الجامعات المهيئة لهذا العمل او هيئات خاصة تنشا لهـذا الغرض . وبهذه التغطية الشاملة للاقطار العربية يمكن ان نضمن تنسيقا ديناميا ومثمرا فىالمستوى القطرى . اما التنسيق على المستوى العربى العام فتتولاه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بواسطة مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى واعانة اتحاد المجامع والجامعات العربية . وهـذا العمل يستلزم ان تخصص المنظمة فى برامـج نشاطها جزءا اكبر لندوات التعريب ومؤتمراته

وان يعطى مكتب التعريب ـ وهو الجهاز المتخصص للمنظمة ـ من الوسائل البشرية والمادية والتقنية ما يمكنه من تحضير هـذه الندوات والمؤتمرات تحضيرا دقيقا من الناحيتين العلمية والمادية . والتنسيق فى المستوى العربى العام يمكن ان يتم عن طريق العمل المشترك بين الهيئات وداخل الندوات والمؤتمرات كما يمكن ان يتم بتوزيع العمل بين الاقطار والهيئات العربية للاستفادة من جميع امكانيات العالم العربى وكفاءاته .

ثانيا : ان اثراء اللغة العربيـة بمصطلحات العلم الحديث لا يمثل الا جانبا هاما من قضيـة متعددة الجوانب ، بل انه لا يمثل كـل البحث والعمل المعجمى التى ما زالت اللغة العربيـة فى حاجة اليه . واستئثار هذا الجانب بالاهتمام ووضعه فى مصاف الاولويات له مبرراته الفكرية والعلمية . ولكن حل قضية المصطلحات العلمية حلا جذريا لا يمكن ان يتم بمعزل عن حلـول بقية المشاكل الحقيقية او الوهمية التى تعـوق تطور اللغة العربية . ولعل المشاكل الحقيقية ـ فى هـذا الميدان ـ تكون اسهل علاجا من المشاكل الوهمية .

ولهذا فمن الضرورى ان يغطى البحثوالتجربة جميع هذه المشاكل وان تحاط الجهود المبذولـة بالجد العلمى والتنسيق الواعى الذى يخرجهـا من طور المحاولات الى ميدان البحث المخطـط الطويل النفس ومن الجهود الفردية المتقطعة الى العمل الجماعى المنظم .

فالجامعات العربية مدعوة للتوسع فى تدريس اللسانيات الحديثة لتخريج الاطارات اللازمة فى مختلف التخصصات ووزارات التـربية مدعوة لاقامة مراكز بحوث للدراسات اللسانية التربوية واللسانية النفسية ، تعمل باتصال مع الجامعات من جهة ومع المربين والمدرسين من جهة اخرى . فقضية الكتابة العربية مثلا وقضية القـواعد العربية ، وقضية الرصيد اللغوى الاساسى ، لا يمكن حلها الا باسهام منظم من وزارات التربية فى البلاد العربية .

ومن الضرورى ان نواجه مشاكل اللغة العربية بشىءمن الحرص والحزم فليس لدينا الوقت كله لحل هذه المشاكل بل اننا مدعوون لاحكام الاداة اللغوية التى ليست الا وسيلة لتحقيق ثـورة ثقافية وعلمية عميقة الجذور باسقة الافنان .

ثالثا : ضرورة وضع سياسة عربية موحدة فى أعـلى المستويات للتوسع فى استعمـال اللغة العربية فى الداخل ونشرها فى الخارج . وهـذه النقطة الهامة لم تكن موضوع نقاش فى المؤتمـر ولكنها كانت تخيم على هذا النقاش كلما ابتعد عن الجوانب التقنية البحتة واقترب من تحليـل الوضع اللغوى السائد فى الوطن العربى . وقد مكن لقاء رؤساء الوفود مع الرئيس بومدين مـن طرح هذه القضية فى آخر جلساتالمؤتمر وافرادها بتوصية خاصة نرجو ان تكون لها نتائجها المرجوة

والواقع ان تطوير اللغة العربية لا يمكن ان يتم الا ضمن سياسة لغوية سليمة ومهما كان حرصنا

على التقيد بالمنهجية العلمية فى عملنا اللغــوى فان ذلك لا يعوض فقدان سياسة لغوية سليمة ولا يصحح من باب الاحرى، سياسة لغوية خاطئة. ان اغلب الحكومـات العربيـــة تنتظـــر مـــن المجامـع والهيئات العلمية القيام بمهمة تطوير اللغة العربية ولا يظهر انها تشعر بضرورة القيام بشيء آخر . والواقع ان عمل العلماء لا يمكن ان يأتى بنتائج حاسمة فى هذا الميدان الا اذا قامت السلطة السياسية برسم الطريق أو على الاقل بازالة بعض المتناقضات الصارخة التى ظلت تواكب السياسة اللغوية فى معظم الاقطار العربيـــة منـــذ عشرات السنين : مثل تكليف المجامع بتطوير اللغة العربية العلمية والاستمرار فى تدريس العلوم باللغات الاجنبية فى الجامعات ! فحرمان اللغة العلميـــة الموضوعة من طرف المجامع والهيئات العلمية من الاستعمال فى ميدانها الطبيعى هو قضاء عليهـا وقضاء على جهود المجامع بالعقم .

وقد حان الوقت على ما اعتقد لتصحيح هـــذا الخطأ الاستراتيجى فى سياستنا اللغوية ونبـــذ الفكرة القائلة بتأجيل استعمال اللغة العربية فى تدريس العلوم حتى تتأهل لذلك . اذ يكـــون معنى هذا ان اللغة العربية التى أصابها القصور لبعدها عن مواكبة العلم سوف يستقيم امرها اذا أبقيت بعيدة عنه عشر سنوات أو عشرين سنة أخرى .

وهناك ظاهرة أخرى تتصل بمكانـــة اللغـــة العربية فى العالم ، فالمنطقة الحضارية العربية من أكثر المناطق اقبالا على دراسة اللغات الاجنبية وفى هذا الخير كل الخير اذا سلمت النيات . ولكن حظ اللغة العربية ضئيل بين اللغات الاجنبية فى هذه الدول التى تحتل لغاتها مكانة ممتازة فى بلادنا . بحيث أدى هذا الاختلال الخطير الى عكس ما يرمى اليه الفلاسفة من تشجيع دراسة اللغات الاجنبية وهى زيادة التفاهم بـين الشعوب والحضارات ، أدى هذا الاختلال الى فهم من جانب واحد وسوء فهم – على الاقل – من الجانب الآخر .

ان هذه القضايا كلهـــا يجب ان تبحث فى مستويات عربية عليا وان ما يصدر فيها من قرارات وتوجيهات سيجعل عمل العلماء يسيرا فى المؤتمرات المقبلـــة .

التعـريب قضيــة ارادة ثــوريــة



د.بوعلام بن حمودة
وزير العدل
وحامل الاختام

حينما قررنا التعريب الشامل فى القضـاء ، اودنا ان نجاوز الجدال العقيم الذى كان يـدور منذ الاستقلال حول مسالة التعريب - فقد اطلعنا على عدة مقالات ناتجة عن هذا الجدال : فالبعض منها ابدى تحمسا للتعـريب والبعض الاخر لفت الانظار الى الصعوبات التى ستنجم عن تعـريب سريع بيد ان اناسا فضـلوا الاحتفاظ باللغـة الفرنسية لانهم يعتبرون اللغة كاداة للتعبير فقط والمهم عندهم هو المحتوى .

لقد اتيحت لنا فرصة الاطلاع على المجهودات الكبيرة التى بذلتها وزارة العدل لتطبيق التعريب بشكل علمى منظم . من ذلـك تاسيس مطبعتين بالعربية احداهما فى سجن الحراش والاخرى بالدار البيضاء لطبع الاوراق الادارية المستعملة يوميا باللغة العربية وتنظيم محاضرات يومية ودورية وباللغة العربية لتكوين واعادة تكوين القضاة وتعليم اللغة العربية بوسائل عصريـة نامل مـن المؤسسات والمصالح الادارية وغيرها الاستفادة من هذه التجربة. و الواقع ان تجربة وزارة العدل تعتبر رائدة . وتستحق تحقيقا خاصا سنقوم به فى احد اعدادنا القادمة

طال الجدال اذا ولكن بدون جدوى حتى مـل المحررون من الحديث عن التعريب وحتى ضجر القراء من مطالعة دراسات متصلة بالموضوع ٠

ونحن نقول ان بعض المبادىء الاساسية لا تقبل الجدال مثل مـبدأ الحـرية والاستقلال ومـبدأ الاعتزاز بمميزات الشخصية الوطنية ٠ فما كان علينا الا ان ننطلق من الحقيقة التاريخية الثابتـة وهى ان الجزائر تنتمى الى العروبة والاسـلام وان لغتها كانت عـربية حين احتلتها الجيوش الاستعمارية ٠

فكان من المفروض ان نعود الى لغتنا بمجرد الحصول على الاستقلال ٠ واننى اعتقد شخصيا ان الشعب الجزائرى ، لو قررنا التعريب الكامل فى ١٩٦٢ لاعتبر قرارا مثل هذا طبيعيا ولتكيف مع الوضع الجديد ٠

كما عرف كيف يواجه مشاكل الفراغ الادارى وقد بينت لنا التجـربة ان الخطـوة الاولى هى الحاسمة : فاذا كان الايمان قويا فلا شىء يوقف السير والمثال الحى الذى ياتى الى اذهاننا هـو اندلاع ثورة اول نوفمبر الذى تحقق بقلة اسلحـة وقلة رجال ولكن الشروع فى المعركة المقدسـة فجـر الطاقات وحنك المناضلين حتى اصبحـوا قادرين على حـل مشاكل لم يكونوا يتصورونها قبل بداية الثـورة ٠

فايماننا منا بان التعريب الكامل ضرورة حتمية يؤكد عليها برنامجنا الثورى ، شرعنا فى العملية بدون تردد ٠

وقد كنا نعلـم ان التعريب الشامل والمفاجىء سيطرح مشاكل وقد طرحها ولكن كنا نعلم ايضـا ان الانسان قادر على التكيف السريع امام امـر لا رجوع فيه ٠ وهنا تذكرنا قول طارق بن زياد لجنوده « العدو امامنا والبحر وراءنـا فاختاروا أيهما شئتم » واحراقه للسفن الحربية عبارة عن قطع كل وسيلة للرجوع وعن سد الذرائع٠

ونحن نعتـرف بان قرارنا كان يتصف بشىء من المغامرة غير انه ادخل فى الحسبان وجـود ثلث القضاة معربين ووجود ١٠ فى المئـة من الكتاب معربين واخذ بعين الاعتبار التعريب الذى كان قد تم فى فرع الاحوال الشخصية وفى ولايتى بشار والواحات٠ وعلاوة على ذلك حسبنا حسابا لنجاعة الوسائل السمعية البصرية التى تستطيع ان ترفع المستوى اللغوى فى ظرف قصير مـن الوقت ٠

فما كانت اثار القـرار وما هى الحالة التى خلفها وكيف تطورت ؟

من الناحية النفسانية احدث القـرار تخوفا واضطرابا عند البعض وامالا كبارا عند البعض الآخـر ٠

ولكن بعد أيام من الدهشة وبعد ان تيقن الكل من ان الامر لا مرد له ، بدانا نرى الناس يالفون الوضع الجديد ويبتدعون وسائل مختلفة لتطبيق القرار ولتحسين مستواهم فى اللغة العـربية ، وبالفعـل اكتشفنا ان بعض القضـاة والموظفين والمحامين تعاطوا دراسة العربية لاول مرة مـنذ الاستقلال وهذه الملاحظة تبين ان عامل الزمـن الذى يعتمد عليه البعض لتحقيق التعريب لم يكن كافيا اذا لم تخط الخطوة الاولى فى العملية ٠

ولتشجيع حـرص الجميع على تعلم اللغـة العربية نظمنا دروسا فى الوزارة وفى كل محكمة وانشانا مركزا خاصا دوره التكوين المهنى وتعميق المعلومات فى اللغة العربية (وهذا المركز المعرب

تماما فتح ابوابه فى سنة ١٩٧٣ واستقبل خمسين قاضيا وخمسين كاتبا لمدة ثلاثة اشهر) ٠

وقرار التعريب اضطر الوزارة ، لحسن الحظ ، الى اتخاذ تدابير سريعة منها :

ــ تكوين سريع للكتاب على الآلـة الراقنة ، (والجدير بالذكر ان الآلات التى اشترتها الوزارة تحتوى على الحركات لان الاحكام التى تصـدر مشكولة تزداد وضوحا عند المواطنين) ٠

ــ اعــادة النظـر فى مئـات المطبـوعات والاستمارات التى كانت تستعمل باللغة الفرنسية فحددنا برنامجا واسعا لطبـع هذه الاستمارات بالعربية فقط لاننا لاحظنا ان الموظفين يملؤونها بالفرنسية اذا كانت مطبوعة باللغتين ٠

ــ الشروع فى عملية كبيرة وهى طبع القوانين الهامة ومجموعة المناشير والاحكام الهامة التى صدرت منذ الاستقلال لتكون فى متناول الجميع٠

ولتجنب الاختـلاف فى المصطلحات القانونية جمعناها فى قاموس صغـير وزع على القضاة والمحامين ٠

فالعملية ضخمـة لان عدد انواع الاستمارات ٦٠٠ تقريبا وكل استمارة تستخرج منها مئـات الآلاف من النسخ ٠

فكذلك عدد القوانين التى صدرت منذ الاستقلال كبـير وسيرتفع جدا اذ ان الجـزائر قررت ان تتخلص من التشـريع الفرنسى فى ٥ جـوليت ١٩٧٥ ، ومشكل اليد العاملة فى المطبعة لم يطرح لان عملية التعريب صادفت تطبيق مشروع آخـر يهدف الى تـربية المسجونين وتثقيفهم وتكوينهم ، وتشغيلهم فاستخدمناهم فى المطبعة التابعـة لوزارة العدل وقوينا هذه المطبعة ماديا وبشـريا وهى عبارة الآن عن مصنع كبير ٠

كل المجهودات الفعلية التى بذلتها وزارة العدل قطعت على الناس كل الاعذار ، غير اننا لا ننكر الصعوبات التى واجهناها وذللنا الكثير منها ٠

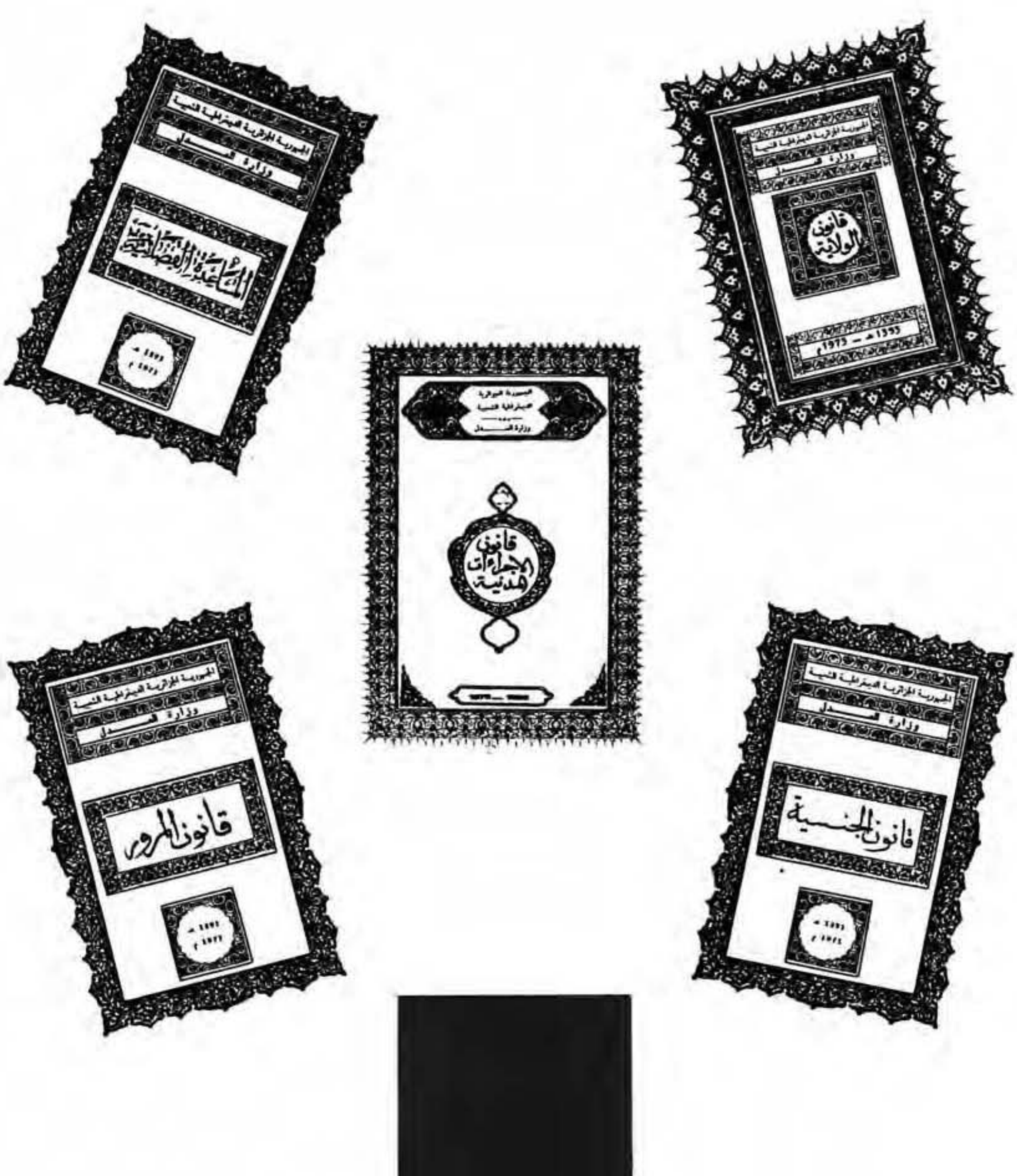
ولاعطاء صورة عن بعض الصعوبات نذكـر مـا يلي :

ــ لقد حاولت قلة من الناس عرقلة تطبيق القرار بعدة وسائل ولكنها لم تنجح ٠

لقد حاول محامى فرنسى مثـلا ان يرافـع بالفرنسية فى اليوم الاول من دخول القرار حيـز التنفيذ ، فلله در القاضى الذى اسكته قائـلا : اننى لا افهم لغتك الفرنسية فاذا اردت ان تـرافع فتكلم باللغة العربية كما نصـت عليه تعليمات الوزارة والا فاننى اطلب منك الانسحاب من قاعة الجلسات ٠

ــ مثال آخر ، تباطا بعض القضاة فى ممارسة المناقشات العلانية بالعربية فارسلنا اليهم انذارا يطلب منهم ان يطبقوا فورا تعليمات الوزارة والا الحقنا بهم العقوبات التى يوقعها قانون الوظيف العمومى على كل موظف يعصى اوامر رؤسائه ، فبعد هذا التهديد امتثلوا للامر ٠

ــ وقد طلب منـا محامون اتـوا من فرنسا للمرافعة فى قضايا تمس مواطنيهم الاعفاء مـن الدفاع بالعربية فرفضنا طبعا منبهين اياهم اننـا لا نظن ان محكمة فرنسية تقبل من محام عـربى ان يرافع بلغته ٠



(*) نماذج من المعاجم التى اصدرتها وزارة العدل لمساعدة القضاة والمحامين
على استعمال المصطلحات العربية.

بيانة (1)		إعلان بسابق قضائي
(1) النيابة العامة بـ ... أو نيابة وكيل الدولة بـ ...	جنائي رقم	نوع الجنايات، الجنح أو المخالفات
الشهود (ش)، المجنى عليهم (م)، المدعون المدنيون (م.م) (2)		المتهمون (2)
(2) الأسماء والألقاب وأعمارهم ومهنهم ومحل إقامتهم		المسؤولون مدنياً (2)

لي الشرف أن أحيطكم علماً بأن القضية المبينة أعلاه

☐ رتبت بدون تتبع

☐ موضوع التتبع أمام

بجلسة 19

☐ موضوع حكم بتاريخ 19

ابتدائياً أو نهائياً يتلخص كما مقابلة (5)

(5) شخص الحكم :

مجلس قضاء :

محكمة

الحلت دعوة طرفي الخصومة للحضور إلى يوم

على الساعة الثامنة والنصف صباحاً وذلك للبت في أصل الدعوى

وفي هذا التاريخ نودي على القضية المسجلة في الجدول العام

لقضاء

إن المحكمة

حيث أن

و

تزوجا بتاريخ وسجل زواجهما

بسجل الحالة المدنية لبلدية

وولد لهما أولاد

عن الطلب الأصلي المتعلق ب

حيث أن

وعن طلب الاعتراض .

حيث أن

وعن الحضانة وحق الزيارة

حيث أن

(*) وهذه بعض الاوراق الادارية المتداولة وهي معربة تماما.

هذه امثلة تبين المحاولات التى كانت ترمى الى عرقلة القرار او تـأجيل مفعوله والتى لم يقض عليها الا بالحزم الذى وجدته لدينا ·

ـ نـوع آخر من الصعوبات ، الادارات التى تتصل بوزارة العـدل ما زالت تعمل بالفرنسية فيضطـر القاضى الى ترجمتها وهذا تضييـع للوقت ·

ـ وفى بعض المحاكم تم التعريب الكامل بسبب وجود قضاة وكتاب يحسنون العربية ولكن فى بعض المحاكم نجد قضاة ضعفاء فى اللغة العربية وكتاب يحسنونها او العكـس ، فحاولنا بقـدر الامكان اصـلاح هذه الوضيعة بقرارات التبديل وبالتكوين المستمر الذى ذكرته فى بداية المقال ·

ـ ومن الصعوبات ايضا ما هو ناتج عن ترجمة الاحكام من العربية الى الفرنسية : فلتسهيل فهم الاحكام وتنفيذها قررنا ان نتبعها بترجمة فرنسية·

ونظـرا لتضييع الوقت اكتفينا بترجمة منطوق الحكم فقط وهو قصير عادة ·

فهكذا اجتهدنا ولاءمنا تدابيرنا مع سير العملية فالان كل التعليمات التى تحكم العملية صـدرت من الوزارة وشرحت مرات فى اجتماعات عقدناها فى الوزارة او فى الولايات ·

وكم كان سرورنا شديدا اذ وجدنا محاكم عربت اشغالها مئة فى المئة ومحاكم اخرى ساعية كـل السعي الى تعريب كامل الفروع ·

ونستطيع القول بـان وزارة العدل فى ميدان التعريب قطعت المرحلة الحاسمة ، فبالقضاء على الصعوبات الباقية وبالتزام اليقظة الدائمة ستصل لا محالة الى النجاح فى العملية التى كانت تعتبر مغامرة ولكن المغامرة اذا كانت فى سبيل الوطن وفى سبـيل استرجاع لغتـه فهى مقبولة بـل مستوجبة ·

التعريب من الوجهتين الاجتماعيّة والسّياسيّة



عبدالمجيد مزيان
كلية الآداب
جامعة الجزائر

« لم يبعث الله نبيا الا بلغة قومه »
حديث

١) ملابسات « التحول الثقافى »

توجد فى كثير من بلاد العالم الثالث اليوم طوائف من المثقفين لقنت النقد الذاتى من مرايا مشوهة تعكس لهم وجوههم فى ابشع الصور وحسب الرسوم التى يرسمها لهم مستعمروهم القدماء ، وينتج عن هذا التشويه أنهم كرهوا صورتهم اشد الكراهية وأرادوا استعارة وجه جديد.

اعطنى صورتك اقتنع بها ، اعطنى دماغك افكر به ، اعطنى يدك اعمل بها ، اعطنى لسانك اتكلم به » • لو سمعنا انسانا ينطق بهذه العبارات لقلنا انه يهذى ، اننا تعودنا فى لساننا العربى ان نسمى هذيان الطائفة الاجتماعية استلابا واغترابا• ان المجتمع المسلوب الثقافة يشابه الشخص المسلوب العقل ، والاغتراب الاكبر هو ان تغرب عن قومك فيجدونك تتكلم معهم بلسان الآخرين• والافراط فى الجنون والاستلاب هو ان تقول لقومك اغتربوا جميعا حتى تصيروا مثلى لانني بخير •

لقد اصبح المفكر السياسى الذى يدعو الى تفتيت الوطنيات من أجل عالمية مثالية يشابه الممثل الهزلى ، ما دام الناس يعلمون ان تفتيت وطنية ، ان فرضنا وقوعه ، يؤدى حتما الى الذوبان فى وطنية أخرى أشد قوة •

وهذا شأن دعاة الثقافة العالمية اليوم ، يتصورونها خياليا ولا يلتمسونها واقعيا الا فى الثقافات الوطنية المسيطرة : فى الانجليزية ، وفى الفرنسية مثلا• ان التحول الثقافى بناء على هذا الاعتبار تحول كاذب من الوطنية الى العالمية ، بل هو مجرد تحول من وطنية الى وطنية اشد قوة ، ومثال من يدعو الى هذا التحول مثال الانسان المسلوب العقل الذى يفكر بدماغ الآخرين وينطق بلسان الآخرين• من الملابسة ان يقول المرء ان الانفتاح على العالم والاقلاع عن التخلف يقتضى الاخذ بالعلم والتكنولوجيا بكل اسراع ، وثقافتنا ولغتنا لا تسعان هذا العالم الضخم فلنأخذه من عند ذويه دون تردد• ان الغلط هنا هو ان لا نفرق بين ما هو علم وما ليس بعلم • ليست « العلوم الانسانية » علوما راسخة القواعد حتى الآن• انها مطايا للعقائد ومغارات للنتوحات الثقافية ، والجزء اليسير منها الذى هو علم حقيقى يمكن ان تسعه اى لغة من لغات الدنيا دون كثير عناء •

ومن الملابسة ان نقذف بلغتنا بعيدا عن وجودنا كأنها الشىء المنفصل عن كياننا ونصب عليها اللعنات فنسميها لغة القرون الوسطى ، ولغة الشعر والعاطفة، واخيرا لغة الرجعية والرجعيين• ان لغة مجتمع ما تعكس حياة هذا المجتمع بكل اخلاص فاذا قلنا ان لغتنا لغة الشعر والعاطفة فمعنى هذا ان مجتمعنا مجتمع الشعر والعاطفة• واذا قلنا وصح قولنا ، انها لغة القرون الوسطى فمعنى هذا اننا لا زلنا نعيش حياة القرون الوسطى• وبما ان اللغة ليست الا جزءا من انتاج المجتمعات ونشاطاتها فعلينا ان نلوم انفسنا عن كل عجز يلاحظ فى لغتنا ، ولا يمكن ان نتصور عزم أمة متخلفة على الاقلاع عن التخلف دون ان نتصور عزمها على محاربة الامية ودون ان نتصور عزمها على النهوض بلغتها بكل اسراع ، الا ان تكون امة تعيش اشد الاستلابات وطأة وهو الاستلاب الثقافى الذى ينبىء بالانقراض القريب •

وانه لمن الملابسة ان نقول ان التمسك باللغة الوطنية امر عاطفى اكثر مما هو عقلانى ومنهج التغلب على مظاهر التخلف لا يتطلب الا العقل البارد الصرف• واعترف اني لو سئلت لماذا احب لغتى الوطنية لوقع مني التهافت على التماس الادلة العقلية ولكنها ادلة ستغطى الواقع العميق، وهو ان حب الانسان للغته امر شعورى ولولاه ولولا شعورات اخرى مثل الاعتزاز بالوطن والتضحية من اجله ، لما كانت هناك اوطان او امم يفاخر بعضها البعض ، ولا يتجاهل هذه الحقيقة

الا المتجاهلون لاحوال المجتمعات· ولو سالنا الانجليزى والفرنسى لماذا تصرف الاموال الضخمة فى مختلف بقاع العالم من أجل التحصيل على اشعاع ثقافى للغة الانجليزية واللغة الفرنسية ، لقيل لنا : « نحن امم تحب لغاتها وتتمنى لها الانتشار فى جميع الانحاء ، ولو تناولنا بالبحث ظاهرة حرص الامم على نشر لغاتها لوجدنا ان الناحية العاطفية لا تقل اهمية فيها عن النواحى المصلحية ·

واذا كانت العاطفة شبه جريمة فى الميدان العلمى الصرف ، لانها مفسدة للبحث النزيه ، فانه من الجريمة فى ميدان التمسك بالوطن واللغة ان لا تكون هناك عاطفة او ان نلابس على انعدامها عند الامم الضعيفة باللجوء الى العقلانيات التى تبرر التحول الثقافى المهىء للذوبان ·

ونقول اخيرا ان الملابسة الكبرى فيما يتعلق بظاهرة التحول الثقافى· هى ان نتناسى تاريخية هذا التحول وارتباطه الوثيق بالاستعمار ، واذا كانت اجيالنا الحالية فى العالم الثالث تتجاهل الحقيقة البديهية التى هى تخطيطات الاستعمار فى الميدان الثقافى ، فما عليها الا ان تجرى فحصا على نفسها لتجد ان تكوينها اللاعلمى من قيم اجتماعية وخلقية ، واذواق ، يرجع معظمه وحتى الآن الى مدارس الاستعمار·

نكاد نتسائل هل نحن اليوم اكثر وعيا ام كان وعينا اقوى منذ عشرين سنة· لقد كان الضغط الاستعمارى يجرى علينا مباشرة اذ ذاك ، وكنا ننتبه بسببه الى مخططات العدو ونحاول احباطها فى أنفسنا قبل كل شىء ، وكنا نشاهد ألتفككات العميقة التى يتعرض لها مجتمعنا وندرك بالبصر واللمس الذى لا يحتاج الى التحليل ، ان امتنا مهددة بالانقراض من كل جانب ،كنا نتمسك ببقايا من ثقافتنا كآخر وسيلة للنجاة ، اما الآن وقد زال الخطر المباشر فيظهر ان انتباه الكثير منا قد عرف بعض الفتور· لقد اصبحنا نتكلم عن ثنائية الاصالة والتفتح كشعار يفهمه كل منا حسب تكوينه الحالى ، مع جهد قليل فيما يخص التأصل· ولا غرابة أننا نجد بعض المثقفين يضيقون مفهوم الاصالة لحصره فى حدود الثقافات الشعبية او لحصره فى شبه تقليد لاسلافنا مع التكاسل عن الاصالة الحقيقية التى هى الخلق والابداع الذى تتطلبه النهضة الواجبة على اجيالنا الحاضرة ·

٢) للثقافة بنياتها :

يمكننا ان نقول ان للثقافة بنياتها كما ان للمجتمع بنيات· غير ان البنيات فى الثقافة مربوطة بمعيارية لا مناص منها اذ ان هناك فروقا عظيمة بين المستويات· من اجل هذا ، لا يمكننا ان نضع كلا من الفلكلور والتكنولوجيا فى نفس المستوى ·

وان الانتباه الى تاريخية الوضع الثقافى منذ اتصالنا بالاستعمار يجعلنا نشاهد أن معظم مجتمعاتنا فى العالم الثالث قد توضحت فيها الفوارق بين البنيات الثقافية ، فثقافة المستعمر تعتبر البنية العليا او تاج الثقافة عند الاجيال الحاضرة ، وانعكاس هذه الوضعية على الحياة المجتمعية يجعل بطبيعة الحال ، هذه الثقافة فى قمة الهرم المجتمعى ، ولا عجب ان تكون بيرقراطياتنا وثقنوقراطياتنا ذات جذور استعمارية فى غالب الاحيان اما الثقافة الوطنية فانها بمثابة ألبنية ألوسطى ، وهى قبل كل شىء ثقافة التراث يعتنى بها قدر الحاجة الى بناء التاريخ القديم ، واحياء المعارف الاسلامية ويعتنى بها احيانا فى

حملات التأصل· وقوة هذه الثقافة راجعة فـي اغلبها الى اللغة الوطنية ، غير ان هذه اللغـة تعامل معياريا ، كلغة ثانوية لانها ليست لغـة العلوم ، فيما يزعمون ·

أما اسفل البنيات فانها بنية الثقافات الشعبية ويمكـن ان نـجد فيها هى الاخـرى مختلف المستويات : من الفلكلور السخيف الى مستـوى الشعر الراقى· وحيوية هذه الثقافات ترجع الى حيوية اللهجات المحلية وقدرتها على تصوير الواقع الاجتماعى بوسائل فنية خاصة بها ·

واذا اردنا حسب المفهـوم العادى ان نلمس الاصـالة فى هذه المستويات فسنجدها مربوطة بالبنيتين السفلى والمتوسطة·

أما التفتح او جسر العالمية فكله مربوط بالبنية الثقافية العليا ، ومعنى هذا ان التفتح حسـب المفهوم الجارى عندنا ، يعنى فى غالب الاحيـان اكتساب الثقافة الاجنبية ، تارة للفعالية العلمية والتقنية ، واحيانا أخرى للتحصيل على مستـوى التمدن الذى توحيه الثقافة العالمية المزعومة ، الا وهى ثقافة المستعمر القديم ، فى ميادين غير علمية مثل الآداب ، والاذواق ، والقوانين· نقول ان هذا التحليل المتعلق بالبنيات الثقافية قد يكون مبسطا للغاية· واذا اردنا ان نذهب الى اعماق الواقع ، فاننا سنتعرض لمشكلتين· اولهما مشكلة ربـط المستويات بالواقع الاجتماعى الاقتصادى الذى يتجلى فى تباين الطبقات ، والمشكل الثانى هـو مشـكل اللغة الوطنية ومكانتها بالنسبة لمختلف الطبقات· ومن هذه المعـرفة للواقـع يمكننا ان نتصور المشاكـل التى تعترض سبيلنا فى تطبيق سياسة التعريب ، سنكون من المشوهين للواقـع اذا ادعينا ان كـل المتمسكين بالثقافة الاجنبية ينتسبون الى طبقة اجتماعية مـوحدة للعنصرين البورجوازى والبيروقراطى ، ذلك لان كثيرا مـن حملة الثقافة الاجنبية ، بفرض تخصصهم التقنى او المهنى ، يجهلون ثقافتهم الوطنية ولكنهـم لا يضمرون لها الاحتقار والعـداء ، ويودون ان لو مكنتهم الظروف من معرفة هذه الثقافة ، وهـم مربوطون ذهنيـا وسلوكيا وعضويا بالطبقـات الشعبية· كما ان هناك حملـة للثقافة الوطنية مربوطين ذهنيا وسلوكيا وعضـويا بالعنصرين البورجوازى ــ البيروقراطى ·

ولو طبقنا مثل هذا التصنيف المبسط على مشكلة اللغـة ، لوجدنا ان هناك مستويات تكاد تكون طبقية· فالجارى عندنا مثلا ان اللغة الفرنسية او الانجليزية تعد بمثابة البنية الفوقية ، واللغـة الوطنية تقوم مقام المستوى الاوسط بينما اللهجات المحلية تكون المستوى الاسفل ·

قد يقال ان هذا الوضع طبيعى ما دامت اللغة الوطنية دون مستوى اللغات العلمية غير ان عرض القضية بهذا الاختصار مع معاملة اللغة الوطنية كعبء موروث محدود فى مستوى معين ، انمـا هو تعبير عما يجرى فى خلد طبقة معينة ، تريد بسبب تكاسلها وبسبب ارتباطاتها ان تستمر فى تقليد مستعمريها الى اجل غير محدود ، والتعبير الوطنى السليم يفرض هنا ان نقول : « يجب ترقية اللغة الوطنية الى مستوى العالمية ومستوى التبليغ العلمى مهما كلفنا ذلك من جهود »·

وبفضل هذه الجهود يمكن التخفيف من حـدة الفوارق فى المستويات ، ويمكن وضـع اللغـة الوطنية فى القمة ، ووضع اللغة الاجنبية فـى مكانتها الطبيعية كلغة اضافية للتبادل العالمى· وبهذا المفهوم يمكننا ان نتكلم عن الاصالة والتفتح

بدقة اكثر فتكون الاصالة ابداعا وخلقا فى مستوى العالمية وبواسطة لغة وطنية راقية ، ويصبح التفتح تبادلا بين الاكفاء ، وتزول الالتباسات والاستلابات المتعلقة بالتحول الثقافى والعالمية الثقافية المزعومة ·

واذا أردنا ان نبسط مشكلة التعريب من حيث الغاية التى يجب رسمها من الآن ، فلا يمكن ان نتناسى قضية المستويات الموجودة حاليا ولا نتناسى ان اللغة الوطنية اذا بقيت بمعزل عن التعبير العلمى والتقنى ، عدت باستمرار لغة البنية الوسطى ، اى لغة ثانوية ، بمعيار الثقافة الحالية ، حتى ولو كانت لغة الادارة ، ولغة المدارس الابتدائية والثانوية ولغة التخاطب اليومى ان فرضنا نجاحنا فى محاربة الامية· هذه بعض منطلقات لسياسة التعريب ، اذا اخذت بكيفية اجمالية ، اما الجوانب العملية والجزئية من هذه السياسة فانها اشد تعقيدا مما يظن لاول وهلة ، اذ انها تثير مشاكل نوعية بالنسبة للمراحل ومختلف الاجيال وبالنسبة للطبقات ، والفئات والاشخاص الذين تسند اليهم المسؤوليات فى الادارة والتعليم ·

التعريب ظاهرة اجتماعية طبيعية

تعودنا ان نطرح فى هذه السنين قضية التعريب من الوجهة السياسية كهدف وطنى ، نسترجع به شخصيتنا الثقافية التى فككها الاستعمار ، وانه لموقف سليم ان ننظر الى هذه القضية فى اطار التخطيط الوطنى· واذا كان التعريب يعد عند بعضنا من المتطلبات البديهية ، بحكم واقع الامة وبحكم تاريخها وضمان كيانها فى المستقبل ، فان هناك طوائف لا تحس بهذه البداهة ، ولعلها ترى البداهة فى ابقاء الحال على ما كان من سيطرة الثقافة الفرنسية ، واتمام مخطط التحول الثقافى الذى شرع الاستعمار فى تنفيذه منذ بداية هذا القرن ·

يمكن ان يقال لهذه الطوائف المحافظة التى تمشى على تخطيطات ما قبل الاستقلال ان التعريب ليس اختيارا سياسيا من بين اختيارات متعددة ، ولكنه فرض طبيعى فرضه واقعنا الاجتماعى ، ولا يمكن التخلى عنه دون معاكسة هذه الطبيعة التى تاكدت طوال عشرة قرون ·

اننا لا ندعى ان التعريب فى اقطار الغرب الاسلامى وقع دون مجهود او تخطيط من رجال الثقافة عبر الاجيال ، ولا ندعى انه كان امرا تلقائيا لم يحتج الى اى تدعيم من طرف قادة البلاد ، الواعين لاهمية الثقافة فى البناء الحضارى· بل كان التعريب لمدة مئات من السنين ثمرة مجهودات جبارة من طرف المثقفين وبعض رجال الدولة ، غير ان الامة جمعاء كانت تحتضن هذه المجهودات كتشخيص لرغبتها العميقة فى اكتساب الثقافة العربية وكوسيلة ضرورية لفهم العقيدة الاسلامية الراسخة فى النفوس ، ويمكننا ان نعد هذه الرغبة الجماعية ابرز مظهر يجعل من التعريب ظاهرة اجتماعية طبيعية ، لانها مقرونة بحضارة الامة وكيانها ·

كل انواع التعريب كانت مربوطة بالثقافة الاسلامية

لقد تعود المؤرخون ان يصنفوا لانواع التعريب ويرون ان هناك نوعين : نوعا حضاريا ينطلق من المدن ، ونوعا لغويا محضا ياتى عن طريق التعايش بين القبائل ذات اللسان العربى وغيرها· وليس أحسن من المشاهدة فى نظرهم لأثبات هذه الظاهرة اذ ان لهجاتنا العامية تنقسم اجمالا الى لهجات حضرية ولهجات بدوية وقد تفنن المستشرقون فى

الوقوف علـى الفوارق العديدة بين اللهجات ، مقررين فى سرعة استنتاجاتهم ان كل لهجة لها شبه كيان مستقل وتطور خاص ، رغم تفرع جميع اللهجات عن الجذر المفقود او اللغة « الميتة » التى هى اللغة العـربية ·

ولقد ادت بهم نظرتهم التجزيئية الى عدم تصور الواقـــع على حقيقته ويتلخص هذا الواقـع فى هيمنة التعريب الثقافى على كل انواع التعريب ، وفى توحيد حركات التعـــريب ضمن المعطيـات الثقافية ، وتظهر هذه الحقيقة عمليا ، فى المجهود المستمر الذى كانت تبذله كل جماعة فى الحصول على قدر ادنى من الثقافة العـــربية الاسـلامية لتنتسب للامة· كما انها تظهر فى سهولة تــرك الكثير من القبائل لهجاتها الاصلية للاخذ باللسان العربى العامى كخطوة اولى للوصول الى لسان الثقافة الاسلامية الذى هو اللسان العربى الفصيح ولم يتيسر لاغلبـــية المستشرقين ان يدركوا ان التقييمات السياسية الاساسية للشعوب الاسلامية كانت فى الغالب تلك التى تجعل وحدة الامة اساس شعـــورها ونشاطها· ولم تكـــن الا قليميـات والوطنيات الا مجـرد تفرعات سياسية تعتبرها الشعوب عوارض عائقـة فى طريق الوحدة ، او مراحل فى سبيل تحقيقها · ولا تتنافى هذه الحقيقة مع تمسك كثير من الجماعات بلغاتها المحلية غير ان اللغات المحلية لم تزاحم فى يوم من الايام لغة الامة ولغة الثقافة الاسلامية التى كانت تحل محل البنية العليا منذ ظهور الاسلام بهذه البــلاد ، وسواء تعرب الناس عن طريق المدن ، او عن طريق البوادى ، سواء تركوا لهجاتهم الاصلية نهائيـا او حافظوا عليها مع اكتساب العربية كلغة للامة الاسلامية التى ينتسبون اليها من اعماق شعورهم فان انـــواع التعريب كلها راجعة الى الثقافـة الاسـلامية·

هذا هو المتجه التاريخى الاجتماعى العام الذى يجب الوقوف عليه للاقتناع بان التعريب كان امرا طبيعيا بالنسبة لجميع سكان الغرب الاسلامى ، وهناك حقائق جزئية لا بد من الاطلاع عليها لدراسة كيفيات التعريب وتطور نماذجه عبر الاجيال·

الاشعاع الثقافى للمدن الاسـلامية :

يفترض بعض المؤرخين ان التعريب فى الغـرب الاسلامى ، كان من الممكن ان ينحصر فى كبريات المدن ، لولا توالى هجرات السكـــان الناطقين باللسان العربى ويبدو لنا أن مثل هذا الافتراض لا أساس له من الصحة ، لان رغـــبة الجماعات المحلية فى التعـريب كان مقرونا بالتطلـــع الى الحضارة واكتساب الثقافة الاسلامية· ومهمـــا كانت أهميـــة الدور الاقتصادى والسياسى الذى كانت تلعبه الحواضر الاسلامية الكبرى ، فـــان اشعاعها الثقافى كان يعتبر اهم شىء فى نظـــر الامة ، وانه لمن السخافة ان نربط ظاهرة التعريب بالعرق العـــربى ، كمـا كان يفعله المستعمرون بالامس واتباعهم من ابناء امتنا اليوم· ذلك ان حملة الثقافة الاسلامية كانوا من مختلف الاعراق ولا يهمهم البحث عن اجناس البشر بقدر ما يهمهم الانتساب الى الامة ، وليس من العجب ان تجـد فى مجتمعاتنا الحضرية جل المعربين من السكان الاصليين · واننا اذ نتكلم عن الاشعاع الثقافى للحواضر الاسلامية انما نعنى بذلك ان العلـوم العربية والاسلامية لم تكن منحصرة وراء اسوار المدينة ، بل كان الطلبة المتخرجون من حلقات العلم بكبريات المدن ، يذهبون الى قراهم ويقومون بنفس الدور الذى قام به شيوخهم ، وسرعان ما تصبح

القرية عبارة عن مدينة مصغرة لها رسالتها في نشر العقيدة والشريعة واللغة العربية.

واذا كانت هناك مدن « قطبيــة » تدور حولها حركات ضخمة من الانشطة الحضارية والثقافية مثل القيروان وقرطبة وفاس ، فان هناك عواصــم جهوية لا يمكن تناسى ادوارها في نشر العلــوم الاسلامية وربما كان لها القسط الاوفر في حمل الثقافة العربية الاسلامية الى أبعد الآفاق ، وان بجايــة وتلمسان وتمنطيط ، لتعد نمــاذج لهذه العواصم الجهوية التى كانت تسهر على تعريب السكان بتعدد الاتصالات وارســال الطلبة الى مختلف النواحى ، وليست قضية الاشعاع الثقافى مـربوطة حتميــا بكبر المديــنة او صغرها ، ولا باستقرارها او عدم استقرارها السياسى ، ذلـك لان المثقفين المنبثقين من الجماعات الشعبية كانوا يلقون فى بعض الاحيان مساندات من السلطان ، كما كانوا يلاقــون احيانا اخـرى معاكسات ، ورسالتهم الثقافية هى هى لا تعرف اى فتور . وقد تجد النشاط العلمى زاخرا فى المدينة الصغيرة ، بينما تجده محدودا فى المدينة الكبيرة ، غير أن الظاهرة العامة بالنسبة للاشعاع الثقافى فى المدن كانت تتلخص فى شعور مثقفيها بضرب حصــار منظم على الجهل اينما وجد ، وكانوا يستغلون كل اتصال لبث معارفهم العربية الاسلامية. ومــن العجب انهم كانوا لا يفرقون بين السكان الناطقين باللسان العربي وغيرهم من السكان فى القيــام برسالتهم الثقافية ، ولا فرق عندهم بين هـؤلاء وهؤلاء اذ يعتبرونهم سواء فى الجهـل بالشريعة وبلغة القرآن ، فالتعريب الحقيقى الذى هو تعريب ثقــافى كان يحتاج الى مؤسسات علمية ثابتــة مستقرة ، ولم تكن تتوفر شروط الاستقرار الضامن للاشعاع الا فى المدن التى تحتضن فيها الجماعات المحلية هذه المؤسسات ، فليست قضية التعـريب اذن قضية سكان ناطقين او غير ناطقين باللهجات العربية ، وليست قضية تشجيع او عدم تشجيع من طرف السلطان ، وليست قضية مدن كبيرة او مدن صغيرة ، ولكنّها قضية شعور شعبى وجماعة واعية ومنظمة تعمل على تحقيق هذا الشعور.

الصفة الشعبية ـ الجماعية للتعريب :

كثيرا ما يظن الدارسون لحركة التعريب عبر التاريخ ان السياسة لعبت الدور الاهم فى تثبيت هذه الظاهرة ، وان الدول كانت تصاحب حركاتها العسكرية بحــركة ثقافية وحضارية مــوازية ، ولا زلنا نسمع حتى اليوم مــن المتمسكين ببقايا الدعاية الاستعمارية ، ان تطور الاحداث الثقافية فى القرون الوسطى شبيه اشد الشبه بالتطور الثقافى فى عصر الاحتلال الفرنسى ، وان شعب الغــرب الاسلامى قد حول عن ثقافاته القديمة بالضغوط والتخطيطات السياسية من لدن الفاتحين الاولين ، ثم من لدن الاقليات الحاكمة من بعدهم. وليست تعنى مثل هذه الدعــاية سوى التوصــل الى استنتاجات سياسية تجعل المغترين بها يعتقدون ان التحــول الثقافى الذى فرضــه الاستعمار الفرنسى يشبــه التحول *الثقافى الذى فرضــه المحتلون المسلمــون واصبح الكثير من هـؤلاء المغالطين بدعايات الاستعمار يوهمون الناس ان الاقليات التى لا تتكلم العربية ، تكون النــواة الثقافية ، فى نظرهم ، للرجوع الى ما قبل الثقافة العربية الاســلامية ، وكلنا يعـلم ان مــثل هذه الدعايات لا يعرف عنها الشعب أدنى شىء ، ولكن حملتها مــن المثقفين المتعشقين للقيم الفرنسية ، تغذيهم العــرقية الفرنسية بكل ما اوتيت مــن

تمويهات لا حباط سياسة التعريب والمحافظة على هيمنة الثقافة الفرنسية فى بـــلادنا · ولسنا فى حاجة الى عرض كل الحجج التى ياتى بها انصار هذه الدعاية ، وسواء كانوا صادقين او كاذبين فى تبنيهم لها ، فانـــه يكفى ان نقوم بعـــرض موضوعى للواقع التاريخى ، الاجتماعى لتتبين لنا مغالطات المؤرخين الاستعماريين واتباعهم فـى هذا الميدان ·

نقول ان التحول الثقافى الذى احدثه الاستعمار الفرنسى قد صدر بقوة الســلاح وبعد التقتيل والتشريد الذى عرفه جميع السكان ، وبـعد ان استئصلت المؤسسات الثقافية الشعبية من اعماقها بينما كان التحول الثقافى الذى احدثه الاسـلام تحولا برغبة الشعوب ، ولم تكن الدول الا منفذة لرغبة الشعوب فى هذا الموضوع ، وربما لم تكن منفذة لرغبة الشعوب الا فى هذا الميدان·

اننا نعلم حق العلم ان جل المؤسسات الدينية والثقافية كانت من منجـزات الشعـب تســهر الجماعات المحلية على بنائها وتمويلها ، وتسهر على توظيف اطاراتها ، وتحبس الاملاك للقيـام بمختلف شؤونها· وتتجلى صفتها الجماعية ايضا فى كيفية تسييرها والانتفاع بها ، فلم يكن المسجد ولا المدرسة وقفا على طبقة او فئة بل كان من حق جميع السكان أن يستفيدوا منهما دون قيود ولا شروط · ولو فرضنا ان السياسة كانت تلعب الدور الاهم فى التعريب ، لا قتصرت هذه الحركة على المدن الكبرى التى توجد فيها السلطة الحاكمة بكل قواها· ولدينا مئات الامثلة التاريخية تثبت ان الثقافة كانت من نشاط الجماعات المحلية حتى فى كبريات المدن التى هى « كراسى للملك » كما كان يسميها الاقدمون· ولدينا اكثر من مثال على استقلال الجامع ، او الرباط ، او المدرسة عـــن رجال « المشور » · وكثيرا ما كانت تقع الصراعات بين فقهاء الشعب وفقهاء « المشور » ، وتناصر الجماعة المحلية مثقفيها حتى لا ينتصـــر عليهم اعداؤهم ، ولدينا اكثر من مثال على قياس النزاهة العلمية عند الاقدمين بتحملهم الفقر فى ظل الحياة الجماعية وتفضيلهم هذه الحياة على الجـــاه والترف المعروض عليهم من طرف الامراء·

ولو فرضنا من جهة اخرى ان السلطة الاقطاعية كانت·تلعب الدور الاهم فى التعريب ، فكيف يمكن ان نجد النواحى النائية التى لا علاقة لها بالسلطة الا علاقة الانتساب الى الامة ، ولا تعانى اى ضغط عسكرى او ادارى ، تتحمس لانشاء المؤسسات الثقافية وتمويلها ، وتتحمس شديد التحمس الى الثقافة الاسلامية والتعريب ؟ لو وقفنا مثلا على تاريخ قرية نائية مثل قرية تمنطيط الموجودة فى اقصى صحرائنا الغربية ورأينا كيف عربت نفسها بنفسها ، وكيف بعثت البعوث الثقافية الى اقاص افريقيا السوداء ، لعلمنا ان التعريب كان منبثقا من صميم الرغبات الشعبية وان الجماعات المحلية هى التى لعبت فيه أهم الادوار·

ولنا فى التاريخ البعيد والقريب امثلة متعددة عن التعريب الذاتى ، وتوقان الشعوب الى الثقافة الاســلامية وربما كانت هذه الحركات الشعبية قوية النشاط فى عصور انهيار السلطات المركزية على الخصوص· ولا يمكننا ان نفسر هذه الظاهرة الا بحيوية الروح الجماعية فى بـــلادنا ، وآن نلاحظ أن الجماعات المحلية كانت السبب الاهـم فى نشر الثقافة الاسلامية واللغة العـــربية فى الغرب الاسلامى وفى افريقيا منذ عشر قرون·

هذه بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية عن ظاهرة التعريب فى بلادنا ، واننا اذ نتطرق اليها اليوم ، من خلال التاريخ فلا يعنى ذلك ان الظروف القديمة لا زالت ممتدة الآثار ، وبنفس الكيفية ، حتى فى عصرنا الحاضر. ان الجماعات المحلية قد فقدت من حيويتها ، وان العقيدة الاسلامية الحاملة للتعريب قد فترت ايما فتور ، غير اننا قد حصلنا على مكتسبات اجتماعية وسياسية جديدة لم تكن متوفرة عند اسلافنا .

لقد اكتسبنا عوضا عن الجماعة المحلية والامة الواسعة ، أمة محددة واضحة التوقان والنشاط ، واكتسبنا عوضا عن السلطان الاقطاعى دولة عصرية شديدة الرغبة فى التوحيد الثقافى بين مختلف الجهات والطبقات ، واكتسبنا اخيرا امكانيات علمية وتقنية للاسراع بتنفيذ رغبات الشعوب.

ونعتقد ان رغبة شعبنا فى اعطاء ثقافته الوطنية مكانتها التى هى مكانة الاولوية ، لا زالت كما كانت فى القديم رغبة اكيدة لا يجوز معاكستها او التحيل على تأجيل تطبيقها الى ابعد الآجال.

الثورة الثقافية تعريب
والتعريبُ ثورة ثقافية



د٠أحمد طالب الابراهيمى
وزير الاعلام والثقافة

- الازدواجية تعنى عندنا اسلوبا من اساليب الثراء اللغوى وهى بحكـم المرحلة الحضارية الحاليـة ضرورة علميـــة .
- ان العلم لا يمكـن ان يفهـم وان ينتشر الا فى نطاق اللغة الاصلية .
- اللغة هى الفكر . اننا نفكر باللغة، واللغة أداة للتعبير عما نفكر فيه .

السؤال : هناك التباسات ما تزال سائدة حول مفهـوم التعريب : فهناك من يـــرى التعريب فى القضاء على اللغة الفرنسية ، وهناك من يراه فى الازدواجية ·· فما رأيكم فى كل هذا وغيره ؟

الجواب : لا اظن ان هناك ما يدعو الى الالتباس فى مفهوم التعريب اذا نحن وضعنا الامــور فى موضعها الصحيح ·· كل مفهوم يمكن ان يتشعب وأن يضطرب ، ولكن مفهوم التعريب فى الجزائر واضح جدا ، اذا نحن مضينا مع التاريخ وتطلعنا الى المستقبـل ·

ان الامر يبدو لي على النحو التالى :

أ ـ الجزائر جزء من العالم الاسلامى العربى · وقد اتخذ العربية لغة كما اتخذ الاســلام دينا · وقبل الاستعمار الفرنسى كنا نتحدث العـــربية ونتعلم بها وندرسها وندرسها ، وكنا نسهم فى كل حقول المعـــرفة آنذاك بالعـــربية ·· كان عندنا محدثون وفقهـــاء ولغويون ومؤرخون ورحالة وجغرافيون ، وكيميائيون ورياضيون ، وفلكيون وطبيون ، وادباء وشعراء ، كانوا جميعا عــلى امتداد التاريخ الاسلامى يكتبون بالعربية ويؤلفون بالعربية· وكان يشارك العربية احيانا فى الجزائر فى الحديث اليومى الضيق ، لهيجات محليـة ـ وهى لهيجات موجودة فى كل لغة وفى كل بيئــة · ولكن يبقى دائما ان اللغة الاصيلة واللغة الاصلية واللغة التى ترتبط بالدين واللغة التى ترتبط بهـا الثقافة واللغة التى تصل بيننا وبين غيرنا مـــن المسلمين او التى تصل بيننا وبين الدول الاخرى هى العربية ·

ب ـ بعد غزو الجزائر ، دخلت لغة اجنبية مع الغزاة· الغزاة الفرنسيون حاولوا ان يجعلوا من الجزائر قطعة من فرنسا· حاربوا الدين وحاربوا اللغة العربية لارتباطها بهذا الدين · ولكنهم تعلموا من الحروب الصليبية ان الحرب الدينية طويلـة المدى بطيئـــة النتائج فخططوا لها على المـــدى البعيد · اما الحرب اللغوية فقد فرضوها فى كل مكان وبكل اسلوب ومن اساليبهم فى ذلك ما هو مباشر : اى فرض اللغة الفرنسية ، وما هو غير مباشـــر من احياء اللهجات المحليـة · وهكذا اتخذوا طريقهم الى الاغراء بهذه اللهجات ·

ج ـ بعد حرب التحرير وانتصار الثورة كان لا بد من ان تعود الامــور الى مجراها الطبيعى اى الى اصالتها · اى ان نبدأ من حيث انشعب الطريق ، وبتعبير واضح ان نبدأ باعادة العـــربية الى مكانتها : لغة دين وثقافة وتعامل يومى ، لغة المدرســة والحيــاة ·

كذلك يبدو لي مفهـوم التعبير : عــــودة الى الاصالـــة ·

وحينذاك لا يلتبس الامر لان الاهتمام بالعربية وتأكيدها لا يعنى اغلاق النوافذ فى وجه اللغات الاجنبية ، سواء أكانت اللغة الاجنبية فرنسية أم انجليزية او ما شئت من اللغات الاخرى ··· اننا لا نريد القضاء على اللغة الفرنسية ما دامت لغة من هذه اللغـــات الاجنبية التى نحتاج اليها فى الاستقاء من موارد الثقافــة فى العالم ·· ولكن نريد القضاء على بقايا الاحتلال الفرنسى من حيث هى ادوات احتلال وبقايا احتـلال ·· الفرنسية فى ذهنى ولسانى لغة ولكنها اذا حلت محـــل العربية على السنة الاطفال والتلاميذ وفى عقـول الطلاب والجامعيين فهى ليست لغـــة وانما هى احتلال · وقد افتقدنا مليونا ونصف من الشهداء وقاسينا تاريخا طويلا من النكبات من اجـل ان نطارد الاحتـلال ·

وتشير فى سؤالك الى الازدواجية ٠

انى اعرف ان هذا اللفظ دار ، ويدور ، على كثير من الالسنة ، ولكنه قد يكون تعبيرا مرحليا٠٠ نحن نفهم الازدواجية بمعنى ان يكون الشاب الجزائرى متقنا للغة العربية متفتحا على لغة من اللغات الاجنبية او على اكثر من لغة ٠٠ الازدواجية لا تعنى ضرورة وجود لغة بعينها الى جانب اللغة العربية ٠٠ الازدواجية عندنا تعنى اسلوبا من اساليب الثراء اللغوى وهى بحكم المرحلة الحضارية الحالية ضرورة علمية ، ولذلك فنحن نؤمن بالازدواجية ـ بالتفسير الذى قدمته لك ـ فى نطاق ما هو سائد من امر التركيب اللغوى فى البلاد النامية٠ اما اذا تطور التركيب اللغوى ونشطت حركة الترجمة واستخدمت فيها الاساليب والآلات واصبح من الممكن ان نضع بين يدى المثقفين ترجمات مباشرة وسريعة لكل نتاج جديد ، فما الحاجة الى ان يبذل كل انسان وكل متعلم وكل طالب جهدا لتعلم لغة اجنبية ؟

من هذا الشرح يبدو لي ان مفهوم التعريب يجب ان يكون بعيدا عن كل التباس :

حركة التعريب اذن عودة الى الاصالة ٠ انها تعنى استعمال اللغة العربية وتعميمها واتقانها ، وذلك امر لا يسد الطريق على اللغة الاجنبية اية لغة ولكنه لا يشترط الازدواجية شرطا ولا ينطلق منها ولا يحتم ان تكون اللغة الثانية هى اللغة الفرنسية ٠

• السؤال : يقال ان التعريب وضع على مستوى المشاعر والدعاية اكثر مما هو موضوع على اساس علمى حقيقى ومن هنا كان الاخفاق فى محاولات التعريب ، ما رأيكم فى هذا القول ؟ ٠

الجواب : ا ـ فى سؤالك اشارة الى تشويه التعريب ، وكانه ليس له اساس علمي والحق ان الاضطراب اللغوى الذى خلقه الاستعمار هو الشيء البعيد عن الاساس العلمى ٠ انه نوع من الاكراه والفرض ٠ انه خلق طبقة خاصة تحسن الفرنسية وترك للقاعدة العريقة : للجماهير ان تتسلى بقشورها بالفاظ يومية ليس لها حصيلة فكرية تقتصر او تكاد ، على اسماء الطعام والشراب وبعض الافعال وبعض كلمات الصباح والمساء ٠

ان هذا ليس ثقافة لغوية ولكنه تشتيت وتشويه لغوى ٠

ان الاساس العلمي الذى انتهت اليه الدراسات العلمية والنفسية اللغوية اثبتت ان العلم لا يمكن ان يفهم وان ينتشر الا فى نطاق اللغة الاصلية ٠٠ العلماء الكبار وحدهم يحتاجون الى اللغة الاجنبية لانماء بحوثهم ودراساتهم اما الذين دونهم فلا يدركون المعرفة العلمية الا بلغتهم الاصلية ٠

ولهذا كان للتعريب هذه القاعدة الصلبة العلمية

ب ـ اما الحديث عن اخفاق التعريب وان هذا الاخفاق دليل على (انه موضوع على مستوى المشاعر والدعاية اكثر مما هو موضوع على اساس علمى حقيقى) كما جاء فى نص السؤال فهذا كلام خاطىء كما يبدو لي ٠

ان طرح الموضوع على هذا الشكل محاولة للتبشير باخفاق التعريب ٠ ومن الذى يستطيع أن يقول ان التعريب قد أخفق ؟

قل لي : متى بدا التعريب ؟

اذا تذكرت انه لم يبدأ الا منذ عشر سنوات ، فهل تعتقد ان عشر سنوات كافية لاصلاح ما افسده الاحتلال خلال قرن ونصف تقريبا ؟

كيف نقول اذن ان التعريب قد اخفـق وهناك خطوات واسعة اتخذت فى هذا المضمار فى كـل المجالات لتحقيق التعريب ؟

قد نكون فى حاجة الى خطى اسـرع • ولكن أرجو أن نلاحظ نقص الادوات عندنا ، وحاجتنـا الى الاستعارة ، وكثرة الاعباء التى ينهض بهـا الوطن الجزائرى فى البناء • كل ذلك لا بد لـــه من ان يقيد خطواتنا •• فنحن شعـــب عــانى الاستعمار طويلا ، وتركة الاستعمار ثقيلة• وليست قضيــة التعريب هى القضية الوحيدة المطروحة امامنا فى الساحـــة وان كـانت مــن القضايا الاساسية •

السؤال : ما هى الاطارات التى نعتمد عليهـا لانجــاح التعريب ؟

الجواب : الاطار الاول الذى نعتمد عليه هـو اطار التعليم : التعليم فى وزارات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى والاصلى ، والاطار الثانى الذى نعتمد عليه هو اطار التعليم ولكنه فى هذه المرة فى نطاق الاعلام والتلفزة والاذاعة ، والاطـار الثالث الذى نعتمد عليه هـو كذلك اطار التعليم ولكنه فى هذه المرة فى نطاق كل دائرة او مؤسسة•

والجواب الكامل والموجز اذن هو ان نجـــاح التعريب مرتبط بنجاح حركة التعليم •

السؤال : نعتقد فيما يخصنا أن الثورة الثقافية لا يمكن أن تتــم بدون تعريب ، ويـــرى بعض الفوضويين الذين ينتسبون زورا الى التقدمية ، بان المهم فى الثـــورة الثقافية هو المحتوى وأن لا اهمية للغة فى نظرهم ما رايكم فى هذا القول ؟•

الجواب : فى الثورة الثقافية لا يمكن فصـــل المحتوى عن الاطار أو عن الشكل ، هذا اولا •

ثم اننا فى الثقافـــة لا نجد المضمون وحـده واللغة وحدها • فهناك الارتباط الكامل بينهما • اللغة بالنسبة الى الفكر ليست اطارا ولا وعاء خارجيا •• اللغة هى الفكـــر اننا نفكر باللغة ، ونستعمل اللغة للتعبير عما نفكر فيه •

ان العلاقة بين الفكر واللغة مسلمة علمية ، ولذلكفانه لا ثورة ثقافية فى المحتوى وحده بـل فى المحتوى والمضمون • اى لا ثورة ثقافية دون تعريب •• هذا اذا لم اقل ان هناك هذا التطابـق الكامل بينهما• فالثورة الثقافية تعريب ، والتعريب ثـورة ثقـــافية •

السؤال : وقعت التباسات فيما يخص كلمـة « اصالة » لدرجة ان بعضهم ربطها بالاعراق ونحن اعتدنا ان لا نتكلم عـــن الاصـالة الا فى نطاق ثقافى •• ما رأيكم فى هذا ؟ •

من الذى يـربط بين الاصـــالة والعرق ؟ هذا تحريف لمفهوم الاصـــالة •

ان الاصالة مجموعة من الخصائص ، ولكنها ليست ابدا خصائص عرقية او دموية لقد تجاوز العالم اليوم الوقوف عند الاعراق ، ولم تنتـــه الابحاث العلمية فى ذلك الى نتائج ، لان العـــالم تعرض لموجات من الامتزاجات الغت ـ او اوشكت ان تلغى خصائص الاعراق ، المجتمع العالمى قــد انفتـــح بعضـــه على بعض فى كـــل الــــدول والامبراطوريات الكبـــرى •• وفى منطقتنــــا الاسلامية العربية كان هنالك هذا الامتزاج الكبير• واحب بعد ان انفى هذه الصلة بين الاصالة والعرق او الجنس أن تعود الى ما كنت ذكرته لـــك فى السؤال الاول عن الاصـــالة •

السؤال : كيف ترون واقــع التعــريب الآن ومستقبلــه ، وعلى الخصوص كيفيــة حــمل البيروقراطية على التخلى عــن العــراقيل التى تضعها فى طريق التعريب ؟ ٠

الجواب : أجد نفسى ، مرة أخرى ، احيلـك الى وقائع مؤتمر التعريب الذى ينعقد هذه الايام فى الجـــزائر ٠

ان التعريب عملية نشطة ، ولكننا نريدها اكثر نشاطا ٠ ومن هنـــا اشارتك الى العراقيل التى تضعها البيروقراطية ، اننى لا أعتقد ان هنـــاك من يضع العراقيل قصدا ، فهذا مخالف لمسيرتنا التاريخية ولثورتنا التحريرية وللثـورة الثقـافية التى هى احدى ثوراتنا الثلاث ٠٠ ولكن قد تكون هنالك عراقيل فى طريق العمل نفسه ونحن نـأمل ان تتعاون القـوى جميعا لا زالة هذه العراقيل ٠

والعراقيل فى الاصل ، موجودة فى كل عــمل انشائى جديد ٠٠ وحين نمارس حركة ضخمـــة كحركة الاصالة والتعريب يجب ان ندخل هــذه العراقيل فى حسابنا ويحسن أن نفهم ذلك مــن جانبه النفسى والانسانى ، فالجزائرى الذى ظـل خمسة أجيال أو اكثر يتكلم الفرنسية فى مكتبـه ومع موظفيه ويتعامل مــع الحرف اللاتينى فى ادارته وكتابته ومادة عمله وثقافته ، لا بد له من ان يجد الصعوبة حين ينتقل الى التعامل مــع حرف آخر ولو كان حــرفه الاصيل ان القضية ليست سهلـــة ، ولكن لا بد فيها من شــىء من المحاربة٠ واذا كان الفرنسيون صبروا عشـرات السنين لفرنسة لغة الجزائر ، افلا يليق بنا أن نصبر كذلك حين نحاول العـودة ٠

الجامعـة والتعـــــريب



محمد الشريف مساعدية

مسؤول التوجيه والاعلام بالحزب

- التعريب هـو الجانب اللغـوى فى الثورة الثقافية ◆
- التعريب حلقة فى سلسلة حلقـات تصفية الاستعمار ◆
- اللغة العربية مطلب شعبى وارادة القيادة الثورية تلتقى مـع الارادة الطيبة ولكن الاجهزة غـير ذلك ◆

س ٤ : هناك التباسات ما تزال سائدة حــول مفهوم التعريب : فهناك مــن يرى التعريب في القضاء على اللغة الفرنسية ، وهناك من يراه في الازدواجية : ••• الخ ، فما رأيكم في كل هــذا وغيره ؟

ج) لعل استمرار الالتباس الذي ذكرتموه لدى البعض حول مفهوم التعريب ، حتى الآن ، ورغم مرور أكثر من عشر سنوات على استعادة البــلاد لسيادتها الوطنية ، يعود في الاساس الى ســوء الفهم أو بالاحرى تعمد عدم الفهم لمضمون التعريب ••• ومكانته في قائمة اختيارات الثورة واهدافها واذا كان الامر يحتاج الى تأكيد فاننا نقول ان التعريب اختيار أساسي من اختيارات الثــورة الجزائرية وهدف من اهدافها الاساسية المقدسة • فشعار الثورة والحريـة والاستقـلال واستعـادة السيادة الوطنية كان مفهوما شاملا ومتكامــلا بجوانبه السياسية والاقتصادية والثقافية ، واذا كنا لم نقبل وجود سيادة أخرى في هذه البلاد غير السيادة الجزائرية وحدها ، واذا تخلصنا من الجيوش الاستعمارية ، وحررنا الاقتصاد الوطني من سيطرة الاحتكارات الاجنبية ، فلماذا يا ترى نقبل تقاسم السيادة الثقافية في بــلادنا أو بالاحرى استمرار التبعية الثقافية •

وان المعركة في ميدان التعريب تعتبر من اهم المعارك التي نخوضها ولا بد ان ننتصر فيها ، ولا تكتمل الشخصية الجزائرية ما لم تسترجع العربية مكانتها اللائقة بها في جميع الميادين الحيوية • وعـلى هذا الاساس يحق لكل مواطن ان يتساءل عن مفهوم التعريب في بلادنا •

ان كلمة التعريب في حد ذاتهـا لا تعبر في نظرنا ، عن العمل الجبار الذي تسعى البــلاد جاهدة لانجازه • ذلك ان التعريب في مفهومـه اللغوي هو ترجمة أو نقل اشياء مكتوبة بلغـات مختلفة الى اللغة العربية وليست هذه هي نيــة الجزائر الاساسية وان ما نريده ، في نظـري ، هو ان تسترجع اللغة القومية مكانتها التي زحزحت عنها منذ أكثر من مائة واربعين سنة • ومن ثمة فان هذه العملية تصبح جزءا لا يتجزأ من الثورة الثقافية التي لا بد منها والتي تبدأ بادىء ذي بدء بتغيير العقليات التي عششت فيهـا الافكــار الاستعمارية وباضت بحيث صار اصحابها يرون في اللغة العربية منافسا للغة الاجنبية يتحتم على كل مثقف ان يحاربها ويحد من توسعها لان ما يتم الآن من خطوات في سبيل التعريب ومحو الامية يعتبر في نظرهم ، توسعا استعماريا في مجال الثقافة •

ان التعريب ، اذن هو الجانب اللغوي مــن الثورة الثقافية ••• واذا اردنا انجاحه بصفة جدية لا بد من الشروع فورا في الاعداد لاشعـال هذه الثورة وان لم نفعل واكتفينا بتعليم الحروف الهجائية فان عملنا يكون ناقصا ومهددا بالفشل والزوال في كل لحظة مهما بعد الزمن • ذلك ان معظم المشرفين على محو الامية وكثيرا من المستفيدين يحتاجون ، أولا وقبل كل شيء ، الى من يغسل امخاخهم ويخلصها من مركب النقص الذي يسيطر على عقولهم •

واصدار القرارات وحده لا يكفى اذا لم تكن هناك عقول ثورية تتبع سائر العمليات فى مراحل تنفيذها ، واذا لم تكن هناك اطارات مكونة تكوينا يتناسب مع واقع الثورة •

وفى هذا المجال نستطيع ان نسوق امثلة لا حصر لها ، ولكننا نكتفى هنا بما يلى :

لقد صدر مرسوم بتاريخ 22 مايو سنة 1964 يقضى بتاسيس مدرسة عليا للترجمة يكون الغرض منها تكوين هيئة من المترجمين والتراجمة يساعدون فى مرحلة أولى ، على خلق جو من التفاهم بين المثقفين باللغة القومية والمتعلمين بلغات اجنبية • وفى مرحلة ثانية يقومون بترجمة تراثنا المكتوب بغير العربية الى اللغة الوطنية حتى يتسنى للباحثين ان يدرسوه ويخلصوه من مظاهر التشويه التى عقلت به على مر السنين ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ينقلون الى اللغات الحية المختلفة مؤلفاتنا العربية حتى نعطى صورة للعالم صورة صادقة ومعبرة عن بلادنا كما انهم يسهرون على تتبع التطور العلمى والتكنولوجى ونقل المصطلحات الفنية الى لغتنا الوطنية لتصبح فى متناول الجميع ولتحقيق هذه الاهداف ينص المرسوم على ان المدرسة تعبىء جميع الوسائل المالية الموضوعة رهن اشارتها ضمن ميزانية الدولة • ومن ثمة لم يبق من المشاكل سوى مسالة اختيار الاساتذة المختصينووضع البرامج المناسبة لتكوين ما نحتاجه من اطارات • وعلى الرغم من ان المرسوم قد حاولتحديد نوعية التعليمالذىتقوم به المدرسة ، فان النتائج بعد حوالى عشر سنوات سلبية للغاية • ذلك ان هذه المدرسة لم تكن ، خلال هذا العقد من الزمن ، سوى انصاف مترجمين بعيدين كل البعد عن الثقافة الواسعة المطلوبة منهم ، عاجزين عن التاثير فى المصالح التى عينوا فيها وعن النقل الجدى بصفة عامة ، كما ان المدرسة لم تنشر ولو كتابا واحدا مترجما من هذه اللغة أو من تلك •

وامام هذا الوضع غير الطبيعى نجد انفسنا امام تساؤلات محيرة ، من المسؤول عن هذه السلبية ؟ أهو المرسوم أو مدير المدرسة ؟ أو الاساتذة ؟ أو الطلبة ؟ اما المرسوم فانه صريح ولا يمكن ان نلقى عليه التبعية • واما الطلبة فانهم لا يمكن ان يكونوا الا كما اعدوا • فتبقى اذن مديرية المدرسة والاساتذة ، هذه تلصق المسؤولية بهؤلاء وهؤلاء يلقونها على تلك • والواقع ان هناك عوامل كثيرة قد تدخلت فى الاخير لافشال مهمة هذه المؤسسة الوطنية • ومصدر هذه العوامل كلها تقريبا ناتج عن عدم تتبع المرسوم فى مراحله التنفيذية ، وما من شك ان مثل هذه التصرفات مناهضة للثورة ، ومهما حاول أصحابها ان يبرروها فانهم لن يجدوا لها مبررا ، لانهم بدلا من ان يبحثوا عن الحلول الجذرية لجاوا الى التمييع ثم القتل وبذلك حرموا البلاد من اطارات تكون مكونة تكوينا يتناسب مع واقع الثورة واحتياجاتها ومتطلباتها •

والمرسوم الثانى الذى نتعرض له هنا هو ذلك الذى صدر بتاريخ 26 أفريل سنة 1968 ، ويقضى

باجبارية معرفة اللغة الوطنية على الموظفين ومـن يماثلهم لكي ناخـذ نفس العبـارة الـواردة في المرسوم •

فعندما صدرت هذه الوثيقة ظن الجميـع بان التعريب قد تم ، وان المسألة لم تعد سوى قضية وقت ثم ينتهي كل شيء • وكان مـن الممكن ان يكون الامر كذلك لو كانت الاجهزة المكلفة بالتنفيذ تعرف بان استرجاع مكانة اللغة العربية مطـلب شعبي ، وان ارادة القيادة الثورية تلتقي مـع الارادة الشعبية حول هذه النقطة ؛ ولكن الاجهزة لم تكن كذلك مع الاسف • ولذلك وبعد مرور خمس سنوات ، فان المرسوم لم ينفذ حتى بكيفية جزئية والاسباب اذا بحثنا عنها واضحة للغاية وهي في نظرنا كالآتي :

1) ان الاطارات المسؤولة عن التنفيذ كلهـا مفرنسة أو وشبه مفرنسة لم تعمل في عقولهـا بذور الثورة الثقافية بحيث غلب عليها الاعتقاد بان عملية التعريب هذه موجهة ضدهم ، لذلك يتحتم عليهم ان يتصدوا لها ففعلوا • فعلوا ذلك عندما وقفوا تعليم اللغة الوطنية عـلى الحجاب والموظفين البسطاء واعتبروا خطا ، ان نزولهـم لتعلم لغة ميتة ، في اعتقادهم ، مضيعة للوقت الذي يقضونه في المسامرات التافهة لن لم نقل في الشوارع والملاهي • وفعلوا ذلك عندما لـم يتتبعوا مراحل محو الامية بانفسهم ، ولم يوجدوا محفزات لانجاح العملية . بل ان كثيرا من المدراء قد بذلوا كل ما في وسعهم لخلق انواع وانواع من العراقيـل ، واحس البسطـاء باستخفـاف المسؤولين وعدم اهتمامهم بتطبيق المرسوم، فاخذوا المسالة ماخذا غير جدي •

2) ان بعض الاجهزة لم تقم بواجبها ، وكان من المفروض ان تساهم في خلق الظروف اللازمة لتنفيذ هذا المرسوم ، فهناك مصالح باكملها كان ينبغي ان تعرب كالاحوال المدنيـــة والبـــريد والمواصلات وغيرها من المصالح التي لها اتصـال مباشر بالجماهـير الشعبية التي لا تعرف غـير العربية • وكان من شان مثل هـذه الاجراءات الثورية ان تساعد ، لو تمت على دفع الموظفـين الى بذل اقصى ما يمكن من الجهود لتعلم لغتهم • لكننا ، مع الاسف ، شاهدنا ، بدلا من ذلـك ، اسراعا في السير نحو فرنسة حتى ما كان معربا•

3) ان البلديات والولايات والدوائر لم تقـم بواجبها في تعريب اللافتـــات والواجهات في الشوارع والطرقات حتى تجعل المواطن يشعـر بانه على أبواب ثورة ثقافية فيستعد لذلك ويهتم بتعلم اللغة القومية التي ستكون بلا شك ، هي المنطلق لهذه الثورة •

4) ان الوظيف العمومي لم يساعد على خـلق جو من الجدية حول هذا المرسوم • وكان بامكانه ان يفعل ذلك بمراجعة ترتيب الموظفين مهما كانت مستوياتهم وفقا لتقدمهم في معرفة اللغة الوطنية

5) اصدار قرارات وزارية تتنافى مع المرسوم وتشجع الموظفين والاطارات بالخصوص على عـدم أخذه بعين الاعتبار • وللتدليل على ذلك نذكــر القرار الصادر عن وزارتي التعــليم الابتدائي والثانوي والداخلية بتاريخ 21 مارس سنة 1973•

نكتفي بهذين المرسومين : ولم نفعل ذلك الا لنؤكد بأن اصدار القرارات وحده لا يكفي اذا لم يكن هناك تنفيذ ، وان التعريب ينبغي ان يكون هو محور الثورة الثقافية •

ومن الناس من يقول بأن التعريب لا يهم هذا الجيل بل هو من اختصاص الاجيال المقبلة يريدون مخادعة الرأى العام ، وإيهامه بان اللغة العربية صعبة للغاية وان طرق تدريسها عقيمة ، وعليه يجب انتظار عشرات السنين أى عندما يصبح التعليم وحيا لا يكلف مشقة ولا عناء • هناك من يزعم بان اللغة القومية عاجزة عن مسايرة الركب الحضارى ، وانها لا تصلح ان تكون لغة علم لانها وضعت اساسا لقول الشعر لا غير •

وعلى هذا الاساس رأينا الجامعة تتحايل لابقاء الفرنسية حتى بالنسبة للفروع التى اعلن عن تعريبها مثل علم النفس وعلم الاجتماع ، ولمنع اللغة القومية من اقتحام بعض الفروع الاخرى مثل الرياضيات والطب • ويدعى المسؤولون عن هذه التصرفات بانهم انما يفعلون ذلك حفاظا على الاجيال كأنما الذى يحافظ على الاجيال ينبغى ان يقتلع جذورها ويحرمها من أساس ثقافتنا •

ولتغطية مناهضة التعريب فى الجامعات انشئت لجان للتنسيق اطلق عليها اسم لجان التعريب مهمتها تنسيق ومراقبة جميع العمليات المقررة فى المخطط العام للتعريب داخل كل جامعة • وبالفعل فان هذه اللجان تؤدى دورا اساسيا لانجاح ما يسمى بالمخطط العام ولا ادل على ما نقول من ان كلية الحقوق التابعة لجامعة الجزائر لم تبدأ تدريس اللغة العربية فى العام الماضى ألا فى أواخر ديسمبر أى بعد مضى أربعة اشهر من السداسى الاول واقتراب الامتحانات لكى يهتم الطلبة اهتماما بالغا بتعلمها • اما فى هذه السنة فان التدريس فى نفس الكلية ، قد بدا فى أواخر نوفمبر • ألا يوجد هناك تقدم وتحسن ملحوظان ؟

أما الازدواجية ، فاننا نبدا بالتساؤل عن المقصود منها والالحاح عليها من قبل البعض فاذا كان المقصود منها الايحاء بعجز اللغة العربية عن اداء دورها الوظيفى فى جميع مجالات الحياة ، فان النقاش فى هذا التحفظ أو هذا الاتهام الذى تجاوزته الاحداث يصبح نوعا من السفسطة •

أما اذا كان المقصود اكتساب واتقان لغة اجنبية اخرى ، وتمكين ذوى الثقافة العربية من الانفتاح على الخارج فنحن لنا مع الازدواج فقط وانما نحن من انصار التعدد ولماذا نقصر هذا الازدواج على اللغة الفرنسية وحدها ، فالجزائر اليوم لها علاقات واسعة مع العالم أجمع، وبهذا الاعتبار فاننا يجب ان نهتم لا باللغة الفرنسية فقط وانما باللغات الاخرى الانجليزية ، والاسبانية والرومانية والصينية الخ ... والاهتمام بهذه اللغات يجب ان يتم فى مرحلة لاحقة من التعليم ولا ينبغى ان تعامل على قدم المساواة مع اللغة العربية ، ولكن لو حللنا هدف الازدواجية فى اطارها المحدود ، لوجدنا انه لا يخرج عن طريق

مقاسمة اللغة العربية لسيادتها فى عقر دارها ، وترسيخ التبعية الثقافية التى تعمل للتخلص منها • وهذا امر فى الواقع لا يقبله اى شعب حريص على شخصيته ، فاى لغة كانت ليست مجرد وسيلة اتصال وتخاطب، وانما هى الوعاء الرئيسى للشخصية الوطنية واهم عناصر مقوماتها وعلى هذا الاساس فان الموضوع ليس موضوع مفاضلة بين هذا الاسلوب أو ذلك أو محاولة التوفيق بين هذا المفهوم أو ذلك ، وانما المسألة فى النهاية مسالة اختيار ثورى وكل اختيار ثورى لا يقبل انصاف الحلول • وبعد هذا كله اعتقد اننى لم أعد فى حاجة الى القول بأن الازدواجية ليست هى التعريب ، كما ان التعريب لا يعنى ابدا القضاء على الفرنسية ولا على غيرها من اللغات الحية والتى يتحتم على الجزائريين ان يتعلموها ليتمكنوا من مواكبة الركب الحضارى •

س 2 : يقال ان التعريب وضع على مستوى المشاعر والدعاية أكثر مما هو موضوع على أساس علمى حقيقى ومن هنا كان الاخفاق فى محاولات التعريب ، ما رأيكم فى هذا القول •

س 3 : ما هى الاطارات التى نعتمد عليها لانجاح التعريب ؟

ج : فى اعتقادنا ان هذا السؤال والذى يليه يطرح قضية رئيسية ومبدئية وهى قضية العلاقة بين الاختيارات والشعارات المعلقة والوسائل المكرسة لتحقيقها والوسط أو المناخ العام الذى يتم فيه تحقيق هذا الهدف •

فالتعريب باعتباره اختيارا من اختيارات الثورة الاساسية واجه مثل غيره من الاختيارات الاساسية للثورة حربا ومقاومة من قبل اعدائه ، سواء عن وعى أو عن جهل • فاذا كان البعض يعارضه عن وعى فان البعض الآخر يعارضه نتيجة لتصور بان التعريب سوف يحرمه من جميع الامتيازات •

وهذا النوع من التفكير الطبقى ناتج عن الروح الرجعية المتاصلة فى نفوس هؤلاء •

وعلى هذا الاساس ترى زمرة من المتفرنسين ، ان اللغة العربية اصبحت لغة ميتة وانها لم تعد اهلا لدراسة العلوم والرياضيات وان الجزائر لو اتخذتها بالفعل وتخلت عن الفرنسية لصارت حتما الى الانهيار والتقهقر ، وانقلبت عن طريق التقدم والازدهار شان سائر البلدان العربية التى ما زالت تعيش تحت سيطرة الخرافات والاوهام بينما تحاول الامم المتقدمة ارتقاء أسباب السماوات بحثا عن اكتشافات جديدة وسعيا وراء تطور الاحداث العلمية •

ان هؤلاء يهزؤون بمطالب الشعب معتقدين بان الجماهير نائمة لا تبصر ما يفعلون ، والا كيف يتجاهلون المؤلفات العربية التى تركها لنا ابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وجابر الخوارزمى والرازى وابن النفيس والزهراوى وابن يونس والصونى وابن العوام وغيرهم فى الفلك والرياضيات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء حتى قيل ان الينبوع الاول للعلوم الطبيعية انما تفجر فى العصر العربى الاسلامى •

ان اللغة العربية قد أثبتت وما زالت تثبت قدرتها على التعبير العلمى وعلى نقل المصطلحات العلمية ، ولذلك يتحتم علينا ان نفتح لها أبواب

الفروع العلمية واسعة فى جامعاتنا • ولا يمكن ان يتم ذلك الا اذا تخلصنا من مركب النقص الذى يطغى علينا كلما اردنا ان ننال من سلطان اللغات الاجنبية التى ما تزال تسيطر على عقول الاغلبية من اطاراتنا المسؤولة • ألا فليفهم هؤلاء بان علمية اللغة تخضع لعلميتنا ، وان الانسان العالم هو الذى يخلق لغة علمية ولنا على ذلك امثلة كثيرة نستطيع اخذها من مختلف انحاء العالم •

ولقد اثبتت التجربة من جهة اخرى ان تعلم اللغة العربية ليس بالعملية الصعبة اذا كان المتعلم ذا ارادة قوية ، ولقد شاهدنا بعض الاخوات البيض بدأن دراسة العربية مع بداية الاستقلال وهن الآن معلمات يدرسن هذه اللغة للابناء الجزائريين • ولاحظنا من خلال مختلف النشاطات السياسية اليومية ان كثيرا من كبار المسؤولين فى اجهزة الدولة قد اصبحوا يتكلمون اللغة الوطنية بسهولة ، وكانوا قبل اليوم لا يجيدون حتى النطق بها • وما من شك ان السر فى الحصول على مثل هذه النتائج الايجابية يتطلب بالاضافة الى الارادة القوية التى اشرنا اليها من قبل تخلصا نهائيا من مركبى النقص والكمال اللذين لا يزالان مع الاسف عالقين باذهان بعض اطاراتنا ، وليتهم كانوا يعلمون ان الاطار لا يكون كاملا ونافعا الا اذا كانت له شخصية متكاملة • وبهذا الصدد يؤسفنى ان اتعرض الى بعض الحصص المتلفزة ، وهى من المفروض حصص موجهة الى سواد الشعب الذى يفهم الفرنسية ••

ان كثيرا من هذه الحصص التى تتلفز قصد المساهمة فى عمليات الشرح والتفهيم لانجاح مختلف الحملات الوطنية يجتهد اصحابها فى ان تكون شروحهم واجاباتهم كلها بالفرنسية ، كانهم يخاطبون جمهورا فرنسيا ، والعجيب فى الامر انهم لا يستحيون لا من انفسهم ولا من الشعب الذى تولوا باسمه هذه المسؤوليات •

ورب من قائل، ان الذين يشاركون فى الندوات المتلفزة هم فى معظمهم من التقنيين ولا يستطيع التقنى ان يعبر عن افكاره الا بلغة اجنبية • ومثل هذا الادعاء لا يستحق منا ان نقف عنده لان اللغة العربية فندته فى جميع الازمنة ، هذا اذا صح ان اصحاب هذه الندوات تقنيون فعلا • ولكن الحقيقة غير ذلك ، لاننا لا نرى اين تكمن التقنية فى حديث موجه لشرح مجانية العلاج أو التعليق على فيلم حربى أو بوليسى فى غالب الاحيان •

وهكذا ، فالتعريب ضرورة ملحة فى الجزائر ، لان اللغة العربية ـ هى المرآة التى تعكس الشخصية الجزائرية ونحن لا نستطيع ان نتخلى عن هذه الشخصية •

ولكن التعريب لا يعنى ترجمة النصوص والخطب من الفرنسية كما يحاول او يوهم الرأى العام بعض السادة الذين يسعون فى الخفاء للنيل من قيمة العربية ومن قيمة مثقفى هذه اللغة ويظهرون انفسهم للعيان كاكبر حماتها• فهؤلاء السادة الذين نجدهم ، فى الغالب ، مكلفين

بشؤون التعريب ـ مع شدة الاسف ـ يؤمنــون ايمانا جازما بان الترجمة كما تمارس في بلادنـا خنق وقتل للعربية ... ذلك ان ميادين الترجمة ـ اذا صح ان نسميها ميادين ـ لا تخرج عــن ترجمة التقارير يكتبها بعض انصاف المثقفـين بفرنسية رديئة ، او ترجمـة الجريـدة الرسميـة والرسائل التى يكتبها المواطنون بلغتهم القومية.

يقولون . لا نريد ان نتعجـل فى التعريب . ان العمل الجدى هو العمل البطيء . ولكن ماذا انجزوا منذ حوالى عشر سنوات ؟ .

ان التعريب حركة اصيلة فى الجزائر ومستقلة عن الترجمة يجب ان يقوم بها ابناء العربيـــة المخلصون لها ، والتعريب لا يخص وزارة التربية الوطنية وحدها ، بل انه عملية مشتركة ينبـغى لانجاحها ان تتوفر شروط ، اهمها : المحيــط والمبادرة فى العمل .

اما المحيط فلان الانسان يتاثر كثيرا بالوسط الذى يعيش فيه ويتطبع بطبائعه ، واذا كنـــا نريد التعريب ارادة صادقة ، يجب ان نخلـــق له الجو المناسب .

واما المبادرة فى العمل فلان التانى لا مــآل له غير الفشل ولان العمل الذى يبدأ لا بد ان يتم.

وميادين التعريب ، كما قلنا ، لا تنحصــر فى مؤسسات وزارة التربية والتعليم بل تتعــداها الى مصالح البريد والبلديات والمحاكـم وغـيرها من الهيـآت التى لها اتصال مباشر بالجماهــير الشعبية .

س 4 : وقعت التباسات فيما يخص كلمــة « أصالة » الى درجة ان بعضهم ربطها بالاعراق . ونحن اعتدنا ان لا نتكلم عن الأصالة الا فى نطاق ثقافى ، ما رأيكم فى هذا ؟ .

ج) : فيما يتعلق بالأصالة ، لا يمكن ان تتجاوز النطاق الثقافى والنطاق الثقافى بالنسبـة الى هو ذلك النطاق الواسع الذى يشمل التعليـم والعادات والتقاليد وكل ما له صلة بانمـــاط الحياة . وفيما يخص الجزائر فان مفهوم الاصالة لن يكون له معنى الا فى اطار الثورة الثقافيـــة أما الذين يربطون ربط الأصالة بالأعراق فهم اما من الذين تسيطر عليهم الروح العنصرية فصاروا يتحاملون على التاريخ ويتحينون جميع الفـرص لخلق الاجواء الملائمة لغرس افكارهم ، واما مــن الذين لا يحبون العيش فى ظلال الوحدة فصاروا يختلقون الاسباب لتسهيل التجزئة وعمليـــات الانقسام التى لا تخدم عادة سوى مصـــالح الاستعمار والامبريالية بجميع اشكالها ، وفــى جميع الحالات فان اصحاب الطائفتين يمثلون خطرا على مصالح الشعوب ، ومن ثمة فهم مفســدون يتحتم على السلطات الثورية ان تقف لهم بالمرصاد وتضع حدا لمناورتهم لانهم فى العادة لا يتحركون الا لتغطية نزعاتهم الهدامة المناهضة للثــــورة ولتطور التاريخ الحتمى . وربط الاصـــــالة بالاعراق ، زيادة عـلى كونه عمـلا اجراميـا فى حق العدالة والاخوة يقلل من قيمة الاصالة كاساس لبناء الشخصية الوطنية وللحفاظ عليها ، ذلك ان التاريخ على الرغم من الوسائل العلمية الحديثة لم

يتمكن حتى الآن ولن يتمكن من تحديد مصادر الانسان الاولى وضبط سائر التفرعات التى يبنى عليها المجتمع البشرى ·

واخيرا نكرر بان التعريب مطلب وطنى لانه يضع حدا لذلك الاحتلال الرهيب الذى تعرضت له شخصيتنا والذى اصبح عائقا يمنع المجتمع الجزائرى من ان يتفتح تفتحا طبيعيا ، وبالفعل فان الشخص اذا كان ينتمى الى مجموعة لغوية يجهلها ، لا يستطيع الاتصال بالجماهير المكونة لمحيطه . ولا يكون قادرا على التفاهم معها ، ولا على التعبير عن افكاره الا فى لغة اجنبية يستعيرها من الغير · وفى هذه الحالة . يتقمص صاحبنا – لاشعوريا – بشخصية المجتمع الذى يستعمل لغته ويتطبع بطبائعه فينفصل بالتدريج عن اهله وذويه · وان هذا الطلاق اللاارادى يجعل الفرد المصاب بجهل لغته لا يتجاوب مع المطامح الشرعية التى يصبو اليها ابناء الشعب وتتقلص طاقته الخلاقة ثم تضمحل وتزول لانه لا يتكلم نفس اللغة التى تتفاهم بها الجماهير · يحدث ذلك فى كثير من الاحيان على الرغم من ميوله الوطنية ومن شعوره واحساسه بالانتماء القومى ·

س 5 : واخيرا كيف ترون واقع التعريب الآن ومستقبله ، وعلى الخصوص كيفية حمل البيرو قراطية على التخلى عن العراقيل التى تضعها فى طريق التعريب ؟ ·

ج : اذا اخذنا بعين الاعتبار كل العوامل التى سبق ذكرها والتى تشكل حواجز وعقبات ، فيمكن القول اننا قد انطلقنا من مركز القوة ، حيث ان التجاوب بين القيادة والجماهير قد تمتن وتدعم ·

وعلى هذا الاساس نستطيع القول اننا قطعنا اشواطا · وذللنا صعابا ، وحصلنا على نتائج ايجابية قد لا تكون فى مستوى طموحنا ، ولكنها مهمة اذا اخذنا بعين الاعتبار عملية التخريب والتشويه التى قام بها الاستعمار طيلة مائة وثلاثين سنة ضد العربية واهلها ·

واما عن مستقبل التعريب وتحقيق مضمونه الكامل فهو يتطلب منا جهدا مضاعفا وارادة قوية ويقظة دائمة لتذليل المصائب واحباط العراقيل ومعالجة ما تعنونه بالبيروقراطية تتطلب أمرين :

اولا : المتابعة الدائمة ، فلا يكفى ان نصدر القرارات والمراسيم فقط ، وانما لا بد من السهر عليها ومراقبة تنفيذها فى المراحل التطبيقية حتى يكون التنفيذ فى مستوى الاهداف المنشودة ومطابقا لروح القرارات والمراسيم ·

ثانيا : ان كل هدف ثورى يتطلب تقديم التضحيات اللازمة سواء اكانت هذه التضحيات مادية او بشرية فاذا كانت التضحية المالية تتمثل فى الاعداد المادى وتهيئة الوسائل والامكانيات الضرورية ، فان التضحية البشرية تعنى الى جانب الجهد المتفانى والمخلص تطويع بل وحتى التخلص من العناصر والعقليات التى تعرقل تطبيق هذا الهدف الثورى ·

اللغة والشخصية في حياة الأمم

مولود قاسم
وزير التعليم الاصلي والشئون الدينية

ساحاول ان اتكلم عن الصلة بين اللغة والشخصية من جهة ، وصلتهما معا باستمرار حياة امة من الامم ، من جهة اخرى ، مع التركيز في النهاية على الجزائر .

وساكون مسهبا، ومسهبا جدا في بعض الامثلة، وعابر سبيل ، سريعا ، بالنسبة لاخرى . واول ما ابدأ به تجربة مرت بها امة في القرن الماضي ، او اوشكت أن تمر بها ، في نظر احد فلاسفتها ، وساقف طويلا لدى هذه التجربة نظرا للدور الديناميكي الاساسي الفعال والمباشر الذي لعبته فيها شخصية فذة ، ونظرا لانطباق آراء هذه الشخصية على اية امة من الامم في جزء كبير من هذه الآراء التي كانه يخاطبنا بها ، والتي لا تزال لها صلاحيتها وصحتها حتى اليوم .

محاضرة القيت في 24 مايو 1968 في قاعة المحاضرات الجامعية بدعوة من وزارة التربية الوطنية . ونشرت في كل من الشعب والمجاهد بالفرنسية ثم في « الثقافة » . ونعيد نشرها في هذا العدد الخاص بالتعريب ، لما فيها من المقارنات مع الاوضاع في بعض الشعوب والدول الاخرى قديما وحاضرا . ولما تساهم في تصحيح بعض المفاهيم حول اللغة « الاصالة » .

تلك الامة هى المانيا ، وهذه الشخصية الفذة هو أحد فلاسفتها العظام ، أحد الفلاسفة العظام على الاطلاق فى سائر العصور ، الذين كانوا يحلقون فى آفاق التجريد المحض والمثالية الخالصة العليا ، ومع ذلك لم يفقدوا الاتصال بالمحسوس والملموس ، ولم يكتفوا بالحديث عن جنس الملائكة وخلود الروح ، بل اهتموا أيضا وبالدرجة الاولى بالقضايا الوطنية والانسانية اليومية ، بآلام الشعب ومصير الامة كامة ، فوضعوا طاقتهم ، كل طاقتهم فى خدمة أمتهم وانقاذها ، وضمان خلودها، واقصد بهذه الشخصية الفذة الممتازة يوهان غو تليب فيخته J. G. Fichte، استاذ الفلسفة بجامعة برلين ، الذى صارع نابليون ، ومات شهيد الحرية والدفاع عن أمته ، وشخصيتها ، ولغتها ، هذه اللغة التى لم يكن يتصور أمته بدونها ، والتى كان يرى فيها العنصر الاساسى لشخصية كل أمة تسمى نفسها أمة ، وتستحق ان تسمى كذلك • وتريد لنفسها الكرامة والخلود ! •

يرى فيخته ، صاحب فلسفة الانية أو الذاتية (وكلمة الانية هذه لابن سينا) ، ان وجود أمة من الامم بوجود انيتها التى هى شخصيتها ، وان هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة : الدين واللغة وحب الوطن •

وسنتعرض لكل نقطة من هذه النقاط على حدة، على انها فى غاية التداخل عند فيخته ، وذلك انه لم يكن يتصور عنصرا من العناصر الثلاثة بدون الآخرين ، بل متشابكة متكاملة عنده بحيث انه لم يكن يتصور أن يكون هناك ألمانى متدين ولا يحب وطنه ولغته ، كما أنه لا يتصوره محبا للغته دون وطنه ودينه ، ولا محبا لوطنه دون دينه ولغته •

1) – فيقول عن العنصر الدينى :

« **ان تربية الشعب على التماسك بالدين والاخلاق هى أساس كل حكومة ، وعلى الحكومة أن تؤسس معهدا دائما لهذه التربية الدينية ، وهذا المعهد جزء لا يتجزأ من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها** » •

« **وان ظن الدولة (أى الالمانية) بانها فى استطاعتها تسيير الشعب بدون هذه التربية الدينية والاخلاقية ، وتهاونها فى هذه المسالة هما اللذان أديا بها الى الحالة التى تتخبط فيها اليوم !** » •

ويضيف فيخته :

« **على ان هذه التربية الدينية والاخلاقية لا ينبغى ان يكون هدفها العالم السماوى غير الحسى فحسب ، اذ أن الحياة ارضية وسماوية ، والذى لا يؤمن بالحياة الارضية مصيره الى الزوال السريع** » •

« **ان الفهم الحقيقى للأشياء هو ان الحياة الارضية حياة حقيقية جميلة ، علينا أن نحياها ونتمتع بها بحق شاكرين ، فى ظل احترام الدين والاخلاق ، وفى انتظار الحياة السماوية التى هى أعلى منها** » •

« على أنه اذا كانت في الدين تعزية للعبيد المضطهدين عن عبوديتهم ، فان الروح الدينية في الواقع هي التي ينبغي أن تحث هؤلاء العبيد على رفض عبوديتهم تلك ، وعلى تحرير انفسهم ، ويجب علينا ان نعمل كل ما نستطيعضد استغلال الدين وامتهانه ، الى دركة (اى عكس درجة) جعله تعزية وسلوى للعبيد ! » .

« ان الطغاة يميلون طبعا الى امتهان الدين واستعماله كمخدر لحرمان ضحاياهم من الحياة الارضية، بدعوى ان هناك حياة سماوية تنتظرهم. ولكن علينا الا نقبل من الطغاة هذا الامتهان للدين ، كما ان علينا ان نمنعهم من تحويل الارض الى جهنم ، ليشوقونا اكثر الى الحياة السماوية».

٤) ـ ثم ينتقل فيخته الى الكلام **عن عنصر اللغة** ويؤكد عليه كل التأكيد ويجعله المحور الذى يدور حوله كل ندائه الى الامة الالمانية ، اذ أن اللغة الاصيلة فى نظره هى **«رمز وجود الامة ، وبقدر أصالة اللغة والمحافظة على اللغة الاصلية او فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعبا اصيلا او مجرد أشتات فحسب » .**

وهكذا يفرق فيخته بين الالمان الذين هم فى نظره شعب أصلى أصيل ، وأمة ، والشعوب الجرمانية الاخرى التى تفرعت عن الالمان واتخذت لغات أخرى .

ويرى انه الى عنصر اللغة يضم عنصر التراب ، الارض ، ولكن المحافظة **على اللغة أهم فى نظره ، « اذ ان اللغة او المحافظة على الاصل تؤثر على التراب،اى الوطن الجديد ، فالالمان الذين هاجروا الى امريكا وكونوا هناك جاليات ومدنا كاملة يتكلمون بلغتهم ، ويحيون حياتهم ، ويحافظون على تقاليدهم ، بقوا المانا رغم تبدل التراب ، اى رغم حياتهم فى بلاد غير بلادهم الاصلية. أما الالمان الذين لو تغلب عليهم المحتل الاجنبى وانساهم لغتهم فهم لن يعودوا المانا رغم انهم بقوا فى المانيا » .**

ولذا يرى فيخته أن الالمان بمحافظتهم على اصالتهم ، أى لغتهم الاصلية التى بقيت متعلقة بجذورها ، أمة ، بينما الشعوب الجرمانية الاخرى التى هى من اصل واحد والشعب الالمانى ، ولكنها تخلت عن اللغة الاصلية او خلطتها بلغات اخرى ليست الا قبائل ، جرمانية حقا ، كالامة الالمانية ، ولكنها تبقى قبائل وأشتاتا وليست امة مثلها !

« ان اللغة هى التى تكون الانسان ، وليس العكس ، وهى التى تؤثر فيه ، وليس العكس ، فهى صدى روح الامة ، وتؤثر فى التصورات وتصبغ عليها معانى والوانا ، وتعكس عليها اشعة او ظلالا خاصة بها هى التى تجعل الانسان من هو، وليست مجرد أداة يعبر بها الانسان عن نفسه ، بل هى ، أى اللغة ، الطبيعة الانسانية التى تبرز منه فى شكل اصوات خاصة معينة لا يمكن ان تكون غيرها ، وبهذه الاصوات الخاصة التى هى صدى الروح بما تحمله من شحنات عاطفية وتصورات ومفاهيم وذكريات مشتركة يتفاهم الانسان بها مع من يشاركونه نفس التصورات ، ونفس المفاهيم، والطبائع ، والتقاليد ، والعادات، والذكريات ، أى مواطنيه ، ولو كانوا ولدوا فى قارات اخرى غير قارته ! »

« فهي تلك الطبيعة الانسانية ، أي الطبيعة الوطنية المشتركة التي تبرز في شكل اصوات ، هي الالفاظ ، هي اللغة • انها التي تكون الخلية ، وتطبع الانسان بطابعها ، وتشكله بشكلها ، وتؤثر فيه التأثير العميق الذي يجعل منه انسانا آخر ، بمميزاته الخاصة به ! »

« انها تلك القوة الطبيعية العارمة التي تتدفق تلقائيا ، وتؤثر في الانسان والحياة تأثيرا مباشرا فعالا ، بما تشحنه من طاقة كامنة ، وقوة دينامكية فياضة تدفع الى الامام !

« انها ذلك السيل المتواصل لا بمعنى السيلان الدائم الديمقريطي ، أي التغير ، بل بمعنى الدوام والاستمرار والاستقرار !

« ان الذي يفقد لغته يمزق الخيط الذي يصله بالاجداد ، ويفقد معها حلقات ماضيه ، ويشعر بفجوة عميقة حقيقية في تطوره ، ينقطع عن اصله، « كجلمود صخر انفصل عن الصخرة الام ، وحطه السيل من عل ، فجرفه وقذف به بعيدا الى اعماق الذوبان ، والامحاء ، واللاوجود ، « لان اللغة الاصلية الاصيلة هي الحياة ، والتي تمد بالحياة ، ولان الامم المغلوبة التي تفقد لغتها تندمج وتذوب في جنس اللغة الغالبة !

« ان اللغة تؤثر في الشعب المتكلم بها تأثيرا لا حد له ، يمتد الى تفكيره ، وارادته ، وعواطفه ، وتصوراته ، والى اعماق اعماقه ، وان جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير ، ومتكيفة به •

« بل وأبعد من هذا : ان الشعب المتأثر بلغة اجنبية يبتلع بدون شعور حتى الشتائم الموجهة اليه ، ويتبناها ، ويوجهها الى نفسه ، رغم انها ضده ، وعند ما يفيق من ذلك فكل ما يبقى له هو محاولة التجرد من نفسه ، وتقمص شخصية الامة الغالبة ماديا او روحيا او كليهما معا ، حتى يتم اندماجه فيها كلية ولا تنطبق عليه كلمات التحقير المخصصة لبني قومه •

« ولأن اليونان غرسوا في الرومان مركب النقص وسموهم المتوحشين حاول الرومان طاقة جهدهم تقليد اليونان في كل شيء ليتخلصوا من جلبابهم ويصبحوا يونانا ، ولا تنطبق عليهم صفة المتوحشين •

« وكذلك لأن الرومان وصفوا الالمان بهذا النعت بذل هؤلاء الاخيرون كل ما استطاعوا من جهد لتقليد الرومان والاندماج فيهم ، وذهب بهم مركب النقص ، والتأثر بالرومان ، والتعلق بهم ، والحرص على التشبه بهم الى حد الغاء جميع الكلمات التي يبدو عليها طابع الاصالة الجرمانية، ليحلوا محلها كلمات لاتينية ، لان هذه الاخيرة في نظرهم مثال النبل والاناقة ورمز الثقافة الرفيعة ! وحتى عند ما بقيت هناك كلمات المانية بجانب كلمات لاتينية بنفس المعنى كان اجدادنا الجرمان اولئك يستعملون الكلمات اللاتينية طبعا ، ويفضلونها على الالمانية التي كانت في نظرهم بحكم اندماجهم ومركب النقص لديهم رمز التأخر والبدائية والهمجية !

« **مساكين اولئك المندمجون الهاربون من اصلهم ، اللاجئون الى اعدائهم ! وهذا مرض عميق فى نفوسنا ، نحن الالمان ، حتى جاء مارتين لوتر فاحيا الالمانية من جديد ، وبعث فيها النشاط والقوة ، وارجع لها مكانتها واصالتها !**

« **ان لغة امة من الامم هى قوتها الطبيعية ، كما ذكرنا ، وعليها ان** تستنفد كل ما فى هذه اللغة من امكانيات وملكات وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها ، مع تنسيق الالفاظ واختيار المعانى ، بحيث تصبح كلا متناسقا منسجما انسجاما منطقيا ، ودالادلالة واضحة تامة .

« **اما تلك الطبقة التى تتساهل فى لغتها او تريد تبسيطها ، وتتوخى السهولة ، وتتحاشى الالفاظ الصعبة النطق ، فهى لا حق لها اطلاقا فى المشاركة معنا فى هذا الموضوع ، اذ ان هذه الطبقة نفسها هى التى تتباهى بكل ما هو اجنبى عنا من لغة ، وعادات ، ولباس ، وترى فيه النبل كل النبل ! »**

(وهنا نفتح القوس لنذكر بمحاولة فاشلة فى المشرق العربى كانت تدعو ـ تحت تأثير الاستعمار ـ الى استبدال الحروف اللاتينية بالعربية ، اى ترك العربية لفائدة اللاتينية فى الكتابة العربية ، بدعوى التبسيط والتسهيل !

ومحاولة اخرى لا تزال تظهر من حين لآخر حتى ألآن فى المشرق العربى أيضا وهى الدعوة الى اللغة العامية ، اى اللهجة المحلية لكل قطر من الاقطار العربية .

وقد فضح المستشرق المجرى المعروف عبد الكريم جرمانوس المسلم هذه المؤامرة من الخارج وهذه البلاهة فى الداخل بقوله ان هؤلاء العرب (الشرقيين) جهلة يريدون ان يقلدوا أتاتورك ، وهم جهلة لا بتطور اللغات فحسب ، بل وبتاريخ لغتهم وعبقريتها ايضا .

ونغلق القوس الآن لنعود الى فيخته الذى يتكلم عن شعبه فيقول :

« **وان هذا المرض ، مرض التهافت على كل ما هو من الخارج لدى طائفة من مواطنينا هو اصل جميع مصائبنا ، وسبب الهوة التى تزداد اتساعا بين هذه الطبقة المترطنة بلغة الاجانب ، والمتباهية بزيهم فى الملبس ، والمقلدة لهم فى الاخلاق ، وعامة الشعب المتمسك باخلاق البلاد ، والمحافظ على لغته التى هى قوته الطبيعية ، والضامنة لاصالة واستمرار شخصيته ووجوده !**

ويمضى فيخته فيقول :

« **والدولة التى تفرض على الشعب التجنيد الاجبارى لرد الغزو المادى ، مع احترام حقوق الفرد وحريته فى الظروف العادية ، لا يحق لها فقط ، بل يجب عليها ان تفرض عليه ايضا التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحى ، وتضمن له الاستمرار والخلود ، وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن ان تقوم الا على اساس اللغة القومية الاصيلة التى هى القوة الطبيعية الاولى للامة !**

« ولأن ضمان استمرار الامة متوقف كل التوقف على هذه التربية ، نرى ان حل مشكلة التربية شرط اساسى لحل جميع المشاكل الاخرى، وان الامة التى تحقق التربية المثل هى الوحيدة التى تستطيع ان تحقق الدولة المثل !

« **وفى هذا السياق تتحتم** علينا كتابة تاريخ امتنا ، تاريخ يلهب ويحمس ، ويدفع بنا الى الامام ، تاريخ يكون لدينا مثل الانجيل ، ويقرأ بنفس الحب والتقديس والاجلال ، تمجيدا للاجداد ، وحثا لأنفسنا على اقتفاء اثرهم ، لنكون جديرين بالانتساب اليهم ، ولنترك شيئا للاجيال المقبلة ، لاستمرار شخصيتنا !

« انّ هذا الفسخ والمسخ لروحنا ، وان هذا المحو لشخصيتنا وانيتنا ، وان هذه التبعية العقلية والعاطفية للاجنبى ، وهذا الانسلاخ عن الشعب ، كل هذا يؤدى الى حب التقليد للاجانب، وترك الشعب بعيدا ، بل يؤدى حتى الى خيانته وغدره ، وصراخ فى وجهه اذا ما نادى للرجوع الى اصله واحترام أصالته !

« وهذه التبعية نجدها احيانا تختفى ، وتتستر، وترتدى اردية مختلفة تتقنع بها • ولكنها تنكشف فى النهاية ، مهما كان مخبؤها عميقا ! »

3) — وعن العنصر الثالث للشخصية وحياة الامة ، **وهو حب الوطن ، يقول فيخته :**

« فكما ان الدين هو العنصر الدائم لحياتنا الروحية العليا كحياة روحية بمعنى الكلمة ، فان حب الوطن هو العنصر الدائم والاساسى لحياتنا المدنية كمواطنين » •

ثم يتساءل فيخته من هو الوطنى ؟

ويجيب :

« ان الوطنى هو الذى يعمل على تحقيق هدف الانسانية قبل كل شىء فى امته التى هو عضو منها • ان الوطن خالد ، هذا الوطن الارضى الحسى الذى نحن فيه ، وان الذى لا يحب وطنه ليس له وطن ، وانى لأرثى كل الرثاء لمن لا وطن له !

« ان الذى يريد الخلود لنفسه لا بد ان يريده لوطنه ، وان الوطن لخالد ، والحب لا يتعلق الا بالخالدات ، والذى يريد هذا الخلود لوطنه ارادة حقة يدركه لا محالة !

« انظر فقط الى مثل الرومان وتمجيدهم لروماء، لانهم كانوا يرون فيها الخلود ، لها ، ولأنفسهم من خلالها ، ولكل ما تمثل من قيم فى نظرهم ! وقد تحقق لهم ذلك ! فكل ما فى روما حقيقة خالد، لانها ارادة شعب كامل اراد لها ذلك الخلود !

« ونحن الالمان ، كيف كنا سنصبح تحت حكم الرومان الذين كانوا يزحفون علينا لاحتلال أرضنا ، ومحو لغتنا ، والقضاء على ثقافتنا ، لولا حب الوطن هذا ، ولولا رغبة الخلود لدى اسلافنا ، ولولا كفاحهم الطويل المرير ؟

« لقد حاول الرومان ان يغدقوا علينا نعمهم كلها ، التى كانت تتمثل فى الالقاب ، وفى ثقافتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم ، مع العبودية ، لتعويضنا بذلك كله عن حريتنا ، وثقافتنا ، ولغتنا ، وعاداتنا •

« ولكن اسلافنا اعتبروا جميع تلك النعم نقما، وقاوموا ، وتشبثوا بلغتهم ، وثقافتهم ، وعاداتهم، وحريتهم ، وبفضل كفاحهم ورغبتهم في الخلود بقينا من نحن ، أي الالمان الى الابد ، ولاسلافنا أولئك تدين أيضا حتى تلك القبائل والشعوب الجرمانية الاخرى التي لم يمحها الرومان من الوجود.

« وعلينا يقع اليوم عبء ومسؤولية العمل على ازالة شبح العبودية الجديدة في شكل الرومان ، الجدد ، الذين يريدون ان يمحوا كياننا ! »

« علينا ان ندافع عن ثقافتنا ، وأصالتنا ، ولغتنا ، حتى نبقى دائما المانا ونضمن الخلود لانفسنا وأبنائنا ، واحفاد أحفادنا الى أبد الآبدين ولنبقى من نحن ، بجميع مقوماتنا وعناصر كياننا، أي ان نبقى المانا ! »

« وانا سنتغلب في النهاية ، لان النصر ليس للقوة المادية ، ولا لكثرة الاسلحة وتنوعها ، بل للقوة الروحية ، للعزم وارادة الخلود ! » .

ويمضي فيخته فيقول :

« أرجو ــ وربما اخطات في هذا الرجاء ولكن بما انى لا أريد ان أبقى حيا بعد اليوم الا من أجل هذا الرجاء ، لا اريد الا ان اتمسك به ، وهو ــ ان أقنع بعض الالمان **بان التربية وحدها هي التي ستخرجنا من هذا المازق ، وتنقذنا من جميع هذه المصائب التي بلينا بها، وليضحك كل من تساوره نفسه بالضحك من هذا الامل ، وليسخر بي ان شاء ! » .**

« ان الاشياء باسبابها . ونحن نعرف الاسباب التي أدت بنا الى ما نحن عليه الآن ، وهو الاهمال والتهاون . ولكن هذا الاهمال كان في الماضي ، ولنترك الماضي ماضيا لانه خارج طاقتنا » .

« واذا كان الحاضر ايضا ليس في وسعنا لانه نتيجة لذلك الماضي ، فان المستقبل بايدينا ، وعلينا ابتداء من اليوم ان نعد انفسنا لمستقبل جدير بنا وبامتنا ، وكل من تتجاوز اهتماماته البحث عن الخبز فقط مطالب بان يساهم في هذا التجنيد لاعداد المستقبل،وليكن المسؤولون الاولون في الدولة ومساعدوهم ومستشاروهم على راس العاملين لهذا المستقبل حتى نرى في حياتنا ذلك اليوم الذي يمحى فيه العار الذي الحق بالاسم الالماني وبالمانيا محوا نهائيا والى الابد ! » .

« ان التربية فقط هي التي تستطيع ان تنقذنا من هذه الهمجية الانحلالية الزاحفة علينا ، ولذا يتحتم على جميع الالمان الذين يتمتعون بمعرفة الالمانية وليس فقط بالجنسية الالمانية ان يعملوا من اجل هذا الهدف الوطني المشترك بين جميع الدول والدويلات الالمانية اللغة ! » .

« ان هذه التربية ينبغي طبعا ان تكون باللغة الالمانية ، والمعلمون ينبغي ان يعلموا بالالمانية ، والكتب الدراسية تكون بالالمانية وذلك انى لا أتصور كيف يكون الامر غير ذلك ! انى لا أتصور أن تكون هذه التربية بلغة اخرى غير الالمانية ، انى لا أتصور أن يعلم المعلمون وتؤلف الكتب الدراسية بلغة اخرى غير اللغة الالمانية ، ايـة كانت هذه اللغة ! » .

« ان هذه التربية يجب ان تكون وطنية بمعنى الكلمة لا مواد اجنبية مترجمة ، بل باللغة الالمانية، تتدفق من ينابيعها ، وتستمد قوتها من حياة هذه اللغة ، التى سميناها القوة الطبيعية للامة !»

« انى ادعو الدول الالمانية الى التسابق فى هذا المجال . وان الفضل سيكون للتى ستأخذ المبادرة وستتلوها جميع الدويلات الالمانية الاخرى ، معترفة لها بالجميل والتقدير والاحترام ، وشاكرة لها قصب السبق كاكبر محسن الى الامة كلها ! »

وهنا نفتح القوس لنقول ان هذا النداء كان يمكن ان يوجه ايضا الى العالم العربى فى جملته ليحيى العربية الفصحى ويعممها اذا كان يريد لها ان تكون لغة دولية حية :

يحكى الكاتب المصرى عفيفى فى كتابه «تاريخ المستشرقين » ان مستشرقا المانيا كبيرا ـ واظنه فيما اذكر فريتاج او ليتمان ـ فى احدى زياراته للمغرب الشقيق خرج مرة الى البادية ليتفسح ، ولما اراد فى المساء ان يعود الى المدينة اخذ يبحث عن سيارة ايجار ، ولما لم يجد عاد يبحث عن حمار ويقول : « اود ان استاجر حمارا » « بودى ان اكترى حمارا اعود به الى المدينة » ، الخ ، وحاول بجميع الصيغ الممكنة ليعبر عن رغبته فلم يفهمه احد ، ثم عاد راجلا الى المدينة ولم يصل الا فى وقت متاخر من الليل عند مستضيفه المغربى » .

ولما حكى قصته وسبب تاخره قال له صديقه المغربى :

« طبعا لا يمكن ان يفهمك احد ان تكلمت بالفصحى ، فكان ينبغى ان تقول : نحب داب ! »

ولما عاد المستشرق الالمانى الى بلاده كتب يقول « يا حسرتاه على عمر قضيته فى تعلم لغة لم توصلنى فى النهاية حتى الى ركوب حمار » .

وهذه الحكاية كان يمكن ان تحدث طبعا فى اية بلاد مغربية أخرى ، بل وشرقية أيضا .

ولذا نتساءل هنا ولا نفهم : لماذا لا تزال الجامعات الشرقية ـ عدا الجامعة السورية ـ تدرس باللغة العامية والانجليزية ؟ الى متى تبقى الجامعات الشرقية ـ عدا الجامعة السورية ـ تدرس بالانجليزية والجامعات المغربية بالفرنسية ؟ كيف يمكن لهذه اللغة العربية ان تحتل مكانتها بين اللغات العالمية الحية الكبرى ؟

فيما نعلم تدرس الجامعة السورية ـ وهى الوحيدة ـ جميع المواد بالعربية . هل المستوى فيها أقل مما هو في أخواتها فى بقية العالم العربى ؟

ولنغلق القوس لنعود الى فيخته الذى يقول بالحرف :

« ان الموقف خطير ، وانى لا امزح . ولست هنا لاحكى لكم النكتة الاخيرة . هذه العادة السيئة التى بدأت تتفشى لدينا ! وذلك ان الامة الالمانية أمة مهددة فى كيانها وانيتها المميزة لها عن الغير!»

« ان اللغة تسير جنبا الى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال ، يفقد لغته بصورة آلية وحتى اذا لم يفقدها ، فلا يمكن ان يكون لها أدب ، وذلك انه اى أدب يمكن ان يكون لشعب فقد استقلاله السياسى ؟ » .

« كما ان الذى يفقد لغته ينتهى به الامر الى الذوبان ، كما ذكرناه آنفا ، وذلك ان اللغة هى القوة الطبيعية الاولى لامة ما ، فهى صدى روحها واصالتها ، وهى لسان شخصيتها والحافظة

لتراثها ، والضامنة لاستمرارها الروحى ، والرابطة بين أجيالها الى آخر الايام ! » .

« **ان العبد ياخذ لغة سيده ، ألا نرى الآن ادباء لنا وقد بداوا يتسابقون الى الكتابة بلغة المحتل، للمدح والتملق والتقرب ؟ ماذا سيكون المصير بعد جيل أو جيلين أو ثلاثة ؟ » .**

« **ان التاريخ يعلمنا انه كلما وجدت امة من الامم الا وكانت لها لغتها الخاصة ، وان فقدانها لهذه اللغة يؤدى بها لا محالة الى فقدان وعيها وأنيتها وذاتيتها ، لان المحتل يحرص دائما على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيلة الاتصال التى هى صدى اسلافهم ، والقوة الطبيعية الحية لامتهم ، اذ ان اللغة المكتوبة هى الاسمنت الذى يضمن تماسك الوحدة الوطنية ، وهى العروة الوثقى التى تربط بين الاحياء وتصل بالاموات ، ويكتب بها سجل الامم ! » .**

« **ان شخصية امة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا ، بل هى شجرة تضرب بجذورها فى اعماق تلك الامة ، وان عظمة امة من الامم** ليست فى المظاهر العابرة، وعبقرية الرجال لا تقاس بالتماثيل التى تقام لهم ، ولا بالتصفيق والهتاف اللذين يقابلون بهما ، ولا هى فى الالقاب التى يسبغونها على انفسهم ، وانما تقاس بالاعمال التى يقومون بها وتتمثل فى راحة ضميرهم، وحكم الاجيال وسجل التاريخ ! » .

« ولذا لا افهم هؤلاء الذين يتملقون هذا العبقرى العظيم الذى يريدون ان يسندوا اليه مهمة العالم وتسيير الشؤون الدولية ! » .

« ان هؤلاء المساكين لا يعرفون معنى العظمة والعبقرية ! » .

وفيلسوفنا هنا يقصد مواطنه الشاعر غوته والعالم هومبولدت والفيلسوف هيجل الذين هللوا بنابليون الذى غزا بلادهم واحتلها، ورحبوا به فى ربوعهم مهنئين معجبين بما ينسبونه له من روح عالية سامية ، يجرون اليه ويطلبون مقابلته فى الوقت الذى كان هناك آخرون مثل فيخته وشيللر وبيتهوفن يرفضون كل اتصال به ويكرسون كل طاقتهم ، كل فى ميدانه ، للتنديد به والسخط عليه ونداء الشعب الالمانى الى ازاحة ذلك الكابوس عن نفسه ، وطرد المعتدى من بلاده .

وعندما كتبت اليه زوجته وهو بعيد عن برلين تخبره بمقابلة هومبولدت لنابليون ، اجابها فيخته : « **انى لن يحصل لى أبدا مثل هذا الشرف المخزى ! »** .

ويمضى فيخته فيقول لهؤلاء المتملقين ـ كما يسميهم ـ : « لا ، أيها الالمان ، أيها المواطنون ، لا نسمح لكم بهذا الهراء ، ولا نترككم تدنسون لغتنا الى هذا الحد بتملقكم هذا وهى التى خلقت للتعبير عن الحقيقة ! » .

ويختم فيخته نداءه هذا الى امته بقوله :

« أيتها الامة ، أيها الالمان ، استمروا فى نومكم وتهاونكم ، حتى تفقدوا جنسيتكم ولغتكم ، وان ابناءكم هم الذين سيدفعون ثمن تهاونكم هذا ! أفقدوا أعز ما يملكه الانسان ، الخلق ، وذوبوا فى غيركم ! » .

« لا ، أيها المواطنون ، بل قوموا ودافعوا عـن بلادكم وشخصيتكم ولغتكم ، وثقوا ان أصـوات الاجداد الذين طردوا الرومان من هذه الربوع ، وحرروا هذه الجبال والسهـول والانهار تمتزج الآن ، فى هذه اللحظة ، بندائى هذا اليكم لتحثكم على انقاذ اصالتكم ولغتكم ، واسترجاع حريتكم ، والا تلحقوا بهم العار والشنار » ٠

« قوموا ، ان مصير الانسانية كلها مرتبط بكم ومتوقف على مصيركم ، واذا غرقتـم فستغرقون الانسانية كلها ! » ٠

« هل تعرفون شيئا ادهى من الموت ؟ انـــه ينتظرنا على كل حال ، قمنا أم لم نقم ٠ وقدضحت شعوب بحياتها لمسائـل أقل أهمية بكثير مـن قضيتنا ٠ وهل هناك قضية أهم من هذه ؟ » ٠

« هذا ما أردت ان اقوله لكم ، واؤكده ، وكان واجبا على ان أقوله واؤكده !» ٠

وبهذا ختم نداءه الى امته وذهب ليتطـوع فى الجيش وتبعه اغلب تلامذته من جامعة برلين ، كما تبعته زوجته ، ولكنه لم يقبل فى الجيش ، ورجـع الى الجامعة يحاضر ، ويوجه نداءاته وينتقل مـن جامعة الى أخرى ، ثم اعاد الكرة ورفض مـــن جديد ، ولكن زوجته قبلت كممرضة فى احـــد مراكز الجرحى ومرضى الاعصاب من الجيش فـى برلين ، فاصيبت بعدوى ومرضت ، وتهوش العناية بها ظل فيخته يحاضر ويوجه نداءاته فى جامعة برلين ، ليسكت بصوته طبول نابليون ومزامـيره وهى تضج حول الجامعة ، وفى احدى المرات قفـل الى البيت مهرولا فوجد زوجته فى حالة سيئة وقد تفاقم مرضها، فأخذته الشفقة عليها واقترب منها كثيرا يسالها عن حالها ، فاصابته العدوى ومرض بدوره !

وعند ما قدم له ابنه دواء قال له فيخته رافضا: « دع ، كفى ، انى انتهيت » ومات فى سبيـــل مبادئه ووطنه بعد ان تحررت بلاده بايام قليلة ، وذلك فى 27 من يناير 1814 ، مرتاح الضميـر ، هادىء البال ، راضيا عن نفسه ، ولا يزال يعتبر حتى اليوم كاكبر انصار الحرية من بين الفلاسفة الالمان ، الى جانب استاذه كنط ، وصديقه شيللر، وصديق الجميع : الموسيقى الثائر الخالد : لودفيغ فان بيتهوفن ، الذى ظل يزمجر باقواله ، ويرعد بالحانه ، ويحرك العزائم والهمم ، انتصارا لبلاده، ولقضية الحرية ككل !

أيها السادة

قد يقول البعض ان هذا الحماس كله من طرف فيخته حماس مؤقت بالظروف التى احاطت بالمانيا اذ ذاك ، وان هذا لم يعد ينطبق على عصرنا هذا ، عصر تشابك المصالح والمجتمعات الدولية الكبرى والتقدم الصناعى ، الذى لم تعد فيه اللغة محملة بتلك الشحنة من العـواطف والانفعـالات ، وان المهم هو هذا التقدم الصناعى ، باية لغة كانت ، اذ ان اللغة ليست الا اداة لا غاية فى ذاتها ٠

وهنا أقول لا والف لا ! واحدث الادلة والتجارب لدى بعض الامم عديدة لتاكيد صحة ما نقول ٠

فلنستعرض استعراضا خاطفا بعض الامثلة •

ففى المانيا نفسها التى تكلمنا عنها وهى فى القرن التاسع عشر نجد ان فكر فيخته قد اخصب ولا تزال له فعاليته حتى اليوم ، على الاقل فى هذه النقطة التى تعنينا هنا وهى اللغة •

واكتفى هنا بمثل بسيط واحد ولكنه كله دلالة ومغزى فقد جاء فى جريدة دى فيلت الالمانية بتاريخ 25 ابريل 1968 خبر على الصفحة الاولى تحت عنـــوان :

« **لا بكالوريا مع «ضعيف»** فى اللغة الالمانية » ومفاده ان طالبة المانية فى التعليم الثانوى سقطت فى امتحان البكالوريا لانها حصلت على علامـــة « ضعيفة » فى اللغة الالمانية • فشكت امرها الى المحكمة الادارية الفيدرالية ضد حكومة مقاطعـة (هيسن) التى توجد فيها لجنة الامتحان ، ولـكن المحكمة الفيدرالية اصدرت حكمها بتأييد حكومة المنطقة المذكورة ولجنة الامتحان ضد الطالبـــة الضعيفة فى اللغة الالمانية !

وفى فرنسا نفسها ، ألا نقرأ يوميا فى جرائدها ومجلاتها مقالات ونداءات وصرخات تنذر بالخطر على اللغة الفرنسية ، وتخبر عن انشاء لجـــان ومنظمات،منها منظمة يشرف عليها رئيس الحكومة نفسه ؟ ألا نسمع عن تلك المنظمة القائمة عـــلى أساس اللغة والتى ستشمل بلدانا عـديـدة فى مختلف القارات ؟

ففى مايو 1968 ، نشر فى جريدة لوموند تحت عنوان « الدفاع عن اللغة الفرنسية » ، وهـــى سلسلة مقالات دائمة تصدر منذ سنوات بانتظام تحت هـذا الشعـار ، ان مجلسا دوليـا للغـة الفرنسية قد تكون وتنتمى اليه اغلب البلـــدان التى تدعى او تدعو نفسها بالفرنكوفونية • وان هذا المجلس الدولى بدأ عمله وبصفة رسمية فى قصر فرساى فى اكتوبر من العام نفسه ، وان هذا المجلس الاعلى للغة الفرنسية سيصـــــدر القاموس العالمى للغة الفرنسية يشارك فى تحريره علماء من جميع تلك البـلاد ، واخـيرا ان « دارا للغة الفرنسية » ، وهى مقر هذا المجلس، ستدشن قريبا فى باريس •

وفى اسرائيل ما هو الوضع ، وكيف حلت حثالة البشرية مشكلة اللغة لخليطها المزركش ؟ لنستمع الى ما نشرته جريدة لوموند بتاريخ 15 يونيه 1965 ، لقد نشرت مقالا لنكولاى بوديـــه يلخص فيه فصلا من كتاب كان ينوى اصـــداره عن اسرائيل ، وهذا الفصل يلخص جهود اليهود ثم اسرائيل لاحياء لغة ميتة ـ كما تقول الجريدة نفسها فى مقدمتها لهذا المقال ـ وهذه اللغـــة الميتة هى كما تعلمون العبرية !

يقول مؤلف الكتاب : « انه اذا كان الدين فى اسرائيل من الشؤون الخاصة لكل فرد ، فـــان التوراة ملك مشترك بين جميع المواطنين ، بل هى دستور هذه الدولة اللادينية • وجاء فى اعـــلان استقلال اسرائيل ما يلى : « ستقوم دولة اسرائيل على مبادىء الحرية والعدالة والسلم كما كـــان يفهمها انبياء اسرائيل • »

« ان هذه الدولة ليس لها دستور ، ولكن دستورها العملي هو التوراة ، ومن حين لآخر تصدر قوانين جزئية حسب الحاجة .

« ان الشيء الاول الذى يلفت النظر في اسرائيل هو هذا المجهود الجبار المبذول لاحياء تراثها ، لاحياء التوراة : فالمهاجرون المثقفون الذين جاؤوا من اوروبا والآخرون الذين يجرون جلابيبهم الشرقية ، اذا كانوا يختلفون في هذه الاشياء او تلك ، فهم يجمعهم شيء على الاقل : وهو انهم كلهم يتكلمون العبرية ويسكنون في بلاد تقوم كل حياتها على اساس التوراة !

« انهم احيوا لغة مشتركة بينهم ماتت منذ ما يقرب من الفي سنة !

« لقد كانت لأغلبية المهاجرين اليهود الى ارض فلسطين لغة في روسيا وبولونيا واوروبا الشرقية عامة . وقد كانت لهذه اللغة آدابها . ولكنهم تركوها وآدابها ليحيوا لغة اخرى ماتت عمليا منذ نحو الفي سنة. الا وهي العبرية . وهذا الاحياء الذى يبدو لأول وهلة اصطناعيا هو الطابع الاساسي والاكثر أصالة لاسرائيل والاكثر اقناعا بوجودها كدولة وامة .

« فكم من مدينة ونهر وشارع لها اسماء ماخوذة من التوراة ، وطوابع البريد والعملة تستعمل رموزا توراتية ، وعربات النقل «الاتوبيسات» ترفع شعارات واعلاما توراتية ، والاذاعة تبدأ وتنهي نشراتها بتلاوة نصوص من التوراة ، والتلامذة في المدارس بجميع انواعها يكرسون نحو ثلاثين في المائة من مجموع دروسهم لقراءة وشرح التوراة ، التي هي البداية والنهاية وجمع الجوامع في نظرهم .

« وفي ظرف الثماني سنوات التي يستغرقها التعليم الاجباري أي الابتدائي يكون التلميذ الاسرائيلي قد قرأ وفهم التوراة تقريبا من ألفها الى يائها وحفظ جزءا كبيرا وتعود على شروح أهم مفسريها ! » .

المسابقة الوطنية والدولية حول التوراة التي تنظم سنويا في الهواء الطلق .

« والذي يلفت النظر في هذا هو ان الاسرائليين غير المتدينين او احرار الفكر ـ كما يقال ، يعكفون على دراسة التوراة بنفس الحماس ، وذلك من وجهة نظر وطنية وتاريخية واخلاقية وادبية او حتى أثرية !

« وفي الوزارات ومختلف الادارات تتكون حلقات منتظمة لدراسة التوراة ، حلقات تضم اناسا من القمة الى القاعدة في جهاز الدولة .

« واكثر هذه الظاهرة كلها دلالة على اهتمام الشعب كله بالتوراة هي المسابقة المنظمة سنويا داخل الجامعة العبرية في القدس والتي يتتبعها باهتمام أكثر من ستين في المائة من مجموع السكان وثمانين في المائة من كبارهم .

« وحتى في الابحاث الجيولوجية والاثرية والنباتية والزراعية بصفة عامة تلعب التوراة دورا اساسيا ، بل وحتى الستراتيجية العسكرية

تستقى من التوراة معلومات وذلك باستمـرار وبصفة دائمة !

« حقا انا نجد فى كثير من بلدان العالم اسماء عبرية مستقاة من التوراة وتطلق على مؤلفات ادبية واعمال فنية ومسرحيات ، الخ . ولكن الذى يزيد هذا اهمية ويعطيه صدى اكثر فى اسرائيل هو اللغة ، هذه اللغة التى كانت قد فقدت طابعها كلغة حية ولم يعد نتكلم بها منذ اكثر من الفى سنة ، ها هى تعود الى الوجود والحياة بصورة غاية فى النجاح !

« لقد انشئت اول مدرسة ابتدائية لاحياء هذه اللغة سنة 1888 . وخلق لها منشؤها اليازر بن يهودا مفردات جديدة بذل كل الجهد فى ايجادها ، ومن هذه المدرسة الابتدائية ، من هذه النواة البدائية ، انطلق خط مستقيم متواصل ادى فى النهاية الى تاسيس الجامعات الاربع التى نجدها اليوم فى اسرائيل !

« واستمر هذا الجهد فى خلق مفردات حية على اساس القديم لمسايرة الركب الحضارى وتطور العلوم ، ويوجد منذ سنة 1953 المجمع العلمى للغة العبرية والى جانبه كون ايضا مجلس اعلى للغة يشمل نحو اربعين لجنة مخصصة فى مختلف الميادين العلمية والتقنية والادبية والفنية وغيرها لانشاء واشتقاق المفردات الجديدة حسب الحاجة ووفقا لروح اللغة وعبقريتها ، وبعد ان يتم الاتفاق على صلاحية تلك المفردات تنشر فى الجريدة الرسمية ويصبح استعمالها اجباريا فى جميع دواليب واجهزة الدولة . »

اما فى فيتنام المكافح المناضل منذ اكثر من عشرين سنة فان لغة المعاهد والكليات والمعامل النشيطة تحت الارض والمعرضة فى كل وقت للقنبلة والتدمير ليست الا الفيتنامية والفيتنامية وحدها ، وهذا لجميع المواد بدون استثناء . وقد استاصلوا من لغتهم جميع الكلمات الاجنبية ، حتى الكلمات الواردة اليهم من البلاد الصديقة المجاورة !

ولكن هذه البلاد كلها الى جانب مشاكل البناء والتشييد لا ينازع فيها احد فى هذه الحقيقة الناصعة التى عبر عنها رونى ماهو ، المدير العام لليونسكو ، فى حديث له لمجلة جون افريك سنة 1964 ، ونص كلمته حرفيا :

« ان الامة التى لا تؤمن بنفسها لا وجود لها ، وذلك انه لا يكفى ان يكون لها سفراء ، ورئيس دولة ، وعلم ، وموظفو الجمارك ، الخ . فاذا لم يكن لشعبها طابع خاص به يعبر به عن نفسه وخصائصه ومميزاته وطرقه الخاصة به فى الحياة فلا وجود له،واستقلاله استقلال سطحى لا يدوم. ان الطريقة الوحيدة لأى شعب من الشعوب لان يعبر عن وجوده هى الثقافة ، والوعى بالطابع الخاص الذى يميزه عن غيره ! » .

وما هى هذه الثقافة ، وما هو هذا الطابع الخاص وتلك المميزات اذا لم تكن اللغة من بينها ؟ وان جمال الدين الافغانى هو الذى كان يقول قبل رونى ماهو بنحو قرن :

« لا سبيل الى تمييز امة عن اخرى الا بلغتها ، وهذا الامر من الوضوح والظهور للعيان ما لا يحتاج معه الى دليل او برهان » !

واذا أردنا الآن ان نخلص الى الجزائر ونلقى نظرة فاحصة سريعة على مراحل تطورها في هذا المجال وجدنا انها مثل اخواتها من البلاد الشقيقة كانت لها مساهمتها في التراث العربي الاسلامي المشترك ، ومن خلال التراث الانساني العالمي ، فكانت لها جامعاتها وكان لها علماؤها ، وكانت هذه الجامعات يؤمها علماء وفلاسفة من الغرب في القرون الوسطى وبدء النهضة .

ولا نذكر منهم الآن الا اثنين ، احدهما ، ويؤسفنى الا أتذكر اسمه بالضبط الآن ، لان ذلك من قراءات قديمة وليس لدى الآن المرجع ، لكنى أظن انه الاخضرى ، وكان عالم كيمياء ، وكتابه كان يدرس فى جامعة منبوليى فى فرنسا . والعالم الثانى كان ريمون لول الذى جاء الى الجزائر ليدرس العربية والمنطق فى بجاية ، وهو صاحب الكتاب « الفن الكبير Ars Magna » المعروف فى المنطق .

وقد استمر ازدهار تلك الجامعات حتى الى قرب الاحتلال الفرنسى الذى وجد آثارها حية .

ففى كتابه « التعليم فى الجزائر » يقول المؤرخ الفرنسى : بولار Poulard

«L'enseignement en Algérie avant 1830»

كانت للجزائر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة كانت تدرس فيها الفلسفة والآداب والعلوم المختلفة من طب وفلك وطبيعة وسياسة وغيرها من طرف أساتذة لامعين.

وقال السيناتور كومب فى مجلس الشيوخ الفرنسى ما يلى : ان الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها أكثر من الفى معهد ثانوى وعالى . ويضيف فالسن Walsin Esterhazy وأوربان Urbain فى عدد يوليو (سبتمبر) 1955 من « مجلة التاريخ الحديث والمعاصر » تحت عنوان : « الحالة الثقافية والاخلاقية فى الجزائر سنة 1830 » .

« ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1830 كانت أقل منها فى فرنسا بالنسبة لتعداد السكان ، أى أنها كانت أعلى فى فرنسا ! » .

ويضيف بولار الذى ذكرناه آنفا : « ان احتلال فرنسا للجزائر احدث فوضى عامة فى ذلك العالم من العلماء والمفكرين ، وكثير منهم تركوا البلاد ».

وكانت تلك الثقافة طبعا بالعربية وطيلة العهد الاستعمارى خنقت العربية ومنع تعليمها وكانت المدارس العربية تغلق وأموالها تصادر ، ومعلموها يلقى بهم فى السجون والمنافى .

ولم يكن هدف الاستعمار من خنق العربية محو الشخصية الجزائرية واحلال الفرنسية محلها فحسب بل كان ايضا يرمى الى الجهل واسدال ستار الظلمات على الجزائر وفصلها عن العالم العربى والعالم كله ، ولم يكن يسمح حتى بتعليم الفرنسية الا بقدر ما يحتاج اليه من أعوان له فى مهمته بقصد الخلود ، وتدلنا على هذا الاحصائيات الفرنسية الرسمية سنة 1955 ،

ص 44 الى 46 ، التى تقول ان نسبة الامية فى الجزائر سنة 1954 بلغت 94 ٪ بين الرجال و96 ٪ بين النساء .

وقام ابن باديس ليصرخ فى وجه الاستعمار وليوجه نداءه الى الامة الجزائرية ، ذلك النداء الذى يشبه كثيرا نداء فيخته الى أمته ، الذى يتلخص فى قوله المشهور من « ان الجزائر ، لم تكن فرنسا وليست فرنسا ولا يمكن ان تكون فرنسا ، ولا تريد ان تكون فرنسا » تلك الجمل الثلاث الخالدة التى يتلخص فيها جل ما قاله فيخته ، وهى :

« الجزائر وطنى والاسلام دينى والعربية لغتى » وواصل مهمته بعد وفاته أخوه الابراهيمى ، وكلماته فى موقف الاستعمار من الجزائر ولغتها معروفة مشهورة ، ولسنا فى حاجة الى اعادة ذكرها الآن وقد سمعنا جزءا منها فى ذكراه منذ الكفاح الثورى المسلح الى ان تحررت بلادنا واسترجعت كل امكانيات العمل لتصحيح الوضع واعادة المياه الى مجاريها ووصل الخيط حيث قطعه العهد الاستعمارى الطويل .

وليس غريبا ان تصبح العربية على ما اصبحت عليه بعد قرن وربع قرن احتلال من أبشع الاحتلالات خلال التاريخ ، خاصة اذا ما تذكرنا ما قاله فيخته عن الالمان وخوفه من فقدهم للغتهم وهم لم يروا من احتلال نابليون الا بضع سنوات معدودة .

ولكن الغريب الا نتصدى نحن الآن بكل حزم لكل من يريد ان يماطل ويؤجل ويؤخر يوم اعادة هذه المياه الى مجاريها الطبيعية ، بدعاو ومزاعم فى غاية السخف والتناقض مع التاريخ، والتعارض مع تجارب الامم .

ان دعوى هذه الغربان التى اكل عليها الاستقلال وشرب ، أو ينبغى ان يفعل ، هى ان اللغة ليست الا أداة ، والعربية كأداة لمسايرة الركب الحضارى والتقدم التقنى غير متهيئة وغير صالحة على الاقل فى مرحلتها الحالية ، ولذا ينبغى فى نظرهم التمهل وعدم التسرع وانتظار الغد البعيد ! .

واصحاب هذه المزاعم هم فى الواقع رهناء المحبس ، وسجناء الماضى غير البعيد ! بل هم يتجاوزون حدود الجزائر فى زعمهم هذا الى حد الرغبة فى شمول سائر أنحاء العالم بلغة مستعمر الامس ، التى هى لغة ثقافية حقا ، ولكنها اجنبية لا تأتى الا فى الدرجة الثانية بعد اللغة القومية .

وهنا لا بأس بذكر نكتتين ، أو ثلاث ، احداها وقعت فى الجزائر فعلا ، وقد كنت كتبت ذلك فى ديسمبر 1962 ، والثانية والثالثة على سبيل التمثيل :

فقد وجهت احدى وزاراتنا فى اواخر سنة 1962 أى بعد تاسيس الحكومة الاولى فى عهد الاستقلال رسالة الى اليمن باللغة الفرنسية ، وقد كتبت اذ ذاك فى « المجاهد » مقالات منها : تعريب الامخاخ والقلوب قبل تعريب « الالسنة » وذكرت هذا المثل وتساءلت : متى تسللت الفرنسية الى بلاد السلال ؟ .

ولقد شاهدت فى الخارج نموذجا آخر من هذا النوع من ضحايا العهد الاستعمارى لدينا • فهم يتوقعون من العالم كله ان يتكلم الفرنسية مثلهم، وعندما يأتون الى بلاد اجنبية أخرى خارج المنطقة الفرنكوفونية يستغربون من عدم تكلم الناس هناك بالفرنسية ! ويرون كل شىء من خلال منظارهم ذلك ! •

وبعض هؤلاء المواطنين عاشوا سنوات فى بلدان اجنبية طيلة كفاحنا المسلح أو قبله أو بعده ولم يكلفوا انفسهم عنت تعلم لغة البلاد ، وربما كانوا ينتظرون ان تتعلم تلك البلدان اللغة الفرنسية عنهم ! •

انهم يشبهون ذلك الاسبانى الذى تروى عنه مقدمة كتاب لانقانشايد Langenscheidt لتعلم اللغة الدانماركية من ان اسبانيا عاش فى كوبنهاجن أكثر من عشرين سنة ولم يتعلم اللغة الدانماركية وعندما زاره بعد طول هذه المدة صديق له من اسبانيا وسأله عن الدنماركيين . اجابه صاحبنا بقوله : « انهم يا أخى احمرة ! انى هنا بين ظهرانيهم منذ عشرين سنة ولم يتعلموا الاسبانية بعد ! » •

ان هذه الضحايا للعهد البائد تدعى ان اللغة العربية قد تجمدت ، وتوعكت اعصابها ، وشاخت عروقها ، ولم تعد فى حالتها هذه صالحة لتدريس العلوم الحديثة بها ! » •

وهل هناك مقارنة بين موت العبرية ، وتجمد العربية ؟ ومع ذلك فقد رأينا كيف اجتازت اللغة العبرية بفضل ارادة المتكلمين بها أو الذين ارادوا احياءها والتكلم بها فى طفرة ـ اجتازت فراغا يمتد الى اكثر من ألفى سنة ، أى الى وقت لم تكن تعرف فيه العلوم ! أى انها لم تعرفها قط فى الماضى ! •

اذا كان هذا حال العبرية فكيف بالعربية التى كانت لغة العلوم والفلسفة والحضارة فى العصور الوسطى وبدء النهضة الاوروبية ؟ •

لنستمع الى ما تقوله المؤلفة الالمانية سيجريد هونكه فى كتابها : « شمس الله تسطع على الغرب » عن العربية والعلوم :

« قبل ستة قرون كانت مكتبة كلية الطب فى باريس اصغر مكتبة فى الارض ، اذ كانت تتكون من كتاب واحد مستعار ، استعاره الملك الفرنسى لويس الحادى عشر مقابل 12 ماركا ذهبيا ومائة ثالر فضى لينسخ له منه اطباؤه الخواص نسخا يرجعون اليها كلما اصابه مصاب أو احس بوعكة ما ، ولا يزال طلبة كلية الطب الجديدة فى شارع سان جرمان دى برى فى باريس يرنون فى مرورهم نحو مدرجات الكلية الى تمثال قائم فى بهو الكلية وهذا التمثال لمؤلف الكتاب المذكور . وهو واحد من أكبر أطباء جميع الامكنة والازمنة : انه أبو بكر بن محمد زكريا الرازى ! » •

وتضيف المؤلفة الالمانية فتقول : « وكان يقال عن اى طبيب ماهر فى أوروبا انه روح ابن سينا » « Anima Avicennae » وهذا حتى القرن السابع عشر ! •

« ونظريات ابن سينا فى الجيولوجيا وكتابه عن المعادن بقوا المرجع الاساسى لاوروبا حتى القرن الثامن عشر » .

اما كتابه القانون فى الطب ، فقد ذكر المؤرخ الفرنسى للفلسفة Picavet medievales.
فى كتابه:
Esquisse d'une histoire générale et comparée des philosophes
انه كان يدرس فى جامعة لوفـــان ببلجيكا حتى سنة 1909 ! نعم ، 1909 ! .

ونعود الى المؤلفة الالمانية اذ تقول : « ان العرب الذين ازدهرت جامعاتهم منذ القرن التاسع الميلادى هم الذين أمدونا بنموذج الجامعات وتقسيمها الى الكليات المختلفة ، والحاق الفروع الضرورية بكل كلية مثل المستشفيات والمخابر لاجراء التجارب ، ومنهم تعلمنا اجراء الامتحانات ومنح الشهادات ، وعنهم اخذنا مناهج التعليم ، واخيرا : فمنهـــم أخذنا المحتوى أيضا ، ولم نتلق منهم الكأس فارغة بل بمحتواها ، تلقيناها مليئة بالراح المعتقة !

فالعرب هم الذين أنشأوا الكيمياء التجريبية ، والطبيعيات بالمعنى الحـالى ، والجبـر والمقابلـة والرياضيات وحساب المثلثات الكروية والجيولوجيا وعلم الاجتماع .

وفى الفلسفة ؟ الم يكن تأثير الفلاسفة المسلمين فاصلا فى تاريخ الفكر الفلسفى الاوروبى ؟

ولقد تكلم الغزالى عن الزمن والمكان فى احياء علوم الدين بقرون قبـــل كنط ، وان كان ليس بذلك التوسع والتفصيل ، وانية ابن سينا نجد لها صدى لدى كل من ديكارت وفيختة ، وعندما تقرأ بعض تعابير ديكارت وكنط عن حرية الاختيار تظن انك تسمع واصل ابن عطـاء وابا الهذيـل العلاف وابا اسحاق النظام يتكلمون ! واخيرا ، وليس آخرا ، ان ابن رشد قد سبق كنط بقرون الى القول بذلك الامر الجازم أو الالزامى المعروف !

وقد ظلت فلسفة ابن رشد هى محور الحديث فى جامعات بولونيا بايطاليا ، وكولونيا بالمانيا وفى السربون بفرنسا ! وكان طلبة الحى اللاتينى اذ ذاك بل والاساتذة ايضا قبل ان يبدأوا أية مناقشة فلسفية يسألون بعضهم بعضا كمدخل ولمعـرفة موقف الخصم مقدما : « هل أنت مع ابن رشد أو ضـــده ؟ » .

والذى يروى لنا هذا ليس ممن يعطفون بصفة خاصة على الاسلام والفلسفة الاسلامية ، ومـــع ذلك لم يجد بدا من التغلب على عواطفه والاعتراف بهذه الحقيقة .. انه أرنست رينان فى كتابه : ابن رشد والرشدية .

ويقول لنا مؤرخ الفلسفة الفرنسى المعـروف البير ريفو Albert Rivaud فى كتابه (تاريخ الفلسفة) : « أن تأثير الفلسفة الاسلامية عـــلى الاوروبية ظل سائدا حتى أوائل القرن التاســع عشر ! » .

والآن أيها السادة ، نتساءل : ما هى اللغـــة التى عبر بها أولئك المسلمون عن جميع هـذه الجوانب المختلفة للكون والكائنات وما يربطهما من علاقـات ؟

انها العربية التي كانت ايضا اللغة السائدة في قصور ملوك النورمان وقياصرة ألمانيا فترة من الزمن !

لقد كان فيلهلم الثاني ملك صقلية ينتقى مساعديه واطباءه ووزراءه من بين العرب ، وكان هو نفسه يقرأ ويكتب ويتكلم العربية التي كانت لغة قصره .

ويذكر لنا ابن جبير الغرناطي في رحلته التي قام بها سنة 1185 الى بالرمو عاصمة صقلية بعد احتلالها من طرف النورمان ان نساء بالرمو المسيحيات يقلدن المسلمات لا في ملبسهن فقط ، بل وفي لغتهن ايضا ، فكن يتكلمن بالعربية !

وكان فريدريك الثاني الالماني ، ملك صقلية وقيصر الامبراطورية الالمانية الرومانية المقدسة وحفيد فريدريك بارباروسا الاول ، يتكلم العربية التي كان يجيدها كلغته الالمانية ، ودرس الفلسفة والجدل بالعربية لدى قاضى المسلمين المتبقين في بالرمو .

وهكذا فكما كانت الفرنسية هي اللغة الغالبة على اوروبا في القرن الثامن عشر وكانت لغة العصر في بروسيا في وقت فريدريك الكبير وفي عاصمة روسيا في وقت القيصرة كاترين ، كانت العربية هي لغة فيلهلم الثاني وروجي الثاني وخاصة فريدريك الثاني ، ملك صقلية وقيصر الامبراطورية الرومانية الالمانية المقدسة .

كما كانت العربية لغة العلم والفلسفة لدى علماء اوروبا الذين كانوا يحرصون على تعلمها في القرون الوسطى وبدء النهضة الاوروبية ، فتعلمها البرتوس ماقنوس وابيلاردوس في ألمانيا ، وتعلمها القديس الفيلسوف الايطالي توماس الاكويني .

اما في اسبانيا ، فزيادة عن ريمون لول الذي ذكرنا انه درس في الجزائر وانه صاحب الكتاب المعروف في المنطق « الفن الكبير » ، وعن الفيلسوف اليهودي الاندلسي موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد والاستاذ الروحي لسبينوزا وسائر الفلاسفة اليهود في مختلف انحاء اوروبا فيما بعد حتى القرن الثامن عشر ، الى جانب هؤلاء نجد ان العربية غزت سائر الاوساط الاسبانية ! لنستمع الى ما يقوله الكاتب الاسباني القديم الفارو في القرن التاسع الميلادي ، أي في عهد عبد الرحمن الثاني :

« ان ارباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الادب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها . ولقد ساء ذلك بعض كبار الاسبان فقال : ان اخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب واقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الاسلوب العربي الفصيح .

« فاين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والانجيل ؟ واين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والانبياء ؟ وا أسفاه ! ان الجيل الناشيء من المسيحيين الاذكياء لا يحسنون ادبا او لغة غير الادب العربي ،

ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الاثمان ، ويترنمون فى كل مكان بالثناء على الذخائر العربية، بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الاصغاء اليها ، محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات ! فيا للاسى ! ان المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلا تكاد تجد فيهم اليوم واحدا فى كل الف يكتب بها خطابا الى صديق ! أما لغة العرب فما اكثر الذين يحسنون التعبير بها على احسن أسلوب ! »

وتجدون هذا النص بالعربية فى كتاب العقاد « أثر العرب فى الحضارة الاوروبية » ، وهو نقله عن المستشرق الهولاندى المعروف رينهارت دوزى فى ص 317 من الجزء الاول من كتابه الكبير : « تاريخ مسلمى الاندلس » وهو نفسه نقله عن المجموعة الاسبانية الكبيرة لألفارو تحت عنوان : Indiculus Luminosus In Espana Sagrada المجلد الحادى عشر ، الصفحة الحادية عشرة . (وكتاب دوزى موجود بالمكتبة الوطنية) .

وبصفة عامة كانت العربية لغة الدراسة والبحث للكثير من العلماء والفلاسفة الاوروبيين الذين مهدوا لعصر النهضة التى ادت بدورها الى انطلاق اوروبا ، ذلك الانطلاق الذى لم يكن ليتم لولا منطلقه الحقيقى ألا وهى الحضارة الاسلامية التى كانت لغتها العربية !

هكذا تحس الامم بوخز الضمير يحركها ويوقظها ويعيد اليها الوعى بنفسها ! واظن ان الالم الذى يحز فى نفس هذا الاسبانى ينبغى ان نشعر به نحن ايضا تجاه لغتنا وثقافتنا .

ولقد اكد الرئيس بومدين هذه النقطة فى خطابه فى قسنطينة اخيرا بمناسبة تدشين جامعتها اذ قال :

« وكما حرصنا على استرجاع جميع مواردنا وثرواتنا المادية سنعمل على تعزيز هذا التكوين بتربية وطنية مثلى تساعدنا على استعادة جميع ثرواتنا المعنوية وعناصر شخصيتنا والمكونات الاساسية لذاتيتنا ، ومن اهمها الوسيلة الاولى للتعبير عن هذه الشخصية وتماسكها وازدهارها ، حسب عبقرية شعبنا وأصالته .

« وبدون استرجاع هذا العنصر الهام الذى هو عنصر اللغة فان مجهودنا سيظل ابتر ، وشخصيتنا ناقصة ، وذاتيتنا جسما بلا روح !

« وانه ليحلو لنا ونحن فى عاصمتنا الثقافية مركز الاشعاع الفكرى القومى طوال العهد الاستعمارى ان نؤكد هنا ما سبق ان قلناه من ان التربية مهما كانت راقية اذا لم تكن وطنية فليست بتربية ، وان التكوين مهما كان عاليا ، اذا لم يكن بلغة البلاد سيبقى ناقصا ابتر ، بل وربما ترتبت عنهما انحرافات تحيدنا عن الجادة ، وتفصلنا عن وجهتنا الصحيحة السليمة ، وان احلال لغتنا مكانتها الجديرة بها فى التعليم والادارة ومختلف مظاهر الحياة اليومية والقومية لا يقل اهمية فى نظرنا عن اى مشروع من مشاريعنا الثورية الكبرى ، كاعادة تنظيم اجهزة الدولة ، وتصنيع البلاد ، وتحقيق الثورة الزراعية .

« وذلك انلغتنا هي من اهم عناصر شخصيتنا، ولساننا الذي ينبغي ان نعبر به عنها ، وانها من اهم مطالب شعبنا طوال العهد الاستعماري ، واحد الاهداف الاساسية لنضالنا الطويل وثورتنا المجيدة .

« ونحن اذ نؤكد عزمنا هذا مرة اخرى نترك الى جانب ذلك جميع النوافذ مفتوحة على لغات وثقافات العالم الاخرى ، فهي تكميلية لنا ، بل وضرورية ، كما هي الحال بالنسبة لأية بلاد اخرى في العالم ، تنهل من جميع الثقافات ، ولكنها تمنح المكانة الاولى ثقافتها ولغتها الخاصتين بها ، واللتين هي بهما ما هي ، فهما اساس وجودها كامة ، وعنوان كيانها ، ورمز شخصيتها » .

وقد قررت الحكومة فعلا كخطوة اولى لبدء تحقيق هذا المشروع جعل معرفة لغتنا معرفة كافية شرطا لازما لتقلد اية وظيفة ابتداء من سنة 1971 .

كما ان وزارة التربية الوطنية من جهتها تبذل جهودها المتواصلة لتحقيق هذا الهدف ، بطريقة تضمن له النجاح .

ولكنا نرى ايضا ان هذه المهمة ، مهمة وطنية يجب ان يتجند لها جميع المواطنين ، وانه على كل منا ان يتحمل قسطه من هذا الواجب الوطني ، بتطبيق المبدأ على نفسه ، وعلى عائلته ، واقناع اصدقائه ، وزملائه في دائرة عمله واتصالاته بضرورة الاسراع الى تعلم اللغة القومية ، والا يعتذروا بقلة الوقت وكثرة العمل والمشاغل . فهذا لم يعد عذرا !

وليتعلموا من الاصدقاء والاعداء في هذا الميدان ، فقد رأينا جهود الفييتناميين ، كما نعرف مثل اسرائيل ، وكيف انّ جولدا مايير ، وبن غوريون ، وموشي شرتوك ، وليفي اشكول الذين هم من اصل بولوني وروسي ، وكيف ان ثيودور هرتزل النمساوي وابا ايبان المولود في جنوب افريقيا ، وموشي ديان المولود في فلسطين، كيف ان هؤلاء كلهم تعلموا العبرية ، وباستثناء هذا الاخير فالجميع تعلموها وهم في انحاء الدنيا المتناثرة المتباعدة ، وفي اغلب الاحيان في سن متقدمة ، وكيف ان الجامعة العبرية في القدس الشريف والجامعات الاسرائلية الثلاث الاخرى ومعهد وازيمان للذرة تدرس فيها جميع المواد بالعبرية ، وكيف ان افاقين وافدين من اكثر من مائة بلد من القارات الخمس احيوا لغة ماتت منذ الفي سنة ليجعلوا منها لغتهم الرابطة الحية لشملهم ، ولغة الاستعمال اليومي ، والتدريس ، والادارة ، والبحث والانتاج !

فليتجند لهذا الهدف الوطني كل من في امكانه القيام بشيء للاسهام في تحقيقه ، بالبدء بنفسه وعائلته واصدقائه ، وبالاقناع،والتوعية، والتنبيه ، والقدوة الحسنة ، او العدوى الايجابية، ليعمل كل منا في مجاله ودائرة نشاطه ، وبجهوده الخاصة ، وليضرب المثل العملي الحي في هذا الاتجاه كما لو كان تحقيق هذا الهدف

الوطنى العظيم مهمة ملقاة على عاتقه وحده ، وكمبشر ، وعليها وحدها كمبشرة ، متوقفا عليه وحده ، وعليها وحدها ، واذ ذاك فقط تكون لمساعى المسؤولين فى هذا المجال فعالية وقوة ، واذ ذاك فقط يوجد جو حماسى عام يكتنف جهود المسؤولين ويشجعهم على المضى بسرعة وتجاوز المراحل عوض الاكتفاء باجتيازها، وبأقصى سرعة ممكنة !

وبذلك فقط نكون قد دخلنا فى المرحلة الفاصلة الحاسمة لتحقيق هدفنا هذا،لاسترداد هذا العنصر الاساسى من شخصيتنا ، كما كان يقول فيخته ، هذه الأصالة القومية ، هذه الرابطة الوطنية المعززة والضامنة لوحدة الامة ، ألا وهى لغتنا التى تساهم فى اطارها فى الجهد الحضارى الانسانى المشترك ، والتى هى رمز شخصيتنا ، وعنوان حياتنا ، ولساننا الذى نفصح به عن وجودنا بين الامم ٠

دور اللغة العربية في الحفاظ على الشخصية الوطنية عبر التاريخ

من الثابت الذي لا شك فيه ان اللغة تعتبر من اهم العوامل في خلق وارساء الوحدة بين عناصر الشعب الواحد او بين شعوب الأمة الواحدة وتقوية او اصرها وشد عزمها على التآخي والتعاون ، ودفعها للسير قدما في مضمار التطور والالتحاق بقوافل الحضارة وهذا ما يثبته تاريخنا الاسلامي ونعيشه حاليا من تضامن بين الشعوب العربية ، في المشرق والمغرب .

من هذا المنطلق ، فان الجزائر ظلت محافظة على الثقافة العربية الاسلامية التي تقبلتها وانصهرت في بوتقتها منذ الفتح الاسلامي ، وعبر القرون التالية له اذ حافظت على هذه اللغة بصلابة نادرة المثيل ، ساهمت في اثراء التراث العربي الاسلامي بكثير من الانتاج والشروح والتعليقات والمؤلفات القيمة ، وانتفعت بالتيارات الثقافية العربية التي قدمت ليها من الاندلس ، والأقطار العربية الأخرى ، فازدهرت اللغة العربية بفضل هذه المدارس والجامعات الموجودة في كل من تلمسان ، ووهران ، وبجاية ، وقسنطينة ، والتي كانت مصدر اشعاع ثقافي باهر .

وهكذا أصبحت اللغة العربية جزءا من كيان لا ينفصل عن الشخصية القومية الجزائرية ، وأصبحت لتغلغلها في النفوس ومكانتها هي الوسيلة والاداة في التعامل في كل المجالات الادارية ، والعلمية ، والعسكرية .

وهكذا كانت جميع الوثائق الرسمية للدولة الجزائرية تصاغ بالعربية ؛ ومن امثلة ذلك الوثائق المتبادلة بين الأمير عبد القادر والعسكريين الفرنسيين الغزاة وهي الآن محفوظة بالمكتبة الوطنية لتثبت ان العربية ارتفعت فوق اللهجات وكانت دائما في الجزائر لغة الدولة والدين والوطن .

دور الزوايا والرباطات في الحفاظ على اللغة :

وابان العصور الوسطى انتشرت الزوايا والرباطات التي أدت الى حركات ثقافية قدر لها أن تستمر ردحا من الزمن وقد اشتهر بعضها بأسماء اصحابها واصبحت مركزا للأدب والامامة والارشاد ، ويكفي الاستشهاد بقول المؤرخ الفرنسي « بولارد » في كتابه « التعليم في الجزائر » اذ يقول : « كان في الجزائر في القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة ، وكان فيها أساتذة متمكنون في علوم الفلسفة ، والفقه ،

والآداب ، والطب ، والنحو ، والفلك ؛ وكانت المدارس منتشرة فى ربوع البلاد ، وكان التعليم فيها دينيا ومدنيا . » وجاء فى تقرير للجنرال « كالازي » سنة 1834 : « يكاد كل العرب (الجزائريين) يعرفون القراءة والكتابة . » فاذا قارنا هذا الوضع بنسبة 90 % من الأميين فى الجزائر غداة الاستقلال ، تبين لنا بوضوح مقدار ما خسرته البلاد حين أصيبت بنكبة الاستعمار .

الحقبــة الاستعمــارية :

وفى الحقبة الطويلة من أيام الاستعمار أراد المحتل أن يمحو شخصيتنا ويعزلنا عن مجموعتنا فجند كل الطاقات لتشويه ماضينا التليد ، وطمس معالمه ، والعمل على تجريد الشعب من كل مقوماته الاساسية ، فحارب اللغة العربية لأنها العامل الموحد والمحرر ، ولأنها أيضا السلاح الفكري الفعال فى ميدان الصراع بين الأصالة الراسخة من جهة ، وبين عمليات المسخ التي قام بها الاستعمار من جهة ثانية .

وتمشيا مع هذه الخطة القاضية بسحق اللغة العربية فى الجزائر ، أصدر الاستعمار الفرنسي خلال سنة 1904 م قانونا يمنع أي معلم عربي أن يتعاطى مهنته الا برخصة تحدد نشاطه وفق شروط أهمها ما يلي :

1) اقتصار التعليم على حفظ القرآن لا غير ،

2) عدم التعرض لتفسير الآيات التي تدعو الى التحرر من الظلم والاستبداد ،

3) استبعاد دراسة التاريخ العربي الاسلامي ، والتاريخ المحلي ، وجغرافية القطر الجزائري والاقطار العربية الأخرى الخ . . ،

4) استبعاد دراسة الأدب العربي بجميع فنونه .

وقد جرت هذه العمليات الاستعمارية على مراحل وبواسطة أجهزة متعددة شارك فيها عدد كبير من الباحثين ، والمفكرين ، والمستشرقين ؛ وتمثلت خاصة فى الاجراءات التالية :

- غلق كل الأبواب فى أوجه الاجزائريين حتى لا يتمكنوا من تعلم لغتهم ،
- فرنسة الادارة ، والاقتصاد ، والتعليم ،
- محاربة العقيدة الاسلامية وذلك بتحويل المساجد الى كنائس وثكنات ، أو حتى الى اصطبلات ، علما بأن تحويل مسجد يعني تحويل مدرسة ومكتبة وقاعة للمحاضرات ومركز ثقافي ، اذ أن المسجد كان أيضا الجامعة ، ومركز الاشعاع الثقافي والديني والعلمي ، وله الدور الذي تقوم به جامعة الزيتونة بتونس ، وجامعة الأزهر بالقاهرة ، وجامعة القرويين بالمغرب .

ردود فعل الشعب ضد هذه السياسة :

ان هذه السياسة الفرنسية الاستعمارية الرامية الى مسخ الشخصية الجزائرية ادت الى ردود فعل قوية نابعة من الضمير الاجتماعي للشعب الجزائري العربي المسلم . وكان من نتائجها أن نضالنا تضمن فى كل وقت بعدين متلازمين : تحرير الوطن ، واستعادة القيم الرحية والثقافية المتمثلة فى اللغة العربية .

وتجسد هذا النضال بادئ ذي بدء فى حركات الاصلاح الديني والاجتماعي والتربوي ، التي ظهرت بوادرها فى اعقاب الحرب العالمية الاولى ، وكانت هذه الحركات تحث الشعب على تاسيس المدارس والمساجد ، والجمعيات الثقافية للمحافظة على اللغة ، والعقيدة . ونمت نموا مطردا بعد تاسيس الحركات الوطنية ، والاصلاحية التي كان منهاجها يتلخص فى هذا الشعار « الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا » .

كما ادى هذا التيار الوطني الذي كان اول رد فعل منظم ضد الفرنسة والتجهيل ، الى انشاء مئات من المدارس الحرة ، يمولها الشعب بواسطة التبرعات والاشتراكات .

ومع هذا كله فقد كان الجزائريون يبعثون بابنائهم الى كل مكان تدرس فيه اللغة القومية ، طلبا للعلم واستزادة من المعرفة ، الى أن اندلعت الثورة التحريرية المظفرة فى مطلع فجر فاتح نوفمبر 1954 م ، فاعتمدت اللغة العربية أساسا فى معاملاتها الداخلية والخارجية وفرضت استعمالها فى كافة الولايات الوطنية .

ذلك ان ايمان الثورة وايديولوجيتها مستمدان من أصالة الشعب الجزائري بماضيه التليد ، الماجد ، واعتزازه بلغته ودينه كجسر لمستقبله المشرق .

وأثناء الكفاح المسلح كانت السجون والمعتقلات والمحتشدات عبر التراب الجزائري مدارس شعبية عامة يتلقى فيها السجين والمعتقل تعليما كاملا باللغة العربية .

وما أن استعادت الجزائر حريتها واستقلالها حتى اخذت تعمل بجد لتستعيد مجدها الثقافي الأصيل ، وتتخلص من التبعية الفكرية البعيدة عن واقعها. وقد كان التعليم بكل أنواعه من الميادين الحيوية التي تجلت فيه هذه الارادة الراسخة .

التعريب واقعه ومستقبله
في المغرب العربي



عبد الكريم غلاب
رئيس اتحاد كتاب المغرب
مدير جريدة «العلم» المغربية

حينما استقلت بلاد المغرب العربى وجـدت نفسها تحت عبء ضخم تخلفمن سيرة الاستعمار الفرنسى فى هذه الاقطار ، سواء فى الميـدان السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الثقافى.

وليس من مهمة هذا الحديث ان يتناول الارث الثقيل فى مختلف الميادين ، فذلك موضـوع بناء استقلالنا على أنقاض هذا الارث الضخـم ، ولكنا نقتصر فقط على مشكلة أساسية تتصـل بمقوماتنا الـوطنية والقـومية والفكـرية ، وهى مشكلة اللغة . فقد جاء الاستعمار بعقلية جديدة غريبة هى تغيير معالم أقطار المغرب لتكـون نموذجا ممسوخا لمعالم البلد المستعمر أو الدولة الام كما كانت تسمى .

كان ذلك هو منطلقهم فى العمل الاقتصادى باقطار المغرب ، ليكون هذا الاقتصاد مكمـــلا للاقتصاد الفرنسى دون اعتبار لما يجب ان تدره تنمية هذا الاقتصاد على الانسان المغربى • ولذلك كان الاقتصاد لا يستهدف تنمية ما بين المغاربة من موارد اقتصادية لصالحهم وصالح الجاليـــة الاجنبية التى « تتعايش » معهم ، ولكنه كـان يستهدف سرقة مواد الاقتصاد من أرض فلاحية وموارد معدنية وثروة سمكية وصناعات مختلفة — الا بعض الصناعات التقليدية التى لا تـــدر مالا — وتمليك كل ذلك للاجانب حتى يصبـــح المواطن المغربى فى الاقطار الثلاثة مرغما على ان يطيع ، لان سياسة التفقير وسيلة للارغام وسبيل للطاعـــة •

وكان ذلك أيضا منطلقهم فى العمل الفكرى • والتعليم واللغة أول مراحل هذا العمل •

سياسة التعليم فى الاقطار الثلاثة قامت على أساس الفرنسية • ولا نحتاج ان نتحدث عـن قيمة التعليم ومستواه فى العمق أو فى الانتشار ولكنا فقط نشير الى ان التعليم الذى « منـح » لبعض المواطنين فى المغرب العربى كان فرنسى اللغة ، بالاضافة الى انه فرنسى التوجيه والمحتوى

والهدف منه — كما لا نحتاج ان نقول — ليس اخراج مثقفين أو أطر كبرى للدولة ، فذلك من اختصاص الجالية الفرنسية التى كانت تتمتع بتعليم فرنسى منقول بمدرسته ، وأساتـذتـه وبرامجه وتوجيهه الى الجزائر أو تونس أو المغرب، وانما كان الهدف منه اخراج مساعدين للادارة الفرنسية يترجمون لمدير الادارة — ولتكن أبسط ادارة أو أصغرها — وللحاكم — وليكـون حاكـم قرية مثلا — ما يقوله هؤلاء الاهالى « ليزانديجين» من كلام يعسر فهمه على المدير أو الحاكـــم ، أو ينقلون أوامر المدير والحاكم لهؤلاء « الانديجين » الذين لا يفهمون ما يقول المدير أو الحاكم ••••

من هنا كانت المدرسة — على علاتها — فرنسية اللغة والتوجيه والفكر • وبما ان الادارة كانت تحت السلطة الفرنسية ، فقد كانت هى الاخرى فرنسية اللغة والتوجيه ، وبما ان المسيصرين على الحياة الاقتصادية والاجتماعية كانوا هـــم الفرنسيين الذين لم يتأقلموا وبالتالى لم يتعلموا لغة البلاد ولم يستعملوها ، لان هدفهم نقل هذه البلاد الى بلادهم لا نقل الانسان الفرنسى الى بلاد المغرب العربى ، فقد كانت الحياة العامـــة هى الاخرى فرنسية اللغة فى المعمل والمتجر والحقل والشارع •

وهكذا وجدنا بلادنا بعد الاستقلال مفرنسة فى كل قطاعات الحياة المتحركة : اللغة والفكـــر والادارة والحياة العامة •

حقيقة ان معظم أبناء الشعب كانوا يتكلمون العربية أو البربرية فى المنزل والشارع • واحيانا عربية أو بربرية ممزوجة بكلمات فرنسية — تكثر نسبتها سنة بعد سنة — وهذه اللغة المتحدث بها احتفظت لنا بمظهرنا اللغوى نسبيا • ثم ان الاسلام والقرآن احتفظ لنا بكياننا العـــربى وبأصالتنا اللغوية • ولكن القرآن ظل منزويا فى

المساجد وعند القلة الذين يتلونه تبركا أو تفهما. ولغة المنزل والشارع ليست اللغة الحية المتطورة التي تساير الحضارة الفكرية والعملية الانسانية. ولذلك ظلت ضعيفة معزولة لا تكاد تعبر الا عن أبسط العمليات الذهنية والرغبات البدائية .

ومعنى هذا ان لغة الحياة والفكر والادارة — وهى لغة الحركة العملية للانسان المتطور — أصبحت هى الفرنسية . وقد حاولت هذه اللغة ان تقضى حتى على ما تبقى من لغة الحديث البسيطة ، أو لغة القرآن المنزوية ، أو لغة التعليم الاسلامى وخاصة فى القرويين والزيتونة والمدارس الاسلامية بالجزائر ، ولكنها من حسن الحظ لم تستطع ان تنفذ الى أهدافها . والفضل فى ذلك يرجع الى الاسلام والقرآن أولا ، ثم الى التمسك القوى بقوميتنا . فقد ظل المستعمرون أجانب رغم قرن وثلث قرن من الاستعمار فى الجزائر ، وثلاثة ارباع القرن فى تونس وثلاثة وأربعين سنة فى المغرب . ثم يرجع الفضل ايضا الى الروح الاستعمارية التى كانت تدفع بالمستعمرين الى نوع من التعالى على المواطنين فى الاقطار المغربية. وهذه سياسة دفعت بالمواطنين الى التشبث بالعزلة عن الفرنسيين . ولذلك فقد كان استعمار فرنسا استيطانيا ، ولكنه لم يكن استعمارا اندماجيا . وهذا من مصلحة احتفاظ شعوب المغرب العربى بمقوماتها الذاتية ، ومنها اللغة العربية فى مظهرها البسيط كلغة حديث ، وفى مظهرها العميق المنزوى كلغة القرآن والاسلام .

المشكلة التى وجدناها اذن بعد الاستقلال تتشخص فى النقط الآتية :

— اللغة الفرنسية هى لغة التعليم .

— هى لغة الادارة والحياة العامة .

— اللغة العربية — على ضعفها وانزوائها واختلاطها — لغة الحديث تشاركها فى ذلك البربرية .

— هى لغة القرآن والتعليم الاصيل الذى يتضاءل فى وجوده من جهة . وليست له صلة بالحياة العملية الادارية والاقتصادية من جهة أخرى .

هذه المشخصات أعطت لبلاد المغرب العربى الصورة الآتية :

بلاد مستقلة سياسيا تستعمل فى تعليمها وادارتها لغة اجنبية وتتبع الفكر الاجنبى وترتبط من اجل ذلك بالاقتصاد الاجنبى ، وتكاد تقتصر ارتباطاتها الثقافية والاقتصادية على بلاد أجنبية بعينها بوحى من اللغة المشتركة أو بأمر منها ، وهو التعبير الصحيح .

وهذا ما دفع بالكثيرين ان يصنفونا فى البلاد « الفرنكوفونية » ودفع بالبعض منا الى المشاركة باسمنا فى جمعيات الجامعات والمؤسسات التى تكونها البلاد المتحدثة بالفرنسية (كلا أو بعضا) وكاد هذا التصنيف يجعلنا من البلاد التى ليست لها لغة قومية . واصبح من حق الذين لا يعرفون تاريخنا وحقيقة شعبنا ان يحسبونا من البلاد الافريقية التى لا يمكنها حضاريا وثقافيا الا أن

تلجأ الى لغة حديثة معروفة بانها لغة علم وحضارة هي الفرنسية لتكون لغتها ٠

هذا مظهر من مظاهر الاخطار الناتجة عن الوضعية اللغوية التى ورثناها عن الاستعمار ٠ وهو مظهر خطير لانه يسلبنا من احد مقومات كياننا القومى وهو اللغة ٠

وباقى الاخطار نتصورها كما يلى :

1 ـ استمرار الشعور بالنقص أو التشكيك فى القومية المغربية واللغة احدى مقوماتها ٠

2 ـ الارتباط المستمر باللغة التى نستطيع التفكير بها ٠ ومتى ارتبطت باللغة التى نفكر بها ارتبطت بالفكر والاقتصاد والمجتمع الذى ينبع من هذه اللغة ٠ واذن فسنظل مستعمرين ولو كنا مستقلين ٠

3 ـ استعمال هذه اللغة كلغة تلقين فى التعليم يفرض عدة صعوبات تعرقل تطور التعليم وتعرقل نمو تعليم الطفل وفى مقدمتها :

أ ـ تعليم الطفل لغتين فى وقت واحد يحد من قوة ادراكه ويجعله يعانى مشكلة ازدواج الادراك والفهم ٠ وخطر ذلك تربويا واضح جدا ، وخاصة بتعليم لغتين يختلف قواعد ومنطق احداها عن الاخرى ، وبذلك يخرج الطفل ضعيفا فى اللغتين معا ٠

ب ـ استعمال الفرنسية كلغة تلقين للمواد العلمية والرياضية والاجتماعية كما كان الامر منذ الاستقلال فى اقطارنا الثلاثة (وقد بدأ الوضع يتغير الآن بتعريب التاريخ والجغرافية فى المغرب والجزائر) يدفع بالطفل الى الاحساس بان هذه اللغة أحسن من لغته وأجدر منها بالاستعمال فى العلم ، والا لما اختيرت لتكون لغة تلقين ٠ ومن هنا يبدأ الشعور بالنقص ـ ان لم نقل بالاحتقار ـ ازاء اللغة الوطنية ٠

ج ـ مما لا شك فيه ان اللغة الفرنسية مدروسة أكثر وكتبها منظمة ولها صلة بالحياة ، وعلى الاخص فى الكتب التى تستعمل فى المدارس فهى اذن الاقوى ٠ وحينما يجد الطفل نفسه بين لغتين احداهما تمكنه من الفهم والتفكير أكثر من غيرها يميل اليها بوعى منه أو بغير وعى لتصله بالحياة الاجنبية فكريا واقتصاديا على حساب لغته ومصلحة بلاده ٠ كل ذلك نتيجة لسباق لغتين ليست لهما نفس الحظوظ ونفس الامتيازات

د ـ الازدواجية تفرض ميزانية مضاعفة تقريبا للتعليم ٠ فوزارة التربية مضطرة ان تنفق على تعليم اللغة الاجنبية منذ المرحلة الاولى للابتدائى ٠ ثم هى مضطرة الى توظيف مدرسين وأساتذة اجانب لا لتعليم اللغة الفرنسية فحسب، ولكن لتعليم العلوم الملقنة بالفرنسية ٠ وبقطع النظر عن ان فرنسا لم يعد فى استطاعتها ان تلبى حاجاتنا الى هؤلاء الاساتذة ، وبقطع النظر عن المستوى المنحدر الذى اصبح عليه الاساتذة الذين يرسلون الى هذه الاقطار فى نطاق المساعدة التقنية فمعظمهم من المجندين الذين ليس لهم مستوى بيداغوجى تربوى ، وانما يرسلون الينا ليؤدوا واجب الخدمة العسكرية فى عمل مدنى هو تعليم أبناء افريقيا والمغرب العربى ٠

بالاضافة الى ذلك فهم يحصلون على مرتبات عالية تماثل على الاقل ثلاثة أضعاف مرتب الاستاذ المواطن • ونظرا لهذه المرتبات التى لا تحتملها ميزانية التعليم فى بلاد نامية كالمغرب أو الجزائر أو تونس فان تكاليف التعليم تصبح مضاعفة مما يعود بالضرر على تعميم التعليم ورفع مستواه •

وفى هذا الاطار يمكن ان ننقل شهادة من بعثة البنك الدولى التى زارت المغرب فى سنة 1966 لدراسة مشاكله الاقتصادية وقد جاء فى تقرير هذه البعثة (وهو رأى صادر عن تفكير اقتصادى وليس عن تفكير قومى أو وطنى حتى يتهم بالتطرف) : « تعتبر بعثة البنك الدولى ان المغرب لا يمكنه ان يستعمل فى تعليمه لغتين لما فى ذلك من اسراف • ولهذا فان البعثة توصى بان يختار المغرب اللغة العربية ويقوم فى المدة التى تنتهى فى سنة 1970 بالمهام الآتية :

1 ـ **اتخاذ التدابير الضرورية لجعل اللغة العربية صالحة لتلبية حاجيات العصر •**

2 ـ **جعل اللغة العربية لغة الادارة •**

3 ـ **جعل اللغة العربية لغة التعليم •**

أما فيما يخص التعريب فيجب حالا تعريب التعليم الابتدائى جميعه • ويجب تعريب التعليم الثانوى ابتداء من السنة الدراسية 1970 ـ 1971 ويجب كذلك تلقين لغة ثانية (الفرنسية أو الاسبانية أو الانجليزية) ابتداء من السنة الاولى من الثانوى » •

كل ذلك يؤكد ان بقاء اللغة الاجنبية كلغة تلقين يعتبر مساسا بقوميتنا من جهة ، واعطاء الفرصة لهذه اللغة كى تبقى متغلبة على لغتنا القومية من جهة أخرى ، واسرافا فى ميزانية التعليم على حساب التعميم ورفع المستوى من جهة ثالثة •

هـ ـ من المعروف ان جزءا مهما من المواطنين فى المغرب والجزائر على الاخص يتحدثون البربرية أو لهجة من لهجاتها المتعددة فى البيت وربما فى الشارع أيضا • فاذا كانت لغة الحديث عنده هى البربرية ـ وهو لا يتعلمها فى المدرسة كلغة علم وثقافة ـ ولغة العلم والكتابة والادارة هى الفرنسية ، فقد تحقق ما كان يقصده الاستعمار الفرنسى من السياسة البربرية التى حاول ان يطبقها فى الجزائر والمغرب ، وانفصلت عناصر الشعب فكريا ولغويا بعضها عن بعض•واصبحت اللغة المشتركة للتفاهم هى الفرنسية التى هى لغة أجنبية عن بلادنا تماما , كما هى لغة تفاهم بين الشعوب المختلفة فى المؤتمرات والمنتظمات الدولية •

و ـ استرد المواطنون فى المغرب العربى اعتبارهم ، ولم تعد صلتهم بالادارة مقتصرة على تلقى التعليمات والاوامر ، ولكن الادارة اصبحت ـ أو هكذا يجب ان تكون ـ فى خدمتهم وتصفية المشاكل التى تعترض طريقهم أثناء عملهم الحياتى اليومى سواء كان عملهم يتصل بالفلاحة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة أو البناءوالتعمير أو بالتحصيل أو الاداء فى البريد والمصارف الخ دخل المواطنين الحياة العملية من اوسع ابوابها نتيجة لاعلان الاستقلال ، فكان ذلك انقلابا فى

حياة الانسان المغربى كان من الطبيعى ان يمنح الاداة الضرورية للتصرف وفق هذا الانقلاب • أعنى ان تتحول الادارة لصالحه ، وان تكون فى خدمته على قدر ما يستطيع ان يستفيد من هذه الخدمة ، فتتخلى عن تعقيداتها ومكتبيتها (بيروقراطية) وسيرها التقليدى البطيء المطرد (الروتينية) • وفى مقدمة ما كان ينبغى ان تتخلى عنه : اللغة الاجنبية التى كانت دائما حاجزا بين المواطن العادى والاستفادة من الادارة التى كان يشرف عليها الاجانب ، فاصبح يشرف عليها فى الغالب مواطنون ولكن بلغة اجنبية •

الادارة فى بلاد المغرب العربى كانت امام ضرورتين لا محيد عنهما اذا أرادت ان تكون فى مستوى الاستقلال الذى حققه الشعب بنضاله :

أولهما : تأطير الادارة بالمواطنين •

ثانيتهما : تعريب الادارة •

بهذين العملين يمكن القضاء على العزلة المتبادلة بين الادارة والمواطن •

نعود فنقول اننا وجدنا انفسنا فى بلاد المغرب العربى أمام مشكلتين :

- تعريب التعليم •
- تعريب الادارة والحياة العامة •

ومن الانصاف للتاريخ ان نقول : ان الشعب ممثلا فى منظماته الوطنية أخذ يشعر منذ اليوم الاول للاستقلال بضرورة تعريب هذين القطاعين • ويمكننى ان اتحدث عن العمل الشعبى فيما يخص تجربة المغرب الاقصى لانى كنت وما ازال على صلة بهذا العمل معتذرا عن عدم تحليل العمل الشعبى والحكومى الذى قام به القطران الشقيقان لنقص معلوماتى فى الموضوع •

كان تطلع الشعب يستهدف تعريب التعليم والادارة • وكانت المنظمات الوطنية تطالب بهذا التعريب فى الوقت الذى كانت الحكومة وادارتها تشعر بنوع من العجز عن الاستجابة لهذا المطلب الشعبى •

وسأعود الى هذه النقطة الاخيرة فيما بعد •

فيما يخص الطلب الشعبى تجلى عند المواطنين وفى الصحافة الوطنية التى كانت تلح دائما على تعريب التعليم والادارة باعتبار التعريب قضية وطنية أولى • وقد اسست فى المغرب عدة لجان وطنية فى اطار وزارة التربية شارك فيها ممثلون عن الاحزاب والنقابات والجمعيات الثقافية والاساتذة والمثقفين عموما ، وكان التعريب هو الحل المقترح لحل مشكلة التعليم أو جانب منها على الاصح • فهو سبيل التعميم ومغربة الأطر ووصل المتعلم بحياة بلاده ومجتمعه •

كان هذا هو اتجاه اللجان المختلفة • وهو الاتجاه الذى تبناه المجلس الاعلى للتعليم فى الدورات التى اجتمع فيها • ثم كان هو المطلب الاساسى الذى قدم مشروعه فريق التعادلية والمشروعية الى البرلمان الاول سنة 63 ، 64 •

مرحلة أخرى مرت بها مشكلة تعريب التعليم فى المغرب الاقصى •

كان ذلك فى ربيع سنة 1966 حينما تقدم وزير التربية آنذاك بمشروع مذهب لاصلاح التعليم واثار هذا المذهب ردود فعل على النطاق الوطنى وعارضته المنظمات الوطنية • ويهمنا من هذا المذهب ومعارضته جانب التعريب •

يقول المذهب الذى اعلنه وزير التربية فى ندوة صحفية ، فقرة منه تحت عنوان : ضرورة اختيار لغات التعليم : « ان تعريب التعليم يعتبر هدفا من الاهداف الاساسية التى قر العمل على تحقيقها منذ الاستقلال • ولكن اذا كان من اليسير الاتفاق على مبدأ من المبادىء ، فان تطبيقه بدون وسائل امر ليس باليسير ولا بالهين • ان اصلح وسيلة لتعريب التعليم تكمن فى تكوين أطر وطنية ذات كفاءة ومقدرة • والواقع انه يستحيل على المغرب الآن وبعد سنين ان يجد ما يحتاج اليه من أطر وطنية يمكنها ان تدرس المواد العلمية بلغة الضاد ولا سيما فى التعليم العالى والتعليم الثانوى ، واجهة ما سيلتحق به من تلاميذ تقدر بنحو 1.600 أستاذ جديد فى كل سنة • بالاضافة الى تعويض 4.600 أستاذ اجنبى الموجودين حاليا فى المغرب ••• فالظاهر اذن ان استعمال لغة اجنبية كأداة لتدريس المواد العلمية لازال يعتبر أمرا لا محيد عنه لفترة انتقالية » •

ونظرا للمعارضة القوية التى لقيها مذهب السيد الوزير فقد قام جلالة الملك باستشارة الاحزاب السياسية والهيئات الوطنية عن السياسة التى ينبغى اتباعها فكانت أجوبتها متفقة فى الجوهر ، ومعظمها قدمت رأيا مجملا • غير ان حزب الاستقلال قدم مذكرتين احداهما فى يونيو 1966 وثانيتهما فى أغسطس من نفس السنة • وهما دراستان مستندتان بالارقام والرأى التوجيهى وتهمنا فيما يخص التعريب المذكرة الاولى وهى تخطيط ثمانى لتعريب التعليم فى المغرب يعتمد على الاسس الآتية :

- تخطيط محكم فى الزمان والمراحل التعليمية والسنوات •
- تكوين المعلمين والاساتذة المغربة الاطر •
- تاليف الكتب المدرسية لتغطية مراحل التعليم المعرب •
- تحديد المصطلحات العملية والتقنية المعربة •

وتقترح المذكرة تخطيطا زمنيا لتحقيق التعريب فى ثمان سنوات تفصلها بالارقام سواء فى المرحلة الابتدائيه و الثانوية ، بحيث يتم تعريب المرحلة الابتدائية فى اربع سنوات تنتهى سنة 1970 • ويتم تعريب المرحلة الثانوية سنة 1973 ويشمل التعريب المواد الادبية والعلمية • ويقوم البرنامج المقترح على اساس ممكنات الدولة وفى نطاق الميزانية المخصصة للتعليم •

ظلت المشكلة قائمة دون ان تجد لها حلا • وظل التعليم والادارة فرنسيى اللغة رغم المحاولات التى بذلت هنا وهناك • ولكن الشعب ظل يطالب بتعريب القطاعين معا ، وهو يعرف ان تعريب التعليم لا يكون مجديا دون تعريب الادارة ، وبالتالى لن يكون تعريب الادارة ناجزا دون تعريب التعليم •

أيهما يجب ان يكون مقدما على الآخر ؟

من الواضح ان التعليم الذى يكون الاطر الادارية يجب ان يكون معربا حتى تستطيع هذه الاطر ان تستعمل العربية فى عملها الادارى • ولكن اقرار تعريب الادارة وفق تخطيط زمنى وفى قطاعات متعاقبة يمكن ان يكون ضغطا على تعريب التعليم •

المشكلة من حيث المبدأ مفروغ منها ، أو كان يجب ان تكون كذلك • فقد وجد فى المغرب ، وربما فى الجزائر وتونس ، من يعتقد ان تعريب التعليم أو الادارة فكرة نابعة عن تعصب لا ينظر الى المشكلة من وجهة نظر واقعية • ويعلل هؤلاء وجهة نظرهم بان اللغة ليست الا وسيلة ، وليس من مصلحتنا الآن ان نهتم بالوسائل على حساب الاهداف • الهدف هو التعليم وهو سير الادارة وليكن ذلك باية لغة كانت ، خاصة واننا سرنا فى طريقنا خطوات باحدى الوسائل هى الفرنسية فلا معنى لان نعدل عنها لنبدأ من جديد بوسيلة أخرى هى العربية •

وما من شك فى ان هؤلاء تراودهم فكرة تقدم اللغة الفرنسية كلغة علم وحضارة ودبلوماسية ، وتخلف العربية فى كثير من الميادين • ولذلك فهم ينظرون الى الجانب الاسهل فى الموضوع، وهو استعمال اللغة المتطورة ولو على حساب اللغة القومية ، بدلا من ان ننهض بلغتنا لتكون وسيلة التعليم والادارة مستعينين باللغات الاجنبية المتطورة عالميا ، وكثير منها يفوق الفرنسية فى الميدان العلمى والقتنى •

هؤلاء قلة ما يزالون مستلبين تحت التأثير الاستعمارى من الاحساس باهمية اللغة كاحدى مقومات القومية والوطنية ، واهميتهما فى استرجاع الكيان الوطنى ، بل والاقتصادى ، لبلاد ظلت تحت نير الاستعمار فترة قصيرة من الزمان •

بقطع النظر عن هؤلاء المعارضين ، وهم قلة ، كما قلنا ، لا يصمدون لحوار فكرى فى الموضوع ولا يجرأون على الجهر بافكارهم بله الدفاع عنها ، فان هناك مشاكل تقف فى وجه التعريب يوردها المعترضون والباحثون عن الحقيقة بحسن نية ، نلخصها فيما يلى :

I – اللغة العربية غير اهل لان تساير التقدم العلمى والتقنى •

وهذه المقولة التى تغرى الكثيرين من الذين يجهلون العربية ولا يعرفون ماضيها . كما تؤثر على الكثيرين من الذين عاشوا فى مجتمع فكرى بعيد عن اللغة العربية ، لا يعرفون مثلا غير الفرنسية ، وقد يحسون بان غيرها من اللغات – الانجليزية أو الالمانية أو الروسية – غير قادرة على ان تساير التقدم العلمى والتقنى •

وقد تكفل بالرد على هذا الايهام كثير من المختصين فى علم اللغات المقارن ونشرت فى المغرب عدة ابحاث ومقالات وألقيت عدة محاضرات لرفع هذا الايهام من عقول الذين يمكن ان يغرهم بمنطقه • ويمكن ان أذكر على سبيل المثال الجهود التى بذلها الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله الامين

العام لمكتب تنسيق التعريب التابع للجامعة العربية ، ومقره الرباط سواء بالابحاث التى كتبها عن قابلية اللغة العربية لسايرة التقدم العلمى والتقنى ، أو الابحاث التى كتبها مساعدوه فى المكتب ونشرتها مجلة لسان العرب • كمايمكن ان اذكر المقالات والابحاث التى كتبها الاستاذ أحمد الاخضر مدير معهد التعريب فى جريدة العلم والمحاضرات التى ألقاها فى الموضوع •

ومن كل هذه الابحاث يتضح ان قابلية اللغة العربية لمسايرة التطور العلمى والتقنى حقيقة علمية لا يمكن ان يجادل فيها الا من يجادل فى القابلية التى اكتسبتها اللغات الاخرى كالروسية والصينية واليابانية مثلا مع ان جميعها كانت لغات متخلفة ـ تقنيا وعلميا ـ فى الربع الاول من هذا القرن ، أو فى القابلية التى اكتسبتها اللغات الاروبية المتقدمة كالفرنسية والانجليزية والالمانية وتاريخ تطورها معروف ونعيش جزء منه يوميا •

2 ـ اللغة العربية ناقصة فى المصطلحات العلمية والتقنية والادارية •

واذا كان هذا حقا بالنسبة للغة المستعملة فى المغرب العربى فانه عار عن الصحة ـ تقريبا ـ فى اللغة المستعملة فى المشرق العربى • فقد استطاعت المدارس والجامعات فى المشرق ان تعرب وتبتكر مصطلحات فى العلوم التجريبية بما فيها الطب والهندسة والزراعة والفيزياء والكيمياء وعلوم الفضاء • وما تزال تسير فى هذا الاتجاه ولو انها لا تلاحق التقدم العلمى والتقنى الذى يحتاج يوميا الى عشرات ـ ان لم نقل ـ مئات ـ الكلمات الجديدة المبتكرة •

وفى هذا الميدان يستطيع المغرب العربى ان يستفيد من خبرة المشرق ، فهى لغتنا جميعا • كما يستطيع ان يستفيد من الجهود التى يبذلها مكتب تنسيق التعريب ومعهد التعريب • فلم ينشأ الا لملاحقة التطور العلمى والتقنى •

ومهما يكن فليس هناك نقص فى المصطلحات المدرسية بحيث يعرقل تعريب التعليم الذى كان معربا منذ البداية فى معظم البلاد العربية •

3 ـ نقص الاطر التعليمية المعربة •

وهذه مشكلة حقيقية • ولكن حلها واضح يتلخص فى تكوين الاطر وفق برنامج وتخطيط زمنى مرحلى • وبما ان التعريب يمكن ان يطبق ابتداء من القاعدة (المرحلة الابتدائية) ومن القمة (المرحلة الجامعية) فان تنفيذه سيكون بحسب ممكنات تكوين الاطر • بل يمكن تطبيقه بحسب الاقاليم مثلا ، أى اننا نعرب كل اقليم استطعنا تكوين المعلمين والاساتذة الذين تستغرقهم مدارسه •

ومن الواضح ان تكوين الاطر فى التعليم لا يختلف عن تكوينهم فى أى قطاع متحرك ، اقتصادى أو صناعى • فلكى تؤسس معملا لا بد من تكوين اطره • وقلة الاطر أو انعدامها لم يعرقل الحياة الاقتصادية عند الدول التى تصنع نفسها من ان تسير فى طريق التصنيع • والحاجة تخلق الوسيلة كما يقال •

4 — نفس المشكل — أو المشكلين السابقين — يثاران عندما تعرض قضيــة تعريب الادارة • المصطلحات الادارية ناقصة • الاطر الادارية غير معربة • وقد تحدثنا عن معالجة مشكل المصطلحات أما مشكل الاطر الادارية الحالية — وبعضها لا يعرف العربية — فان هـذا « البعض » لا ينبغي ان يعرقل تطور ادارتنا نحو التعريب • ثم ان الحكومات تستطيع ان تكون هؤلاء تكوينا سريعا في اللغة العربية المبسطة التي يستطيعون بهـا ان يسيروا عملهم الاداري • وقد حاولت وزارة الشؤون الادارية بالمغرب سنة 1961 القيام بهذا التكوين للموظفين الذين لا يحسنون العربية في مختلف القطاعات • وأتت المحاولة بعض ثمارها • ولكن المشروع أقبر بعد التغيير الوزاري آنذاك • وقامت الجزائر بمشروع علمي آخر هو وقـف ترقيات الموظفين الذين لا يحسنون العربية الا بعد ان يحسنوها •

على ان لغة الادارة لغة بسيطة غير معقدة ويمكن اتقانها والتمرين عليها عند الاستعمال بسهولة، كما أتقن الموظفون الاداريون اللغة الفرنسيــة بالاستعمال • فكثير من مصطلحاتها لم يكونوا يعرفونها قبل الممارسة •

فاذا أضيف الى عملين كهذين قرار حكومـي منفذ بتعريب الادارة فسيضطر الموظفون الذين لا يحسنون العربية الى تعلم هذه اللغة والا كانوا معرضين لان يفقدوا وظيفهم •

5 — انخفاض المستوى •

ولعله من الواضح ان مستوى التعليم انخفض نسبيا (هذه تجربة المغرب وربما كانت تجربة كل من الجزائر وتونس أيضا) • والذين يلاحظون انخفاض مستوى التعليم يخشون ان تزداد نسبة الانخفاض اذا ما عرب • واسباب انخفاض مستوى التعليم ترجع الى انه لم يعد للنخبة بل اصبح — إلى حد ما — معمما في المدن الكبرى على الاقل ، في الوقت الذي لم تهتم الحكومات ببناء الاقســام الكافية لاستيعاب الكثرة التي تكدست في الاقسام كما لم تهتم بتكوين الاساتذة تربويا (بيداغوجيا) تكوينا قويا • والاساتذة والمعلمون من فرنسا مثلا أصبحوا في مستوى أقل مما كانوا عليه ايام الحماية والاستعمار •

اذن فالتعريب لن يكون سببا في انخفاض المستوى اذا نفذ بشروطه : أي تكوين الاطر علميا وتربويا باللغة العربية ، مع رفع الاسباب التي ادت الى انخفاض مستوى التعليم ولا صلة لها مطلقــا بالتعريب •

معنى هذا ان معركة التعريب مربوحة من الوجهة النظرية • وكل الاعتراضات التي يثيرها خصوم التعريب بحق أو بباطل ، بحسن نية أو بسوئها ، انما هي اعتراضات شكلية وصعوبات عاديــة يمكن التغلب عليها عند الممارسة • واذا كنــا جميعا متفقين على ان التعريب هدف فيجب البدء بالوسيلة للحصول الى الهدف ، مع العلم بـان لكل تجربة مشاكلها وصعوباتها ، ومع العلـم أيضا بان صعوبات التعريب أقل مما نتصوره • والمشاكل التي يثيرها خصوم اللغة العربية فتلقى

صداها فى النفوس هى مشاكل وهمية ستتبدد بمجرد الاقتناع بكل مقومات قوميتنا ، وستنتهى عندما تبدأ فى التنفيذ ٠

والذى أعتقده ان اشتراك المغرب العربى فى المشكلة كان يجب ان يبعث على حلها فى نطاق المغرب العربى بمؤتمر يعقده رجال التربيـــة والتعليم تحضره زمرة من المثقفين يستهدف البحث فى صلاحية اللغة العربية لتكون لغة تلقين وادارة٠ ثم وضع الاسس والاساليب لتنفيذ المبدأ متى ما أقره المؤتمر حتى تسير كل أقطار المغرب العربى على منهج واحد يستفيد بعضها من تجارب الآخر وفق تخطيط محكم موقوت ٠ ونحن لا ندعو الى مؤتمر من هذه المؤتمرات النظرية التى تنتهى بتوصيات تنشر فى الصحف وينساها بعد ذلك حتى الذين وضعوها ، ولكنا ندعو الى مؤتمر عملى يبحث وسائل تنفيذ التعريب فى الادارة والتعليم٠ ونعتقد ان مؤتمرا من هذا المستوى يمكن ان يكون فيه نوع من الالتزام يساعد شعوبنا على الخروج من المأساة الفكرية والعملية والنفسيـــة التى نعانيها : مأساة شعوب تتعلم وتتعامل بغير لغتها٠

أضواء على
قسم اللغة الوطنية
في كلية العلوم

المهندس عبد الحميد شنيني

معيد فى فرع الفيزيا
قسم اللغة الوطنية
كلية العلوم ـ الجزائر

لقد كثر النقاش حول قضايا التعريب فى هذه الايام · ولذا راى صديقى السيد محرر هذه المجلة أن أدلى ببعض التصريحات التى تتعلق خاصة بقسم اللغة الوطنية فى كلية العلوم ·

وأننى انتهز هذه الفرصة لاعطاء بعض التوضيحات عن هذا القسم العلمى المعرب ، ليس كمسؤول لاننى لست مسؤولا فعلا عن طريق رسمي ، وليس فقط كمعيد فى هذا القسم ولكن كانسان شارك بكل ما لديه من قوة فى استتباب وضع هذا القسم منذ اللحظة الاولى لانشائه الى يومنا هذا ، وانا مسؤول مسؤولية شخصية عن كل كلمة أقولها فى هذا المقال ·

وقبل أن أتطرق الى أى موضوع أنتهز الفرصة كذلك وأقوم بدعوة عن طريق هذه المجلة لاطلاع اخواتنا الطالبات واخواننا الطلبة فى الثانويات والذين يدرسون باللغة الوطنية أو الذين هم فى الفصول الثنائية اللغة Bilangue على أن هناك قسم فى التعليم العالى بكلية العلوم جامعة الجزائر يدرس المواد العلمية فى كلتا فرعيها ٠

أ ـ العلوم الصحيحة والتكنولوجية
Sciences exactes et technologiques

ب ـ العلوم البيولوجية Sciences Biologiques

لقد أنشىء هذا القسم بمقتضى قرار وزارى فى اكتوبر أو نوفمبر عام ١٩٧١ (ارجع الى الجريدة الرسمية) وبمقتضى هذا القرار فقد تخصص هذا القسم لتخريج الدفعات من أساتذة التعليم الثانوى بعد الحصول على شهادة ليسانس التعليم Licence d'Enseignement والتى تطول مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات يختار فيها الطالب تخصصا حسب ما اذا كان فى قسم العلوم الصحيحة والتكنولوجية أو فى قسم العلوم البيولوجية ٠

وهذه التخصصات هى بالنسبة للقسم الاول (ع٠ ص٠ ت) فى تحضير ليسانس التعليم :

أ ـ فيزيا وكيميا (أ)
ب ـ فيزياء وكيمياء (ب)
ج ـ رياضيات

بالنسبة للقسم الثانى (العلوم البيولوجية) فى تحضير ليسانس التعليم :

أ ـ علم الحيوان
ب ـ علم النبات

وأتوقف هنا لحظة لارد عن تساؤل كثيرا ما يطرح نفسه وهذا التساؤل هو لماذا لا يفتح فى القسم المعرب بالعلوم الشهادات الاخرى العليا مثل شهادة الدراسات العليا D. E. S. سواء كان هذا فى قسم العلوم الصحيحة أو فى العلوم البيولوجية أو كذلك شهادة المهندس فى مجال العلوم الهندسية ؟

هذا التساؤل كثيرا ما كان محل نقاش بين صفوف الطلبة وغيرهم٠ وأكثر الاراء انتشارا والتى سمعتها من اكثر من مصدر أن المسؤولين يشكون فى مقدرة اللغة العربية على مواصلة الدراسة فى هذه المجالات المتقدمة من التعليم وأنه ليس لهم أى ايمان باللغة العربية أو بالتعريب ٠ وفى الحقيقة أنا لا أشارك الاخوة فى هذا الرأى ، وفى اعتقادى أن المسؤولين في الوزارة وفى الجامعات قد فكروا فى مصلحة الجزائر وفى ضمان تعريب التعليم الثانوى فيها فارادوا كمرحلة أولى تكوين الشباب الجزائرى المعرب فى العلوم فيدخلون هذا الميدان بجانب اخوانهم العرب المعارين الىالجزائر ثم الاستعداد لسد عجز أو نقص محتملين فى صفوف اساتذة التعليم الثانوى فى العلوم باللغة الوطنية فالموضوع اذن يمس الجزائر فى تطور تعليم الثانوى باللغة العربية فيها ٠

والآن اذا طرحت مسالة الشهادات العليا السابقة الذكر أمام المسؤولين فماذا سيكون رد فعلهم ؟

أعتقد أنهم سيبحثون أولا عما اذا آن الاوان لهذه الشهادات ام لا ؟ ثانيا اذا تخذ المسؤولون قرارهم فى فتح باب الشهادات العليا فعلا ، هل يكون هناك فى الامكان توفير الامكانيات ٠٠٠ كل الامكانيات فى الاطارات والمراجع وغيرها ٠٠٠ ! هذا موضوع شائك وسنتناوله فيما بعد ٠

ولكن رغم ذلك فقد أفصح بعض الطلبة الذين لهم رغبة فى تحضير الشهادات العليا ورأوا فى مقدرتهم متابعة دراستهم باللغة الفرنسية (رغم عدم اجادتهم لها اجادة كاملة) ولكن مقدرتهم هو ذلك الحافز القوى الذى يدفعهم الى الاستزادة من التعليم وعندئذ رأى المسؤولون أنه ليس هناك أى مانع أن يتابع الطالب الذى يريد أن يتابع دراسته طالما أن العلوم هى العلوم سواء كانت باللغة الفرنسية أو باللغة الانكليزية أو باللغة العربية فالموضوع لا يتعدى أن يكون موضوع مصطلحات وبمعرفة اللغة الاخرى معرفة متوسطة يمكن للطالب أن يواصل. على ذلك فقد قرر عميد الكلية أنه بعد الفصل الرابع أى بعد سنتين يقضيها الطالب فى القسم المعرب يمكنه بعد ذلك أن يحول الى القسم الفرنسى لتحضير الشهادات العليا .

ثم نأتى بعد ذلك الى سؤال يطرح نفسه دائما ، وهذا السؤال هو النداء بخلق ادارة خاصة بقسم اللغة الوطنية داخل كلية العلوم ؟ فى الحقيقة هذا سؤال خطير ، والاجابة عليه أخطر ، ولكن أرى أنه لكي نوفى هذا الموضوع حقه يجب أن نتطرق الى كل الجوانب وهذه العملية تتعذر علينا الآن فى مقال قصير مثل هذا ... ولكن سأحاول هنا أن أعبر عن رائى باختصار ولكن سيظل الباب مفتوحا للمناقشة فى مقالات أخرى اذا أراد الاخوة ...

لي فى الحقيقة وجهة نظر الشمول والعموم وهذا يعنى أنه لا يجوز معالجة الامور فى نطاق ضيق فنأتى مثلا لحل مشاكل القسم المعرب نخلق له ادارة فى وسط ادارة أخرى فنكسر بذلك فكرة الشمول أو العموم التى لها مقدره اكبر فى حل المشاكل بطريقة جذرية وخاصة ان كل الطلبة هم طلبة جزائريون والبعض الآخر من الاقطار الصديقة وأن كل المسؤولين هم مسؤولون جزائريون ويجب على كل مسؤول طبعا أن يتحمل مسؤوليته ... فلو فكرنا اذن فى خلق ادارة خاصة بالقسم المعرب فمعنى هذا انه ليس لنا ثقة فى هؤلاء المسؤولين وهذا بطبيعة الحال شيء خطير ... وأرى كذلك أنه من الافضل الا ينعزل هذا القسم عن باقى الكلية لانه لربما أن تكون هذه العزلة هى الضربة القاضية عليه بدلا أن تكون هى نجدته ... فاذا كانت هناك مشاكل فستكون عامة على كل من فى الكلية واذا كان هناك اصلاح فسيكون عام على كل من فى الكلية ولهذا يواصل الجميع فى السراء والضراء ولا خير لعربى على أعجمى الا بالعمل الصالح .

ربما يريد البعض أن ينتقد الادارة فأقول أن أى ادارة فى الدنيا محل نقد ولا ينجو منها أحد وخاصة اذا تكلمنا عن ادارتنا فى الجزائر ككل وهذا شيء يعرفه الجميع .

اذن كان هذان التساؤلان اللذان كنت أريد أن أدلى برأى فيهما ولست أدرى ما اذا كان هناك تساؤلات أخرى وعلى كل حال فالباب مفتوح للمناقشة ويمكن أن نتناول أى نقطة بالبحث .

أريد أن أتطرق الآن بسرعة الى النواحى الايجابية والنواحى السلبية فى القسم المعرب بكلية العلوم حتى يكون الطريق واضح أمام الاخوة الطلبة الذين سينالون شهادة البكالوريا فى نهاية هذه السنة الدراسية .

أول كلمة أقولها أن قسمنا المعرب بكلية العلوم بخير – وأعتقد أن البعض سيثور من هذه الكلمة –

ولكن أكررها دائما لان اجماليا فالقسم فعلا بخير اذا ما قيست النواحي الايجابية والنواحي السلبية ·

أهم نقطة ايجابية يمكن ذكرها هنا ان القسم المعرب بكلية العلوم استطاع أن يواصل طريقه رغم كل المصاعب التى سياتى ذكرها فى السلبيات وما بقى امامه الآن سوى فصل دراسي واحد وتتخرج أول دفعة من اساتذة الثانوى الذين سيقومون بمهمتهم فى تحقيق الهدف الذى انشىء القسم المعرب من أجله ، كما ان هناك البعض الآخر الذين سيواصلون دراستهم فى الشهادات العليا باللغة الفرنسية فيتخرجون فى العلوم وهم يجيدون اللغتين وحينذاك يمكن ان يستفيد بهم القسم المعرب لكي يصبحوا أحد اطاراته أو منهم من سيختار الشركات الوطنية ·

ولربما البعض ينتقد كيفية سير القسم المعرب منذ أن وجد ، وهنا اؤكد أن سيره كان متعثرا ولا زال متعثرا والمهم فقط الا ننسى ان هذا القسم قد واصل طريقه ويجب أن نوليه كل اهتمامنا حتى يواصل طريقه ويخرج من الفترة العابرة ويدخل الفترة الدائمة المنتظمة ·

ليعلم الجميع أن قضية التعريب هذه قضية مفروغ منها فقد أصبحت حقيقة لا جدال فيها وبالتالى فالموضوع بالنسبة للقسم المعرب ليست قضية تعريب بقدرما هى قضية دراسة امكانياته التى تكفل له المواصلة والنجاح ·

نقطة ايجابية أخرى تكفل لهذا القسم المثابرة وقدرة المواصلة والنجاح هى نفسية طلبة هذا القسم فالاغلبية الساحقة من هؤلاء الطلبة لهم ذلك الحافز القوى والارادة الفعالة فى الاستزادة من التعليم ونجد لهم كذلك فى بعض المقررات التى تدرس بطريقة صحيحة ذلك التحرر من مركب النقص بالنسبة لزملائهم فى الاقسام الفرنسية ·

نجد كذلك كنقطة ايجابية أخرى تفانى بعض الزملاء الآخرين من الاساتذة والمساعدين سواء من الجزائر أو من الاقطار الشقيقة فى خدمتهم لمصلحة القسم المعرب والعمل بكل اخلاص كما أن هناك بعض الزملاء المسؤولين فى الادارة الذين يعملون قدر استطاعتهم فى خدمة القسم المعرب ·

فهذه نظرة تفاؤل بالنسبة للقسم المعرب وما أضيق العيش لولا فسحة الامل· وعلى العموم فالوضع يتحسن فصل عن فصل ·

والآن بالنسبة للنواحى السلبية التى يتاثر من تحتها القسم المعرب هو النقص المفزع فى اعضاء الهيئة التدريسية وكفاءة بعضهم اولا وثانيا موضوع الكتب والمراجع ·

أول شىء جدير بالذكر هنا بخصوص حاجيات القسم المعرب نذكر ان اكبر نقص يشكو منه القسم المعرب هو بالنسبة لاساتذة الرياضيات ونلفت انتباه الاخوة هنا أن هذا النقص يشكو منه العالم العربى عامة بما فى ذلك مصر وسوريا والعراق حيث ان استاذ مادة الرياضة هناك يعمل اكثر من عشرين ساعة أسبوعيا نتيجة للنقص ·

وفى موضوع قفل فرع الرياضيات للتخصص فمن وجهة نظرى أنها خطوة صائبة وليس عليها أى غبار لان من غير المعقول ان يزجى بالطلبة فى تخصص غير مضمون له أى مواصلة او استمرارية فتكون النتيجة أن يتوقف الطلبة كلية عن متابعة دروسهم أو أن يؤتى لهم ببعض المعيدين فقط دون محاضرات او بالاساتذة من فرع الفيزياء الذين هم بعيدون عن الرياضيات

البحتة فيصير تكوين هؤلاء الطلبة هزيل وضعيف قياسا بزملائهم فى الاقسام المفرنسة وهنا اذن يستوجب أن نقف قليلا فى موضوع الامكانيات حيث ان الامر يتطلب قبل اتخاذ اى قرار ان ندرس امكانياتنا فى تحقيق هذا القرار والا فستصبح المسالة عبارة عن تصرفات عشوائية لا حكمة ولا تدبير فيها وعليه فقد كان من الافضل قفل التخصص فى فرع الرياضيات حتى تتوفر جميع الامكانيات التى تضمن استمراره··· وحيث أن الفصلين الدراسيين الاولين يستوجبان دراسة ثلاث مقررات أساسية فى الرياضيات فقد وفرت كلية العلوم استاذ ومعيدين لضمان دراسة هذه المقررات الاساسية ·

ثم يأتى بعد ذلك موضوع كفاءة بعض أعضاء الهيئة التدريسية وهذا فى الحقيقة موضوع شائك يصعب النقاش فيه وانما يدخل تحت بند «الاساتذة المعارون فى الجزائر» أو كما نسميه باللغة الفرنسية «مشكلة المتعاونين فى الجزائر» وهذه مشكلة يعرفها الجميع ولا يغفلها اى شخص حيث أنه من المعروف أن هناك متعاونون مهما كانت جنسيتهم أوروبيون أو عرب أو غيرهم من لهم كفاءة وضمير فى العمل ومجموعة أخرى لهم كفاءة وليس لهم ضمير ومجموعة أخرى ليس لهم كفاءة ولهم ضمير ··· فهذا فى الحقيقة موضوع قائم بذاته وليس لي اى رأى فيه هنا ·

وكما أن مشكلة المتعاونين مشكلة قائمة بذاتها فادارتها فى الجزائر كذلك مشكلة قائمة بذاتها كما ذكرت سابقا ··· ولقد كان من أهم أسباب تذمر بعض المتعاونين هو شكواهم من الادارة فاذن هاتان المشكلتان بعيدتان عن موضوع مقالنا هذا كل البعد وفى الحقيقة فهما بعيدتان كذلك عن الاخوة الذين يريدون أن يتطرقوا اليه كل البعد والنقاش فيه يعتبر تدخل فى شؤون الغير ·

نأتى الآن الى موضوع الكتب والمراجع ··· ففى الحقيقة هذا ليس مشكلة بالمرة حيث أنى أشهد أن سيادة وزير التعليم العالى والبحث العلمى بنفسه قد أطلق حملة تدعى « الكتاب العربى » وسافر وفد خاص الى الشرق بهذا الغرض ولكن فى الحقيقة كل الكتب التى وجدها الوفد لا تتلائم كليا مع المقررات التى تدرس فى الكلية والتى هى تعتبر مقررات رسمية ومع هذا فقد اشترى الوفد بعض أمهات الكتب العلمية المترجمة فى سوريا وهى الآن معروضة أمام الطلبة فى مكتبة الجامعة· وهنا أنبه الاخوة أنه من الافضل أن تقوم حملة ترجمة تلبى طلبات الكليات وعليه يجب تشجيع الترجمة ·

يبقى موضوع صغير وهو ليس نقطة سلبية فى القسم المعرب وهذا الموضوع هو مشكلة المصطلحات العلميةفى كلية العلوم حيث يوجد مقابلات عربية متعددة للمفهوم العلمى الواحد ، ولحين ما تتفق كل الدول العربية عن المصطلحات العلمية المستخدمة فى التعليم العالى بمثل ما وقع بالنسبة للتعليم الثانوى فان اللجنة الدائمة لتعريب التعليم العالى بالوزارة منكبة على هذا الموضوع والمشكلة الآن هى مشكلة امكانيات فقط ـ وعلى كل فقد اتبعنا اسلوبا ظريفا جدا فى كلية العلوم وهو أن يستخدم المعيد نفس المصطلحات التى يستخدمها المحاضر وقد طبقت هذه الطريقة بين البعض ولم تطبق مع البعض الآخر مع الاسف ·

التعريبُ بين الأمس والغــد

محمد زنيبر

كليه الآداب
الرباط

لقد كان من الطبيعي ان تثار قضية التعريب بصورة ملحة بعد حصول اقطارنا المغربية عـلى الاستقلال وبعد التفكير جديا وعمليا في بناء ذلك الاستقلال من سائر جوانبه • وقد برزت المشكلة بكل حدتها في ميداني الادارة والتعليم • فادارتنا الفتية لم تستطع ان تتحرر في الحين من استعمال اللغة الاجنبية ، نظرا لكون عدد كبير من اطاراتها حصلوا على ثقافة فرنسية بحتة ووجدوا من السهل عليهم ان يستمروا في استعمال الفرنسية ، فكان ذلك سببا في البطء الحاصل في تحقيق التعريب• وهذا ما يقال ايضاعن التعليم الذي ظل متوقفا على المساعدة الاجنبية ، من جهة ، والذي وجـد عددا من اطاراته الوطنية مثقفين•ثقافـة فرنسية بحتة ، من جهة اخرى • وكلما اتجه التفكير الى تعريب التعليم تطرح في الحين مشكلة الاطارات القادرة على تحقيق هذا الهدف ويتبين انها غير كافية من حيث الكـم والكيف ، وان كان عددها يتزايد بصورة مطردة سنة بعد اخرى •

وإذا تدبرنا الموضوع بعمق وموضوعه ، نجد ان المشكلة مشكلة زمان لا غير·طبعا ، اننا من الناحية العاطفية نثور حينما نرى اللغة الاجنبية لا زالت تحتل مكانا بارزا فى بلادنا المستقلة وتضايق العربية التى هى لغتنا القومية · ولكنها ظاهرة طبيعية فى المرحلة التى نجتازها لان التخلص من الارث الاستعمارى ان امكن تحقيقه بسرعة فى الميدان السياسى مثلا ، فانه فى ميادين اخرى كالثقافة لا يمكن ان يتم بالصورة المرضية الا بعد مرور فترة من الزمان لان الامر يتطلب مجهودات وتصميمات ·

ولذلك ، فلست اعتقد ان هنالك خطرا محققا يهدد التعريب فى بلادنا ، سيما وان الاجماع حاصل فى راينا العام على السير فى هذه الوجهة وان المواطنين المتاثرين بالثقافة الاجنبية انفسهم يشاركون فى هذا الاتجاه ويسلمون بأن وضعيتهم لا تخلو من شذوذ · ومن الصعب ان نتصور وجود مواطن يتمتع بكامل عقله ورشده يدافع عن بقاء اللغة الاجنبية ويريد ان يحلها محل العربية · نعم ، هنالك مواطنون يكتبون بالفرنسية لانهم لا يستطيعون ان يكتبوا بغيرها · فهل يحق لنا ان نستنكر عملهم ؟ لست اعتقد ذلك · فما داموا يتمتعون بكل مقومات المواطنة ، وما داموا يصدرون فى كتابتهم عن وطنية صادقة ، فلا بد لنا من ان نرحب بكتابتهم ولو كانت بلغة اجنبية· ولا ننس انهم ، فى اغلب الاحوال ، من ضحايا الاستعمار الذى حرمهم من تعليم العربية وفرض عليهم لغته · فاذا ما قمنا اليوم بالواجب نحو الجيل الناشىء ولقناه العربية واطلعناه على جمالها ودربناه على استعمالها والتعبير بها ، فستنقرض فى الحين تلك الظاهرة العربية الشاذة ظاهرة انتشار الكتابة باللغة الاجنبية ·

لكل هذا لست اعقد ان قضية التعريب فى بلادنا تستحق ان نطلق عليها كلمة **مشكلة** · فلفظة مشكلة تشير الى وضعية يصعب الخروج منها · وليس الامر كذلك بالنسبة للتعريب اذ هو امر ميسور لا يعارض فيه واحد ويحظى بالتاييد الشعبى · واذا جاز لنا ان نستعمل كلمة مشكلة فلنكرر ما قلناه آنفا من انها مشكلة زمان ·

هنالك اسباب اخرى تجعل من التعريب ضرورة محتومة لا يمكن ان يتطرق اليها الشك ·

فيجب ان نعتبر ، قبل كل شىء ، ان العربية ليست لغة جديدة على بلادنا وشعوبنا نريد ان نفرضها عليهم فرضا كشىء دخيل لا عهد لهم به · بل هى لغة البلاد الاصلية ولها تاريخها العريق ورجالها الذين كتبوا بها · وهى اللغة الرسمية التى استعملها الاغالبة والادارسة والزيريون والحماديون والمرابطون والموحدون والزيانيون والمرينيون الخ ··· وانما حاول الاستعمار بمخططاته الماكرة ان يطمسها ويسدل عليها رداء الاهمال والنسيان · ولكنه ، فى الواقع كان يحاول المستحيل · فشعوبنا فى احلك ساعات اليأس ظلت ترى فى اللغة العربية لغتها القومية التى تجسد شخصيتها التاريخية · وتاريخ العالم يشهد بالعديد من الامثلة القديمة والحديثة ان اللغة القومية هى اصعب شىء يمكن القضاء عليه مهما كانت قوة المتغلب · فكم حكمت روما من شعوب ! ولكن هل استطاعت ان تحولها عن لغتها لقد حكمت المغرب ومصر والشام واليونان عدة قرون ، ولكنها ما ظفرت بأن تستبدل لغة اهل تلك البلاد بلغتها · وكم خضعت بولونيا ، مثلا ، للسيطرة الاجنبية ! ومع ذلك فقد احتفظت بلغتها· واحسن مثال معاصر يمكن ان نقدمه كبرهان هو

شقيقتنا الجزائر التى بعد مرور قرن من الحكم الاستعمارى الغاشم القاسى ظلت متشبثة بكــل مظاهر ثقافتها العربية • ففى الوقت الذى كــان الاستعمار يحتفل بمرور مائة سنة على احتـــلال الجزائر ، كان العلماء الجزائريون يحملون لواء الثقافة العربية ويؤسسون المعاهـــد والمدارس ويصدرون المجـــلات والجرائـد ، وكان التمثيل العربى يشق طريقه ، وكانت الموسيقى الاندلسية باشعارها وتواشيحها ترن فى كل الاندية كل هذا يدل على ان اللغة القومية جزء من كيان الامـــة وروحها وان المساس بـــه من قبيل المستحيل • فالتطور نحو التعريب ، والحالة هذه ، ما هـــو الا نهاية محتومة لمسلسل تاريخى •

هنالك ملاحظة قد يبديها بعض القراء تمشيا مع المنطق الظاهرى فيقولون ان العربية كانت هى ايضا ، فى وقت من الاوقات التاريخية طارئة على البـــلاد وان سكان البـــلاد الاصليين لم يكونوا يتكلمون بها بل كانت لهم لغاتهم ، فلم ، يا ترى ، نميز العربية عن غيرها من اللغات فى هذا الباب ؟ والجواب على مثل هذا التساؤل يقتضى منـــا عودة أخرى الى التاريخ •

قبل الاسلام ، كان الوضع اللغوى بافريقيا الشمالية كما يلي :

كانت هنالك **لهجات بربرية** تختلف من ناحية الى ناحية، بل من قبيلة الى أخرى• ولم تتمكن اى لهجة من تلك اللهجات ان تتمركز تمركزا كافيا وتصبح عامل توحيد وتتحول الى لغة حضارية وثقافيـــة فى المســتوى العالى • وكانت الى جانب تلـــك اللهجات لغتان حضاريتان : **اللاتينية** التى تمثل لغـــة الادارة والسيطـرة الرومانية والكنيســـة المسيحية والتى كان لها وجود فى بعض المـــراكز الحضرية ، **البونيقية** وهى لغة سامية وشقيقـــة للعربية والتى كان لها ، على ما يظهر ، انتشـــار واسع فى البلاد المغربية بسبب النفـوذ المعنوى والثقافى الذى استطـــاعت الدولـة القـرطاجية المنقرضة أن تحرزه فيما سبق من الايام •

وهكذا نستطيع ان نقول انه لم تكن هنالك **لغة قومية** موحدة فى بلاد المغرب قبل الاســـلام ، ومن المعلوم ان الفتح الاسلامى احدث فى المغرب ثورة عميقة لا زالت لم تدرس لحد الساعة مـــن جميع جوانبها • والمقارنة التاريخية بين الفتـــح الرومانى والفتح الاسلامى تبرز أن هذا الاخـــير استطاع ان يغير عقلية المغاربة فى ظرف وجيـــز ويجعلهم مـــن المتكفلين بالدعـــوة الاســـلامية والمدافعين عن مبادئها واهدافها • فشاركوا فى فتح الاندلس ، وثاروا على دولة الخلافة باســـم الاسلام ولم يحاول العرب الفاتحون ان ينهجـــوا سياسة استيطان كما فعل الرومان ، بل اعتمدوا كثيرا على الرابطة الدينية فى المحافظة على وحدة دار الإسلام • وتركوا المغاربة احرارا فى تسيير شؤونهم فنتج عن ذلك ان تأسست دول اســـلامية مستقلة منــذ القـــرن الثانى للهجرة كالدولتين الخارجيتين الرستميـــــه بتاهـــرت والمـــدرارية بسجلماسة ودولة الادارسة بفاس • وكلها دول مغربية صميمة لاتمثل اى سيطرة خارجية، وميزتها الوحيدة انها ترتبط فقط بآصرة الدين مع الخلافة الاموية ثم العباسية •

وهذه الدول المغربية الاسلامية الاولى تمثل حدثا حاسما فى تاريخنا • فهى ، فى الواقـــع ، تكون اول صورة للكيان المغربى المستقل ، بكـــل معنى الكلمة • فالتاريخ السابق كان يطغى عليه

ظل قرطاجة او روما او بيزنطة · اما العهد الاسلامى الجديد ، ففيه تحرر واسع ضمن روابط الامة الاسلامية ·

وهذه الدول المغربية هى التى عملت على نشر اللغة العربية بمحض اختيارها · فجعلت منها ، اولا ، **لغة رسمية** فى دواوينها ومحاكمها · وكانت هى **لغة التعليم** فى المساجد والكتاتيب والمعاهد · وعن طريق **القرآن** واقامة الشعائر الدينية انتشرت العربية شيئا فشيئا فى الحواضر والبوادى ، وطمح الى تعلمها واتقانها كل من اراد ان يصير مثقفا او عالما وكل من رغب فى ان يتبوأ مرتبة مرموقة فى المجتمع · وهكذا ، فالعربية لم تستقر بالمغرب كلغة سيطرة اجنبية فرضت على السكان فرضا ، وانما تبناها المغاربة فى نطاق اقبالهم على الثورة الاسلامية واقدامهم على تأسيس دول قومية · ولم تضايق اللهجات المحلية التى استمر وجودها وانما جاءت لتملأ فراغ اللغة الحضارية والثقافية وتكون عامل توحيد فى البلاد المغربية · ولا أدل على ذلك من كون الدول البربرية من زيرية وحمادية ومرابطية وموحدية وحفصية ومرينية كانت هى انشط العاملين على نشرها كما تدل على ذلك مراسلاتهم ومجهوداتهم فى نشر العلم واستقدامهم لا ساتذة اللغة وشيوخ البلاغة من الاندلس وغيرها ·

لكل هذه الاسباب التاريخية التى اشرنا اليها بكل ايجاز ، حظيت العربية بامتياز خاص بالنسبة لغيرها من اللغات الطارئة على المغرب ، فانتشرت واسع الانتشار واصبحت هى لغة البلاد ، بصورة تلقائية وبدون عنف · فالتاريخ على ما اعلم ، لا يحدثنا بأى نزاع منشؤه قضية اللغة ، كما لا زال يحدث الى اليوم فى اقطار اخرى · وقد حاول الاستعمار ، فى نطاق سياسة التفرقة ، ان يخلق المشكلة ويثير حولها البلبلة والفتنة فى النفوس · كما حاول عن طريق نشر الفرنسية دون العربية ان يضعف تعلق المغاربة بلغتهم ، ولكن ، ماذا كانت نتيجة هذه السياسة ؟

فلو كان المغاربة يشعرون بأن العربية دخيلة عليهم لما ترددوا فى نبذها وقد أتيحت لهم فرص عديدة خلال تاريخهم الطويل · ولهذا ، فقد كان رد الفعل على السياسة الاستعمارية هو رفع شعار التعريب والدفاع عن العربية ، كما كانت عزيمة شعوبنا غداة الاستقلال هى العمل على محو آثار الخطط الاستعمارية وارجاع اللغة العربية الى مركزها الطبيعى فى حياة البلاد ·

فاذا انتقلنا الآن بنظرنا من اعتبارات التاريخ والماضى ، التى هى كافية فى حد ذاتها ، الى آفاق المستقبل ومقتضياته نجد هنالك دواعى اخرى للايمان بالتعريب · ان شعوبنا المغربية المتحررة تريد ان تكتب صفحة جديدة فى التاريخ ، صفحة ناصعة مشرقة ، نابعة من شخصيتها ومعبرة عن أصالتها · فهل تستطيع ان تقوم بهذه المهمة بالاعتماد على لغة غير لغتها ؟ اننا نريد ان نخلق ثقافة جديدة فى بلادنا ، ثقافة عصرية وتقدمية ، بأبلغ ما فى الكلمة من معنى ، ثقافة تعتمد على العلم وعلى العقل وعلى الجرأة فى التفكير · فكيف ، يا ترى ، نستطيع ان نبرز بعملنا هذا اذا لم نعبر عنه باللغة التى نتجاوب بها مع شعبنا · فلا ننس ان الشعب ، فى معظمه ، ظل بعيدا عن اللغة الدخيلة ، وان الفرنسية لم تمس الا اقلية محدودة من المتعلمين حتى أصبحت ، اليوم ، ذات مظهر طبقى فى مجتمعنا ·

فنحن اذا القينا نظرة على مجتمعنا ، نجد هنالك اتجاهين فى استعمال اللغة · هنالك فئة قليلة من الناس تميل الى استعمال الفرنسية فى محادثتها وفى جو الحياة العائلية · وغالبا ما يقترن ذلك المظهر مع الحياة البورجوازية · فالطبقة البورجوازية يميل بها الكبرياء الى الى التأفف من لغة الجماهير وتفضل أن تتميز باستعمال لغة تعتبرها « راقية » ولو كانت أجنبية · وهنالك اتجاه السواد الاعظم من الشعب الذى لا يجد ارتياحه الحقيقى الا فى استعمال العربية ، دارجة كانت أم فصحى · وهذا ، بالطبع ، هو الاتجاه السليم لانه يمثل ارادة الجماعة وشعورها

فاللغة الاجنبية ، حتى فى وقت اشتداد سطوة الاستعمار ، لم يكن لها الا مظهر سطحى فى مجتمعنا · فلم تستطع فى يوم من الايام ان تصبح لغة يتكلم بها الشعب ولم يتجاوز استعمالها نطاق الاقلية الضئيلة من المتعلمين فى المدارس الفرنسية · بل ان هؤلاء انفسهم لم يكونوا يتحدثون بها الا فى اوقات ومناسبات محدودة وتراهم يرجعون الى العربية كلما وجدوا مع ذويهم ومواطنيهم ·

وهنالك اعتبار آخر يهم المستقبل والمصير · ان عالم اليوم والغد ينحو الى تكتيل الشعوب فى مجموعات كبيرة قادرة على ان تدافع عن نفسها وتثبت وجودها · فها نحن نشاهد اروبا تعمل جاهدة على انشاء وحدة فعالة بين شعوبها ، ونشاهد روسيا تكتل حولها شعوبا سلافية وغير سلافية تحت شعار الاشتراكية ، ونشاهد الصين تسير فى نفس الاتجاه بالشرق الأقصى · وليس من المعقول ، فى مثل هذه الحال ، ان يظل العرب مشتتين وموزعين وهم قادرون على ارساء وحدتهم على اسس متينة · ومن جملة هذه الاسس وحدة اللغة · بل من الممكن ان نقول ، دون ان نخشى المبالغة ، ان اللغة هى التى اشعرت العرب بوحدتهم فى العصر الحديث وهى التى كانت اقوى عامل للتضامن فيما بينهم فى كل المعارك التى خاضوها ولا يزالون يخوضونها · فالسير قدما فى طريق التعريب هو ، فى الحقيقة ، سير فى طريق تدعيم هذه الوحدة الضرورية امام التكتلات الكبرى التى يشاهدها هذا العصر · وهو سير فى طريق المزيد من القوة والاطمئنان · فالمجموعة العربية ، اليوم ، برغم ما يعترض طريقها من مشاكل ومصاعب ومآس ، تكتسب يوما عن يوم مكانا مرموقا فى المجال الدولى ويزيد وزنها ثقلا ، هذا مع العلم بان وحدتها لا زالت لم تتحقق بالصورة المنشودة وانهنالك جوانب سلبية لم تستطع لحد الساعة ان تتغلب عليها · فالاقليمية لم يبق لها محل فى عالمنا الحاضر لانها تمثل انغزالا خطيرا ومخيفا · ولذلك فالتعريب يفرض علينا نفسه فرضا لانه يجنبنا مزالق ، الانعزال ويمكننا من ربط آصرة محكمة مع مجموعة كبيرة من الشعوب تستطيع ان تفرض احترامها اكثر فاكثر فى المجال الدولى ·

الا ان قضية التعريب لا ينبغى ان نكتفى بالنظر اليها من الجهة العاطفية · بل تقتضى منا ان نواجهها بطريقة واقعية وعملية · ومعنى هذا انه لا يجمل بنا ان نكتفى بترداد بعض الاقوال مثل : « لا يوجد لغة اجمل من لغة الضاد » · أو « العربية هى اشرف اللغات وأحسنها » · وما الى ذلك من الاقوال والتاكيدات التى تضر بالعربية أكثر مما تنفعها · أننا لا نشك فى أن العربية من اجمل اللغات واقدرها على التعبير والتصوير · ومع ذلك ، فلا ننس ان اللغة هى ، قبل كل شىء

اداة وجدت لخدمة الانسان • والاداة ينبغى ان تتطور مع حاجات الانسان وتطور المجتمع •

وفى هذه الناحية ، يجب ان نعترف بان امامنا عملا كبيرا يجب ان نقوم به لنجعل من العربية لغة حضارتنا الحالية حتى تصبح قادرة على اداء كل العلوم والفنون وتنافس فى هذا المضمار اكبر اللغات العالمية • ولقد بذلت لحد الساعة جهود مشكورة فى المجامع اللغوية العربية وفى مكتب تنسيق التعريب ، الا ان اثر هذه المجهودات يجب ان يخرج من النطاق الاكاديمى الى نطاق الاستعمال العام • ومن الواجب كذلك ان نضع تحت تصرف اطفالنا بالمدارس الابتدائية والثانوية كل المفردات التى تساعدهم على التعبير عن الاشياء التى تحيط بهم حتى لا يعانوا ما نستطيع ان نسميه الفقر اللغوى •

ومن دون شك ان تخلفنا اللغوى ، فى الوقت الراهن ، راجع الى تخلفنا العام • فمتى سرنا فى طريق التقدم والتنمية بخطوات واسعة ، ستتطور لغتنا هى ايضا لتستجيب لحاجاتنا الجديدة ، سيما اذا شمل التعريب سائر المرافق فى حياتنا الاجتماعية • فاذا اخذنا ندرس لطلبتنا سائر العلوم بالعربية فى الجامعات والمعاهد نستطيع آنذاك ان نقفز بلغتنا قفزة كبيرة وحاسمة • ولكن لا ينبغى لنا ان نعتمد على التطور الطبيعى وحده فى تحقيق التعريب • بل يجب من الآن ان نعد له العدةونجند له الخبراء ونؤسس المعاهد ونرعاه بكل التشجيعات المادية والمعنوية •

اننا ، فى الحقيقة ، كلما اثرنا قضية التعريب ، نرجع بفكرنا الى تراثنا الثقافى المجيد ونتملى بما خلفه الاجداد من آثار ادبية وعلمية • وهذا موقف طبيعى ومعقول • الا انه موقف يحجب عنا الحقيقة فى قضية التعريب كما هى مطروحة أمامنا اليوم • فنحن لا نريد التعريب من اجل التراث ، او من اجل الماضى ، ولكننا نريد التعريب لاننا نريد ان ننشىء ثقافة عربية جديدة ونخلف تراثا آخر لاجيال المستقبل • فالعربية ليست لغة أجدادنا وحدهم ، بل هى لغتنا نحن ، ايضا • واذن ، فالواجب يقتضى منا ان ننظر الى التعريب من زاوية الحاضر والمستقبل ، قبل كل شىء •

فالتعريب سيتيح لنا ان نملأ الفراغ الفكرى الذى تعانى منه بلادنا اليوم • ولئن كان شبابنا ينصرف الآن الى الآداب الغربية فيطالع مختلف آثارها من قصص ومسرح وفلسفة ، فلانه يعدم فى بلاده الغداء الفكرى الذى يحقق المستوى المنشود • فمهمتنا هى ، اذن ، أن نملأ هذا الفراغ بواسطة ما نكتبه بلغتنا العربية •

ونحن لو القينا نظرة على تطور الكتابة بالعربية منذ بداية هذا القرن الى اليوم فمن المؤكد اننا نجد دواعى كثيرة للتفاؤل • لقد وقع تقدم عام وشامل • فقد كثر الانتاج فى ميدان التاليف ، ونبغ كتاب وشعراء فيهم من تسنم ذروة عالية • وانتشرت الصحافة فى كل الاقطار العربية من يومية وأسبوعية وشهرية • وغزت العربية سائر وسائل الاعلام • ومما لا شك فيه ان الراديو والتلفزة عاملان قويان فى نشر الفصحى بين الجماهير الشعبية • لكن هذه ، فى الحقيقة ، ما هى الا بداية ومرحلة تمهيدية • فلا زال امامنا مجال واسع لرفع مستوانا فى سائر ميادين الانتاج الفكرى واختراق سبل الابتكار والابداع حتى لا نبقى مقلدين ومقتبسين وتلامذة •

والطريق نحو التعريب الصحيح تبدأ من الكتاب المدرسى الذى هو رفيق التلميذ الدائم ومرجعه الاساسى بعد الاستاذ · ومن التجربة التى عشناها بالمغرب الاقصى ، تبين لعدد من الاساتذة انه من الممكن ان نعرب فورا معظم مواد التدريس · فبالاضافة الى المواد الادبية البحتة ، من الممكن ان نعرب التاريخ والجغرافية والفلسفة وكل ما يرتبط بالعلوم الانسانية · تبقى بعد هذا بعض المواد العلمية من رياضيات وفيزياء وكيمياء وغيرها التى يمكن التريث فى تعريبها حتى تتكون الاطر اللازمة لذلك فى وقت محدود · فالمسالة هنا ليست مسالة عجز اللغة العربية بقدرما هى مسالة ايجاد الاساتذة المعربين · واعتقد ان هذا هو الجانب الذى يجب ان تنصب عليه مجهودات المهتمين بالتربية منذ الآن · فمن اللازم ، اولا ، ان نعمل على تعريب أساتذة العلوم بتخويلهم تدريبات منظمة · ومن اللازم ، ثانيا ، ان نكون الاساتذة الجدد على أساس اعدادهم للتدريس بالعربية · والكتاب المدرسى المعرب ، كما قلت آنفا ، هو الذى سيساعد الاستاذ والتلميذ ، على السواء ، على السير قدما فى طريق التعريب ·

هنالك نقطة لا بد من ان نوضحها فى الاخير وهى تتعلق بفكرة التعريب من اساسها · ان الدعوة للتعريب ، كما افهمها ، ليست مبنية على أى تعصب أو انعزال فكرى · بل انها تهدف فقط لا حلال اللغة القومية محلها الطبيعى والمشروع · ولذلك ، فهى لا تتنافى ، مطلقا ، مع دراسة اللغات الاجنبية · بل يجب أن نؤكد ، وبكل الحاح ، ان مثقفنا المغربى فى حاجة ماسة الى معرفة اللغات الحية الكبرى · فهى نوافذ مفتوحة على عوالم اجتهدت وتقدمت فى سائر ميادين الحضارة · وكل اتصال بالثقافات الاجنبية فيه خير كبير لنا لانه سيمدنا بلقاحات ستفيدنا فى بناء ثقافتنا الجديدة كما اننا عند مزاولة البحث العلمى ، لا غنى لنا عن المراجع الاجنبية ، بحيث ان الباحث الذى يتقن اللغات الاجنبية يجد أمامه الطريق معبدة للاستفادة من كل المجهودات السابقة فالتعريب لا يعنى اغلاق الباب واسدال الستور على النوافذ بل هو تعريب من أجل التفتح والاتصال ، جريا مع تقاليد ثقافتنا كما كانت فى أيام الرشيد والمأمون ، صاحب « بيت الحكمة » ·

تعريب التفكير أولاً

د. عبدالله ركيبي
كليـة الآداب
جامعـة الجزائر

لا اشك مطلقا فى أن ما أسوقه فى هذا الحديث من آراء وأفكار ، وما أعرض فيه لقضية خطيرة ناقشها الكتاب وأخذت من الاهتمام ما لا يدانيه سوى الحديث عن حرية الشعب واستقلاله ، قلت لا أشك فى أن ما أقوله عن التعريب سيثير سخط أناس ان لم أقل غضبهم وثورتهم ، لانهم تعودوا على المألوف من القول والعادى من الامور ، بل ألفوا الرتابة فى حياتنا الثقافية وألفوا أن يؤمن على كل ما يفعلون ويمدحون على الصواب والخطأ حتى فى القضايا المصيرية التى تمس واقع الشعب ومصيره على السواء ·

وحين يسعى بعضنا لتنبيه بعض العقول التى ألفت الخمول والركود ، يسارع أصحابها الى رمى الحجارة فى وجوه الذين يسعون جادين مخلصين الى اثارة القضايا ومناقشتها بموضوعية ونزاهة · وهذا التفكير المتحجر الجامد هو سبب المأساة التى نحسها فى حياتنا الثقافية والادبية·

ورغم ما الفناه من رد فعـــل هذه الفئة ومن عقليتها ومن تصرفاتها التى عانينا منها ومـــا زلنا ، رغم ذلك ، فاننا لن نبحث عن رضائها ولا عن سخطها أو اثارتها ، فنحن لا نصدر فيما نكتب أو نقول سوى عن مسؤولية وعن صدق فيما نعتقد وايمان بما نقول دون هدف آخر ·

والواقع أن التعريب تعرض لضغوط كما تعرض لاستغلال عجيب· فهناك من رفعه شعارا لتحقيق مآرب خاصة ومصالح آنيـــة ثـم لاذ بالصمت ، وهناك من لا يزال يرفع شعاره طمعا فى أمـــور يرجو تحقيقها فى المستقبل ، ولكن هناك مـــن دافع عنه **كقضية قومـــية مثل القضايا الوطنية لا لمرحلـة من المراحـل ·**

ويمكن أن نلمس هذه المواقف المختلفة فى كثير من القضايا مثل الاشتراكية ، فالبعض نادى بهـا بوصفها حل لمشاكل الشعب وتحقيقا للعدالة وحين تحقق له المسكن المريح سكت ، ولكن الاشتراكى الحقيقى ما فتىء يطالب بهـــا وينادى بشمولها سواء عن طريق الثورة الزراعية أو عن غيرها· ويمكن أن نســـوق أمثلة من قضايا كثيرة ومن مواقف متخلفة لو أن المجال يسمح لذلك ·

على أنه فيما يتعلق بالتعريب فان المرء مطالب بأن يعرض لتطوره لا من حيث الاحصائيات أو من حيث تقديم الحلول ، فقد سبق لى فى مكان آخر أن بينت رأيى بوضوح فى هذا الامر ، ولكننى هنا فقط أود أن أقدم بعض الملاحظات بعد سنوات مرت على الاستقلال وعلى الثورة ثم مرت على البداية فى تحقيق التعريب ·

والظاهرة التى تلفت النظر فى وضعية التعريب فى بلادنا ، هى أن التعريب مر بمرحلتين واضحتين منذ الاستقلال حتى الآن ، مرحلة الستينات ومرحلة السبعينات ، فالاولى كانت دفاعا عن التعريب وعن اللغة العربية بوصفها احدى الاختيارات الوطنية ، التى لا رجـــوع فيها وأن التعـريب من المقومات الاساسية للشخصية القومية ·

ومن هنا نشأ ذلك الصراع الطويل بين مـــن يؤمنون بالتعريب وبين من يقفون ضده ، وكان صراعا سافرا بارزا للعيان· فقد كان خصـــوم التعريب يحاربونه فى وضح النهـار ، ويقفون ضـــده بالقول والفـــعل معا ، ويبذلون جهدهم لعرقلته فى شتى المجالات وبشتى الوسائل· كما تعرض أنصاره الى حرب نفسية قاسية والى ضغط شديد وصل الى القدح فى ثقافتهم وكفاءتهم فوق الدعاية المغرضة التى تتهم الثقافه العربية بالخمود والتأخر ، فكانت المقارنة باستمرار بين اللغـــة العـربية وبين اللغـــات الاجنبية ، والهدف هو الوصول الى نتيجة معينة وهى أن اللغة العربية قاصرة عـن أن تستوعب ما تنتجـــه الحضارة الحديثة وبالتالى فهى لغة لا تصلح للعصر ، واذا فلا بد من بقاء اللغة الاجنبية واستمرارها· بـل وصل الامر الى الارهاب الفكرى أيضا دفاعا عن اللغة الاجنبية واضطهادا لمن يدافـــع عن اللغة القومية من بعض العناصر المتعسبة للغة الاجنبية·

هذا مجمل ما كان يجرى فى المرحلة السابقة· أما المرحلة الجديدة بالنسبة للتعريب ، فانهـا تختلف عن الاولى فى الملامح والسمات والمظاهر ، ولكنها تتفق معها فى النتيجة ، **ذلك أن التعريب فى السبعينات أصبح مقننا فقد سنت من أجله القوانين وصدرت فى حقه القرارات الحكومية ، وأصبح بحكم التشريع وبحكم القانون أمرا مقررا لاخلاف حوله· فماذا كان رد فعل خصومه ؟**

لقد لجأوا الى طـــرق جديدة ، **طرق ملتوية يفسرون بها النصوص القانونية حسب أهوائهم ، ودخل التعريب فى مـرحلة المناورة بدل المبادرة وتنفيذ القانون.** فمـــا دام القانون يسنده فان الوقوف فى وجهه جهارا نهارا ، قد يعرض مـــن يفعل ذلك الى المتابعة القانونية والشعبية ، فتغيير التكتيك ، وتغيير الاسلوب ، وأصبح الشعار فى الظاهر هو : « كلنا مع التعريب وكلنا مع اللغـة القومية » ولكن الحقيقة أن مقاومـــة التعـريب استمرت كما كانت فى السابق تحت صور متعددة ، تغيرت الاصباغ ولكن الجوهر لم يتغير ، فما زالت النظرة كما هى بل أشد مما كانت عليه فى السابق.

فالعراقيل التى توضع أمام التعريب اليوم أشد عليه من الفترة الماضية ، فهى عراقيل مدروسـة بعناية كبيرة من بعض خصومه. فـــقد افرغوا القانون من محتواه ، اشترطوا للوظيف مستوى للترسيم والتثبيت ولكن حين جاء التطبيق تدخلت الاعتبارات الخاصة والنوايا المبيتـة والافكـــار المسبقة ، فوجدنا ممن لا يستطيع كتابة جملـــة بالعربية مرسما فى وظيفة. وبذلك استغلوا القانون كما استغلوا الفراغ الذى سببه عـدم المراقبـة الصارمة على تنفيذ النصوص ، وظن أصحــاب النية الطيبة أن القانون وحده يكفى لردع المغرضين واذا بالتعريب يتعثر بحيث لم يدخل قطاعات كثيرة كان المفروض أن يدخلها ، لم يدخل حتى المجالات البسيطة التى تعبر عنها العامية فضلا عن العربية الفصيحة المعربة ، والا فكيف نفسر عدم تعريب أمور لا تتطلب ثقافة أو تعمقا فى اللغة فى مستويات كثيرة ابتداء من البلديات مـرورا بالحزب حتى المؤسسات الاخرى حسب السلم الادارى.

وما قيمة الامتحانات التى عقدت للعربية وما أثرها فى التعريب لقد اتهم أنصار التعريب دائما بالحماس وعدم الواقعية فى نظرتهم لهذا الموضوع وسكت المعربون الا القليل ، واعتبروا أن القانون سيضع حدا للمناورات ضد التعريب ولكن الواقع يؤكد أن أعداء التعريب يتظاهرون بالعمل لـــــه بينماهم فى واقع الامر يحاربونه بشدة ، وبذلك سدوا الطريق أمام أنصار التعريب ، بل وسبقوهم الى الدفاع عنه فى المناسبات ، وهذا الاسـلوب الذكى يدل على أن الافكار قد تلبس قفازا ناعمـا ولكنها تبقى كامنة حتى تأتى الفــرصة الملائمة للظهور ، وهذا ما يسمى بالاحتراف. والحقيقة التى لا بد أن نسجلها أن خصوم التعريب ليســوا فى درجة واحدة من رفضه ومقاومته. فهناك مــن يقف ضده بحسن نية او بسذاجة وعدم فهم ، بل وبايمان بأن التعريب قد يـــؤخر البلاد. وهذا الصنف من خصوم التعريب من الممكن اقناعــــه بالحجة وبالتجربة والواقع. بل من واجب المؤمنين بالتعريب أن يفتحوا نقاشا هادئا متزنا مع الذين لا تحركهم عقد أو مركبات خاصة تجاه التعريب ، وانما ينقصهم فقط الفهم وادراك الحقيقة.

ولكن الصعوبة التى **تواجه التعريب فعلا مــن** تلك العقلية التى رسخت **فى أذهان الصنف الآخر** الذى يقف ضد التعريب ويرفضه رفضا باتا بدافع العداوة المبنية على سوء النية وعلى الفكرة المسبقة التى أشرت اليها فى بداية هذا الحديث. وهؤلاء لا بد أن يتجردوا من أنيابهم التى يمزقون بهـــا الشخصية الوطنية. ان اســـناد الوظائف لـــهم واعطائهم الحرية المطلقة فى أن يتصرفوا كمـــا يشاؤون فى قضايا تمس مستقبل الوطن ومستقبل الاجيال ، ان هذا سيكلفنا الشىء الكثير ، قـــد لا ندركه اليوم ، لاننا نعيش الاحداث اليومية بحكم

العادة وعدم التنبه للتاريخ ، ولكن سياتى اليـوم الذى يحكم فيه غيرنا علينا وعندئذ ستظهر الحقيقة المـــرة ·

هذا الحكم ليس من وحي النظرة التشاؤمية او الحساسية المفرطة تجاه قضية مبدئية مصيرية· ولكنه حكم مبنى على الملاحظة والتجربة المعاشة· ولكن بعضنا يلاحظ ويسكت وبعضنا يفضل قول الحقيقة ولو كان مرا ·

وهنا يمكن أن نتساءل : لماذا يسير التعـريب ببطء ويتعـــثر باستمرار ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يحمله عنوان المقال· فالمشكلة فى تصورى **هى اننا نظرنا الى التعريب نظرة لغوية بحتـة ، ونسينا الجوهر الاساسى فى الموضوع ، فالتعريب اللغوى لا يكفى ، لان من يقرأ بالعربية أو يكتب بها قد يلتقى مع اى اجنبى يحسن العربية ، يلتقى مع المستشرق الذى يتقن العربية مثل اهلها وربما اكثر منهم· ويلتقى مع من يتعلم لغة أجنبية بغض التعامل مع أصحابها· فى حين أن التفكير هـو المهم فى الموضوع· فربما وجدنا مواطنا لا يحسن العربية ومع هذا يدافع عن العربية والعروبـــة اكثر من بعض الذين يتقنون العربية·**

ولو كان خصوم التعريب يحملون ولاء للتفكير العربى لما وقفوا ضده ، فمثلا نجد الشاعر مالك حداد لا يعرف العربية بتاتا ومع هذا فهو يـؤمن باللغة القومية وله ولاء كامل للامـــة العـــربية ولمصيرها الواحـــد·

فالذين ينظرون للتعريب نظرة لغوية ، يجردونه من مضمونه ، من حقيقته ، ويسعون فى الوقت نفسه الى تكريس الاقليمية ، ويعملون لاستمـرار التجزئة والتشتت وابقاء الامة العربية جســـدا بلا روح· فالوحدة لا تتم مـــع الاقليمية ولا مـــع التعريب اللغوى ، وانما تتم مع التجانس الفكرى ، مع التوافق ، مع تعريب التفكير·

واظن أن تقســـيم المثقفـــين الجزائريين الى « معربين ومفرنسين » ، انطلق من مفهوم لغوى ومن نظرة سطحية أو مقصودة مغرضة· فالتسمية علميا ووطنيا وقوميا غير مفهومة وغير دقيقـــة وغير سليمة ، بل وغير مقبولة ، أو مبررة·

فمن غير المقبول اطلاقا أن نستخدم مصطلحات ـ مـثل هذين المصطلحين ـ دون أن نفكـــر فى مدلولها سوى الفهم السطحى الساذج· أو اننـــا نستخدمها مـــن منطلق النظرة اللغوية وبالتالى نجرد التعريب كمـــا قلـت من محتواه الصحيح ونحصره فى زاوية ضيقة بحيث لا يعبر عن قيم معينـــة أو تقاليد راسخة أو جذورا عميقـــة فى تاريخنا ؟ !

قد يقال هذه امـــور شكلية ، ولكن الشكليات احيانا قد تحدث البلبلة فى الاذهان والنفوس لان تحديد الاشياء يعطيها مدلولها الحقيقى·فالغموض يحدث الفوضى ويترك المجال للاجتهادات الخاصة والتفسيرات المختلفـــة ، خاصـــة فى القضايا الجوهرية ذلك أن تناقض المفاهيم ينشأ من تناقض التعبير وتضارب المصطلحات فى شتى المجالات · فوضوح الـــراى من وضوح الفكـــرة ووضوح التعبيـــر ·

فمشكلة الانسان مشكلـة التعبير باستمراره فاللغة من الانسان بمعنى أو آخر· واعتقد ، أننى حين أقول : قل لى بأية لغة تتكلم أقل لك من أنت ؟ أعتقد أن هذه المقولة صحيحة ، فاللغة بهذا المعنى التفكير والتعبير معا· لان لكل لغـــة خصائصها

ومميزاتها التى تجسم بها تفكير أهلها والناطقين بها ، لهذا المعنى تعتبر اللغة مقوما أساسيا لشعب من الشعوب بل حتى التى تعطيه طابعا خاصا يميزه عن غيره ٠

وفى تصورى ، فان ما عرضت له من آراء خاصة بالتعريب وبالرغم مما أحسه من فجوة عميقة ما زالت تفصلنا عن التعريب الحقيقى ، فان الامل يبقى دائما فى الجيل القادم الذى عاش ظروفا تاريخية لم يتلوث فيها بأفكار قديمة ورواسب استعمارية ولم يخضع لمركبات نفسية خاصة ، فهذا الجيل هو الذى يمكن أن يحقق التعريب اللغوى والفكرى اذا خططنا له تخطيطا سليما وهيانا له المناخ الملائم٠ أما اذا تركنا الامر للزمن وحده فانه لن يحل المشكلة فلا بد من رقابة يقظة مستمرة ، ولا بد من تفكير فى سبل جديدة لتحقيق المزيد من النجاح٠

واذا كنا ننشىء مجالس شعبية للرقابة والتوجيه والتسيير ومصالح مختلفة تسهر على تحقيق اهداف الثورة ، فلماذا لا ننشىء مجلسا يتابع ما انجز من تعريب ، ويساعد على بلوغ الغايات والاهداف ويعمل على استمرار التعريب الكامل الشامل٠ لقد فعل هذا اناس لم تتعرض لغتهم لمثل ما تعرضت له لغتنا من حصار وضغط من قبل الاستعمار الفرنسى٠ وعانت الكثير من أعدائها وخصومها وربما حتى من بعض أنصارها الذين القوا المسؤولية على غيرهم لسبب أو لآخر٠ وهم مسؤولون عن التمهيد للثورة الثقافية التى سيكون التعريب من بين أهدافها وهى آتية لا ريب فى ذلك سواء طال الزمان أو قصر٠ لانها ستغير من مفاهيم كثيرة وستصلح اخطاء عديدة تحدد مقاييس جديدة للثقافة والفكر والتقدم٠

التعريب ووسائل تحقيقه



محمد الفاسي

رئيس جمعية الجامعات الاسلامية
ـ الرباط ـ
وعضو مجمع اللغة العربية

من المركبات العميقة التى خلفها فى نفوسنا اتصالنا الطويل بالحضارة الغربية واستيلاء النفوذ القهرى الاستعمارى على بلادنا هذه النظرة الى لغتنا من أنها لا تفى بمتطلبات هذا العصر وأنها فى حاجة الى الاصلاح والتطوير فى كتابتها وفى مفرداتها وحتى فى تراكيبها ونحوها وصرفها. والى أن يتم هذا التحويل الجذرى فى نظر المتفرنسين يجب أن تبقى اللغة الفرنسية اداة التعليم والعلاقات الادارية وحتى التعبير الادبى. وذلك أن المستعمر كان افرغ كل جهوده فى محاولة القضاء على لغة البلاد من جهة وفرض استعمال لغته فى المدارس وفى الدواوين الادارية من جهة أخرى. وقد كان لهذا الغزو المعنوى وهو اشد من الغزو السياسى اثر عميق على كثير من المثقفين فى بلاد المغرب العربى خصوصا الذين تخرجوا فى المدارس والمعاهد والجامعات الفرنسية سواء منها المؤسسة فى بلادنا او الموجودة بفرنسا نفسها وبالاخص من بين هؤلاء المثقفين من لم تكن لهم معرفة باللغة العربية مطلقا أو كانت هذه المعرفة سطحية هزيلة.

وازاء هذه الحالة الخطيرة على مستقبل ثقافتنا واصالتنا قام المخلصون من ابناء البلاد عندما لمسوا خطر هذه السياسة الجهنمية بمحاربتها بشتى الوسائل من انشاء المدارس الحرة التى تعتمد فى تعليمها على العربية والجمعيات الثقافية والجرائد والمجلات وبالقاء المحاضرات ونشر الدراسات حول اللغة العربية وبمقاومة النزعات الانحرافية عند تلك الثلة من المثقفين بالفرنسية ، ومنهم من كانوا ذوى نيات حسنة وبعيدين عن الخيانة الا ان دعاة السياسة الاستعمارية نجحوا فى بث سمومهم فى نفوسهم.

وبعد الاستقلال كان اول ما اتجهت اليه اهتمامات المسؤولين القضاء على هذه الظاهرة واحلال اللغة العربية فى مكانتها كلغة وطنية صالحة لكل ما تصلح له اية لغة فى اى بلد واطلق على هذه الاجراءات لفظة التعريب. وهكذا مثلا قررت لجنة وطنية اسست فى مطلع سنة ١٩٥٦ بالمغرب لوضع اسس السياسة التعليمية مبدا التعريب من جملة المبادىء التى ركزت عليها هذه السياسة . واخذ فى الحين فى تطبيقها فى المدارس الابتدائية وفى مدرسة نموذجية ثانوية وهى مدرسة يعقوب المنصور بالرباط . ومن الناحية العامة صدر قرار بالزام كل اصحاب المتاجر والمعامل والمهن الحرة كتابة الاشارات واللافتات بالعربية ازاء الكتابة بالفرنسية وكانت فى الغالب الاغلب وحدها مستعملة . ولكن مع الاسف وقعت بعد ذلك نكسة فى هذه الخطة وبقيت مسالة التعريب تتخبط منذ ذلك الوقت بين مد وجزر الى ان اقتنعت الحكومة الآن بضرورة تطبيق التعريب بكيفية شاملة فى التعليم والادارة والحياة العامة .

وان لفظة التعريب التى تحمل اليوم فى التفكير المغربى المقام الاول والتى تشغل بال الشعب وطبقات المفكرين والمسؤولين فى الدوائر العليا والتى صارت بكثرة ما رددتها الالسن فى النوادى والمجالس ، واشاد بها الكتاب والصحفيون والمذيعون كانها الترياق لكل ادوائنا خصوصا المتعلقة بالثقافة والتعليم وعليها يتوقف كذلك النمو الاقتصادى والتقدم الصناعى ، هذه اللفظة السحرية يكتنفها رغم كل هذا كثير من الغموض والابهام وكل واحد ينظر اليها بمنظار خاص . فتعين اذن قبل الخوض فى هذا الموضوع ان نتفق على مدلوله ومفهومه وما يقصد به . والواقع ان التعريب له مدلولات كثيرة ومفاهيم متعددة كما قلنا ، وليس الضرر فى هذا ولكن الضرر فى عدم الوضوح والاشتغال بمسالة التعريب على ان لها مدلولا واحدا مع ان كل واحد من المتكلمين او الكاتبين يعنى شيئا ليس هو المعنى عند صاحبه . اما لو اننا نتكلم جميعا على التعريب ونحن نقصد به مثلا احلال اللغة العربية فى التعليم محل اللغات الاجنبية او توسيع اللغة العربية بادخال مصطلحات جديدة عليها ، والزام الادارة بعدم استعمال لغة دون اللغة العربية او العمل على ان تكون لغة التخاطب هى العربية وحدها والدعاية لها ومقاومة كل الذين ينبذون لغتهم للتفاهم فيما بينهم بلغة اجنبية او غير هذا من المعانى التى يمكن ان تحتملها لفظة التعريب فيكون حينذاك الخطب سهلا ويمكن للمتكلمين فى الموضوع باحد معانيه المذكورة كمثال ان يصلوا الى حلول نظرية وان يسطروا خططا عملية لتطبيقها . لذلك يتعين علينا ان ندرس هذه القضية بكيفية تفصيلية مقدمين لذلك بالتعريف الواضح لما نقصده من لفظة « تعريب » .

وقبل كـــل شيء ينبغي أن لا نتعرض لتعريب لا يهمنا مطلقا فى هذا البحث وهو اصطلاح لغوى اتفق عليه علمـاء المجمـــع اللغوى بالقاهــــرة ويقصدون به أخذ كلمة أجنبية كما هى واعتبارها عربية ، وهذا ما كان علماء اللغة يعبرون عنـــه بالمعرب أو الدخيل وليس للفظة التعريب فى أكثر المعاجم العربية هذا المعنى ، وقد أورد لها صاحب القاموس أحد عشر اطلاقا منها اعطاء العربون وتهذيب المنطق من اللحن والاكثار من شرب الماء الصافى الخ ٠ وليس من بينها المعنى المشار اليه ، ومن أورد المعنى المذكور فانما فعل ذلك استنادا الى أن لكل فعل مصدرا ، ومن المناسب أن نقـول انه ليس من بينها كذلك المعنى الذى نعطيـه لهذه اللفظة فى المغرب لذلك اتفقنا فى مـؤتمر المجمع اللغوى سنة ١٩٦١ على أن نعتبر كلا من هذين الاطـلاقين الجديدين صحيحـا وسيـاق الحديث يخصص المعنى المقصود ٠

واذن ما هو التعريب الذى نريد ان نحققـه ؟ يلوح لي أن التعريب هو فى معناه الاعم السعى لجعل اللغة العربية اداة صالحة للتعبير عن كل ما يقع تحت الحس ، وعن كل العواطف والافكار والمعانى التى تختلج فى ضمير الانسان المتمدن الذى يعيش فى عصر الذرة والصواريخ ٠

يستنتج أولا من هذا التعريف ان هذه اللغـة التى يراد لها هذا المصير هى لغة لا تؤدى هذه الرسالة اليوم على أكمل وجه ٠ وهذه هى الحقيقة الاولى التى يجب أن نواجهها ولا نترك للعاطفـة مجالا فى سترها عنا ٠ والكل يعلم أن اللغـــة العربية وسعت فى وقت عزها وازدهارها علـــم اليونان وفلسفتهم وأدب الفرس والهند وحكمتهم وأنها استطاعت أن تؤدى الرسالة التى نريد أن تؤديها الآن حيث تمكنت من التعبير عن أرقى ما وصلت اليـه المدارك الانسانية فى وقت بلـــوغ الحضارة الاسلامية أوج عظمتها ٠ ولكنها أو قل ولكن أهلها أصابهم من الركـــود والخمود مـــا جعلهم يتقهقرون ويتخلفون عن ركـب الحضارة الجديدة التى أخذت المشعل من يد العرب وصارت تنير به الطريق بعدهم ، وقد أخلدوا الى السكون مما أداهم الى ذلك السبات العميق ٠ فلما قيض اللـــه لهم من الرجال المصلحين من ينبههم من نومهم ويبعث فيهم روح النهضة والتقدم وجدوا أن الامر قد افلت من أيديهم وأن العلوم والفنون والصنائع أحرزت على انتصارات باهرة ووصلت الى غايات بعيدة على يد أمم غير الامم الاسلامية لها لغات بلغت كذلك درجة عليا فى الترقى ، مما اضطر المسلمين لتعلمها واتخاذها فى كثير مـــن الامـم الاسـلامية العـــربية وغيرها كلغة العلم والتعليم ٠ وكانت هذه المرحلة ضرورية فى أول النهضة ، ولكن سرعان ما تنبـه زعماء الفكـــر العربى خصوصا فى البلاد المشرقية الى الخطر الذى كان يهدد كيان الامة العـــربية فى أقوى دعامة لها وأهم العناصر التى تتكون منها وهـــى لغتها ٠ فأخذوا ينادون بوجوب الاهتمام بهـــا بالتعليم والنشـــر والدعاية والبحث عن أسباب تأخرها وعن وسائل علاجها ، وقد بدأت العناية بهذه الشؤون بالمشرق فى أواسط القرن الماضى٠ ومن العجيب أن هذه النهضة استمرت فى نفس الوقت مع التيار المعاكس الذى يتمثل فى غـــزو اللغات الاجنبية للبلاد العربية شـرقا وغـربا ٠ فبينما كانت اللغة التركية بالمشرق تحتل المقـام الاول فى الدواوين والمدارس كان أنصار القومية العربية يعلمون على ترقيتها بالترجمة والطباعة والصحافة وبالمطالبة **خصوصا فى الشام والعراق**

بحقها فى الحياة · أما فى المغرب الاقصى فلم تكن العربية فى خطر لاننا من جهة كنا احرارا لا تفوذ لسلطة أجنبية علينا ، ومن جهة أخرى لم نكن انتبهنا من سباتنا واتصلنا بعلم الغرب ومدنيته ولغاته ، وكانت اللغة العربية تؤدى حاجياتنا الثقافية اذ ذاك على اكمل وجه بمعنى أن لغة الدواوين والمراسلات الرسمية كانت اسلم لغة عربية فى العالم وافصحها حتى أن كتابة ادباء ذلك العصر من أمثال ابن ادريس وغريط وابن المواز وغيرهم تذكرنا بنثر ادباء الذخيرة والقلائد ·

ثم جاء دورنا فاصبنا باستعمار دهمنا على حين غفلة منا ولم يكن لنا ما نتحصن به ضد شروره ، فلا نحن عرفنا أساليب الغرب ولو عن طريق غيرنا كما كان الشأن فى البلاد العربية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ولا نحن كنا احسسنا بضرورة الاقتداء بالغرب فى ميادين الحضارة الحديثة كما كان الشأن فى مصر مثلا على عهد محمد على الذى كان له من حملة بونابارت خير مدرسة لادخال النظم والمؤسسات العمرانية الحديثة لبلاده ، الا ما كان من تلك المحاولة الجريئة التى قام بها السلطان مولاى الحسن الاول رحمه الله حيث وجه فى أواخر القرن الماضى بعثات من الطلبة لاوربا بقصد التخصص فى العلوم والفنون الحديثة من طب وهندسة وما الى ذلك ، ولكن هذه المحاولة الشبيهة بالخطة التى رسمها اليابان فى نفس الوقت وسار عليها لم يكتب لها نفس النجاح الذى أحرزت عليه فى الامبراطورية اليابانية · لذلك عندما استولت سلطة الحماية على مقاليد الحكم فى بلادنا كان كل ما أحدث بالمغرب من الفه الى يائه على النمط الفرنسى وباللغة الفرنسية وبالاساليب الفرنسية أو بالطابع الاسبانى فى كل ذلك بالقسم الشمالى من الوطن المغربى · ومن هنا كان الاحساس بعد الاستقلال بذوبان شخصيتنا فى الشخصية الاجنبية احساسا عميقا أخذ علينا كل مشاعرنا وجعلنا نسعى للتخلص من ثقل هذا الكابوس على أنفسنا بكل الوسائل · وتبلور هذا الشعور فى نقطة واحدة ، بل فى كلمة واحدة هى التعريب ، ونقصد به ليس فحسب ذلك المعنى العام الذى ذكرت وانما أيضا وقبل كل شىء احلال اللغة العربية والاساليب العربية فى التعليم والادارة وفى كل مناحى النشاط القومى محل اللغة والاساليب الفرنسية أو الاسبانية ·

ومن البديهى أن هذا لا يتأتى الا اذا كانت اللغة العربية صالحة وقادرة على أن تقوم بهذا الواجب وتؤدى هذه الرسالة بنفس الطريقة والدقة والكفاية التى تؤديها بها اللغة الفرنسية أو الاسبانية · وهذه الملاحظة تردنا لذلك التعريف الذى أعطيناه للفظة التعريب فى معناه الاعم ، وهو التعريف الذى ينطبق على كل البلاد العربية والذى تحل دراسته كل المشاكل الخاصة بكل بلد عربى على حدة ·

فماذا ينقص اذن اللغة العربية اليوم لتكون تلك الاداة الصالحة على حد ما وصفناه فى التعريف المذكور ، وما هى المشاكل التى تعترض طريقها ؟ ذلك ما يجب أن نتبينه بدقة حتى اذا تشخص الداء سهل البحث عن الدواء ·

أول مشاكل اللغة العربية حسب نظرى الآن بعد الاهتمام بهذا الموضوع طيلة سنين طويلة ترجع لطريقة الكتابة · وذلك أننا فى ما سوى القرآن الكريم وبعض الدواوين الشعرية القديمة نكتب

الحروف مجردة عن الحركات . ورغم ما كتب عن هذه المسألة ورغم المناقشات الحادة والخلافات العميقة التى شغلت أفكار الباحثين والتهجمات التى تعرضت لها لغة القرآن فاننى أعتبر أن هذا المشكل اصطناعى . بل انه مدسوس علينا لان الحروف العربية تامة كاملة تقوم برسالتها فى تأدية الاصوات العربية وحركاتها على أكمل وجه . ولا يلزم من كون الحركات تؤدى بعلامات توضع فوق الحروف أو تحتها أن تكون طريقة الكتابة العربية ناقصة ، والسبب فى اغفالنا لهذه العلامات هو أن طبيعة اللغة العربية فى نحوها وصرفها تجعل المتضلع فى ما يسمى علوم العربية يقرأ بدون خطأ أى نص قديم أو حديث ولو كان مجردا من الشكل . ولكن هذا التضلع كان متيسرا لما كان التعليم منحصرا فى عدد قليل ممن يكرسون حياتهم للعلم والتعلم أى فى الغالب أبناء الفقراء ومتوسطى الحال خلافا لما يمكن أن يتبادر الى الاذهان من أن الذين كان فى وسعهم أن يحصلوا على تعلم متين هم أبناء الاغنياء . وقديما قيل : «لولا أبناء الفقراء لضاع العلم » وذلك أن الحالة الاجتماعية كانت تقتضى من أبناء التجار ورجالات الدولة من القواد والرؤساء ونحوهم أن يتولوا مهن آبائهم ومناصبهم بدون أن يحتاجوا الى ثقافة واسعة بخلاف الآخرين فانهم كانوا مضطرين ان أرادوا الصعود فى السلم الاجتماعى أن يتدرعوا بالعلم وهكذا نرى أن أغلبية العلماء من المدرسين والمفتين والقضاة وكتاب الدواوين السلطانية كانوا من أبناء الفلاحين والصناع وصغار التجار خصوصا وأن التعليم كان لا يتطلب المصاريف الباهضة التى يتطلبها اليوم وكانت الاحباس تجرى على طلاب العلم فى الجامعات كالقرويين والزيتونة والازهر والمساجد الكبرى فى المدن الاسلامية كلها والزوايا والخانقات والمدارس .

ولكن عندما اتصلنا بالمدنية الحاضرة التى تقتضى السرعة فى التعلم والتى يحتاج فيها كل واحد الى المعرفة ليشغل عملا فى المجتمع ولو كان صناعة يدوية بحيث صار تعميم التعليم من الضروريات اللازمة ، ظهر للوجود هذا المشكل ، ولم يكن حقا من المتوقع أن يتنبه اليه فى أول ادخال الطباعة للبلاد العربية ، ولكن منذ الوقت الذى تنبه العرب الى هذا النقص - الذى ليس بنقص فى حقيقة الواقع - كان ينبغى أن يعمد الى طبع كل الكتب والجرائد والمجلات بحروف مشكولة تمام الشكل . ورغم القرارات المتخذة فى هذا الشأن فى المجامع اللغوية والندوات والمؤتمرات التى عقدت لدراسة هذا الموضوع لا نزال نطبع كل جرائدنا وأكثر كتبنا مجردة عن الشكل .

وقد كنا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة قررنا أن تطبع كل الكتب الدراسية والنصوص الادبية القديمة بالشكل التام على غرار ما نفعله فى طبع المصاحف ، ولم يدع أحد أن قراءة القرآن الكريم صعبة ، وما ذلك الا لانه يطبع دائما مشكولا . ولم يطبق هذا القرار بكيفية شاملة فى كل البلاد العربية وفى طبع كل أنواع الكتب المذكورة . كما أن أحد الباحثين التونسيين وهو الاستاذ البشير ابن سلامة فى كتابه « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » (١) توصل لنفس النتيجة بعد دراسة واسعة وتحليل واقعى لكل جوانب المسألة وان كنا لا نوافق على كل النظريات التى يحتوى عليه هذا الكتاب القيم .

(١) الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٧١ .

وهنا تطرح مشكلة اقتصادية ، وذلك أن جعـل الحركات على الحروف أو تحتهـا فى الطباعـة يستلزم نفقـات زائـــدة • هذا صحيح • الا أن جهودا محمودة بذلت لتسهيل وسائل الطبع بأثمان مناسبة وقد انكب الاستاذ أحمد الاخضر مديـر معهد التعريب بالرباط منذ عشـــرين سنة على معالجة هذه القضية وتوصل الى طريقـة مسجلة تجعل اشكـــال حروف الطباعة لا تتعـدى اثنين وأربعين شكلا ومع العلامات الحركية والاملائية والارقام تبلغ تسعين شـــكلا لا غـير وهو العدد المعيارى لكل المطابع بالحروف الاعجمية وذلـك مع المحافظة على جمال الحروف العربية وأصالتها وقد تبنتها الحكومة المغربية وأيديها عدة شخصيات وندوات ومؤتمرات نذكر من بينها على سبيل المثال التوصية التى أصدرها مـــؤتمر التعريب الذى كانت دعت اليه حكومة صاحب الجلالة الحسن الثانى والذى انعقد تحت اشـراف جامعة محمد الخامس وكان لي شرف رئاسته وذلك ما بين ٣ و ٨ أبريل ١٩٦١ وقد ضم نخبة من رجال العلم والفكر من الاقطار العربية • ونص هذه التوصية :

التوصـــية ٤ فى موضوع تيسـير الطباعـة العـربية : (٢)

ا ــ ان وسائـل الطباعة فى صورتها الراهنة لا تلائم سرعة التقدم والنشاط التعليمى المطـرد فى الزيادة وذلك لتعدد عـدد حروفها الى المئات مما يقتضى المزيد من النفقات والجهد والزمـن ويعوق حركة نمو التعليم ، ولذلك فان المـؤتمر يـــرى :

ب ــ أن الضرورات الحاضرة تفرض ابتكـار وسائل جديدة لتيسير الطباعة العربية باختصار عدد الحروف فيها الى اقل قدر ممكن •

ج ــ ويقرر أن السبيل الى ذلك هـــو محاولة تطويع صـور الحروف العـربية للالآت الطباعية لا تطويع الآلات لصور الحروف الراهنة ، مــع المحافظة على جمـال الحروف العربية وعـــدم تغيير صورتها العامة •

د ــ ويرى أن الطريقة التى ابتكرها الاستـاذ أحمد الاخضر هى أحسن ما توصل اليه لحد الآن•

هـ ــ ويشكر المـؤتمر الحكومة المغربية عـلى مؤازرتها للمشروع •

و ــ كما يوصى الحكومات العربية بالانتفـاع بهذه الطريقة وتشجيع المطابـــع الخاصـة على الانتفاع بها كذلك ، لتـــوفير النفقات والجــــهد والزمـــن •

فالحل اذن ميسر وسهل بل وقد برهن التطبيق العملى لهذه الطريقـــة على أن المصاريف بهذه الطريقة يكلف ثلث مصاريف الطريقة الحالية التى لو استعملت على ما هى عليه مع زيادة علامـات الحركات لكلفت حقا مصاريف باهضة لان مجموع أشكال الحروف اذاك يبلغ خمسمائة شكل مـــع تعدد العمليات الطباعية •

فيتعين على هذا تعميم الطبـــع بالحركات ولا تبقى اذاك مشكلة ويمكن حتى للمتوسط الثقافـة قراءة الكتب والصحف بدون جهد وبدون تشويه لصفاء اللغة ونصاعتها •

(٢) انظر مجلة « التربية الوطنية » عدد ٥ من السنة الثانية : الرباط ــ أبريل ١٩٦١ ص ٤٩ ــ ٥٠

وينبغى فى هذا الصدد التنبيه أيضا الى ظاهرة غريبة تتعلق بصوت واحد يوجد فى كل اللهجات العامية خصوصا فى بعض الاعلام التاريخية والجغرافية ولا نعرف كيف نكتبه وهو القاف المعقودة وقد وجد له سلفنا حلا بسيطا وهو زيادة ثلاث نقط على الكاف ان كان لفظا أعجميا كأثدير مثلا وثلاث نقط على القاف ان كان لفظا عربيا تنطق قافه معقودة مثل شراقة قبيلة فى أحواز فاس وثلاث نقط تحت الجيم ان كان لفظا عربيا تنطق جيمه كما تنطق الجيم القاهرية وذلك مثل الجزار اسم عائلة · وكل هذا بسبب الكسل الفكرى وعدم المبالاة فترانا نكتب اسم المدينة المغربية أكدير بالكاف أو بالغين أو بالجيم أو حتى بالقاف ولا واحد منها يؤدى النطق الحقيقى ، مع أن الاعاجم وجدوا الحل لهذه المشكلة البسيطة فالا يرانيون مثلا يكتبون هذه القاف المعقودة كافا فوقه مطة هكذا گ وهى الطريقة التى أقررناها فى مجمع اللغة العربية ولكن ذلك بقى حبرا على ورق · وفى طريقة الاخضر مضموما اليها طريقة ابتكرتها لكتابة اللهجة العامية المغربية بأصواتها وحركاتها الخاصة أثبت شكل كتابة القاف المعقودة حسب أصل الكلمة ·

ومن النقائص التى تنسب للغة العربية ما يسمى بالازدواجية وهى أن الشخص العربى يتكلم لغة ويكتب لغة أخرى على خلاف ما هو الشأن عند غيرنا بمعنى أن اللهجات العامية التى نتكلمها مخالفة للغة الفصحى التى نكتبها · وهذا أيضا بكيفية عامة صحيح · ولكن فى هذا الادعاء مبالغة ومغالطة وذلك أن الفرق بين العامية والفصحى ليس بهذه الدرجة حتى يسمى كل مما نتخاطب به وما نكتبه لغة بل باستثناء الاعراب وبعض المفردات فهما لغة واحدة · وكل لغات الدينا تتسم بهذه الفوارق فهل لغة العامة بفرنسا مثلا ولغة الكتابة ليس بينهما بون لا يقل عما بين لهجاتنا من جهة وبين لغتنا الفصحى من جهة أخرى ؟ بل أرى الفرق بين لغة عمال ضاحية باريس ولغة الشاعر ڤاليرى يفوق بمراحل الفرق بين ما يتكلمه العامل الجزائرى وما ينظمه من شعر الشاعر مفدى زكرياء · على أن هناك لغة علمية راقية وهى الالمانية تحتوى على اعراب معقد يتسلط حتى على أداة التعريف تكون مذكرة ومؤنثة ومحايدة وبالافراد وبالجمع وبحالات الفاعلية والمفعولية وغيرهما من الموجبات الاعرابية وذلك مثل : Des, Den, Dem, Der, Die, Das الخ (١) ثم انها لا يتكلمها أحد اذ لكل ناحية لهجتها الخاصة وانما تستعمل الفصحى للكتابة وهى التى توحد بين مختلف أجزاء البلاد الجرمانية وهى فى هذا تماما مثل العربية ولم يمنع ذلك من أن تكون اللغة الالمانية من أهم لغات العلم والادب ولم ينبزها أحد بنقص ·

فالمسألة اذن فى هذه « المشكلة » مسألة تعليم فقط فلو لم يكن التعليم عاما بالبلاد الالمانية لكان لهم مشكل من هذا النوع ولكن حيث ان كل فرد من مجموع الاقطار التى لغتها جرمانية (الالمانيتان والنامسا وجزء سويسرا الالمانى وما جاور هذه البلاد ممن يتكلمون لهجة جرمانية) يحسن الالمانية الفصحى فانه يقرأ كل ما يكتب أو يلقى فى الاذاعة والتلفزة ولا يحس بنقص ولا ينسب للغتهم عجز · وعندنا يبرز هذا الفرق بسبب الامية الفاشية ببلادنا · فالذى لا يحسن

(١) كل هذه الصيغ وباقى الحالات الاعرابية يعبر عنه فى لغتنا بـ ال ·

العربية الفصحى لا يمكنه ان يفهم ما يقرأ ان هو استطاع القراءة ولا ما يسمع ، وعندما يعمـــم التعليم تسقط هذه المشكلة من نفسها ويتضح أن الامر لا يرجع لطبيعة اللغة ولا للفوارق الطبيعية التى تتسم بها لغة التخاطب العادية ولغة الكتابة والتاليف · فالحل اذن هو تنشئـــة ابنائنا على العـــربية الفصحى وتعويدهم التخاطب بها فى المدرسة وخارجها على أن الفـــوارق نفسها بين العامية والفصحى تزول يوما فيوما حتى بالنسبة للكبار بفضل الاذاعات المسموعة والمرئية خصوصا فى البرامج التى تستعمل اللغة الفصحى ·

وهذا يجرنا الى الكلام على لغة المسرح · ان من أكبر العـــوامل الضـــارة باللغة العـــربية وبمستقبلها وحتى بمستقبل الـــوحدة العـــربية استعمال اللهجات المحلية فى السينما والمســرح وفى الاذاعة والتلفزة اذ يجمع بين البلاد العربية الا لغة القرآن والعدول عنها الى اللهجات المحلية هو فصم لهذه الوحدة وقد قال الدكتور طه حسين رحمه اللـــه : « الذين ينادون باحـــلال العامية لسهولتها محل الفصحى لصعوبتها هم أشبـــه بمن ينادون بتعميم الجهل لانه سهل ، والغـــاء العلم لانه صعب المنال » ·

وثالث المشاكل التى تتعلق باللغة العربية هو قضيـــة المصطلحات العلميـــة والحاضرية التى تخلفنا فيها منذ دخلت المدنية الاسلامية فى طور الركود للاسباب التاريخية المعروفة التى ليس هنا محل تفصيلها ، اذ العلوم أخذت تتقدم وتتوســع والنظـــم السياسية والقضائية والادارية تتطـور والصنائع تنمو وتترقى ، وكل هذا استلزم احداث الآلاف بل مئـات الآلاف من الالفاظ والاصطلحات للتعبير عنه فى الوقت الذى بقيت لغتنا على مـــا كانت عليه لما جمدت القرائح ووقف الفكر العربى عن الاختراع والابتداع ، بل زاد المسالة تراجعا وتأخرا ان المثقفين فى أكثر البلاد العربية باقبالهم فى أول الاتصال بالحضارة الحديثة على اللغات الاجنبية والثقافات الغربية أهملوا تراثهم اللغوى وقلت المعرفة بدقائق اللغة وبمصطلحات العلـــوم والفنون التى كانت بلغت درجة عالية فى الدقـــة والاتســـاع فاهملت تلك الثـــروة العظيمة وبقت مخبأة فى طيات الموسوعات والمؤلفات المختصـــة المخطوطة منها والمطبوعة ·

ولما تنبه المصلحون فى فجر النهضة العـــربية المباركة لهذه الحالة المؤسفة كان أول ما انصرفت اليه الجهود هو ايجاد المصطلحات واحياء الآثار الثمينة بالنشر والبحث وساهم فى هذه الجهود الافراد والجماعات ، وكان للصحافة دور هـــام رغم ما تنبز به فى كل عصر من استعمالها للالفاظ استعمالا غير صحيح أو تحريفها للمعنى العـــربى الفصيح أو العبث به ومخالفتها للقواعد اللغوية والنحوية والصرفية الى غـــير ذلك مما يجمـــل التعبير عنه بهذه العبارة : « لغة الجرائد » · ولكن فضلها مع ذلك لا ينكر وعلى علماء اللغة والمجامع العـــربية والمعـــاهد المختصة أن تنخـــل كل ذلك وتصفيـــه ·

وهنا يجب التنويه بمجهودات هذه المجامـــع التى تســـهر على صفاء اللغة من جهـــة وتقوم بتنميتها من جهة أخرى ، انما يؤخذ عليها البطء فى العمل وقلة الانتاج وعدم التنسيق فيما بينها ·

واذا كان من الممكن بل من الواجب أن نصل الى طريقة عملية للتنسيق فان الاتفاق فى العمـــل وظروف العاملين فى هذه الميادين يجعـــل البطء وبالتالى قلة الانتاج من الصفات التى تلازم عمل

كل المجامع فى الدنيا ومثال الاكاديمية الفرنسية فى وضعها للقاموس الرسمى للغة فولتير مثال مشهور ٠ الا أنه من الممكن تحسين هذه الحالة ، والملاحظ أن نشاط المجمع اللغوى بالقاهرة مثلا فى هذه السنين الاخيرة نعلق عليه اكبر الآمال وما تم وضعه فى هذه الحقبة من مصطلحات فى مختلف العلوم والفنون وفى الفاظ الحضارة يعادل مرات الانتاجات السابقة ٠

ولكن الحالة التى وصفناها تستدعى حلولا أخرى ووسائل اكثر فعالية ، لان الزمان لا ينتظرنا ، والعلوم ومصطلحاتها فى تقدم مستمر بمعنى ان فى مجموع النشاط الفكرى الانسانى توضع آلاف الالفاظ فى كل سنة بحيث اننا رغم كل المجهودات المذكورة يجب أن نتحقق باننا نتأخر فى حين يظهر لنا أننا نتقدم ٠ واننا مادمنا لم نهتد الى وسائل اخرى سريعة فانه سيكون من الصعب علينا ان لم يكن من المستحيل أن نلحق بالركب وان نصل الى النتيجة التى نتوخاها من جعل اللغة العربية تؤدى الرسالة المحددة فى التعريف الذى عرفنا به التعريب فى أول هذا البحث ٠

وان الحلول العملية الناجعة التى تمكننا من بلوغ الهدف فى اقرب وقت لان المسألة كما قلت مسألة زمان قبل كل شىء تتخلص فى ما يلي :

١ ــ يجب أن يكلف كل قطر عربى بناحية من نواحى النشاط الفكرى أو بعدة نواح اذا كانت تتوفر لديه وسائل كثيرة من اشتماله على عدد كبير من المؤسسات العلمية والهيئات الثقافية ٠ ويعهد اليه وضع كل المصطلحات الراجعة للناحية الفكرية التى عينت له ٠

وينبغى أن يسبق هذا العمل القيام بتجريد كل المؤلفات القديمة واستخراج مصطلحاتها ٠ فمن كلف بوضع مصطلحات القانون مثلا يجب أن يشكل عدة لجان فرعية تكون مهمتها الرجوع الى أمهات كتب الفقه الاسلامى فى سائر المذاهب السنية وغيرها بما فى ذلك كتب أصول الفقه والنوازل والوثائق والفتاوى والخلاف والاحكام والفرائض والمسطرة القضائية والسياسية الشرعية ٠ فان مجموع هذا التراث الاسلامى يكون ثروة لغوية تكون خير عون لنا لسد الفراغ ، وتجلعنا من جهة أخرى نربط الصلة بماضينا العلمى المجيد فتبرز شخصية حضارتنا وتصطبغ بصبغتها الاصيلة وتكون نهضتنا الحالية امتدادا لمدنيتنا السابقة ٠

وهكذا يكون العمل بالنسبة لكل العلوم والفنون الاخرى ، واننى لا ادعى أننا سنجد فى ذلك التراث الخالد كل ما نتوقف عليه من مصطلحات وانما نستفيد من هذه الطريقة كمية ذات بال من هذه المصطلحات ونكتسب بالرجوع الى الاصول الملكة والحنكة على استنباط ما لا نجده فيها ٠

٢ ــ ثم يتعين كذلك أن تخصص لجان فى كل قطر للعكوف على دراسة اللهجات العامية فى محاورات الناس وفى حكاياتهم وفى أمثالهم وأزجالهم وأغانيهم ومصطلحات أهل الصنائع والحرف منهم ، فان من يشتغلون بهذه الناحية من الدراسات اللغوية يؤكدون أن هذه اللهجات العامية قد حافظت على ثروة هائلة من الالفاظ الفصيحة المهملة عند الكتاب والادباء والمصطلحات العربية الصميمة التى استنبطت ايام ازدهار المدنية العربية ولم يضمها معجم ولا سجلها احد من علماء اللغة الا فى القليل النادر ٠ وينبغى فى هذا الباب

الرجوع الى الكتب الموضوعة قديما فى ما يسمى بلحن العامة او تقويم اللسان وهى مصادر مهمة بالنسبة لهذا الموضوع ٠

ثم ان هناك مصدرا قليلا ما يرجع اليه الباحثون مع أنه لو عرف كيف يستغــل على اكمل وجــــه لافادنا الشىء الكثير ، وهو الكلمات العربية التى اقتبستها اللغات الا جنبية عــــن لغتنــا وبقيت محافظة عليها بمعناها الاصلى أو بمعنى آخــر خصصتها له فى استعمالات اصطلاحية علمية أو حضارية ، ومنها ما بقى كذلك حيا فى لغتنا ومنها ما سقط من الاستعمال وعفى عليه الزمان ٠ ومن هذا القبيل الشىء الكثير فى اللغات الغـــربية كالاسبانية فى الدرجـــة الاولى واللغات اللاتينية الاخرى والانكليزية وحتى الــروسية ٠ ثـــم فى اللغات الاسلامية من هذا القبيل كميـــة وافـــرة خصــــوصا فى التـــركية والفــارسية والاوردو والبربرية ٠

فيكون هذا العمل أيضا من اختصاص لجــان اللهجات العامية مع تكليف كل قطر عربى بلغـــة من هذه اللغـــــات ٠

وتجدر الاشـــــارة هنا الى قضــــية تتعلـــق بالمصطلحات العلمية حيث يعـــمد البعض ممن يهتمون بوضعها الى اللفظ الاعجمى وينقلونه على علاته بحروف عربية معتمدين على ادعاء باطــل ومغالطة لا اصـــل لها من الصحة وهى أن هذه الفاظ عالمية دوليـــة تستعمل فى كل البـــلاد ٠ والواقع أن لفظة من هذا النوع لا وجود لها ، واذا كانت اللغات اللاتينية واللغة الانكليزية ـ هـــذه اللغات التى كان اتصالنا بها اكثر من الاتصـــال بغيرها ـ تستعمل احيانا الفاظا متقاربة متشابهة فان باقى الشعوب لها الفاظها الخاصة المنبثقة من عبقـــريتها وخصائصها الذاتية ٠ ولنضـــرب لذلك مثلا بلغة أوربية كان يعمها هذا الشمــــول لو كان حقا أن المصطلحات العلمية هى عالمية ، ولكنها فى الواقــع تستعمل الفاظا جرمانية بحتة ولناخذ ســـت كلمات علميـــة وهى هيدروجين وأوكسجين وتليفون وتلفزة وجغرافية وبتـــرول فنــــرى أن الالمان لا يستعملون واحـــدة من هذه الكلمات وانما يقولون :

لهيدروجين = فاسر شتوف Wasserstoff أى مادة المـــاء ٠

ولاوكسجين = زاور شتوف Sauerstoff أى مادة حامضــــة ٠

ولتليفون = فرن شبيخر Feernsprecher أى التكلم البعيـــــد ٠

ولتلفزة = فرن زيهن Erdkunde أى الرؤيـــة البعيـــدة ٠

ولجغرافية = اردكونده Fernsehen أى معرفة الارض ٠

ولبترول = اردول Erdol أى زيت الارض ٠

وهذا رغم كون لغتهم من فصيلة اللغات الهندية الاوربية وهى شقيقة اللغات اللاتينية والانكليزية٠ فما بالك باللغات البعيدة عن هذه الفصيلة كلغات المجر والفنلاند والصين واليابان وغيرها ؟

وما ادعاء عالمـــية المصطلحات الا مـــن تلك المركبات التى ركزها فى ادمغتنا نفوذ الاستعمار على بلادنا فى الحقبـــة الطويلة التى منينا بـــه وصرنا لا نعرف الا ما اتصـــــل بحضارة فرنسا وانكلترا وكل ما لا يتفق مع معاييرهما وأساليبهما لا نقبله ٠ فوقع لنا مثل ما يحكى عن أعمى لم ير

الضوء منذ ولد وفجاة فتحت عيناه فوقع بصره على فأر ثم عمى مرة أخرى بمثل السرعة التى أبصر بها فصار كل من حدثه عن شيء يساله هل هو مثل الفـــأر ؟

ومن المشاكل التى تعترض اللغة العربية فى سبيل تاديتها لرسالتها صفة حميدة من جهة اذ تدل على ثروتها وغناها وهى اتساعها بكثـرة المترادفات ولكنها فى نفس الوقت تجعـل كذلك الغموض والبلبلة من صفاتها وتجعل الخـلاف يتسع بين مختلف الاقطار العربية ، فلو أن للعرب كلمة واحدة لتادية معنى من يقوم مقام غيره لما كنا نقول حسب الاقطار للتعبير عن هذا المعنى : خليفة ، نائب ، وكيل · وكاهية التركية الدخيلة · وكذلك الشان فى القسم والصف والطبقة والفصل للحجرة التى يتعلم فيها التلاميذ فى المدرسة وهكذا دواليك · واذا كان هذا الخلاف غير ذى شأن كبير فى ما يرجـع للشـعر والانتاجات الادبية المجردة فانه بالنسبة للمصطلحات الحضارية ولغة القـانون والطـب فاحرى بالنسبة للمصطلحات العلمية البحتـة يكون أكبر خطـر على الوحدة العربية التى ترتكز فى أساسها على اللغة · واذا لم يجعل حد لهذا التباين مـع كثرة ما يستحدث من الفاظ واصطلاحات أصبحنا وقد عظم الفـرق بين مختلف الاقطار العربية واتسع الخرق وصعب الرتق · لذلك يتعين علينا أن ننظر بجد فى الوسائل الناجعة لتلافى هذه الاخطار · وأرى أنه ان كـان للبلاد الشقيقة المشرقية دورها الهامفى الناحية الايجادية الابتكارية فـان لنا أن نساهم فى هذا البرنامـــج الواســع المنهجى بدور التنسـيق والتوحيد · وذلك ما تقـرر فى مؤتمر التعـريب المشار اليه سابقا الذى انبثق عنه مكتب تنسـيق التعريب الذى مقره بالرباط وهو يقوم بجهــود مشكورة فى هذه السبيل وعلى نجاح هذا المشروع يتوقف ضمان استمرار الوحدة العربية نفسهـا ومن حسن حظنا وبفضل القـرآن الكريم أن هذه الفروق الآن لا تتعدى المفردات ولا تمس القـواعد النحوية والصرفية بحيث أننا لا نحتاج الا لتنظيم العمل والسير فيه على طريقة منهجية لنصل الى الغـاية المنشـــودة ·

وان تعلقنا بلغتنا وسعينا فى المحافظة عليها وتصفيتها من الشوائب ليس أمرا خاصا بالعرب بل نرى اليوم الشعوب الراقية كلها تسير فى نفس هذه الطريق ومنها من يبلغ به الامر الى حالـة التعصب مثل ما نراه عند أهـل بلجيكا المتكلمين بالنيرلاندية (وهـم يفضلون هذه التسمية عـلى الفلامانكية التى يستعملها مواطنوهم من المتكلمين بالفرنسية فى هذا الصدد) حيث قرروا أخيـرا العقاب بالسجن وغـيره لكل من ثبت استعماله الفرنسية تكلما أو كتابة وهو يقوم بعمل رسمى · وتوجد عشرات الهيئات الرسمية والخاصـة تقوم بالمحافظة على اللغة الفرنسية وابعـاد الكلمات الدخيلة التى غـزتها فى هذه السنين الاخيـرة خصوصا الانكليزية حتى أطلـق أحد الاساتذة الفرنسيين المشهورين وهو الاستاذ Etiemble على لغة فرنسا فى الوقت الحاضر لفظ الفرانكلية le franglais أى الفرنسية الممزوجة بالانكليزية (١) وعلى رأس هذه المؤسسات المجمع الفرنسى الذى لا يدخل فى قاموسه الا ما كان سليما مـن

(١) وقد تبعه فى ذلك الاستاذ قاسم الزهيرى سفير المملكة المغـربية بالصـين فى محاضرة له سماها العرنسية مشيرا بذلك الى اللغة التى تتكلـم بها بعض الاوساط وهى مزيج من العربية والفرنسية ·

حيث الاصل الفرنسى وموافقا للذوق والاساليب الفرنسية · وآخر هيئة سمعنا بتأسيسها اخيرا بالكانادا هى SITEST pour sauver le français scientifique أى سيتست Service international de terminologie scientifique et technique = المصلحة الدولية للمصطلحات العلمية والتقنية لانقاذ اللغة الفرنسية العلمية) · وتوجد هيئة عليا فرنسية تضع المصطلحات الفرنسية محل ما انتشر منها باللغة الانكليزية بين العلماء الفرنسيين وتنشر قوائم لهذه المصطلحات فى كبريات الصحف ليطلع عليها الجمهور المثقف ·

ثم ان المطالبة بالتعريب فى بلادنا بكيفية عامة أمر طبيعى ضرورى فكل الشعوب تستعمل لغاتها فى سائر مناحى الحياة حتى الامم التى ليس لها ماض حضارى ولم تخلف تراثا ثقافيا عظيما مثل الذى خلفته الامة العربية واثرت به الحضارة الانسانية جمعاء مما سهل علينا الجهود الموفقة التى بذلناها لادخال اللغة العربية كلغة عمل فى منظمة اليونسكو على قدم المساواة مع الانكليزية والاسبانية والروسية والفرنسية فكانت اللغة العربية هى اللغة الغير الاوربية الوحيدة التى تحظى بهذا الاعتبار ·

فيجب على أبنائها قبل كل واحد أن يعرفوا لها هذا الفضل ويشدوا بالنواجذ عليها ويعملوا على المحافظة على صفائها لضمان استمرار وجودها كلغة حضارة أسدت فى تاريخها المجيد اكبر الخدمات للانسانية جمعاء ·

حركة التعريب
وَصل بَين الماضي والمستقبل

د٠شكرى فيصل

الامين العام
لمجمع اللغة العربية
ـ دمشق ـ

عندما اتحدث عن حركة التعريب ، وانا ازور الجزائر مشاركا فى المؤتمر الثانى للتعريب الذى ينعقد فيها هذا العـــام استمرارا للمؤتمر الاول الذى عقد من قبل فى المغرب عام ١٩٦١ يتملكنى احساس عميــق بالقيمة الكبرى لهذا العمــل ٠ وينبع هذا الاحساس عندى من الفكرة التى اومن بها وانطلق منها وهى أن حركة التعريب ليســت حركة تراثية بحال من الاحوال ، ليست حــركة متصلة بالماضى فحســـب ولا يمكن ان تكون ، وليســت متصلة بالارث الذى نملكه ولا يمكن أن تكون، وانما هى حركة وصل بين الماضى الذى كنا نعيش فيه وبين المستقبل الذى نتطلع اليه ٠

فى ضوء هذه الفكرة أجدنى أمضى وفى هديها اجد تفسير كل ما تقوم بــه المؤسسات المختلفة فى هذا السبيل ٠

ولكي أبين عن ذلك بوضوح ، يحسن أن الاحظ ان هذه الشعوب العربية الاسلامية التى تمتد فى هاتين القارتين فى آسيا ، وافريقية شعوب لها ماضى حضارى طويل · انها فى فترة طويلة من فترات التاريخ ورثت الحضارة الانسانية · ولكنها لم تكتف بأنها حافظت على هذا الارث ، وانما لجأت الى المحافظة عليه من جهة ، والى اغنائه من جهة أخرى ، والى تعريبه من جهة ثالثة ·

أ ـ أما انها حافظت عليه فذلك واضح فى أنها منطلقة من خلفية فكرية رائعة أساسها الايمان بحرية الفكر وحركته ـ استطاعت ان تتلاقى مع هذا الارث ، وأن تقبل عليه ، وأن تتفهمه ، وأن تفتح قلبها وعقلها له فى حدود ، كان من رسالتها الانسانية ·

ب ـ وأما انها اغنته فذلك لانها ـ فى حركة تزاوج فكرى رائع بين العناصر الانسانية كلها وفى ظلال دعوتها الى مجتمع عالمى واحد ـ أضافت الى هذا التراث الانسانى اضافات كبيرة ، وان هذه الاضافات تناولت الجوانب العلمية الانسانية منه ، وزاوجت بين النظريات والتطبيق ·· فكان من ذلك كله أن لبست الحضارة الانسانية لباسها العربى الاسلامى خلال ستة قرون أو تزيد ·· ثم اختفت فى بلد اثر بلد ، او حملت على أن تختفى وراء حركات جديدة قامت على اساس الكره والحقد ، فاضطرت الشعوب العربية والاسلامية الى أن تقف موقف المدافع عن وجوده ، وبذلك توقفت حركتها الابداعية ·

جـ ـ وأما أنها عربته ، فذلك لانها دمجت ما بين هذه الحضارة وما بين اللغة العربية ، فاتسعت هذه اللغة للحضارة التى جاءت نتيجة لظهور الاسلام وانتشاره ، واضحت اللغة العربية هى لغة التفكير العلمى ، وهى كذلك لغة الحس الادبى ، وارتبط ، ما بين اللغة العربية وبين الحضارة العالمية برباط وثيق ، بحيث أصبح عسيرا على الانسان ـ قبل أن ينحدر المجتمع الاسلامى ، أن يكون مثقفا اذا لم يكن على اتصال باللغة العربية واتقان لها ·

* * *

هذه الشعوب العربية الاسلامية اذن تتميز بهذا الاقتران الفاعل بينها وبين الحضارة الانسانية الواسعة · بمعنى أنه اذا كان هنالك نوعان من الشعوب : شعوب لم تسهم فى الحضارة المشتركة وانما كان لها حضاراتها الخاصة الضيقة والبدائية ·· وشعوب أخرى أسهمت فى الحضارة المشتركة وكانت جزءا منها ـ فان الشعوب العربية الاسلامية هى من هذه الشعوب الاخيرة التى داخلت الحضارة المشتركة وداخلتها هذه الحضارة المشتركة بحيث ارتبط ما بينهما ·

هذه الشعوب ، عندما تحاول أن تطرق باب الحضارة الانسانية من جديد ليس من خيرها ولا من مصلحتها أن تتقدم فى هذا الاتجاه لتبدأ المرحلة من بدايتها ، من الصفر · ذلك ليس من مصلحتها وليس ممكنا لها حتى اذا هى أرادته · لان هذا الارث الحضارى يداخل كل جزئية من جزئيات حياتها الفاعلة ، وحياتها العاقلة ، حياتها الشعورية ، وحياتها العقلية ، انه يداخل عقلها ، ويداخل مشاعرها ، يمتزج بها حتى ليكون جزءا منها ، وتمتزج به حتى لتكون جزءا منه ·

واذن فانها لا تقف فى الدرجات الدنيا من السلم الحضارى ، وانما تقف على بعض درجاته·

ومهمتها ان تتابع السير فى هذا الطريق مستفيدة من كل الاكتسابات التى سبق لها ان خاضتها من اجل هذه المتابعة ، من أجل ان يكون رصيدها الذى تملكه رصيدا منتجا وفاعلا ، فان حركة هذه الشعوب نحو تقبل الحضارة والمشاركة فيها لا يمكن أن تتم بعيدا عن اللغة التى اصطنعتها فى التفكير وفى التعبير على السواء ٠

لقد نشأت عند هذه الشعوب علوم ومعارف ، ونظريات وآراء ٠ وخاضت فى كل فروع المعرفة العلمية والتطبيقية ، النظرية والعملية ٠٠ أبدعت فيها وجددت ٠٠ وكان هنالك علماء دائما على طول هذا الخط الذى يمتد من جاكرتا الى طنجة ، ومن صقلية الى جنوب الصحراء ٠٠ لم يخل بلد من بلاد الاسلام من عالم كان له ، فى هذا النحو او ذاك من نواحى المعرفة والعلم اسهام وتجديد ٠

ومعنى هذا ان المنطق والحياة والواقع ، كل ذلك يفرض علينا أن نتابع الطريق ، ولن تتم هذه المتابعة الا اذا كنا نستخدم الاداة ذاتها ، اعنى اللغة العربية ٠

* * *

ان هذه اللغة تمثل قطبين أساسيين : تمثل مستودع معارفنا ، وتختزن كذلك أسلوب تفكيرنا ٠ واذا كان هنالك حركة جديدة نحو اكتساب مزيد من المعارف ، او نحو تصحيح بعض أساليب الفكر ، فان هذا يجب أن يتم فى نطاق حركة ذاتية ، أعنى فى نطاق تطور ما عندنا ، دون ان ننسلخ عنه ، ونتابعه دون ان نهدر منه ٠

ولهذا فان حركة التعريب لا تستهدف شيئا كما تستهدف هذه الصلة بين الماضى والمستقبل ٠٠ اننا فى حركة النهضة الحديثة نحاول أن نتخلص من فترات الضعف ولكننا لا نحاول ان نتخلص من عناصر القوة ٠٠ ونتطلع الى مواكبة العصر ويجب أن نتخذ لهذه المواكبة اقصر طرقها واسرعها ٠٠ ولهذا تظل اللغة ذات الرصيد الفكرى الفخم والتجارب الثقافية الغنية هى لغة هذه المواكبة واداتها ٠

* * *

ان امامنا ، بالشوط الحضارى الذى حققته الشعوب الاخرى لا يعنى عندنا الغاء الاشواط الحضارية التى كنا اصحابها ٠٠ ان الامر على النقيض ٠٠ فاشواطنا الحضارية السابقة يجب ان تمثل عندنا القوة النفسية الدافعة التى تمنحنا الثقة المطلقة باننا قادرون على المتابعة ، متمكنون منها ٠٠ عندنا المادة المساعدة عليها وعندنا الاداة الصالحة لها ٠٠

وليس ادل على أن حضارتنا السابقة لا تزال تحمل حتى اليوم بعض ضمائر المستقبل انها تؤلف ، وفى مرات كثيرة ، نقاط ارتكاز حتى للمعارف العصرية ، وان أبحاث كثيرين من المستشرقين فى التراث العلمى القديم ، لا تزال تتتالى من أجل ان تقدم للابحاث الجديدة بعض المنجزات الحضارية السابقة ٠

وعلى ان هذه قضية اخرى ، فان الذى يرتبط باذهاننا فى حركة التعريب انها حركة مستقبلية ، وانها حين تنظر الى الماضى فانما تنظر اليه ليكون طريقا الى المستقبل ، وان استخدام اللغة العربية فى ذلك هو ضرورة يمليها وجودنا نفسه ويمليها حرصنا على استمرار هذا الوجود فى المستقبل ، ويمليها ان العربية انما تؤلف ، فى جملة عملها فى ذلك ، هذا الوصل الكامل بين الماضى والمستقبل ٠

واقـع ومسـتقبل
حـركة التعريب بالجـزائر

يحيى بوعزيز
كلية الآداب
جامعة وهران

الظروف التاريخية[1] التى خلقت قضية التعريب :

يعتبر التعريب ثالث الاثافى للثالوث الكبـير أو الثورات الثلاث : الصناعية ، والزراعيـــة والثقافية ، التى تخوضها الجزائر بعد الاستقلال من اجل البناء والتشييد للحاق بركب التطـور والتقدم الحضارى ٠ وهو صميم الثورة الثقافية وضرورة ملحة وعاجلة وخطيرة فى نفس الوقت لان الاستعمار الفرنسى حاول المستحيل خـــلال عهد الاحتلال الطويل ، أن يطمس شخصية الجزائر ويمحو قوميتها ، ويشوه تاريخها ويفصلها تماما عن امجادها الفكرية والحضارية ٠

وكانت محاربة اللغة العربية من أخطر المحاولات التى بذلها الاستعمار الفرنسى ، ولم يترك أية وسيلة لتحقيق فكرة « الفرنسة والتعجيم » فهدم الكثير من المساجد وحول الكثير الى ثكنات للجيش الاستعمارى ، وكنائس للبعثات التبشيرية وشجع حركة التنصير والتمسيح لمقاومة الاسلام فى عقر داره وهو عقيدة الشعب الجزائرى العربى المسلم واغلق المدارس العربية ، ومنع الجزائريين مــن تعلم لغة آبائهم واجدادهم القومية العربية ، ومنع الكتاب العربى من الدخول والانتشار فى البلاد ، كما منع الصحافة العربية من الظهور والتداول ·

وحتى تعليم القرآن الكريم وضع ضده قيودا وعراقيل وشدد على الذين يتصدون لتعليمــه وفرض عليهم رقابة شديدة ومنعهم مــن شرح معانيه الى النشىء خاصة الآيات والصور التى تتصل بالجهاد والكفاح · وحرص على توظيــف اطار دينى فى المساجد جاهل وعميل أناط اليه وظيفة الجوسسة ضد السكان الجزائريين ·

ورغم ان شعب الجزائر قاوم هــــذا المسخ الاستعمارى ، وتشبث بقــوميته وشخصيتــه العربية الاسلامية بفضل جهود الزوايا الدينية ، والكتاتيب القرآنية ، والمدارس الحرة ، الا ان التأثير الاستعمارى كان قويا وشديدا ،استطاع ان يعزل العربية ، ويحاصرها ، ويفرض لغتــه كأداة ووسيلة للعمل فيما عرف « بالفرنســـة والتعجيم » جريا وراء تحقيق خرافة : « الجـزائر الفرنسية » ، واخطر من كل هذا انه خلق فى البلاد طبقة عميلة ما يزال بعض افرادها حتى اليوم يجحدون تراث بلادهم وامجادهم التاريخية والحضارية ، ويحتقرون لغتهم القومية العربيــة ، ويرفضون ان يعترفوا أو يصدقوا بانها لغة العلم والعمل والمخبر منذ اكثر من اثنى عشر قرنا ، وان الذى عاق تطورها هو تخلف اهلها نتيجة لظروف الاستعمار التاريخية فى العصر الحديث ·

امثلة من التاريخ على حتمية التعريب :

ان ظروف الجزائر التاريخية هى التى خلقت ما ندعوه اليوم « قضية التعريب » ، وهى التى تحتم العمل على تحقيقه كقضية ملحة وضرورة عاجلة · ذلك ان الاستقلال السياسى وحــده لا يكفى لاثبات شخصية أمة وابرازهـــا ما دامت لا تملك لغة قومية كأداة لعمل الخلق والابداع ، ووسيلة للتطور الفكرى والحضارى خاصة فــى عصرنا الحالى بل ان ذلك الوضع يجعل تلك الامة باستمرار فى مؤخرة القافلة وعالة على الغير فى كل شىء مذلولة وحقيرة ·

وهناك امثلة عديدة من التاريخ تؤيد حتميــة التعريب بالجزائر ، منها المانيا فى القرنين الثامن والتاسع عشر ·

فقد كانت المانيا ممزقة الى اكثر من ثلاثمائــة وستين امارة،الكثير منها يخضع للسيطرة الاجنبية النمساوية والفرنسية ، والبعض مستقل بذاته وليس للامبراطورية الرومانية المقدسة الا سيطرة اسمية وشكلية عليها ·

وكان الشعب الالمانى يعانى من هذا الانقسام والتمزق ، وهذه السيطرة الاجنبية ، كما كان يعانى من الشكل الفكرى بسبب حروب الثلاثين عاما الدينية (1618 – 1648) . ويحس بطعنة خنجر فى كيانه فماذا صنع ؟

لقد انكب على احياء تراثه وبعثه ، وشهدت المانيا أواخر القرن الثامن عشر ميلاد « أمة » من ناحية الفكر والادب ، وبرز الشاعر ليبنيتز Leibnitz والعقليون من الفلاسفة والشعراء والكتاب ، والمتورعون الدينيون ، والمتنورون ليخوضوا كلهم معركة احياء الفكر والتراث الحضارى الالمانى .

وظهرت الصحف والمجلات الادبية والاخلاقية بشكل واسع زادت على مائة واثنين وثمانين مجلة وصحيفة . وجرى الاهتمام بانشاء واصلاح الجامعات مثل جامعة ووتنجن Wottingen وادى كل ذلك، الى تقديس كلما هو المانى ونبذ غيره،واصبح تفكير رجال الفكر « ألمانيا بحتا » . ولعب كل من هيجل Hégel وقوته Gothe وكانت Kant وشيلر Schiller وهيردر Herder دورا فى الهاب حماس الالمان ودفعهم الى الاهتمام بتراثهم الفكرى والادبى ، فعملوا على احيائه وابرازه بلغتهم القومية الالمانية .

ومن اقوال هيردر ان اللغة أو لسان الشعب نفسه هى الاداة الاساسية للافصاح عن عبقريته والتعبير عن مزاجه واحاسيسه وأفكاره وكل ما هو متصل به وبقدرته على الابداع والابتكار ، وان الكاتب العظيم حقا هو الذى تتسم اللغة التى يكتب بها بالطابع الوطنى الصميم ويرفض محاكاة وتقليد التعابير الاجنبية .

ونتيجة لتلك الحركة الفكرية « الملتزمة » برز فى المانيا ما دعى « بأدب الحروب » لدى الشعراء والمفكرين الالمان ، وظهرت مدارس قومية وتاريخية ركزت على قضية التحرير والوحدة مثل المدرسة القومية التاريخية التى فسرت التاريخ تفسيرا قوميا ، ومهدت الطريق للشباب الالمان الذين أخذوا ينظمون المقاومة فى النوادى والجامعات ضد تسلط ميترنيخ النمساوى زعيم الرجعية فى أوروبا القرن التاسع عشر . وحملت امارة بروسيا بعد ذلك لواء تحقيق الوحدة انطلاقا من حركة الاحياء الادبية للفكر الالمانى واللغة الجرمانية ، واهتمت بتقوية نظمها الاقتصادية والعسكرية ، ولم تتردد فى خوض ثلاثة حروب كبيرة ضد الدانمارك . والنمسا ، وفرنسا ، انتهت بانتصارها وتتويج امبراطورها الالمانى فى بهو قصر فرساى الكبير بباريس فى جانفى 1872 بعد ان اسرت الامبراطور الفرنسى نابوليون الثالث ومائة الف من جنوده المقاتلين فى ميتر ، وسيدان .

فاذا كانت المانيا التى لم تتعرض لمحاولة محو لغتها وتراثها ، بذلت مثل هذه المحاولات ، فكيف بالجزائر التى عمل الاستعمار الفرنسى طوال قرن وربع قرن على «فرنستها» بكل الوسائل وازالة شخصيتها القومية من الوجود . انها أعظم رسالة وأقدسها بعد معركة التحرير .

التعريب المطلوب والعراقيــل التى تعترضه :

عندما ظهرت قضية التعريب بالجزائر عام 1962 برزت معها الصعوبات والعراقيل والحواجز وظهر اتجهان رئيسيان متناقضان فى البلاد ٠

– اتجاه كان يتظاهر بتأييد حركة التعريب ولكنه يعمل فى الخلف ، على عرقلته وذلك بتحقيق تعريب سطحى لا يغير من الواقــع فى شىء ولا يمس جوهر القضية الحقيقى ، عن طريق تعليــم اللغة العربية فى المدارس على شكل محو اميــة الحرف ، ولا يتعدى الامر معرفة الفعل والفاعــل وحفظ بعض الاناشيد للمناسبات ٠ وهذا يجعل العربية دائما فى مركز ثانوى متأخــر . وتبقى الفرنسية « او الفرنسة والتعجيم » صاحبة المركز الاول ولغة المخبر ٠

والذى دعا اصحاب هذا الاتجاه الى اتخاذ هذا الموقف هو خوفهم من ان يفقدوا مكانهم فى الحياة العامه ويساقون الى الهامش ويوضعون على الرف. يضاف الى هذا كونهم لا يؤمنون اطلاقا بأن لغــة بلادهم القومية العربية هى لغة المخبر والعمل ، وكانت قبل الاحتلال تحتل مكانها كلغة حضارة مآت من السنــين ٠

وتفكيرهم هذا خاطئى من أساسه لا يعتمد على أى أساس ، فالعربية كانت وما تزال لغة العمل والمخبر ، والجزائر بحاجة اليهم والى غيرهم فهى تستقدم سنويا آلافا من المتعاونين الاجانب الكثير منهم يضرون البلاد اكثر مما ينفعونها فيستنزفون اموالها ويخربون اقتصادها ويسممون اجيالهــا الصاعدة لكونهم لا يريدون لهذه البلاد التطوير والتقـــدم ٠

واخطر ما فى هذا الاتجاه هو أنه صاحب ثقل وتأثير فى مصائر امور البلاد حتى هذا الوقت ٠

– أما الاتّجاه الثانى فعلى عكس الاول يؤمن بضرورة التعريب ، ويـــدرك أهمية استعـــادة الشخصية القومية للجزائر ، ولكن أزمته فــى كونه معزولا لا يملك من الوسائل الا الايمـــان بعدالة قضية التعريب ، والحماس المعنوى لتحقيقه ولا يقرأ حساب لاحساسه وايمانه ، بل وحتى لبعض صيحاته واستغاثاته ٠

ان وجود هذين التيارين المتناقضين ، جعــل حركة التعريب تتعرض لهزات كبيرة وتتاخر اكثر من اللازم رغم ان السلطة العليا والقيادة الثورية عملت ما فوق جهدها لانجاح حركة التعريب ٠

ان التعريب المطلوب فى الجزائر لا ينبغى ان يقتصر على التعريب الحرفى ، بل ينبغى ويجــب ان يغزو الافكار والامخاخ وهو ما يحتم القيــام بثورة ثقافية « عنيفة » تهز كيان « الفرنسة » ، وتحطم رواسبها المتخلفة وتغسل ادمغة الذيــن ما يزالون يؤمنون بخرافة « رسالة الاستعمــار التمدينية » ، وهم كثيرون وان كانوا لا يستطيعون ان يرفعوا رؤوسهم ويظهروا نواياهم ٠

ويسير التعريب الحرفى حاليا ســيرا طبيعيا متثاقلا فى المدرسة ويحاول ان يقتحم وســائــل الاعلام وبعض الزوايا الجانبية والهامشية فــى المعاهد العليا والجامعات ، ولكنه عجز تماما عــن

اقتحام ميدان الادارة . التى يسيطر عليها اصحاب الاتجاه الاول . وذلك من المخاطر الكبرى لحركة التعريب .

وعندما نفحص الخطوات التى يخطوها التعريب نشعر بالامل والتفاؤل ، لان عوامل النجاح له اكثر من المعرقلات التى تعترضه .

ـ فالاغلبية الساحقة من الشعب الجزائرى عربية صميمة تؤمن باهمية التعريب وضرورة تحقيقه ، وتدعم بكل قواها المساعى التى تبذل فى سبيل ذلك . وهذه القاعدة الشعبية هى التى حالت سابقا دون « فرنسة الجزائر » و « تعجيمها » .

ـ والمدرسة الجزائرية بعد الاستقلال لعبت وتلعب دورا مشرفا فى غرس اللغة القومية العربية بعقول اجيالنا الناشئة طليعة المستقبل بفضل جهود المعلمين الذين يعملون فى صمت ودون جعجعة لسان ، رغم كل المشاكل التى يتعرضون لها من طرف الاجهزة الادارية المفرنسة .

ان القاعدة الشعبية ، والمدرسة الجزائرية هما العماد الهام والاساسى لنجاح حركة التعريب وامتدادها الى كل جوانب الحياة العملية الاخرى. والى حد الآن يتوفران على طاقة هائلة لدفع حركة التعريب الى الامام .

ـ وهناك محاولات معدودة فى وسائل الاعلام رغم اهمية هذه الوسائل فى حركة التعريب .

ـ فالصحافة المكتوبة بالعربية تزاحمها صحافة اخرى تكتب بالفرنسية وتحتفظ بتفوق مادى وفى الاطارات الكفاة ، قد يكون مقصودا وقد يكون غير مقصود . وعلى سبيل المثال فقط فان صحيفة المجاهد اليومية المكتوبة بالفرنسية تغطى كثيرا على صحيفة الشعب العربية . ولو لا ان الاغلبية الساحقة من شعبنا عربية الاتجاه لأفلست صحيفة الشعب واغلقت أبوابها . فلماذا لا تسخر لها الامكانيات والاطارات الكفاة لتصبح صحيفة البلاد الاولى والناطق الرسمى للدولة والقيادة . ومصدر الاخبار لكل الجهات الداخلية والخارجية؟ان الذى يحفز العالم الخارجى على التعرف على اخبارنا ليست الجريدة الناطقة بالفرنسية ، وانما أعمالنا وجهودنا فى البناء ، ان اخبار الاهرام المصرية ،وهى جريدة عربية ، تخطف من المطبعة لتوزع الى كل ارجاء الدنيا ، وهنا نلاحظ اهمية مجلة الاصالة التى تسير بخطوات ناجحة فى سبيل احياء تراث الجزائر الاصيل كما يلاحظ ذلك فى الجدية التى تتسم بها الدراسات التى تنشرها ، وفى الاسعار الزهيدة التى لا تغطى حتى تكاليف الطبع على ما يظهر . وذلك ما تحتاجه الجزائر وتتطلبه فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخها .

ـ والتلفزة الجزائرية تلعب دورا حيويا فى التوعية وترسيخ فكرة التعريب بما تقدمه من برامج متنوعة باللغة القومية ، ولكن هذه البرامج تزاحمها برامج اخرى ذات خطورة ، اذ زيادة عن كونها تقدم بلغة اجنبية تهدد اخلاقنا وتقاليد مجتمعنا بما تعرضه علينا من افكار مسمومة واساليب جارحة لعواطف اسرنا ، ومنافية لطموحنا الكبير نحو المستقبل الزاهر والنظيف . ان بلادنا تقاوم الاجرام ، والتلفزة تعرض علينا

الافلام التى تعلم جيلنا فنون الاجرام ، وبلادنا تقاوم التحلل الخلقى ، والتلفزة تعرض علينا ما يشجع على ذلك • وهى امور منافية لاهدافنا القومية التى نكدح ونسعى بكل قوانا لتحقيقها •

ـ ولعل صحافة الاثير « والاذاعة » هى التى تبذل جهودا ناجحة فى تعميق فكرة التعريب ولكن ينبغى مراجعة برامجها وتزويدها باطارات كفاة حتى تكون فى مستوى طموحنا الكبير الهادف الى احياء وابراز شخصيتنا القومية العربية الاسلامية•

ـ واما الجامعات والمعاهد العليا فما تزال حتى اليوم لم تقدم أية خدمة حقيقية للتعريب ، وتعتبر من العوارض والعقبات الخطيرة له لانها هى التى تخلق الاطارات الضرورية ولكنها بعقلية غير العقلية القومية التى نريدها وننشدها ، وما ذلك الا لان محاولاتها لجعل اللغة العربية لغة المخبر محدودة جدا ان لم تكن معدومة • ومشكل الجامعات العليا يكمن فى اطاراتها الغير المؤمنة بقضية التعريب كقضية قومية ، اذ ليس من المعقول لعميد كلية أو مدير معهد مثلا جاهل للغة القومية ان يسعى ويعمل على تعريب مؤسسته يضاف الى هذا ان مؤسسات التعليم العالى يوجد بها اطار اجنبى كبير يلعب دورا كبيرا فى عرقلة التعريب ، فطالما لم يسلم امر الجامعات والمعاهد العليا الى اطارات عربية صميمة فى تفكيرها مؤمنة بالتعريب كقضية قومية ، فلا يمكن لها ان تلعب دورها المطلوب منها • ومن نافلة القول الاشارة الى ما تعانيه الاقسام العربية فى كليات الآداب بجامعاتنا الثلاث بسبب ذلك ، وهنا لا بد من ملاحظة الدور الذى تؤديه المعاهد الاسلامية والمدارس والثانويات المعربة فى خلق وتنشئة اجيال معربة مؤمنة بامجاد بلادها القومية ولغتها العربية

ـ والى هنا نأتى لأخطر العراقل التى تواجه حركة التعريب وهو اطارات الادارة الجزائرية التى يتكون معظمها من اجهزة مفرنسة ترى فى التعريب خطرا ، كما ذكرنا سابقا ، على مستقبلها فحتى اليوم ، وبعد عشر سنوات من تحقيق الاستقلال الوطنى لم تعرب أية ادارة جزائرية ، عدا وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، اللهم الا كتابة العناوين على بعض أوراقها الرسمية بصورة شكلية •

فأين تعريب ادارات البريد ، ووسائل النقل ، والبنوك، والمصارف العامة. وأين تعريب الوزارات والدواوين القومية والوطنية ؟ واين تعريب وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، ووزارة التعليم العالى والبحث العلمى ، وهما مصدر خلق الاجيال طليعة المستقبل• ان معظم التعليمات والمنشورات الصادرة عن وزارة التعليم الابتدائى والثانوى تصدر باللغة الفرنسية وهى اولى الوزارات كلها فى احتضان التعريب •

لقد اعلنت القيادة الثورية منذ عام 1969 ان عام 1971 هو عام التعريب ولكن الذى منع من تحقيق ذلك بصورة ملموسة هى اطارات الادارة هذه التى لا تؤمن بالشخصية القومية لبلادها وشعبها ، وليس من السهل اقناعها بالعودة الى

جادة الصواب لان من شب على شيء شاب عليه كما يقول المثل . وليس هناك من دواء الا زحف الاجيال الصاعدة التى ترضع العربية من المهد وتنشأ فى مدارس قومية اصيلة ، لتتسلم المسؤوليات ومستقبل البلد . ولعله من المفيد هنا والمهم ان نسجل ان رئيس الدولة والقيادة الثورية قد دفع بحركة التعريب الى الامام بخطوات هامة، بفضل تكوينه العربى الاسلامى . انه عندما يخطب بلغة البلاد القومية يبرز حقيقة وجه الجزائر الحقيقى النظيف ، ويجسمه فى اطاره العربى المسلم ، وتأثيره فى هذا الميدان لا ينكره احد . وبفضل تمسكه بهذا المبدأ ارغم العديد على اتباع نفس الطريق ولو بخطوات وئيدة ، وهذا مما يبشر بنجاح حركة التعريب مستقبلا بالجزائر . ومع ذلك نلح على تطبيق الامور التالية لضمان النجاح والسرعة اكثر :

ـ التوسع فى تعريب المدرسة الجزائرية حتى تصبح العربية لغة العمل والمخبر حقيقة .

ـ التعريب الكامل لاجهزة الاعلام المكتوبة والمرئية حتى نفرض على غيرنا ان يتعلم لغتنا اذا ما اراد ان يفهمنا ويتعامل معنا مثلما يفعل هو معنا ولا ينبغى تملقه ومداراته على حساب تقاليدنا وقوميتنا ، وهو ما فعلته بعض الامم قبلنا كالمانيا مثلا ، والصين ، واليهود الذين احيوا لغتهم العبرية التى ماتت منذ الفى عام .

ـ اعطاء ابعاد جديدة للتعريب تمتد الى السينما والشاشة الصغيرة ، والصحافة والمجلة والكتاب . والنشرات الدورية والخاصة .

فرض اللغة العربية فى كل الادارات الجزائرية دون استثناء ، وتشجيع الاطارات المعربة باسناد الوظايف العليا لها فى المؤسسات والمعامل والمصانع والوحدات ، والمزارع ، حتى تلعب دورها فى غرس اللغة القومية بين كل الفئات .

ـ القيام بثورة ثقافية حقيقية تستهدف تطهير البلاد من كل الرواسب الاستعمارية المادية والمعنوية ، وخلق اتجاه قومى ينكب على احياء الامجاد القومية للبلاد ، وابراز شخصيتها العربية الاسلامية .

وهذه الثورة الثقافية ينبغى ان تكون جدية و « عنيفة » تمس كل جوانب الحياة : الاطارات البشرية المنحرفة ، والتراث الدخيل والمسموم مكتوبا كان أو مصورا أو منحوتا أو منقوشا . أو فى شكل عادات وتقاليد .

ان هذه الثورة الثقافية هى الوسيلة الفعالة التى تفرض اللغة القومية وتجعلها لغة العمل والمخبر . والجزائر قادرة على خوضها مثلما خاضت بنجاح الثورة الصناعية والثورة الزراعية . وهى بحاجة ماسة وأكيدة الى خوضها .

لغة التاريخ

د. هشام الصفدي
كليه الآداب
جامعة الجزائر

تتصادف كتابة هذا البحث مع اشتعال حرب التحرير التى تخوضها مصر وسوريا،ومن ورائهما الامة العربية ـ دفاعا عن الارض والوجود ، ومن أجل حياة حرة كريمة ٠

واليوم اذ يتعرض الوطن العربى فى مشرقه لطعنة رابعة غادرة توجهها اسرائيل ـ حليفة الاستعمار الجديد وخنجره المسموم ـ الى قلب الامة العربية ٠

ألتفت الى التاريخ أساله : تراه تعود عجلته الى الورا.، فيحقق للاستعمار الجديد ما عجز عنه سلفه القديم ؟ أتستطيع أسلحة البغي والدمار ان تستعبد أمة جذورها راسخة في اعماق الزمان ، وحضارتها ملء سمع وبصر الانسان ؟

من جبهات القتال ، ومن الجزائر بالـــذات ، وحيثما كتبت الحريـة بالدماء يتناهى رجــع الجواب : لا لن يعود التاريخ الى الوراء ، ولـــن يكتب تاريخ امتي بغير لغة الضاد ٠

تعتبر الثورة الثقافية في طليعة المواضيع الهامة التي يتصدى لها المجتمع الجزائري بعد نجاحه في ثورة التحرير ٠ وهو ينطلق في ما صمم عليه من مبدأين اساسيين :

أـ احلال اللغة الوطنية مكانها الطبيعي كأداة للثقافة وللتعليم ٠

ب ـ اعادة النظر في هياكل البرامج الثقافية والتعليمية وخاصة تلك التي ورثتها الجزائر عـن العهد البائد وفي الحقيقة كانت اضرار التركة التي خلفها الاستعمار في هذا الميدان ثقيلة الوطأة ، بعيدة الآثار ٠ فهي لا ترجع الى سنوات ، ولا الى عقود ، بل تعود الى اكثر من دهر من التخطيـط والتطبيق لاقصاء اللغة الوطنية من حياة المجتمع المغلوب على أمره ولتلخيص المشكلة الراهنة مـن المفيد جدا ان نستشهد بالتشخيص الناجح الذي وضعه لها الفيلسوف الفرنسي جاك بول سارتر(1)

« ان من متطلبات النظام الاستعماري ان يحاول سد طرق التاريخ على المستعمرين (بفتح الميم) ٠ ولما كانت المطالب القومية في اوروبا تعتمد دائما على وحدة اللغة ، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات ، لان اللغة العربية تعتبر في الجزائر لغة اجنبية منذ عام 1830 ٠ انهم يتحدثون بها ، ولكنها كفت عن ان تكون لغة مكتوبة الا بالقوة ، لا بالفعل ٠٠٠ ولقد سلبنا المسلمين كل شيء ، ثم حرمنا عليهم كل شيء حتى استعمال لغتهـم الخاصة ٠٠٠ وعلى كل حال اردنا ان نجعل من « اخوتنا المسلمين » شعبا من الاميين ٠٠٠(2)

من الطبيعي اذا ان يعبر الشعب الجزائـــري ـ غداة استرجاعه لسيادته ـ عن مطلب عزيـز طالما تلهف اليه وهو : استعادة لغته الوطنيــة في كافة مجالات الحياة ٠ ولقد عبر الجزائريون عن ذلك مرارا وتكرارا وعلى لسان قادتهم ومفكريهم قبل الثورة وبعدها ٠ وفي ذلك كتب المناضـل الرائد الشيخ البشير الابراهيمي في احـــدى افتتاحيات جريدة البصائر :

« ان هذه الامة تعتقد ـ وتموت على ما تعتقد ـ ان لغتها جزء من كيانها السياسي والديني ، وشرط في بقائها ، وقد التقى على الكفاح في سبيلهـا الدين والسياسة ٠٠٠ ثم يقول في موضع آخر :

« والامة تريد تعليما عربيا عليه طابعها ، وفيه أثر يدها ، وله ما لها من روح ، وعليه ما عليها من سمات ٠٠٠ » (3) ٠

1) جان بول سارتر ، عارنا في الجزائر ، ترجمة سهيل ادريس ، ص 23
2) جان بول سارتر ، نفس المرجع ، ص 61 ، ص 23
3) الشيخ البشير الابراهيمي : اختلاف ذهنين في معنى التعليم العربي ، عيون البصائر ، دار المعارف القاهرة ، ص 305

الوضع السابق للتاريخ فى الجزائر :

هذا ما كان عليه حال اللغة العربية فى الجزائر ابان عهد الاستعمار وهو وضع تبرز آثاره فى مختلف جوانب الحياة ، وتنعكس خاصة فى مجالات التربية والتعليم • وكان من المفروغ منه أن يتناول الحجر المفروض على اللغة العربية ، التدريس والتاليف فى ميدان العلوم الاجتماعية — وفى مقدمتها التاريخ والجغرافيا — باللغة الوطنية • فالتاريخ عامة ، والتاريخ القومى خاصة — مادة شديدة الخطر سريعة الالتهاب اذا ما احسن تغذية عقول الناشئة بها • والتاريخ فى جوهره تعبير عن كبرياء الشعوب وسجل لعزتها ولامانيها • وهو يبين لكل جماعة الاطار الذى يجب ان يحكم تطورها ، والاتجاهات التى يجب ان تسير فيها عملية تقدمها ، حتى لا تخرج جماعة ، فى سياق عملية التطور من جلدها ، فتتطور الى جماعة أخرى ، أو تندمج فى جماعة أخرى وهى لا تدرى • ولعل من أهم قوانين التطور ان تتطور المجماعة وترقى ، ومع ذلك تكون بالتطور الصق بكيانها التاريخى . واصدق تمشيا مع قيمها التاريخية (4) ودور التاريخ معروف فى حركات نشوء القوميات — وخاصة القوميتين الالمانية والايطالية — فى القرن التاسع عشر . وفى تحقيق عمليات التحرير والتوحيد لشعوب عديدة منها الشعب العربى •

أى تاريخ يدرس :

انطلاقا من هذه الحقائق يلاحظ أيضا ، ان الدول المستعمرة فرضت تدريس تاريخها على الشعوب الواقعة تحت سيطرتها ، سواء بلغتها الاجنبية او حتى باللغة الوطنية (كالدول المحمية أو الواقعة تحت الانتداب) • وبالمقابل اهملت التاريخ الوطنى للاهالى Indigènes أو ادمجته بتاريخ مناطق اخرى • وبذلك اصبح الطالب فى البلاد المستعمرة يعرف أدق التفاصيل عن تاريخ نابليون بونابرت وفتوحاته ، أو عن تاريخ عصر الملكة فيكتوريا الاستعمارى — مثلا — وعن تضاريس أوربا وجبالها وطول انهارها وتعداد مدنها ، اكثر مما يعرف عن تاريخ قطره ، أو عن طبيعة بلاد جيرانه الافريقيين الذين تشده اليهم أوثق روابط اللغة والدم والدين والتاريخ المشترك •

لم يكن تدريس التاريخ لابناء الجزائر يندرج فى ضمن هذا المخطط فحسب ، بل يتميز ايضا فى ان المستعمر انفرد بفرض لغته سواء فى تدريس هذه المادة ، أو فى تاليف كتبها ، أو فى اختيار مواضيعها واساتذتها • فانحسرت اللغة الوطنية بالضرورة عن ميدانى التاريخ والجغرافيا شأنها فى ذلك شان بقية العلوم الاخرى • ومع مرور الزمن غدت كتابة التاريخ والبحث عن مصادره المادية والاثرية وقفا على المؤرخين والاثريين واللغويين الفرنسيين والاجانب • وعشية استقلال الجزائر لم يكن عدد المختصين فى التاريخ من ابنائها — حتى باللغة الفرنسية — يتجاوز اصابع الايدى • أما بالنسبة لكتابة التاريخ باللغة العربية فقد وجدت

4) هنرى جونسون ، تدريس التاريخ ، ترجمة الدكتور ابو الفتوح رضوان ، القاهرة 1965 ، ص (ى — ك) ، المقدمة

محاولات ضئيلة لطرق هذا الميدان من قلة من الافراد الغيورين على تاريخ بلادهم ، وعلى تثقيف أبنائهم بلغة آبائهم وأجدادهم — أمثال الاستاذ مبارك الميلى والاستاذ دبوز وغيرهم ... ويعبر الاستاذ الميلى فى مقدمة كتابه (تاريخ الجزائر فى القديم والحديث) عن الوضع المؤسف لتاليف التاريخ بالعربية آنذاك : « انى لست من فرسان هذا الميدان ... ولم يحملنى على الخوض فى هذا الموضوع الهام غير الشعور بواجب خدمة الوطن وقراء العربية طالبا من اهل المقدرة والدراسة الا يجهلوا كبر ما عليهم من المسؤولية امام الوطن والعربية ، وان لا يجعلوا — بتفريطهم فى نشر هذا الفن — حظ الجزائر منقوصا مغبونا» (5)

اهداف تدريس التاريخ :

للتاريخ اهداف عديدة متشعبة سواء فى المجالات القومية او التربوية لا حاجة لحصرها فى هذا البحث منها : ان يلم مواطن المستقبل بمعرفة للظروف التى تطور فيها المجتمع . فالتطور عملية مستمرة لها مقدمات ونتائج ، تولدت من شيء سابق الى شيء لاحق . والتاريخ بالمثل حركة مستمرة الحاضر فيها يختلف عن الماضى ولكنه وثيق الصلة به بحيث لا يمكن ان يوجد نظام جديد للاشياء يستطيع ان يقطع صلته بالماضى ويقفز الى صورة جديدة ليس لها مقدمات (6) . وبكلمات اخرى يستفاد من التاريخ لكى يرى المواطن بوضوح اكثر فى المواقف التى تستدعى منه استجابة معينة ولكى يتمكن المواطن من معرفة ما عليه عمله ، يتوجب عليه ان يعرف المكان الذى يقف فيه .

اما على الصعيد القومى فان تعليم التاريخ فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والثانوى يراعى الهدف العام للتعليم وهو : خلق المواطن المحب لدولته وللامة التى ينتسب اليها . وفى تقرير اعد لمدارس المعلمين فى فرنسا ، تتضح روح تعليم التاريخ فى الجملة التالية : « من بين كل المواد التى تعلم فى المدرسة نجد ان التاريخ مع الاخلاق والتربية الوطنية أقوى عامل يمكن ان يوحد ارادة الامة » . ويتم التوحيد على افضل وجه عند ما يتاح للمواطن ان يدرس بشكل سليم تاريخ بلاده وان يقارنه بتاريخ الشعوب والحضارات الاخرى ، فتتولد لديه الرغبة الاكيدة لمتابعة البناء ودفع التطوير فى الحاضر ومن اجل المستقبل . وبذلك يكون المواطن نتاج التاريخ من جهة ، وقوة احداث الحوادث الحاضرة من جهة اخرى ، وهو فى الحقيقة همزة الوصل بينهما .

يلاحظ ان مثل هذا التفاعل الخلاق والهادف بين المواطن الجزائرى والتاريخ كان معدوما خلال الحكم الاستعمارى . وذلك لاسباب عديدة نورد منها :

1 — كرس المؤرخون الفرنسيون جهودهم لتبرير استعمار الجزائر واضفاء الشرعية عليه ، وخدمة

5) مبارك بن محمد الهلالى الميلى ، تاريخ الجزائر ، الجزء الاول ، مكتبة النهضة الجزائرية ، ص 12
6) هنرى جونسون ، نفس المرجع ، ص 64

الادارة الاستعمارية وذلك بحكم انتمائهم الــى الشعب المستعمر • وكان تاريخ الاستعمـــــار الرومانى للمغرب مصدر وحى واقتــداء للعديــد منهــم •

2 ـ تم اهمال التاريخ الوطنى الجزائرىوتطور مجتمعاته سواء فى عملية التاليف والبحث او فى عملية التعليـم •

3 ـ بذلت محاولات مستمرة لقطع الصـــلات التاريخية والجغرافية بين الجزائر وبقية العالــم العربى • وتجنبت الاشارة الى كل ما يمت الــى العربية او الى المجتمع العربى بصلة • فحلت مثلا اصطلاحات شمال افريقيا والشرق الاوســط بديلا للتسميات الاصلية للمشرق والمغرب العربى كما اغفل ذكر الحركات التحررية والتطـــورات الاخيرة التى طرأت على التاريخ العربى المعاصر •

4 ـ زرعت التفرقة واضعف الشعور بالوحدة الوطنية والدينية لدى المواطن عن طريق القـــاء الظلال على مرحلة من ازهى مراحل التاريخ المغربى وهى المرحلة الاسلامية ، التى اصبحت تســمى « بالقرون الغامضة » • ويظهر جليا تعمد المؤرخين الفرنسيين فى تقديم الجانب السلبى « للفتــح العربى الاسلامى » و « للغزوة الهلالية » •

5 ـ التشكيك بالثورات التحررية التىخاضها الشعب الجزائرى عبر الزمن والتقليل مـن دور ووطنية قادته ، ورميهم بالتعصب •

6 ـ انعدام الكتاب العربى والاقتصار فــى كتب التاريخ على تلك المؤلفة باللغة الفرنسيــة •

كما كان الاهتمام بالتاريخ السياسى ـ وخاصة لتاريخ أوربا ـ يتم على حساب التاريخ الحضارى العــام •

التعريب (أو لغة التاريخ)

لاسباب عديدة كان من الطبيعى ان يحدث فى الجزائر اثر انتزاع الاستقلال ، شىء مشابه لما تم فى عهد الخليفتين الامويين عبد الملك وابنه الوليد• ونعنى بذلك عملية التعريب التى فرض الامويون اللغة العربية لغة رسمية لدواوين واعمال الدولة العربية الاسلامية بدلا من اللغتين اليونانيـــة والبهلوية الغريبتين على المجتمع العربى • ولقــد تميز الاستعمار فى الجزائر بجهده الدائب منــذ عام 1830 لتغريب اللغة العربية فى بلادها ، بعد ان فقد الشعب حريته وسيادته فى وطنه • وعلى الرغم من المستعمرين نجحوا فى مسعاهم عــلى الصعيدين الرسمى والثقافى ، عجزوا عن مسح اللغة العربية من صدور السنة أهلها • فهى لسان الملة ، ولغة القرآن ، ووعاء الحضارة الاسلامية •

والآن والجزائر المستقلة تجابه بكل تصميـــم موضوع التعريب لا بد من تقرير حقيقتين هامتين :

1 ـ ان التعريب فى الجزائر لا يقل أهمية عما تصدى له من قبل خلفاء بنى أمية فى دمشق •

2 ـ ان اصطلاح التعريب قد يفقد شيئا من مدلولاته الحقيقية اذا نظر اليه البعـض وكأنــه مرادف لعملية « الفرنسة » التى كانت تمارس فى ظل الاستعمار • ولعله من الانسب الحديــث عن عملية استعادة اللغة الوطنية العربية «Restauration»

عند التصدى لموضوع استعادة اللغة الوطنية لمكانها الطبيعى فى المجتمع ـ وفى الثقافة على الاخص ـ يتبادر الى الخاطر أول ما يتبادر ان يكون التاريخ ـ والتاريخ الوطنى خاصة ـ أول ما ينبغى «توطينه» اى اعادة كتابته وتدريسه باللغة الوطنية. لقد كتب هيرودوت « ابو التاريخ » تاريخ الامة الاغريقية وعلاقاتها بالشعوب الاخرى باللغة الوطنية الاغريقية ، وكذلك فعل زملاؤه توكيديدس وبوليب ، وبالمثل اختار المؤرخون اللاتنيين امثال «تيت ـ ليف» و«سالوت» لغتهم اللاتينية لكتابة تواريخهم الشهيرة • اما المؤرخون العرب من الطبرى الى البلاذرى والمسعودى • الخ فقد خلدوا التاريخ العربى الاسلامى بمؤلفاتهم القيمة والتى لم يختاروا غير العربية لغة لهـا • وهكذا كان حال المؤرخ مومسن الالمانى ، وجيبون الانكليزى كل كتب التاريخ بلغته الوطنية وبها درس • وبهذه اللغة العربية كتب شيخ المؤرخين العرب الموسوعى ابن خلدون ، وحدد مفاهيم التاريخ والاجتماع ••• (7) ووضع لها مبادىء ما زالت رائدة للعلماء التالين حتى ان المؤرخ الاوربى المعاصر أرنولد توينبى يعرب عن رغبته الاكيدة فى ان تكون له شخصية المؤرخ العربى ابن خلدون من بين كافة المؤرخين (8) •

يتبين من الامثلة المتقدمة ان الشعوب حرصت على كتابة التاريخ بلغتها الوطنية ، وعلى تدريسه لاجيالها بهذه اللغة اعتزازا باللغة ، واجلالا للتراث ورغبة فى سهولة الفهم • ولم يمنع ذلك بالمقابل من وجود كتب للتاريخ وابحاث بلغات اجنبية تغنى البحث التاريخى • ولهذه الاسباب يضطر الباحثون اليوم الى تعلم اللغات الاغريقية واللاتينية لدراسة وفهم تاريخ وحضارة هذين الشعبين ، مثلما يحتاجون الى تعلم العربية لدراسة التاريخ العربى ـ الاسلامى ، وعلاقات العرب بالحضارات الاخرى •

المسائل الناجمة عن تعريب التاريخ :

للتاريخ اليوم اختصاصات محددة وفروع يحرص الباحثون على الالتزام بها • فهنالك ما قبل التاريخ ، والتاريخ القديم ، والوسيط ، والحديث، والمعاصر • ويتميز تاريخ المغرب باتضاح كل من هذه المراحل فيه • وتكاد المصادر العربية تكون متوفرة فيها اعتبارا من العهد الاسلامى ، وتقل نسبيا فيما يخص حقبة التاريخ الحديث والمعاصر• ولهذه الحقبة مصطلحاتها وتقسيماتها ومؤرخوها وفيها كتب وفيرة باللغة العربية , او مترجمة اليها من مؤلفين اجانب وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاوربى الوسيط أو الحديث • وبالمقابل تشكل حقبتا التاريخ القديم وما قبل التاريخ ثغرة فى المكتبة التاريخية العربية • وقد بدأ المؤرخون العرب عقب استقلال الدول العربية بالتخصص فى هذه المواضيع كالتاريخ المصرى القديم ، والرافدى ، والكنعانى ، والكلاسيكى

7) ابن خلدون ، المقدمة ، ص 2 ـ 16

8) ارنولد توينبى ، حديث من محطة الاذاعة البريطانية ، أوت 1972

... الخ . وساير الاهتمام بها التعمق فى ميدانى علم الآثار واللغات القديمة التى تعتبر المصـــدر الرئيسى للتاريخ القديم . وهى دراسات لم تبدأ فى أوربا ايضا وبشكل جدى الا فى القـــرون الثلاثة الاخيرة . ورغم ان دراسات التاريخ القديم وعلم الآثار جديدة على المكتبــة العربية نسبيا ، هنالك محاولات مستمرة للبحث والتاليف فـى هذه المواد . وقد وجد الباحثـــون فى مفردات اللغة العربية الفنية مقابلا ، وامكانيات اشتقاق او توليد لكثير من المصطلحات الفنية والعلميـة التى يستخدمها العلماء الاوربيون . كما أخذت تظهر معاجم باللغة العربية نشرتها المجامـــع اللغوية فى سوريا ومصرلترجمة هذه المصطلحات. وهى تساعد الباحثين على الوصول الى المرادفات وعـــلى توحيـــد المصطلحات نفسهـا فى الاقطار العربية (9) . ولتكتمل المكتبة العربية يجـرى حاليا الاستعانة بامهات الكتب فى التاريخ القديم وعلم الآثار المؤلفة بلغة اجنبية ، وترجمتها الى لغة عربية سليمة . فتسدحاجةالطالبأو الباحث. غير ان هذا العمل المؤقت لن يغنى عن ان يمارس أهل المغرب أيضا البحث التاريخى والاثرى فى مخلفات الحضارات التى عاشت على ارضهم وان تنشر نتائج هذه الابحاث وفق الاساليب العلمية المتبعة فى العالم . هذا العمل يتطلب بالضرورة اعداد المختصين فى حقول التاريخ المختلفة نظرا لضخامة التراث الحضارى المتوفر فى الجزائـــر وفى المغرب عامة .

يطرح تعريب مادة التاريخ مسائل عديدة . اذ لا تقتصر العملية على مجرد نقل المعلومـــات التاريخية من لغة الى أخرى ، أو مجرد تدريسها للطلبة بلغة بدلا من أخرى، بل انها تشمل سلسلة من الاجراءات والتدابير مترابطة الحلقات ، متكاملة الاثر يمكن عرضها باختصار على الوجه التالى :

ا ـ تدريس التاريخ :

فى نطاق تطبيق سياسة احلال اللغة الوطنية فى مراحل الدراسة ، تصدت وزارة التربيـــة الجزائرية بنجاح كبير لعملية تدريس التاريـــخ بالعربية . وقد ساعد فى ذلك والى حد كبـــير توفر عنصرين هامين :

1 ـ نشر المعهد التربوى الوطنى لمجموعـــة من كتب التاريخ المدرسية تغطى حاجات الدراسة الاولية حتى الثانوية (10) . وقد اعدت الكتب وفق مخطط عصرى يراعى الناحيتين التربويـــة والعلمية , اضافة الى التأكيد على الجانب الوطنى فى تكوين الطالب . وهى جهود مشكورة تستحق التقدير . واغلب الظن ان القائمين على هـــذه السلسلة الهامةسيحاولون فى المستقبلالاستفادة من اعادة طبع الكتب ، لتنقيح بعض ما ورد فيها مناخطاء مطبعية،أو لغوية أو تاريخية. واستكمال بعض المواضيع الاخرى .

---

9) راجع يحيى الشهابى ، معجم المصطلحات الاثرية ، دمشق 1967

10) اصدر المعهد التربوى سلسلة من كتب التاريخ المدرسية تحت اشراف الاستاذ جموعى مشرى المفتش العام للتاريخ

2 ـ تم التكامل فى تدريس التاريخ بين نشر الكتب المدرسية المشار اليها ، واقبال الجامعات الجزائرية على تطبيق تعريب التاريخ ثم الجغرافيا فى معاهدها • وبذلك امكن تخريج عدد من المجازين فى الآداب سنويا يسدون حاجات التعليم الاعدادى ـ الثانوى للاطارات المؤهلة . وقد تم تخريج أول دفعة منهم عام 1969 ، وما زالت اعدادهم تتزايد سنويا بشكل ملحوظ يؤدى الى الاكتفاء الذاتى من جهة ـ والى تزويد التعليم باساتذة على قدر كاف من المعرفة التاريخية واللغوية •

3 ـ **اصلاح التعليم الجامعى** : كانت عمليتا التعريب ، وتطوير التعليم الجامعى تطويرا عصريا فى طليعة الاهداف التى توخاها الاصلاح الجديد • فقد قضى فى ميدان تدريس التاريخ على ازدواجية التعليم (بلغتين) واقتصر على تعليم التاريخ باللغة الوطنية فقط • كذلك استبدل الاصلاح نظام الشهادات القديم بأطره الجامدة ، بنظام الفصول المرن والمتعدد الفوائد • فأضيفت الى البرنامج الجديد علوم مكملةللتاريخ ! كالدراساتالاجتماعية والاقتصادية ، والتربية ، وعلم النفس ، والاعمال الميدانية ••• واهتم بابراز تاريخ المغرب بدراسته دراسة وافية فى كافة مراحله • وان نظرة مقارنة لما كان يحتويه برنامج التاريخ فى القسم باللغة الفرنسية مع ما يدرس حاليا بالعربية لتكفى لايضاح الفارق •

ويتمثل تطوير التعليم الجامعى ـ فى المرحلة الانتقالية الحاضرة ـ فى اعطاء الطالب عددا كبيرا من المحاضرات النظرية ، والاعمال التطبيقية يتراوح مجموعها من فصل لآخر بين خمسة وعشرين الى خمسة وثلاثين ساعة فى الاسبوع وقد يكون ذلك العدد الضخم لتعويض قصر مدة الدراسة البالغة ثلاث سنوات اى ستة فصول ، للحصول على شهادة ليسانس التعليم فى التاريخ (II) •

ولكى يحقق البرنامج الاصلاحى الجديد كافة اهدافه فى مجال تعليم التاريخ كان من الضرورى توفير العناصر الاساسية التالية :

أ ـ وجود العددالكافى **من الاساتذة المختصين** والمساعدين • ولايتوفر الاساتذة فى كافة اختصاصات التاريخ ـ حاليا ـ فى كافة جامعات الجزائر بنسبة واحدة • وللتغلب على هذه الصعوبة الراهنة . لا بد من الالتجاء الى وسيلتين مساعدتين : أولا اتباع التنسيق بتبادل الاساتذة والاستعانة بخبراتهم بين جامعات وهران وقسنطينة والجزائر • ثانيا : دعوة الاساتذة الزائرين من الجامعات الشقيقة والاجنبية لتغطية بعض المواد أو دعمها •

ثالثا : أما الاساتذة المساعدون فلا توفر الجامعة جهدا لانتقائهم بين المبرزين من الطلبة المتخرجين • واصبح هنالك عدد لا بأس به منهم ، يرتبط مستقبلهم العلمى بما سيتبلور عليه

II) تبلغ مدة الدراسة فى جامعات المشرق اربعة سنوات للحصول على شهادة الليسانس (الاجازة فى الآداب) •

المشروع المعد لاصلاح الدراسات العليا • وعلى هؤلاء المساعدين وعلى نوعية تكوينهم يعتمد مستقبل « جزأرة » التعليم الجامعي وتكوين الاطارات العلمية الضرورية • وسنشير الى دورهم فى الحديث عن البحث العلمى •

ب ـ كتب التاريخ الجامعية : لاسباب تتعلق بطبيعة وروح التعليم الجامعي تعذر تأليف سلسلة من كتب التاريخ الجامعية فى الاختصاصات المختلفة ، تماثل ما قامت به وزارة التعليم الابتدائى والثانوى • اذ ان الدراسة الجامعية لا تعتمد فى الاصل على كتاب واحد يقرر لجميع الطلاب ، أو لكافة الجامعات ، بل تترك لكل استاذ عادة تدريس الكتب التى يفضلها • كذلك يتطلب لاعداد سلاسل الكتب الجامعية توفر الوقت ، لان الكتب المؤلفة هى نتيجة لابحاث الاساتذة فى ميادين اختصاصهم خلال سنوات التدريس • ومن جهة أخرى لم يتوفر لقسم التاريخ الذى لم يمض على تعريبه بعض سنوات ـ فى الجامعات الجزائرية ـ كافة الاطارات المختصة التى يمكنها املاء هذا الفراغ • علاوة على أن الاساتذة المتعاونين يقومون بالتدريس لفترات محددة • لهذا توجب اعتماد الطلاب الجامعيين على مراجع ومصادر من كتب التاريخ المؤلفة بالعربية فى جامعات ومعاهد المشرق والمغرب ، وهذه الكتب تقوم فى وجه استيرادها صعوبات عديدة ، يقال بانها ادارية !

أما محاولات طبع الامالى أو ما يسمى بملخصات لمحاضرات الاساتذة المحاضرين ، فانها « شر لا بد منه » وحل مؤقت فيما اذا توفرت الامكانيات المادية والفنية : وفى مقدمتها عدد وفير من الضاربين على الآلة الكاتبة ، وجهاز للمراقبة والتوزيع • **لان الامالى لا يمكن ان تكون بديلة للكتاب الجامعى** ـ خاصة وان الاولى غالبا ما تصدر حافلة بالاخطاء المطبعية ، اضافة الى كونها بحد ذاتها ليست على مستوى الكمال فى البحث • والواقع ان الطلاب يقتصرون غالبا على وريقات الامالى ، ويستغنون بها عن الرجوع الى المصادر والمراجع الضرورية لتكوينهم العلمى •

ويلحق بمشكلتى الكتب والامالى ، مشكلة الاطالس التاريخية والخرائط ، والصور الضوئية الملونة Diapositive وأرشيف جيد للوثائق التاريخية التى يساهم توفرها فى انجاح البرنامج التعليمى ، وفى اعطاء تعليم التاريخ فى الجامعة طابعا عصريا يضاهى المستويات التى وصلت اليها الجامعات الاخرى •

ح ـ يعتبر الطالب العنصر الثالث والهام فى التعليم • وان كان التعريب قد استهدف بنجاح كلا من المناهج والاساتذة ولغة التدريس من خلال عملية اصلاح التعليم العالى ، فانه شمل بالمثل الطالب نفسه • هذا الطالب الذى اصبح يصل الى الجامعة بعد انهائه للدراسة الثانوية ، وقد تعلم معظم مواد دراسته باللغة الوطنية • الا ان هنالك عددا لا بأس به أيضا من الطلبة يصلوا الى الجامعة ـ بحكم المرحلة الانتقالية الحاضرة التى يمر بها التعليم الثانوى ـ يصلوا

من مدارس يدارس فيها ثنائيةاللغة في التدريس. ويلاحظ الاساتذة الجامعيون ضعفهؤلاء الطلبة في اللغة العربية . ويشمل هذا الضعف ايضا بعض الذين درسوا بالعربية . ومن البديهي ان يكون اتقان اللغة الوطنية شرطا اساسيا لفهم المحاضرات ، وقراءة المصادر وكتابة الابحاث ، وخاصة في الاعمال التطبيقية وفي الامتحانات ، ثم في ممارسة التعليم فيما بعد للاجيال الجديدة . ولهذه الغاية لعله من الضروري تخصيص ثلاثة ساعات مسائية أسبوعيا يجبر الطلابعلىالاشتراك فيها – تحت اشراف قسم اللغة العربية – لتقوية طلاب الفصول الاولى باللغة العربية (12) بمواد اختصاصهم . وذلك اسوة بالدروس المخصصة لتعليمهم اللغة الاجنبية والمقررة في البرنامج .

يتميز المنهاج الاصلاحي بالمرونة والبعد عن المركزية ، وخاصة عندما يترك للوحدات البيداغوجية – التي اشترك فيها الى جانب الاساتذة ممثلون عن الطلبة – مجالا واسعا لمراقبة تطبيق البرنامج الجديد على الطبيعة . كذلك عندما ترك لهم اعداد الدراسات والملاحظات التي تضمن تعديل المنهاج بما يتلاءم مع حسن اداء مهمته . واعطى للاساتذة المشرفين والمنسقين صلاحيات عديدة الغاية منها اضفاء التطور المستمر والحيوية على الدراسة الجامعية . ومن بين الملاحظات التي تجمعت على ضوء التجربة العملية خلال السنتين الفائتتين ، يجدر تقديم النقاط التالية بالنسبة لمادة التاريخ عامة :

1 – حدث فصل بين التاريخ والجغرافيا ، ومن الضروري اعادة ادخال مواد من الجغرافيا في عداد المواد المكملة للتاريخ والعكس بالعكس بالنسبة للتاريخ . ذلك ان حامل لسانس التعليم في التاريخ أو في الجغرافيا مطالب بالضرورة بتدريس كلا المادتين في المدارس الاعدادية والثانوية ، علاوة على العلاقة الوثيقة بين العلمين.

2 – هنالك ميل لدى الاساتذة والطلاب لطلب الاقلال من عدد المحاضرات وفي المواد التكميلية خاصة ، التي تكاد تطغى على الدراساتالتاريخية نفسها في الفصل الاول .

3 – جعل مادة علاقات المغرب الحضارية مع الشعوب الاخرى (في الفصلين الخامس والسادس) مادة الزامية لكافة طلبة التاريخ ، ورفع عدد المحاضرات المخصصة لمراكز الحضارات الاولى في الشرق القديم وفي مصر الى محاضرتين لكل وحدة منهما (الفصل الاول) .

4 – اعادة النظر في توزيع بعض مواضيع التاريخ بشكل يتناسب مع عناوينها من جهة ومع عدد الساعات المخصصة لكل منها من جهة أخرى ، مع مراعاة التوازن والتسلسل في المواد.

5 – تخفيض عدد الساعات التطبيقية في الفصول الثلاثة الاولى نظرا لقلة خبرة الطلاب المبتدئين ، ولوجودهم المستمر يوميا في قاعات المحاضرات . وبالمقابل تخفيض عدد ساعات المحاضرات في الفصول النهائية . اذ ان الاعمال

التطبيقية تتطلب قضاء وقت كبير في المكتبات . وتستهدف تنمية القدرة الذاتية للبحث لدى الطالب ٠

6 ـ توفير كتب الدراسة والمراجع باللغة العربية والاجنبية للطلاب ٠

7 ـ الغاء تقييد ليسانس التاريخ «بالتعليم» ، وفتح مجال البحث العلمي والعمل للخريجين في مرافق الدولة : كالدبلوماسية ، والآثار ٠٠الخ٠

5 ـ تحقيق التفاعل الخلاق بين الطالب ومجتمعه :

لا نبالغ اذا قلنا ان نجاح التعليم في خلق التفاعل المثمر يتوقف على الخطوة الاولى التيخطاها الاصلاح الجامعي وهي : استعمال اللغة الوطنية ـ التي رضعها الطفل مع لبن امه ـ واسطة لتلقي المعرفة ٠ وتتميز العلوم الاجتماعية بانها تتعرض اكثر من غيرها لعلاقة المواطن بالمجتمع ٠ والتاريخ بالذات يضع النقاط على الحروف بالنسبة لمواضيع هامة وفيرة مثل : الحرية ، العبودية ، الاستعمار ، الاستقلال ، التطور ، العدالة الاجتماعية ، الثورة ٠٠٠ الخ ٠ من المفاهيم ٠

أما الخطوة الثانية فتكمن في ضرورة توفير مناخ جامعي وحياة جامعية تنعدم فيها الحواجز المصطنعة بين الطالب وزملائه ، وبين الطالب واساتذته ٠ فيتم عن طريق اللقاءات والندوات والرحلات والاعمال الجماعية (او في نادي للطلبة والاساتذة) تبادل الافكار وتحليل وتفهم ووعي مشاكل المجتمع ومواضيع الساعة ٠ ولقد أظهر اقبال الطلبة الجامعيين على موضوع حيوي كموضوع الثورة الزراعية مثلا ٠٠٠ أظهر جانبا من الجوانب الايجابية العديدة التي حققها اصلاح التعليم الجامعي ٠ ولسوف تعرف هذه البادرة الطيبة آفاقا أوسع عندما تتدعمبمزيد من توجيه الاساتذة وبالتفافهم مع ابنائهم الطلبة حول أماني الشعب لتحقيق المشاريع الضخمة التي وضعها قادة ثورته ٠

ج ـ البحث العلمي

قدمنا في بداية هذا البحث المتواضع صورة عن الوضع المؤسف الذي كانت عليه ابحاث وكتابة التاريخ بالعربية في العهد الاستعماري ٠ واذا كان من مهمات الجامعة حاليا ان تعد وتخرج اساتذة للتاريخ يملأون اطارات التعليم في الجزائر ، فان **مهمة الجامعة بالنسبة للبحث العلمي اساسية ومستمرة** ٠ وفي الجامعة يمكن توفير المناخ المناسب لنشوء الابحاث التاريخية : الجزائرية ، والمغربية ٠٠٠ الخ ٠ واعداد العاملين فيها ٠

واذا كان من المهم تدريس وبحث التاريخ باللغة الوطنية ، فان من الاهم اعطاء هذه الفعاليات فرصة للنجاح ، وجعلها تبلغ مستوى الدراسة باللغات الاخرى ، وذلك بوضع اطارات ومناهج ودرجات الدراسات العليا في الجامعة على المدى البعيد وبشكل واضح٠كذلك يتوجب انشاء المعاهد التي تتخصص في كل ميدان من ميادين البحث

التاريخى • وما اعظم الفراغ القائم فى هـــــذا المجال (13) • نعم ينبغى انشاء « **معهد للدراسات التاريخية المغربية فى الجزائر** » يستوحى العاملون فيه نشاطاتهم من محاور ثلاثة اساسية : مغربية ، عربية ـ اسلامية ، متوسطية ويشمل فروعـــا للاختصاصات التالية :

ـ الدراسات ما قبل التاريخية والمغربية •

2 ـ الدراسات التاريخية الاسلامية ـ العربية

3 ـ دراسات تاريخ حوض البحر المتوسط

4 ـ الدراسات اللغوية القديمة •

5 ـ الدراسات الأثرية •

ويضاف الى هذه الفروع دار للوثائق التاريخية اما الكتب والدراسات والمجلات التى ستصدر عن هذا المعهد باللغة العربية وباللغات الاجنبية الاخرى ، فستكون الدليل الحى والمستمر ـ عـلى الصعيدين الوطنى والعالمى ـ على نجـاح الجهـود البناءة التى بذلتها الثورة الجزائرية فى مضمارى اعادة الاعتبار للغتها الوطنية ، وتطوير التعليـم العالى • وفى كليهما اثبات دور الجزائر ، الطليعى لا فى المغرب فحسب ، بل وبالنسبـة للقـارة الافريقية •

13) نرى من الضرورى لفت انتباه القارىء الى الاهمية الكبرة الى توليها اسرائيل لتدريس التاريخ والعلوم الانسانية (باللغـة العبرية وانشائها العـدد الضخم من المعاهد ودور الوثائق التاريخية التى تمارس بحث تاريخ الشعب اليهودى وعلاقاته بالمناطق وبالشعوب الاخرى . راجع : شؤون فلسطينية ، ابريل 1972 ، ص 143 ـ 176 •

دور الألسنية فى المساهمة فى التعريب

صالح القرمادي
مدير بحوث قسم الالسنية
التابع لمركز الدراسات والبحوث
الاقتصادية والاجتماعية
ـ تونس ـ

تواجه بلدان المغرب العربى فى الفترة الراهنة من تاريخها مشكلة هامة جدا يتوقف عليهـــا تطورها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى عنينا مشكلة التعريب ذلك الواجب التاريخى الحتمى الذى لا مناص من تحقيقه لاستعادة مستويـات الذات الآيلة وبنا. مستويات الـذات المجـددة المتحركة على أساسها .

بحث قدم الى المؤتمر الثانى للتعريب المنعقد بالجزائر من 12 الى 20 ديسمبر 1973 .

فكيف سيتسنى لهذه البلدان ان تتجاوز مرحلة التفكير والتردد التى دامت طويلا فتتخذ لنفسها فى اقرب الاجال سياسية لغوية رصينة منطقية منظمة مخططة تكون غايتها تعميم استعمال اللغة القومية الوحيدة فى هذه الديار ، أى اللغة العربية فى جميع مستويات حياة البلاد ٠

وكيف ستتمكن فى نفس الآن من ادخال التعديلات والتحويرات التدريجية اللازمة فى تعليم اللغات الاجنبية من انجليزية وفرنسية وروسية وألمانية واسبانية وايطالية ٠٠ باعتبارها أداة هامة ـ وان كانت ثانوية بالنسبة الى اللغة القومية تسمح بالتفتح الضرورى على العالم العصرى ؟ وقد احتد النقاش الايديولوجى فى بلدان المغرب العربى حول مسألة التعريب (1) منذ الاستقلال وحمى وطيس الحرب القلمية فى هذا الشأن بين مختلف الفئات الاجتماعية والثقافية المتعايشة فى صلب المجتمع المغربى ـ فمن مدافع عن التعريب التام فورا الى ذائد عن ازدواجية اللغة ومن قائل بوجوب استعمال اللهجات الدارجة الى مناصر لفكرة الفرنكوفونية حتى ان المتصفح للصحف والمجلات المغربية اصبح يجد فيها جميع المواقف والانتماءات فى هذا الصدد ٠

وقد شرعت اقطار المغرب بعد الاستقلال ـ وهى مستمرة فى ذلك الى الآن ـ فى انجاز بعض التجارب فى ميدان التعريب اختلفت كما وكيفا من حيث درجة شمولها وتخطيطها المنطقى ومنهجيتها العلمية فاختلفت بالتالى من حيث حظها من النجاح والدوام ٠

ويبدو فى هذا السياق ان اثبت تجربة قيم بها فى بلدان المغرب العربى هى التى تجرى الآن بالجزائر الشقيقة ٠ فقد ادرجت حكومة هذه البلاد منذ سنة 1968 فى رائدها الرسمى قوانين خاصة بالتعريب متبنية اياه بصورة رسمية باعتباره مهمة عظمى ينبغى انجازها ضمن برنامج انجاز المشاريع الحكومية الاخرى من ثورة زراعية واقتصادية وثقافية ٠

ومن الطبيعى فى مثل هذه الملابسات التاريخية وامام عظمة العمل الذى يستدعيه التعريب على أسس عصرية ناهضة ان تنفتح فى وجه الالسنيين المغربيين من مغاربة وجزائريين وتونسيين آفاق عريضة للنشاط العلمى وامكانيات لا تحصى للبحث والتصنيف من ذلك :

1 ـ ميدان شاسع للتنقيب العلمى الاساسى فى حقل البحوث الالسنية مثل :

وصف كامل الواقع اللغوى والاجتماعى ـ اللغوى فى البلاد وصفا علميا دونما تفريط فى أى عنصر من عناصره ٠

ـ تحليل مختلف اللغات المتعائشة بالبلاد من الناحية الالسنية ٠

ـ القيام بدراسات مقارنة يقارن اصحابها فيها بين تراكيب مختلف هذه اللغات من الناحية الصوتية والصرفية والنحوية المعجمية ٠

1) هذه المسألة هى موضوع دراسة مشتركة يقوم بها قسم الالسنة وقسم علم الاجتماع التابعين لمركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية .

2 ـ امكانيات لاحد لها للقيام بانجازات عملية تجرى على هدى تعاليم الالسنية التطبيقية منها ٠

ـ المساهمة فى تعريب بعض الكتب المدرسية المستعملة فى البلدان المتقدمة والخاصة بالميادين العلمية من المعرفة مثل الحسابيات والفزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والجغرافية الطبيعية وذلك، قصد استعمالها فى المدارس المغربية ٠

ـ المشاركة اللغوية فى تحرير الكتب المدرسية القومية باللغة العربية وذلك فى المواد ذات الطابع القومى المغربى مثل التاريخ والجغرافية البشرية والاقتصاد والحقوق ٠

ـ المشاركة اللغوية فى اعادة تكوين المدرسين المغربيين للمواد العلمية من الناحية اللغوية وذلك بتلقينهم بسرعة ما يحتاجون اليه من قواعد العربية ويمدهم بالخصوص بقائمات من الالفاظ العربية المقابلة للمصطلحات الاجنبية التابعة لاختصاصاتهم ٠

وفى حالة ما اذا تبنت جميع حكومات المغرب العربى التعريب باعتباره مهمة رسمية يتحتم تحقيقها فى نطاق مخططاتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فوفرت للالسنيين المغربيين ما يحتاجون اليه فى هذا المضمار من وسائل مادية وبشرية جبارة فانه يبدولنا ان هؤلاء الاختصاصيين فى اللغة مستعدون الآن لجمع قواهم وتكثيف جهودهم للمساهمة العلمية فى تحقيق التعريب بوصفه مشروعا قوميا عظيما باعثا على الحماس وما من شك فى ان جميع صعوبات التعريب الحقيقية الموضوعية من شأنها ان تذلل عن طريق مثل هذا العمل العلمى الثابت المثابر المخطط تخطيطا عقلانيا رصينا والجارى فى نطاق برنامج حكومى واسع المدى لتنمية بلداننا تنمية عصرية متماشية ومقتضيات الحياة المتجددة ٠ هذا وان هؤلاء الالسنيين واللغويين المغربيين المتجمعين الآن فى صلب معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر والمكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط وفى قسم الالسنية التابع لمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس قد شرعوا بعد فى التعاون والعمل المشترك ٠ وقد تم تكييف جهودهم بالخصوص فى نطاق البحث الخاص بوضع الرصيد اللغوى المغربى ٠

وفى نطاق هذه الدراسة المشتركة التى تظافرت عليها جهود الالسنيين المغربيين وكذلك فى نطاق البرنامج العام فى البحث العلمى الخاص بقسم الالسنية بالمركز نقدم اليوم لحضرات المؤتمرين لمحة عن عمل هذا القسم ٠

لقد اسس قسم الالسنية التابع لمركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية فى بداية سنة 1964 وما انفك اعضاؤه منذ ذلك الحين يعملون جهدهم فى سبيل تحقيق برنامج مزدوج الهدف :

1 ـ **القيام فى مرحلة اولى واجبة** بابحاث علمية اساسية غايتها وصف الواقع اللغوى التونسى بجميع مقوماته من عربية فصحى وعربية دارجة وبربرية وفرنسية الخ ٠٠٠ وصفا علميا موضوعيا دونما تحيز للغة دون أخرى أو تفريط فى واحدة منها جميعا ٠

2 - **القيام في مرحلة ثانية واجبة كذلك** بابحاث واعمال تطبيقية تتمثل في وضع المعلومات والنتائج المتحصل عليها اثناء ابحاث المرحلة الاولى في خدمة تطوير الواقع اللغوي في بلادنا تطويرا عصريا وذلك بالمساهمة خاصة في التعريب بوضع مواد ووسائل بيداغوجية جديدة اهمها كتب القراءة لتعليم اللغة العربية بالاعتماد على احدث الطرق التي جاءت بها معطيات الالسنية الحديثة .

ولقد تمكن قسم الالسنية باستعمال هذه المنهجية الرصينة من القيام بعدة دراسات وبحوث نشر عدد كبير منها بتونس نخص بالذكر منه ثلاثة كراريس يتعلق واحد منها بوصف فونولوجيات بعض اللهجات التونسية وآخر بالنظر في الالفاظ المستعملة في كتب القراءة العربية بالنسبة الاولى من التعليم الابتدائي وثالث بدراسة بعض مظاهر الازدواجية (أو الثنائية) اللغوية ببلادنا وكذلك البحث الهام الخاص بضبط الرصيد اللغوي أو ما يسمى بالعربية الاساسية . كما ان أعضاء القسم (2) عاكفون الآن على انجاز مشروع عظيم جدا يتمثل في وضع وصف السني جديد للغة العربية الفصحى الحديثة وذلك الى جانب أهتمامهم بتعريب بعض كتب الالسنة الاجنبية وبوضع معاجم مبوبة للمصطلحات العربية المستعملة في ميدان الالسنية في كامل البلدان العربية .

هذا وان نشريات قسم الالسنية التي كانت تصدر بالفرنسية بحكم بعض الظروف القاهرة الخاصة اصبحت الآن تنشر بالعربية فقط أو باللغتين العربية والفرنسية وذلك عند الاقتضاء ولتعميم الفائدة .

أيها السادة المؤتمرون :

انه ليبدو لنا ان مهمتنا الاساسية اليوم تتمثل في محاولة الاجابة العلمية على عدة اسئلة يتساءلها مجتمعنا في نطاق تطوره وفي قلق وحيرة لما لها من عظيم الخطر بالنسبة الى تجديد حضارتنا وشخصيتنا في المستقبل .

فترى باية لغة يجب ان نثقف اطفالنا اليوم وغدا ؟ وما هي اللغة التي سيجد فيها الطفل العربي المغربي هويته المتطورة وكذلك وفي نفس الآن الفعالية اللازمة التي ستمكنه من الخروج من النسيان التاريخي الذي نا، عليه بكلكله ومن الطفو على صفحة التاريخ .

وفي الواقع فالجواب على مثل هذه الاسئلة ليس بان يقال : الامر بسيط اذ هذه اللغة هي العربية بداهة وانما بان يوضع سؤال آخر هو التالي : أية عربية ؟ فترى ما هي العربية التي ستكون لغة غدنا أي لغة يتكلمها ويفهمها ويكتبها ويقرأها كل فرد منا ؟ أفهل ستكون لغة القرآن أم لغة ابن قتيبة أم ابن منظور أم نجيب محفوظ أم على الدوعاجي أم لغة الاذاعة والصحافة أم لغة

2) وهم الآنسة زهرة الرباحي والاساتذة الطيب البكوش ورشاد الحمزاوي ومحمد المعموري وعبد القادر المهيري وهشام سكيك واحمد العايد ومحمد العوثي وصالح القرمادي .

بعض القادة والزعماء العرب أم اللغة التي يتعامل بها الناس في الشارع أو بالمنزل بل اللغة التي يتخاطب بها أعضاء مؤتمرنا الموقر اذا ما خلوا الى انفسهم بعد المناقشات والمجادلات .

ســادتي :

ان الجواب الرصين على هذه الامور لن يكــون الا عن طريق العمل العلمي الرصين المثابــــر المتوقف أولا وبالذات وفي نطاق مساعدة الحكومات على تعاون الالسنيين والعلماء والمربين .

على ان تكون الفكرة الاساسية التي نقتدي بها في هذا المضمار هي التعريب قدر الامكان بـين مستويي لغتنا أي مستواها الفصيح ومستواها المستعمل الشائع بين الناس والجماهير العربية وذلك حتى يتسنى لنا شيئا فشيئا اتخاذ لغة متكاملة تعبر عن جميع مستويات الحياة بما فيها من راق نبيل ويومي بسيط لغة يكون تركيبهـا الصرفي والنحوي والمعجمي تركيب الفصحى الحديثة المبسطة وتكون في نفس الوقت متفتحة قابلة عند الاقتضاء للدخيل من الالفاظ الدارجة والاجنبية الضرورية للحضارة . وذلك حتى يكون التعريب ليس غاية جمالية فحسب وانما وسيلة اجماعية ثمينة تمكننا من الاتكاء على الماضي للقفز في المستقبل وهضم التليد لاستيعاب الجديد وترك الجمود والاخذ في الصعود .

والســلام عليكـم

مشكلة اللغة والمجتمع

د. عبدالله شريط
كلية الآداب
جامعة الجزائر

موضوع هذا البحث هو اللغة والمجتمع من خلال التجربة الجزائرية .

فنحن هنا نشعر بضغط شديد تثقلنا به المشكلات الثقافية ازاء المجتمع ، لاننا منذ انبعاث الحركة الوطنية السياسية والحركات الاصلاحية الثقافية فى بلادنا ، اى منذ الثلاثينيات ، تعودنا ان نربط بين هذه الحركات وشعاراتها ومنهجياتها من ناحية ، وبين وضعية الشعب التى نستمد منها الكثير من محتوى هذه الحركات من ناحية اخرى .

الطبقة الكادحة بصورة أخص ، يصورون بؤسها

وليس معنى هذا اننا قد وفقنا الى تخطيط ما يسمى بالايديولوجية الفلسفة المتكاملة ، وتطبيقها حسب مراحل مضبوطة ، وانما يرجع السبب في هذه « الشعبية » الى ان العناصر البشرية التي انبعثت منها في الاصل هذه الحركات كانت تنتمي في اغلبيتها الى الاوساط الشعبية ، وحتى ان وجد من بينها من ينتمي الى وسط ما يسمى في لغة اليوم بالوسط البورجوازي (وأبرز مثل عليه هو الشيخ عبد الحميد بن باديس) فانه - لكي يؤدي رسالته الاصلاحية الثقافية بصورة وافية - لم يلبث أن انسلخ عن وسطه الاجتماعي ، وعاش في وسط أوسع محيطا وأغزر محتوى اجتماعيا وانسانيا ، وهو المحيط الشعبي .

ولهذا المنزع الشعبي في نظرنا جوانب ايجابية لا تنكر ، واهمها تحقيق اقتسام متساو نسبيا في اشاعة روح اليقظة والنضج السياسي والفكري بين الاطارات الوطنية على قلتها وبين جماهير الشعب الواسعة على كثرتها .

ولكن كان لهذا الاتجاه ، الى جانب اسباب أخرى حضارية ، جوانب سلبية أهمها بقاء اطاراتنا الثقافية في مستوى متوسط لم ترتق معه الى تخريج اعلام كبار ، من المفكرين والمثقفين ، لانه لم يتح لها ان تنقطع للبحث والتقصي والحياة الفكرية الخالصة .

ومما ساهم في تكوين هذا الاتجاه الشعبي ايضا ان ضغط الاحتلال الفرنسي على الجزائر بلغ من الشدة والتوسع والارهاق حدا لم يبلغه اي استعمار في أي بلد عربي آخر ، بحيث لم يترك مجالا من الاختيار أمام الاطارات المثقفة : أما ان تندمج في تقاليد اجنبية تدين بالثقافة للثقافة ، والعلم للعلم ، والفن للفن ، واما ان يلقى بها على الهامش بعيدا عن الحياة الفكرية ، وقريبا من المحيط الشعبي المحروم من هذه الحياة الفكرية حرمانه من الحياة المادية ، فكان المثقف الجزائري ، على ندرته في عهد الاستعمار ، مضطرا لان يعيش معه ان لم يكن متطوعا لذلك . وهذا ما جعل الانتاج الثقافي في الجزائر منذ الثلاثينيات الى الستينات ينطبع بطابع الروح الشعبية سواء منه ما كتب باللغة العربية الفصحى او حتى باللغة الفرنسية .

فكانت الاطارات الثقافية في الجزائر تتميز من ناحية بروح شعبية نسبيا في اتجاهها وتكوينها الاجتماعي ، وتتميز من ناحية أخرى بالمستوى المتوسط من حيث تكوينها وانتاجها الثقافيين .

وقبل ان ندخل في تفاصيل هذا الوضع يجب ان نشير الى ان لنا فئتين من المثقفين : فئة عربية اللغة ، وفئة فرنسية اللغة . وقليل من ثقافة مزدوجة ، واذا كانت الفئة الثانية قد ارتبطت بمجتمعها من حيث العاطفة والشعور ومحتوى الانتاج ، فانها منقطعة عنه من حيث أداة التبليغ الى هذا المجتمع : مولود فرعون وكاتب ياسين ومولود معمري ومالك حداد ، يتحدثون في رواياتهم كلها عن الشعب ، وعن

الطبقة الكادحة بصورة أخص ، يصورون بؤسها وحرمانها وأميتها ، ولكن هذه الطبقة بالذات لا تعرف شيئا مما كتبوا ، وبالتالى فهؤلاء الكتاب معروفون فى الخارج أكثر مما هم معروفون فى بلادهم .

واما الفئة العربية الثقافة ، فهى تحمل نفس العاطفة ونفس الاهتمام بنفس هذه الفئة الاجتماعية الامية المحرومة ، ولكنها ليست اكثر اتصالا بها من حيث أداة التبليغ من الفئة الفرنسية الثقافة .

هذا واقعنا الذى نعيشه من حيث مشكلة اللغة منظورا اليها من زاوية علاقتها بالمجتمع ، ولكن هذا الموضوع كما تعلمون ، بالرغم من انه كان مطروحا فى المجتمع العربى منذ بداية الاختلاط فى العصر الاموى الى اليوم ، الا انه لم يبحث فى تراثنا بحثا وافيا باستثناء ابن خلدون والجاحظ ، بشكل غير مقصود .

وحتى فى تراثنا الحديث لم أعثر شخصيا على بحوث علمية فى هذا الموضوع ، فقد رجعت مثلا الى كتاب «اللغة والمجتمع» للدكتور عبد الواحد وافى ، وهو مختص فى علم الاجتماع الذى درسه فى اوربا من ناحية ، وفى علم اللغة الذى درسه فى الازهر من ناحية أخرى ، ولكننى لم اجد عنده حتى طرحا للمشكلة ، فضلا عن تحليلها ، وانما وجدت اشارات لقضايا جزئية عن اللغة العربية فى معرض الآراء الغربية عن لغاتهم ومجتمعهم ، من نوع استحياء اللغة العربية واللغات الاوربية الحديثة عند ذكر العورة ، وعدم استحياء اللغة اللاتينية عن ذلك ، وانتقال المعنى المجازى من المعنى الاصلى فى العربية ، او انتفاع اللغة العربية من اللغات الفارسية واليونانية فى بعض المفردات الى آخره .

كذلك يجب ان نشير هنا الى المعركة التى قامت فى وقت ما بين دعاة الفصحى ودعاة العامية ، او احياء بعض اللهجات الاقليمية كالفرعونية فى مصر والفينيقية فى لبنان والبربرية فى الجزائر والمغرب .

ولكن هذه الدعوات مثل الحملات المضادة لها ، لا تدخل فى ميدان البحوث العلمية بقدر ما تقتصر على نزوات سياسية عارضة لم تعمر اكثر مما تستحق ، ولم تستفد منها اللغة والمجتمع شيئا يذكر ، وبقيت المشكلة قائمة الى اليوم فى الوطن العربى كله ، ولكن على تفاوت ، وهى مشكلة انفصال لغة الثقافة لا عن لغة المجتمع فقط ، بل عن حياة المجتمع العربى برمته ، ونحن ازاء هذه المشكلة ما زلنا فى طور الاشارة اليها فى بعض البحوث ، والتشكى من وجودها ، دون مهاجمتها بالبحث العلمى المنظم ، فالاستاذ عبد العزيز بلال فى ملتقى شهر نوفمبر سنة 1970 ، بمدينة «لوفان» LOUVAIN يذكر : « ان العالم العربى عاش فترة تاريخية طويلة قبل ان يتغلغل فيه الاستعمار الاوربى على انظمة اقتصادية واجتماعية متجمدة ، كما عاش على ثقافة «متهرئة» وان احتفظت بمجدها التاريخى وصيتها الحضارى الذى كان للعرب » .

ان هذه الثقافة التى ادركتها الشيخوخة قد أصابها الشلل والقعود عن التقدم بسبب ثـلاث متناقضات : تناقض بين اللغة المكتوبة واللغـة المقروءة ، وآخر بين ثقافة ارستقراطية وثقافـة شعبية ، وأخيرا تناقض بين مفاهيم وثوقيـــة متحجرة ، واخرى مؤمنة بالتقدم العلمي والتقني» (انظر كتاب : نهضة العالم العربى ص 19) .

واذا كانت هذه الظاهرة تشمل الوطـــــن العربى من المشرق الى المغرب ، فاننا نجـدهـا أكثر استحكاما فى الجزائر للاسبـــاب الـتى ذكرناها فى مطلع هذا البحث ، ولكننا لنفـــس السبب نجد الاهتمام بها ايضا بالغا أشـــده ، فبالاضافة الى كل ما يكتب عندنا فى الصحـف والمجلات عن مشكلة التعريب ، ومعالجتها مـــن مختلف الاوجه البيداغوجية والتقنية والاجتماعية والى النشريات والكتيبات التى تؤلف فى اللغة لمختلف الاطارات الادارية ، وللعمال والفلاحين ، وهى جهود كبيرة بالنظر الى انخفاظ المستـــوى الثقافى العام الذى عليه اكثرية القائمين بـه ، وبالنظر لتنوع المستويات من الجماهير المستهلكة لهذه النشريات والكتيبات ، ولتنوع ميادينهـا فى العمل ، مما يستلزم تنوعا فى التأليف ، او بالاضافة اخيرا الى الحملات التى لا تخلو من عنف والتى يقوم بها المثقفون بالعربية ضد تهـــاون الموظفين ـ خصوصا ـ فى بذل الجهد اللازم لتعلم لغتهم القومية ، حتى يستطيعوا الاتصال بمجتمعهم أكثر ، ويزول بينهم وبينه جدار اللغة الاجنبيـة وتخرج البلاد من فترة الازدواجية اللغوية الـتى تجتازها الآن فى الحياة الادارية على الخصوص وما يتبعها ـ أقول بالاضافة الى هذه الجهـــود التى لن تاتى بثمارها الكاملة الا بعد سنـوات أخرى ، هناك مجهودات اخرى فى مستوى فكرى أرقى ، ودراسات جادة عميقة الاثر ، تتنـــاول مشكلة اللغة عندنا من الوجهة الاجتماعية خاصة، ومرتبطة بضرب من الانديولوجية الشعبيـــــة الوطنية التى أشرت اليها فى مطلع هذا الحديث، وهو اتجاه متحرر من الديماغوجية الماركسيـة السطحية فى بعض اوساطنا ، أعنى فى الجزائر وفى العالم العربى كله ، مثلما هو متحرر مـــن الديماغوجية الاخرى المقابلة ، وهى ديماغوجية عبادة الماضى بمحاسنه ومساوئه ، تلك الـــتى ينظر اصحابها الى اللغة على انها معبد مقـــدس لذاته ، وليست أداة للتبليغ الثقافى لدى مختلف طوائف المجتمـــع .

هذا الاتجاه الشعبى القومى ، كما يمكن ان نسميه ، هو الذى اردت ان اعرضه عليكم كمثال عن معالجتنا لمشكلة اللغة والمجتمع عندنـــا ، وانا لا ادرى الى أى حد يتجاوب مع بقية البلاد العربية الاخرى ، وذلك نظرا لوضعية الجزائـر الخاصة فى هذا الموضـــوع .

واحسن من يمثـل هذا الاتجاه عنـدنا هو : الاستاذ مصطفى الاشرف ، فى دراسات قيمـة نشرها فى عدة مجلات عالمية مثل «ايسبرى» و «الازمنة الحديثة» وقدم البعض منها الى مؤتمرات ثقافية عقدت عندنا .

يعتقد الاستاذ الاشرف ان ما دفع بالشعب الجزائرى الى اعتناق الثقافة الفرنسية ولغتها ، ليس هو كون هذه الثقافة ولغتها قد فرضتا عليه فرضا بقدر ما يرجع السبب الى ان الشعوب ذات التقاليد العريقة فى الثقافة مثل الشعوب العربية لا تستطيع ان تقبل الفراغ الثقافى بسهولة ، حتى ولو اضطرت الى سد هذا الفراغ بتبنى ثقافة ولغة اجنبيتين عند ما تنعدم وسائل التثقف بلغتها الوطنية ، كما وقع للشعب الجزائرى تحت الاحتلال الفرنسى .

وبالرغم من اننا فى مواجهة هذا العالم الحديث بثقافته العلمية ، بقينا متمسكين بجوانب من ثقافة القرون الغابرة ، وخاصة ما يتصل منها بالحياة الاخلاقية والروحية ، الا اننا فى هذه المواجهة لا بد لنا من ان نقيم موازنة عن شعور او لا شعور ، بين التراث الانسانى والدينى ، الذى بقى متحكما فينا ، وبين الضرورات الجديدة للدخول فى العالم المعاصر ، واللغة ليست فقط تراثا للامة ، بل هى بالاضافة الى ذلك اداة حركة للمجتمع الذى يريد ان يتنصل من العجز والتعفن

والجزائر حافظت طيلة عهد الاستعمار على لغتها المكتوبة التى تجمعها بالشعب العربى فى كل مكان ، كما حافظت على لهجاتها المحلية التى تستعملها لأغراض عملية بحتة ، وقد حافظت عليها بوسائل تعلم بسيطة احيانا ، فى الارياف والقرى والمدن ، فى المساجد ، والمدارس والزوايا وحتى فى المناطق التى لا يتكلم اهلها اى لهجة من اللهجات العربية ، بل يتكلمون بدلا من ذلك بلهجة بربرية ، ولكن لم يكتب لهذه اللغة يوما فى عهد الاستعمار ان تعلم تعليما رسميا ، بل هى ازيحت من ميدان التعليم الرسمى منذ سنة 1830 ، كما ازيحت كل الثروات الوطنية الاخرى واقيمت مقامها ثروات المحتل الاجنبى .

ان هذه العملية تولدت عن واقع ، هو واقع الاحتلال ، وهى يمكن ان تحل بأى بلد متطور كما تحل ببلد متخلف ، وبعبارة اخرى : حتى لو افترضنا ان الاستعمار الفرنسى لم يمنع تعلم اللغة العربية فى الجزائر ، فان مصيرها لم يكن ليختلف كثيرا عن المصير الذى آلت اليه بالمنع ، ونفس الامر كان سيحدث لهذه اللغة او تلك من اللغات الاوربية تحت الاحتلال الالمانى لو كتب له ان يمتد جيلا او جيلين،ولكن من سذاجتنا نحن فى فترة الكفاح الوطنى اننا كنا نعتقد مخلصين ان اللغة العربية فى بلادنا لو لم يمنعها المحتل من التعلم لاستطاعت ان تكسب كل خصائص اللغات العلمية المعاصرة ، حتى ولو بقى بلدنا فى المجالات الاخرى بلدا زراعيا متخلفا ، على ان خطورة هذه السذاجة ما زالت تلاحقنا الى اليوم ، وهو اعتقادنا بأن تخلصنا من الاستعمار الذى قضى على لغتنا مدة قرن وثلث القرن ، سيجعلنا بفضل الاستقلال ، وبدون اى جهد عقلى منظم ، قادرين على جعل لغتنا تحتل بصورة تلقائية مكانة اللغة العلمية فى ظرف عام أو عامين او عشر سنوات .

والحقيقة ان طابع التخلف الذى يطبع لغتنا العربية لم يأت من اساليبها البيداغوجية

الموضوعية التى بقيت دون تغيير ، ولا من محتواها الذى بقى جامدا تقريبا ، بقدر ما جاء هـــذا التخلف اللغوى من تخلف المجتمع العربى ازاء ظهور موقف آخر نشأ من الاستعمار والاحتكاك بالعالم الحديث .

ان هذا الوضع الثقافى الجديد الذى يضـــع لغتنا وثقافتنا وجها لوجه مع لغات الامـــم المتقدمة وثقافتها العلمية ـ هو الذى صـير كل قيمنا اللغوية والثقافية فارغة من محتـــواها النفعى للمجتمع ، ومع ذلك فان هذا الفراغ لم ينقص من تشبثنا بها ، اننا لم نستطع ان نحقق التوازن العسير بين ما اكتسبناه من المـــاضى ، وما اكتسبناه من الاجانب بصورة عارضة مبترة، صيرته أخطر علينا من مكتسباتنا التقليديـة . فسرنا فى طريق يلامس الماضى والحاضر والمستقبل من بعيد ، دون ان يتوغل فى اى واحد منهـــا ، وهذا ما يفسر خطواتنا المتعثرة الصعبة الـــى الامام ، والتواء اعناقنا الى الماضى كاننا نودعـه لاننا نعرف اننا لن نعود اليه ، وهو ايضا مـا يفسر غموض الرؤيا واضطرابها عندنا فى مجال اللغة والثقافة عامة مما نشأ عنه احيانا نتائـج فاجعة فى دخولنا* الى العالم المعاصر مع احيـــاء تراثنا القومى .

ان وضعنا الثقافى اليوم هو وضع المصـاب بالمجاعة تبدو عليه اعراض كل الامراض ، دون تحديد واحد منها بوضوح .

نعم ان لدينا بعض التكوين الايديولوجـــى السياسى ، ولكنه تكوين آلى فقير مرتجل ، لايمكن ان يغذينا او يقضى على مجاعتنا اذا لم يكن لدينا أساس من الثقافة مطبوع بالدراسة النقـدية ، هذا فيما يتعلق بمشكل اللغة المكتوبـــة او الفصحى .

أما فيما يتعلق باللغة الشفهية التى يتكلمها المجتمع الجزائرى ، فان الاشرف يريد ان يصحح أيضا وضعا كثيرا ما وقع فيه الخطا ، وهو يتعلق بما يزعم من ان اللغة الفرنسية طغت فى الجزائر حتى على اللغة الشفهية التى تتكلمهـا الطبقات الشعبيـة ، والواقـع أن الجزائريين لـم يفتأوا يتكلمون لغتهم الوطنية ، أو ان شئنا لهجاتهـم الوطنية ، لكن حدث ، وهذا من رواسب اخطاء حركتنا الوطنية ، ان رحنـا نشتكى فى معرض التنديد بالاستعمار الفرنسى ، بأن هذا الاستعمار لم يقض على تعلم اللغة الفصحة وحسب فى بلادنا وانما قضى أيضا على لهجاتنا المحلية الشفهيـــة نفسها التى تتكمها الطبقات الشعبية ، وهكـذا شاع عنا فى الخارج بأننـا شعب مسلوب ليس فقط من سيادته السياسية وثرواته الاقتصادية وتراثه الثقافى ، بل هو مسلوب حتى فى لهجاته اللغوية التى يستعملها فى حياته اليومية ، وأن الاستيلاب فى هذا الميدان لم يقف عند الطبقات المثقفة فى استعمالها الثقافى ، بل تجاوزه الـى طبقات الشعب البعيدة عن الاجواء الثقافيـــة ، وقد ساهم فى هذه التعمية للحقيقة ان بعـــض مثقفينا ممن درسوا فى المشرق العربى ، كانوا لا يبعدون كثيرا عن الذين درسوا فى بلاد الغرب

من حيث جلهم بالمشاكل الاولية لوطنهم ومجتمعهم فهم لا يكادون يلمون بعض الالمام الطفولي باللغة الفصحى حتى ينغمسوا في ضرب من اللاواقعية والتفنن السقيم يجعلهم يبدؤون علاقتهم الفكرية مع مجتمعهم باحتقار لهجته ، كما كان يفعل المثقفون حتى في اجتماعاتهم العلمية بلغة مجتمعهم التي يتكلمونها في حياتهم اليومية ، كما ينسون ان هذه اللهجات ظلت شائعة في مختلف المجتمعات العربية منذ اوائل العصر الاموي الى اليوم . واذن فلم يكن من الصواب ان ننقص من قيمة هذه اللهجات القومية العربية بمقارنتها مع اللغة الفصحى ، ولا ان نعتبرها من ناحية اخرى لغة قائمة بذاتها يجب ان ندرسها في مدارسنا ، وانما كان ينبغي فقط ان نعترف بانها واقع ، واقع لا يفيدنا شيئا ان نتجاهل وجوده ، ثم هي اداة تبليغ طبيعي في مجتمعنا ، ووسيلة اضافية لثقافة فرعية ذات تعبير شفوي، واذا كانت العلاقات بين القمة الثقافية والسياسية والادارية وبين القاعدة الشعبية تتعرض في أكثر الاحيان الى الاخفاق والنتائج السلبية وسوء التفاهم ، فذلك راجع الى حد كبير الى هذا التفاوت اللغوي بين القمة والقاعدة ، والى ان المثقفين لم يبذلوا اي جهد لتطوير اللهجة الوطنية التي هي لغة التخاطب بالنسبة لثلثي ابناء البلاد الاميين . ان تطوير هذ اللهجات لو قام به المثقفون بالعربية عندنا لساهم أكثر من اي وسيلة أخرى ، وهذا ما يغفل عند البيداغوجيون كثيرا ، في تهيئة من سيترشح لتعلم الفصحى من الصغار او من الكبار . اما الفائدة الكبرى التي تجنيها من هذا التطوير لو حدث أو يحدث يوما ، فهو انه يمكننا من مراقبة هذه اللهجات والسيطرة عليها وتوجيهها حتى تأخذ شيئا فشيئا طابع اللغة الثقافية او تنضم الى لغتها الاصلية ليصبح مجتمعنا يوما يتكلم كما يكتب ، ويكتب كما يتكلم ، ولكن مثقفينا بدلا من ذلك بقوا متشبثين بالتعالي عن اللهجات المجتمعية ، ولا ندري في هذه الحالة كيف يمكننا ان نهيء هذه الجماهير المهملة لتطوير افكارها حتى تنسجم مع قمتها فيما تدعوها اليه من تطور علمي وتجربة ثورية .

ان النتيجة الحتمية لهذا الاهمال هو اننا نصدر تعليمات الى الجماهير اما بلغة اجنبية او باللغة الفصحى ، فلا تمس اكثر من 15 في المائة من السكان ، لان الـ 85 في المائة الآخرين لم يقرأ لهم أحد حسابا . ولاننا ما زلنا نصر عن وعي او عن غير وعي ، على ان اللغة حتى ولو بقيت غير مستعملة من اغلبية المجتمع ، فان قيمتها الذاتية تكفيها للحياة والتطور مع الزمن ، والمجتمع من ناحيته سيتطور علميا وسياسيا ، حتى ولو كانت اللغة التي يستعملها ويفهمها غير سياسية ولا علمية ، واللغة السياسية والعلمية لا يفهمها ولا يستعملها ، ووضعية كهذه من الافتقار لا تقود الا الى الفناء التدريجي للغة والمجتمع معا ، لان اللغة لا بد لها من مجتمع والمجتمع لا بد له من لغة يعيش كل منهما من

الآخر ويتغذى منه ويتفاعل معه ويكسب منـــه القوة على البقاء والتطور .

ان طريقة الفصل التى اتبعناها الى اليـــوم بين الاغلبية الكبرى من المجتمع وبين اللغة التى تغذيه ويغذيها علميا وسياسيا ، قد قعدت بنـا فى عمر الفكر الميتافيزيقى ولم تستطع ان تنقل الى العمر العلمى ، وليس من التناقض فى شىء أن نزعم ان موقف المثقفين بالفصحى من اللهجات الشعبية انما اتاهم من عدم تمكنهم من اللغـــة الفصحى نفسها ، بالاضافة الى كونهم لا يعتبرون اللغة أداة عمل وبحث وتبادل ولا يعرفـون ان تعاملها مع المجتمع هو الذى يثريها ويزيـــدها طواعية ومرونة وقدرة على التعبير ، ومما زاد فى فداحة هذه المشكلة عندنا فى الجزائر خصـوصا ان اللغة الفصحى او المكتوبة ما تزال مطبوعـة بطابع البلاغة اللفظية والتشبع بالمعانى الفلسفية، واللهجة الخطابية والنصائح الاخلاقية الكسولة التى تستعمل للاستهلاك اليومى ، مع شعـــور بالغيرة على اللغة الفصحى كشعور المؤمنين بالفن للفن ، فكان لهذه النظرة الجمالية للغة عندنـا ان صيرت فائدتها لا تتعدى الجمال فى القـــول على حساب الفعالية والتبادل النفعى فى المعرفة ، أى صيرتها حبيسة فى عمر الطفولة لا تتعـداه ، مشلولة عن القيام بحركتها الطبيعية التى هـى التفتح نحو المجتمع والتحرر من ترف القدسيـة فى بلاد لا يجوز لها أى ضرب من ضروب الترف .

اما مشكلة المثقفين باللغات الاجنبية عندنـا فان مجهودهم فى احسن الحالات ينحصـــر فى التبحر فى اللغات الاجنبية ومعرفة دقائقها فى العلوم ، كما لو كان الفكر العلمى لا يقتـــضى البحث العلمى ولا يستوجبه ، وانما يقف عنـد تعليم ما تعلمنا او نقله الى لغتنا ، والنقل نفسه لا يصحبه مفهوم واضح للعالم المعاصر ومكاسبة العلمية ، وهذه النظرة الضيقة للمعرفة تخنقهـا وتمنع عنها التنفس ، اننا فى هذا النقل الجزئى للمعارف نعيد طريقة بيداغوجية تقليدية تجعـل التلميذ يقف امـام الاستاذ وقفة المتـلقى ، أو وقفة المهزوم امام المنتصر ، ذكر « ريشارد لومى » RICHARD LEMAY فى كتابه : « الترجمة من العربية الى اللاتينية » « ان الثقافة العربية بسبب كثافتها واشاعها فى اسبانيا الى نهاية القـرن الثانى عشر قد خلفت وراءها كل المراحل والفترات الاخرى السابقة واللاحقة ، من حيث نقل المعرفة العربية الى الغرب ، ويرجع تفوقها فى الدرجـة الاولى الى التلاقى الحاسم مع انتـاج الفـــكر الساذج المتخلف من القرن الثامن اللاتيـــنى ، فقد ظهر ما للتآليف العربية من الطواعية والقدرة على الوصول الى الذهن ، وبفضل أساليب النقل التى نضجت فى القرن الثانى عشر أمكن للفـكر العربى الحديث اذاك ان يتسرب بسهولـــة الى الغـرب ابتداء مـــن القرن الثالـث عشر ، فى حين ان هذا الفكر لم يأت بعد بكل ثمـــــاره الكاملة فى العالم الاسلامى » ثم يقول : وهذا مـا يهمنا هنا ـ :

« ان الاتصال بالاسلام قد وضع حدا للعزلة والتأخر اللذين كان عليهما الفكر اللاتيـــــنى الغربى،وما استفاده رواد الفكر الغربى الاول من

الاتصال بالفكر الاسلامي لم يكن فيما احتوت عليه النظريات الاسلامية او مناهج بحثها ، بقدر ما كان في اطلاقها لمواهب كانت في الغرب معطلة مشلولة ، اذ بدأ هؤلاء الرواد الاول يقدرون بدقة وموضوعية اكثر ملاحظة الظواهر ، ومكانة الانسان الحقيقية في عالمه المادي ، هذه في نظرنا هي قيمة اكتشافنا للعالم العلمي عند العرب ، ذع العالم الذي تعرفنا اليه بفضل الوجود العربي في الاندلس حيث امكن للمسيحيين من رجال الدين والحرب والادارة ورجال الاصلاح من كل نوع ان يجدوا انفسهم محمولين حملا في تيار الحركة العامة التي حولت ظروف الحياة والثقافة » .

ان الاستاذ الاشرف يخرج من هذه المقارنة ، واعتقد ان هذا الامر ينطبق على الثقافة العربية المعاصرة في غير الجزائر ايضا ، بان ما نأخذه اليوم عن الغرب هو اجزاء مفككة من المعلومات الغربية ، وليس هو الروح العلمية التي تحول الثقافة والحياة عندنا ، ان حقيقة وضعنا اليوم أننا أكثر تأخرا عن الغرب عند ما كان يأخذ عنا فأحسن الاخذ ، لانه كما يقول «لومي» « لم يستفد من النظريات الاسلامية او مناهجها بقدر ما استفاد من انطلاق مواهبه التي فك اغلالها احتكاكه بالاسلام .

وانطلاق المواهب هو الذي لا نبحث عنه نحن اليوم في احتكاكنا بالعالم الاوربي . اننا ما زلنا كما وصفنا ابن خلدون في عهد انحطاطنا ، ميالين الى السهولة والى البسائط من الامور ، لان نقل الجزئيات او المفردات العلمية أيسر من نقل الروح العلمية ، وهذا الشكل الكسول ـ كما يسميه الاشرف في اقتناء المعارف ـ جعلنا ندور بين امرين في الثقافة :

اما الفراغ والتكرار ، لان ما نريد ان نحصل عليه قد حصل من قبل ، وانما نكسوه اليوم بلهجة جديدة من الديماغوجية التي تستعملها القمة الثقافية ازاء القاعدة الشعبية. واما الانحراف الذي نشاهده عند المثقفين من الشباب المسلوبين من شخصيتهم والمتشبعين بالهيجانات السلبية التي يعتقدونها ثقافة لانها تمكنهم من احتلال مناصب يحتقرون منها المجتمع ويتمردون عليهم ويبذرون تراثه السليم ، مع حرصهم على استعمال شعاراته التي يغالطونه بها .

* * *

قد يبدو في هذا الحكم ظل من القتامة القاسية عند ما ننظر الى وضعنا نحن المثقفين من الداخل ، ونقطع النظر عن علاقتنا بالمجتمع ، ولكن هذا الحكم سيبدو لنا صحيحا فاجعا في صحته عند ما نضع انفسنا داخل مجتمعنا ، وننظر الى وضعنا من هناك ، ونتساءل : أي شيء أتينا به لهذه الاغلبية الكادحة التي تعيش على هامش التاريخ من ابناء مجتمعنا في الميدان الثقافي ؟ وهل أدخلناها في الحساب يوما ، ونحن نعدد حاجياتنا الثقافية ومشكلاتنا الفكرية ؟

فلننظر مثلا الى ميدان اللغة : لنا ثلاث مجامع لغوية في الوطن العربي ، ما هي مهمتها ، لقد

لخصها الدكتور طه حسين أخيرا بان مهمة المجمع منذ اربعين سنة هي الاهتمام بالفصحى ، حيث انها لغة واحدة ، اما اللهجات المختلفة ـ حسب تعبيره ـ والعامية فهي ليست لغة ، وما يكتب بهذه اللغة لا يسمى أدبا ، ونحن لا نعترف باللغة العامية ، وليس ذلك بموجب قانون المجمع ، ولكن لاننا اساسا عرب » .

وأسارع هنا الى القول بأننا على اتفاق تام مع المجتمع فى أن اللهجات العامية ليست لغة أدب راق وان خالفنا بذلك رأى ابن خلدون ونزيد عليه أنها ليست لغة علم ، وأنها قوميا وسياسيا لا تصلح ان تكون أداة تعامل بين ابناء الامة العربية التى تنزع الى الوحدة فى جميع اشكالها ومستوياتها ، ولكن هناك واقع ـ كما يقول الاشرف ـ واقع مجتمعى يعيشه ابناء أمتنا فى هذا الميدان كما واقعهم فى ميدان الطب الاهلى ووسائل تجميلهم المحلية ، وفنونهم الجمالية ، فهل يشكل هذا الواقع تراثا يجب أن نعتنى به وندرسه ونعقله وننقله من مادة الواقع المعاشى الى العلم المدروس ، بواسطة التحليل والملاحظة ، والوصف والمسح فى مرحلة أولى ، ثم ننتقل الى مرحلة ثانية من الدراسة هى استثماره بشكل من الاستثمار نحقق به الانسجام بين أجزاء تراثنا ما كان منه عاميا وما كان خاصا ؟ أم نبقى هذا النشاز قائما فى مجتمعنا يفصل بين قطاعاته ويمزقها الى طبقات فى الحياة الثقافية تزيد من استفحال الطبقية المادية وتغذيها ؟ والى متى سيظل مجتمعنا مجتمعين فى حياته الثقافية واللغوية ، تعيش أكثريته فى العصر البدائى وأقليته فى العصر الذرى ؟

هذا هو السؤال المطروح امام المثقفين العرب وفى مقدمتهم القائمون بعلم الاجتماع ، وعلم اللغة ، وهذا على أية حال هو السؤال الذى نلح فى طرحه هنا فى الجزائر ، ونحاول توضيح معالمه ، قبل البحث له عن حل ، ولكن ما ينقصنا فيه هو وسائل البحث ، أعنى الوسائل البشرية فى الدرجة الاولى .

ان الدكتور طه حسين يشتكى من ان المجمع اللغوى يتعب نفسه بتعريب المصطلحات الحضارية والعلمية ، ثم لا ينفذ اى شىء مما يقوم به .

ونعود الى ما يؤاخذه الاشرف على المثقفين بالفرنسية فى الجزائر ممن يظنون ان مهمتهم العلمية تنحصر فى نقل المصطلحات الاجنبية وشرحها للطلاب ، غافلين عن اننا فى حاجة الى نقل الروح العلمية اكثر من حاجتنا الى نقل المصطلحات الجزئية ، ثم لماذا يمنع المجمع اللغوى نفسه من البحث فى وسائل تبليغ اللغة الفصحى الى المجتمع ، وسائل تنسجم مع روح العصر ، ونعنى بها تبسيط قواعد اللغة وتقريبها من تناول الجمهور ، ووسائل رفع لغة الجمهور حتى تلتقى لغته مع لغة الخاصة ، أو لغة الادب والعلم .

العجيب ان الدكتور طه حسين الذى كان فى وقت زعيم تعميم التعليم واجباريته فى مصر ، وكانت روحه الشعبية هذه مما خلد ذكره فى

الآفاق العربية كلها ، ينقلب اليوم الى شبه خصم لجمهور المجتمع العربى ويقول بالحرف : «لاأطلب من المجمع ان يكون له أى اتصال بالجمهور . . فالمجمع جهة معنية بالبحث العلمى فقط » كما لو كان البحث فى وسائل تحقيق الانسجام اللغوى بين أجزاء المجتمع الواحد ، ليس من البحث العلمى الذى يجب ان يهتم به المجمع

ان مثل هذا التزمت السهل الذى لا يكلفنا مشقة البحث هو الذى يولد الانفجارات المتطرفة السهلة هى ايضا ، وهو الذى دفع برجل مثل الدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « تجديد الفكر العربى » الى القول بان «الثورة الفكرية مستحيلة بغير معاودة النظر فى اللغة المستخدمة للعلاقة الوثيقة بين الفكر واللغة . . وان اللغة الفصحى فى تراثنا الادبى لم تكن أداة اتصال بمشكلات العالم الارضى ولا وسيلة للثقافة المتصلة بحياة الناس . . واننا عند ما ندخل فى عالم اللغة عندنا ، فانما ندخل عالما مسحورا لا عالما مألوفا» ، بل هو يتفق مع جاك بيرك فى كتابه «العرب» بان «اللغة العربية كما نراها فى التراث الادبى ، وكما لا تزال تستخدم عند كثيرين ممن يظنون انهم يكتبون ادبا ، توشك ان لا تنتمى الى دنيا الناس فلا تكاد ترى علاقة بينها وبين مجرى الحياة العملية ، ولذلك لم يجد المتكلمون بالعربية مفرا لهم من ان يخلقوا ـ الى جانب الفصحى ـ لغات عامية يباشرون بها شؤون حياتهم اليومية » ، ثم يعزز كل هذا بأدلة من نوع «انك عند ما تقرأ كتابا من / عيون تراثنا الادبى تجد نفسك فى احبولة عجيبة من الفاظ وتراكيب ، خيوطها سحرية تصرفك عما يرد من معنى ، لتعكف على النغم والجرس ، انك تقرأ سطرا كما تقرأ سطرين ، أو عشرين سطرا ، فاحساسك هو انك واقف مسمر القدمين فى مكان واحد ، لا تتقدم من فكرة الى فكرة ، انما هو دوران فى لا شيء ، فهو فى فراغ يملؤه بالزخارف ، لكنه ضرب من الكتابة لا يصلح أداة فى عصرنا تصل بين كاتب وقارىء فيما يراد عمله بالنسبة الى اوضاع الحياة اليومية الجارية . . واذا كان هناك ما نحمد الله عليه فهو «ان الناس فى حياتهم اليومية يعرفون كيف يتفاهمون بلغة دالة على واقع » .

نعم ان اصحاب هذه الاتهامات للغة العربية فى انفصالها عن المجتمع العربى ، او عن الاغلبية الساحقة منه (معدل ثمانين فى المائة من الاميين) وعن شؤون الحياة اليومية ـ لا يقدمون لنا بديلا ولا حلا ، وهم لا يجرؤون عن ان يقدموا لنا اللغات العامية كبديل لانهم يعرفون انها قد تصلح محليا لهذا القطر او ذاك من الاقطار العربية ، ولكنها لا تصلح للامة العربية بأجمعها، وهم يعرفون ان اللغة العربية مهما كان عجزها الحالى عن استيعاب المصطلحات العلمية ، فانها سترتقى برقى مجتمعها او جزء المثقفين منه لهذا الاستيعاب ، ولكن ما يبقى مشكلا ، وما يوشك ان يضل مشكلا دهرا آخر طويلا ، لانه بقى قائما منذ حوالى أربعة عشر قرنا ، وما يريد نحن اليوم ان نطرحه فى هذا المجمع ، فهو وجود

لغتين للمجتمع الواحد ، لغة للخاصة يتفاهمـون بها ، فى جميع انحاء القطر العربى ، كما نفعل نحن اليوم ، ولغة أخرى تفصل بين كل فئـة مثقفة فى كل قطر ، وبين جمهورها فى القطـر نفسه ، كما تفصل بين الجماهير العـربية فى مختلف اقطارها ، ونحن نعلم ان هذا الفصـل والتمزق لا يقتصر على اللغة او مخارج حروفها ، وانما يستتبع فصلا اعمق يتناول العاطفـة والشعور والفكر والنظرة الى الحياة ، وما ندعو اليه هو القضاء على هذه الفواصل بالقضاء عـلى الفواصل اللغـوية .

نعم ان لغة الصحافة اليوم ربما حققت شوطا فى هذا الغرض ، وان بقى من بين فصحائنا من يتعالى عن استعمال لغة الصحافة استكبارا اجوف ولكن ألا يكون من العجيب ان تترك امرا خطيرا كهذا لا يبحثه علماء الاجتماع ، ولا علماء اللغة ، ولا علماء المجامع اللغوية ، ويبقى لمبـادرات الصحفيين وهم ما هم عليه من ضعف المستـوى فى المواد العلمية وفى المادة اللغوية ، وفى معرفة مشكلات المجتمع جميعا معرفة معمقة ؟

ان الدكتور طه حسين يؤاخذ الحكومـات العربية على انها لم تحمل الناس على استعمـال المفردات التى يخرجها المجمع اللغوى من مصنعه الضخم ، وهذه المؤاخذة تكون فى محلها لـو كانت الحكومات العربية مثل الحكومات فى العالم الاشتراكى تاخذ كل شىء بيدها وتحمل عليـه الناس حملا شاؤوا ام كرهوا:فهى تنظم الاقتصاد وتحدد الاسعار وتضبط العمل وكيفية الانتخابات ومقدار الملكية ، وتوجه الكتاب والمؤلفين وتسيطر على الفن واللغة والدين والاخلاق وتقوم بالثروات الثقافية . . الخ .

أما الحكومات التى ليس هذا منهجها العـام ، بل هى تترك الحرية للناس فى كل شىء وتطالبها بأن تضغط عليهم فى استعمال مفردات المجمـع اللغوى وحدها ، فهذا ضرب من الثورة لـم يخلق بعـد .

اننا بوصفنا علماء اجتماع ليس من شأننـا ولا من اختصاصنا أن نتولى نحن تبسيط قواعد اللغة وحذف ما فيها من حشو ، وابتكار أساليب جديدة فى تعلمها وكتابتها ، ولكن من شأننا ومن اختصاصنا أن نطالب علماء اللغة بأن يحولـوا بعض جهدهم الى هذه الناحية من بحوثهم اللغوية لاننا أعرف من غيرنا بأن اللغة هى الممر الرئيسى الذى ينتقل منه مجتمعنا من التخلف الى التقدم ، ومن القعود الى النهوض ، ان أى عامـل اليوم ، وأى فلاح لا يستطيع أن يساهم فى نهضة أمتـه ولا فى اعالة ذريته اذا لم يكن له نصيب أدنى من المعرفة العلمية بعمله ، والمعرفة العلمية تتطلب لغة علمية من ناحية ولغة مبسطة مطواعة سريعة فى متناول أكثرية الناس من ناحية أخرى ، نحن نطالب بوصفنا اجتماعيين ، أن تكون لمجتمعنـا لغة واحدة لا لغتان ، وأن بقاء اللغة على ما هى عليه وعلى ما ظلت منذ قرون الى اليوم سيدفـع مجتمعنا ، ولعله فعل بعد ، الى تبنى لغة لا هى عامية ولا فصحى ولا قومية اطلاقـا ، وانما هى خليط من مفردات عربية واخرى انكليزية وبعضها

ايطالى والآخر يونانى أو روسى ، مع قبول ما ينشأ عن ذلك من قضاء على وحدة المجتمع بل ووحدة الامة أيضا .

ونحن بوصفنا علماء اجتماع نستطيع أن نخطط ما نشأ فى الاقتصاد والزراعة والعمل والتجارة ، ولكن الاقتصاد يبقى قبل كل شيء سلوكا انسانيا تشكله الثقافة والمستوى الحضارى والثقافة والمستوى الحضارى والتمكن من الروح العلمى ، تزدهر كلها فى المجتمع أو تنكمش بما تكون عليه لغته من ازدهار أو انكماش ، لقد صدق « مونتى » فى قوله :

« ان اللسان هو الذى يعرف به الطبيب أمراض الجسم ، والفيلسوف أمراض النفس » .

خطوات في
طريقة تعريب التعليم في الجزائر

د. عبدالملك مرتاض
كلية الآداب
جامعة وهران

1

لقد تحدثنا في مقالات نشرناها ببعض الصحف والمجلات الجزائرية عن التعريب ، طوال السنوات العشر الماضية ، كما تحدث غيرنا عن هذا الموضوع نفسه بكثرة دعت اليها اهمية القضية ، وشرفها ، وصلتها بالشخصية الوطنية ، وارتباطها بمصير الامة الجزائرية• فهل لنا ان نؤكد مرة اخرى بان التعريب ما كان يوما قط قضية خبز ، او قضية الحصول على وظيفة سامية او ممتازة ، وانما التعريب قضية شرف وطني ، واصالة جزائرية ، وتصحيح فكري في اتجاهنا الثقافي الذي آن له ان يتحدد بدقة ، فنعرف معالمه ، ونبصر مسالكه •

فأمة بدون لغة وطنية أمة بدون شخصية • وكل أمة لا شخصية لها ، لا قيمة لها في التاريخ •

2

نحن لا نتجاهل الظروف التاريخية والسياسية القاسية التي تسلطت على الشعب الجزائري فارغمته على تعلم لغة لا علاقة لها بماضيه ولا بحضارته ولا بدينه ، ولا بجنسه العربي الاصيل •

كذلك نحن لا نتجاهل ما خلفت هذه الظروف من آثار ، ظلت قائمة بعد الاستقلال ، بل ربما اشتد سلطانها بعد الحصول على الاستقلال السياسي لاسباب بيناها في غير هذا الفصل •

ولكن ذلك كله ما كان ليحول بين الشعب الجزائري واسترجاع شخصيته الوطنية استرجاعا كاملا ، فيتخلص ، في تعليمه ، من هذه الازدواجية المقوتة التي تجعل ابناءنا وشبابنا لا هم عرب فيتحدثوا عربية ، ولا هم فرنسيس فيتحدثوا فرنسية ! ولظروف وأسباب شرحناها في غير هذا الموطن ، تسيطر الفرنسية على العربية فاذا وجود العربية لا يعدو ان يكون شكليا ليس غير •

ولما كان التعريب قضية ذات صلة شديدة بالتعليم ، فانه لا يتم الا بتعريب التعليم • فليس من الخير ولا السداد ان نتحدث عن التعريب اذن، حيث يجب ان نتحدث عن التعليم •

ما شأنه ؟ وما تم فيه من تعريب ؟ وما هي المواد التي بادر المسؤولون بتعريبها والتخلص من رطانة لغتها الى الابد ، ان شاء الله ؟

ذلك بعض ما سنحاول الاجابة عنه في هذا الحديث العابر . وليكن حديثنا هذا منقسما الى ثلاثة أقسام ، كل قسم يمثل مرحلة من مراحل التعليم الثلاث •

1) التعريب في التعليم الابتدائي :

3

جاء في الأثر الشريف الصحيح : (يولد المرء على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) •

يدل هذا الحديث الشريف على ان الاسلام قدر التربية حق قدرها ، واعطى للتعليم الديني ، والتوجيه المبكر ، كل عناية فالابن قطعة من العجين اللين الطيع ، وانما ابواه هما اللذان يستطيعان ان يتخذا من هذا العجين ما شاءا : اما مجرما فاسقا ، او مؤمنا مسالما ، او عربيا صريحا ، او فرنسيا قحا ، وهلم جرا • هذا كله من حيث اللغة • اما من حيث الدين فحدث ولا حرج ، لان التوجيه المبكر في تربية الطفولة يكون له أثره الذي لا ينكر •

فماذا صنعت الحكومة الجزائرية لانقاذ الطفولة الجزائرية من التغريب (بالغين المعجمة) والرطانة والانحلال؟ لقد صنعت كل خير ، وبذلت كل جهد• ونحن نقول هذا لا لحاجة في نفسنا نريد قضاءها ولا رغبة منا في كيل الكلمات الغزلية للمسؤولين عن التعليم الابتدائي • وانما نقوله لايماننا به ، ولاننا نراه حقا فقلناه •

لقد أقدمت وزارة التعليم الابتدائى على تعريب معظم المواد الدراسية فى هـــذه المرحلة • فاذا العربية تغزو المواد واحدة فتحتلها، لتطرد عنها الفرنسية التى ضايقتها ظلما وعدوانا فى عقر دارها • فاذا هى تغزو التاريخ فتخلصه من لغة السين ، وذلك منذ السنوات الاولى من الاستقلال ثم لم ترض بذلك حتى غزت الجغرافية فانقذتها من غربة اللغة ورطانتها • ثم ما لبثت ان امتـد طموحها المشروع الى مادة العلوم فنفضت عنها غبار العجمة ، وشر الرطانة فاذا هذه المادة العلمية تدرس لاطفالنا فى المدرسة الابتدائية بلغتهـــم الوطنية • ومثل ذلك يقال فى مادة الحساب •

4

وهكذا تتقـدم اول دفعة من الاطفال معـربة منذ المرحلة الابتدائية فى يونيو المقبل ، الى امتحان الدخول الى الثانوى • فى حين كان التلاميذ يتبعون طرقا ملتوية ، ويسلكون سبلا غريبة معقدة من أجل الاعتزاء الى التعليم الثانوى المعرب ، • لـم تعد هذه المشكلة قائمة ، فيما يبدو ، انطـلاقا من السنة الدراسية الحالية ، لاكتساح التعريب جميع مواد التعليم الابتدائى الى السنة الخامســة منـــه •

ولم يبق للفرنسية من سلطان فى التعليـــم الابتدائى على فلذات اكبادنا الا من حيث انهـــا مادة لغوية تدرس لذاتها المحضة • فقد مضى ذلك الزمن الذى كانت تدرس فيه العربية لذاتهـــا ، والفرنسية الغريبة تدرس لذاتها ثم تدرس مـــع المواد المفرنسة الاخرى • ان ذلك الاثم قد تطهر منه التعليم الابتدائى فى الجزائر ، وان تلك المحنة التى كانت اصابت العربية فى هذه الديار قـد نجت اليوم منها •

واذن فاننا نستطيع ان نقول ، بان التعريب فى التعليم الابتدائى لم يعد مشكلة قائمة ، ولا معضلة من المعضلات التى لا حل لها • وهكـذا يتعرب تعليمنا الابتدائى فى ظرف عشر سنوات فقـــط •

ويعتبر هذا الصنيع نصرا مبينا للتربية السليمة المثالية فى الجزائر اذ أمكن الآن توجيه الناشئـة توجيها عربيا اسلاميا خاليا من تلك العقد النفسية التى تتكون فى انفسهم من فعل تلقى دروس مختلفة لغاتها ، تبعا لاختلاف معلميها • كل يكون حسب هواه ، وكل يزرع فى نفس الطفل البريئة الوانا من المزروعات التى لا يمضى زمن عليها ، حتى تنبت الوانا من المشاكل النفسية التى لا تلبث ان تتولد عنها مشاكل اجتماعية فيقـــع الانحراف ، ويتخبط ، شبابنا فى الضلال ، فلا يدرون أى طريق يتبعون ، ولا أى اتجاه يسلكون•

2) التعريب فى التعليم الثانوى :

5

لقد امتد سلطان العربية الى التعليم الثانوى ، تبعا لامتداده الى التعليم الابتدائى ، واستطـاع هذا السلطان ان يشمـل كثيرا من المـواد ذات الصبغة الوطنية أو التاريخية أو الانسانيـــة المحضـــة •

وقبل ان يمتد سلطان العربية الى بعض المواد ليشملها بالتدريس كالتاريخ والجغرافية ، ابتدأ بتضخيم حجم الحصص الخاصة بتدريس اللغة لذاتها فبعد ان كانت العربية فى سنة 1962 لغة أجنبية غريبة لا مكانة لها بجانب الفرنسية ، تغير الوضع منذ أكتوبر من تلك السنة نفسها ، فاذا العربية فى الجزائر (حرة ليس لها ضرة) على حد تعبير الابراهيمى رحمه الله ، واذا عدد الساعات التى تدرس فى السنتين الاوليتين من التعليم الثانوى لا يقل عن تسع ساعات فى الاسبوع بالرغم من ان هذا العدد يتخفض الى ان يصبح أربعا فقط فى الفروع العلمية ٠

6

ويبدو ان أول ما عرب من مواد التعليم الثانوى فى الجزائر بعد تضخيم حجم الساعات الخاصة باللغة العربية فى حد ذاتها ، دروس التربية الوطنية والدينية ٠ وبالرغم من ان هذه المادة لم يخصص لها أكثر من حصة واحدة فى الاسبوع فانها كانت تحولا ميمونا فى مسيرة التعريب فى التعليم الثانوى ٠

ولكن ما لبث المسؤولون ان عربوا مادة التاريخ٠وقد كان يجب ان تعرب هذه المادة فى السنة الاولى من الاستقلال،لانها مادة يتصل موضوعها بتراثنا الحضارى والثقافى ، ويتصل بماضينا السياسى ، بما فيه من مقاومة وكفاح ، وبما فيه من بطولات وامجاد ٠ فكان من الخطأ ترك هذه المادة لمدرسين كانوا يحاربوننا بالامس القريب ٠ وان الزمن لا يمحو الاحقاد كلها،وان من الحكمة الحذر فى ايداع اطفالنا لدى اساتذة لايعرفون من التاريخ الجزائرى أو الاسلامى شيئا ذا بال ٠

وقد كانت كتابات ظهرت منذ بدء عهد الاستقلال تطالب بتعريب هذه المادة ، لانها تنضاف الى التربية الدينية واللغة العربية باعتبار مالها من تأثير فى تكوين عقلية اطفالنا وناشئتنا ٠

7

من أجل ذلك كله الفينا المسؤولين عن التعليم الثانوى يسارعون الى تعريب هذه المادة بعد سنتين أو ثلاث فقط من التردد والاحجام ٠ ونحن حين نرى ما نرى حول تعريب هذه المادة ، لاتعصبا على هذه الفرنسية التى ابتلى الجزائريون بها ابتلاء عظيما ، وانما حبا فى تقرير مبدا تربوى مفيد للناشئة ٠ ذلك بان التاريخ ينصب فى الابتدائى والثانوى الاول على أهم المواقف العظيمة للامة ، ويبرز النواحى الذهبية فى الصفحات التى كتبها الاجداد للاحفاد ٠ فاذا أسندت هذه المادة الى أجنبى من حيث لغته ومن حيث دينه ، ومن حيث عقيدته السياسية أيضا ، أضل أطفالنا وجعلهم يتيهون فى بيداء ليس لها من مخرج ٠

ان تكون الشخصية لدى الطفل يبتدىء من أيامه الاولى الى نهاية الشباب المبكر ، وهذه هى المرحلة التى يكون فيها دور المدرسة مفيدا له ، ان كان فى هذه المدرسة ما يفيد ، ويكون دورها سيئا فى تكوينه اذا أودعته أجانب يعبثون بعقليته عبثا ٠

واذن فقد عربت مادة التاريخ ، واحسن المسؤولون بذلك صنعا ·

8

وحين عرب التاريخ أيقنا بان الجغرافية فى طريقها الى التعريب لانها جزء من التاريخ ، بل هى أصله ومضطربه · فالتاريخ زمان · والزمان احداث · والاحداث لا يمكن ان تضطرب فى غير مكان ، بل لا بد لها من مكان معلوم · وهذا المكان المعلوم هو الجغرافية بما فيها من طبيعة الارض ، وثروات البلاد ، واصل السكان ·

ثم انها ليست من العلمانية بحيث يكلف تعريبها تضحية ما ، أو مشكلة ما · ان تعريبها كتعريب التاريخ لا اكثر ولا اقل · كل ما فى الامر القاء الدروس بالعربية بدل هذه الفرنسية التى اصابنا منها فى الجزائر ما أصابنا ·

لا سيما اذا علمنا بأن هذه المادة قد عربت فى المشرق العربى من زمان طويل ، حيث مهد الجغرافيون العرب المعاصرون كل الصعوبات الكبرى المتصلة بالمصطلحات التى هى ظاهرة كل علم . وقاموس كل فن · فما بقى نحن امامنا شيء ، غير الشجاعة فى نبذ الفرنسية والاقبال على العربية لوضع الثقة فيها للقيام بهذه المادة أثناء التدريس ·

9

ثم ان الجزائريين انفسهم كانوا قد عربوا هذه المادة فى المدارس الوطنية منذ عقود طويلة · فقد كانت الجغرافية تدرس فى مدارس جمعية العلماء ، ومدارس حزب الشعب باللغة العربية ، ولم يكن يومئذ احد يزعم أو يفكر فى الزعم بأن العربية ليست قادرة على تدريس الجغرافية وقد كانت هذه المادة معربة ، ومعها التاريخ طبعا ، فى معهد ابن باديس بقسنطينة · وكانت تدرس بالخرائط والطرق العلمية المبسطة ·

فنحن اليوم ، فى الحقيقة ، حين نعرب هذه المادة لا نكون قد صنعنا شيئا مثيرا يستحق الاهتمام ، لان هذه المادة – وكل ما عربناه حتى الآن فى التعليم الثانوى – كان معربا منذ اكثر من عشرين سنة فى معهد ابن باديس · ان الجزائر على الصعيد الشعبى ، كانت معربة حتى قبل الاستقلال ، من حيث تسجيل المواليد والوفيات ومن حيث عقود البيع والشراء · ولكن الاغرب فى الامر ان بلدياتنا ، الى اليوم – فيما نعلم – لم تعرب الحالة المدنية ، فياليت شعرى ما هى الصعوبات التى تحول دون تحقيق هذه الغاية التى بدون تحقيقها ، وتوظيف شبان متعربين فى مصالحها ، ستظل أسماؤنا واسماء آبائنا وأبنائنا وبناتنا مكتوبة بهذه الحروف اللاتينية التى لا تؤدىء مخارج الحروف العربية فاذا محمد « مهمد » ،واذا على « ألى » ، واذا خالد « كالد » واذا رحيق ، « رحيك » ، وأحلام « أهلام » ·· ان الابقاء على هذه الظاهرة وحدها سيعجم ابناءنا ، ويرطن السنتهم ويجعلهم فى تضايق نفسى شديد للتوفيق بين الامرين فى اللغتين العربية والفرنسية · ولذلك لا نزال نسمع اطفالنا وشبابنا ايضا وهم يتنادون بهذه الاسماء

المرطنة المهجنة المعقنة ، لان الاطفال يسمعون من الشباب،والشباب يسمعون من الشيوخ وهم جميعا يقراونها فى السجلات الرسمية فى البلديات مهجنة معجنة ، فيرطنون ٠

10

ويأتى أمر الفلسفة ، بعد التربية الدينية ، والتاريخ والجغرافية وقد صارع أصحاب الفرنسية صراعا مستميتا من أجل الابقاء على فرنسة هذه المادة ، وقد وفقوا توفيقا كبيرا حين ظلت تدرس بالفرنسية فقط،ثم بالعربية والفرنسية،على ان يكون الامتحان بالفرنسية فقط ، ثم للاقسام المعربة بالعربية ، وبالفرنسية للاقسام المزدوجة اللغة ٠

لقد امتحنت الفلسفة امتحانا شديدا فى مدارسنا الثانوية حتى كدنا نيأس من تعريبها ، ولا سيما بعد ان عربنا هذه المادة فى الجامعة تعريبا نهائيا ٠ ومع ذلك لم تظفر العربية بالنصر الا منذ نحو سنة حين اصبحت الفلسفة معربة لا دخل لضرتها الفرنسية فى امرها ٠ تدرس بالعربية ويكون الامتحان فيها بالعربية ولا خيار للطلاب فى ذلك ، بل هم مجبرون على دراستها والامتحان فيها باللغة الوطنية ٠ وبذلك قضى على عجمة أخرى طالما هدمت عقائد شبابنا ، وأغرتهم بالكفر فكفروا ، وأوحت اليهم بكثير من الشرور فاضطربوا فيها ٠

11

وبتعريب الفلسفة لم يبق من المواد المفرنسة الرئيسية غير المواد العلمية البحتة ، كالعلوم الطبيعية ، والفيزياء والكمياء والرياضيات ٠

ونحن نتساءل ما يمنعنا الآن من تعريب الرياضيات وقد وصلنا الى هذه المرحلة من التعريب لا شيء فان المتخرجين من كليات العلوم أصبحوا يسلمون بالعربية فى الجامعات الوطنية ، وهم لا يعدمون قدرة ما على تدريس هذه المادة بالعربية فى كثير منهم ٠ هذا الى أننا نستعين بالمدرسين الاجانب لهذه المادة ، فلم لا نستعين بالمصريين او السوريين وهم اخوان لنا ؟ ومثل ذلك يقال فى بقية المواد العلمية التى آن لها ان تعرب ، لا سيما بعد ان عربت فروع كلية العلوم ببعض الجامعات الجزائرية ٠ فأين سيوظف المتخرجون المعربون من هذه الكليات ؟ ولم لا نفكر من الآن فى وضع مخطط شامل للتعريب بالمدارس الثانوية ٠

ربما كانت وزارة التعليم الابتدائى والثانوى قد فكرت فعلا فى هذا المخطط بل ربما كانت قد وضعته فعلا ٠ فعسى ان يكون الظن حقيقة والاعتقاد يقينا ٠

فان شخصيتنا ، وشخصية شبابنا ستكون ممزقة منحلة ما لم يتلقوا تعليما معربا يوحى لهم بأنهم عرب مسلمون ، وانهم جزائريون قبل كل ذلك ٠

12

هذا الشان فى التعليم الثانوى العام ، أما التعليم الثانوى التقنى فقد استطاعت العربية فى الجزائر ان تغزو بعض مواده فتزيح عنها الفرنسية الى الابد ٠

ففى التكميليات التقنية نجدقسم «السكريتارية» قد عربت مواده كلها ، بما فيهـا الاختزال ، والمحاسبة، والتجارة والمكتب التجارى، والمراسلة التجارية والقانون • واصبح هذا القسم يتالف من ثلاث سنوات ، يسلم الى الطالب الناجح على اثرها شهادة الكفاءة المهنية فى هذا القسم الفنى• وستتخرج الدفعة الاولى من حاملى هذه الشهادة باللغة العربية ، لاول مرة فى تاريخ الجزائر،لدى نهاية السنة الدراسية الراهنة •

13

على ان المسؤولين غيروا الاتجاه ، ولكـن فى صالح التعريب بحيث تصبح الدراسة التقنية فى التكميليات أربع سنوات عوضا عن ثلاث ، يتقدم الطالب على اثرها الى امتحان لنيل شهادة تسمى شهادة التعليم المتوسط التقنى • ومما يدرس الطلاب فى هذا التوجيه التربوى الجديد الـذى ابتدأ منذ هذه السنة الدراسيـة ، الاقتصاد ، والمحاسبة ، و « تقنية التسيير » •

14

وهناك ثانويات كثيرة معربة ، يتلقى فيهـا التلاميذ جميع المواد باللغة العربية ، ولا يدرسون الفرنسية او الانجليزية او غيـرهما الا لـذات اللغـة •

وهذه الثانويات فى حقيقة الامر قد غيرتمجرى التعليم فى الجزائر،وصححت الشخصية الجزائرية تصحيحا سليما ، فهى التى أصبحت تمد بواسطة المتخرجين فيها ، معاهد ترشيح المعلمين المعربة ، والجامعات • وكانت هذه الثانويات تجد صعوبة فى الحصول على تلاميذها الذين يلتحقون بها كل سنة ، حيث ان التعليم الابتدائى لم يكن معربـا بنسبة تامة ، والآن وقد عرب هذا التعليم ، فان هذه الثانويات ستجد لها تلامذة عاديـين درسوا العربية وسائـر المواد الاخـرى فى المدارس الابتدائية بصورة منتظمة ، وتعلموا على أسس تربوية ممتازة تؤهلهم لانيجعلوا منهذه الثانويات المعربة خلية قوية ينطلق منها جنود التعريب •

15

ونعرج على تعليم آخر ثانوى ، فنجده معربا بنسبة تامة أيضا منذ أسس فى مطلع عهـد الاستقلال • وهذا التعليم هو الخاص بالمعـاهد الدينية التابع لوزارة التعليم الاصلى والشـؤون الدينية • ان التعليم الاصلى الذى يعتبر بمثابة المكيف العقلى أو المنظم الآلى للاتجاه التربـوى والفكرى فى البلاد • لان التلاميذ الذين ينتمون الى هذه المعاهد يتقنون اللغة العربية اتقانا جيدا• وهذه الصفة تتيح لهم ان يكونوا عناصر حيـة للدفاع عنالعربية لا بالكلام عنها ، ولكن بالعمل بها • اذ يدرسون كل شيء بالعربية ، لان هـذه الوزارة هى الوحيدة المعربة فى الجزائر تعريبـا تاما • ثم تاتى بعدها ، من غير ترتيب ، وزارة الدفاع ، ووزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، ووزارة العدل ، ووزارة التعليم العالى والبحث العلمى •

غير ان التعليم الاصلي سيكون محدود الفائدة ، ضعيف التأثير ، اذا اقتصر فيه على المرحلة الثانوية وحدها ، فان المفروض في حاملي البكالوريا الاصلية ، ان يلتحقوا بجامعة اسلامية تدرس الديانة الاسلامية وفكرها وحضارتها على مستوى اكاديمي عال ، فيصبح لنا علماء دين باحثون منتجون واعون ، فقد لاحظنا فراغا شديدا في المؤتمر الاسلامي السابع الذي انعقد بتيزي وزو أثناء الصيف الماضي ، فلم نشعر في ذلك المؤتمر بأن الجزائر لها اطار ديني قوي يجادل في القضايا الدينية ، ويقرع الحجة بالحجة ، ويرد القول بالقول ويقيس الفروع على الاصول ، ويستمد من الحكم الاصلي احكاما فرعية • أو بعبارة فقهية جامعة : بان الجزائر ليس لها مجتهدين في الدين •

ونحن نقدر لو اسست كليات لدراسة الشريعة الاسلامية وأصولها في الجزائر ، لكان لنا في بحر عشر سنوات جيش من الباحثين والوعاظ والخطباء المختصين في الدين فعسى ان يتم فتح هذه الجامعة للتعليم الاصلي ، قريبا • فان فتحها سيغلق كثيرا من النوافذ والابواب التي يتسرب الى فكرنا وحضارتنا وشخصيتنا منها الاذى والشر والسم والريب •

3) التعليم العالي :

16

ان مرحلة التعليم العالي تعتبر استمرارا لمرحلة التعليم الثانوي ، كما ان التعليم الثانوي في حد ذاته يعتبر امتدادا للتعليم الابتدائي • فهي متكاملة متشابكة ، كل منها يمد الآخر ، ويتوقف عليه في حياته وازدهاره • فلا ثانويات بدون مدارس ابتدائية • ولا جامعات بدون ثانويات وكل هذه بديهيات •

ولكن مما يلاحظ في التعليم العالي ، رغم توقفه على الثانوي لانه امتداد له ، فان الجامعات الجزائرية لم تنتظر حتى يتعرب كل شيء في الثانوي لتتعرب هي ، بل بادرت الى تعريب بعض الفروع العلمية قبل ان تتعرب في الثانويات نفسها • ومن ذلك الفلسفة التي تعربت منذ بداية عهد الاستقلال ، وكذلك التاريخ والجغرافية غير ان المتفرنسين كانوا يدعون الى شيء من التوءدة واللين في مسيرة التعريب ، حتى لا يقع اي اضطراب • ومما ظل قائما بعض الزمن ، بفعل تأثيراتهم وتشكيكاتهم ، وجود فرعين في التاريخ فرع معرب ، وفرع مفرنس ولم تتخلص الجامعة الجزائرية من هذا الشر الا منذ السنة الماضية حيث قضت ، فيما نعلم ، على فرنسة التاريخ •

17

غير ان هذه الظاهرة ظلت قائمة الى اليوم في جامعتنا ، حيث نجد مظاهر ناشزة غريبة نابية يملؤها التناقض الشديد ، في دوائر العلوم الاجتماعية • وتتمثل هذه المظاهر في احداث فرعين اثنين في فرعي علم النفس ، وعلم الاجتماع فاذا علم الاجتماع له فرعان : أحدهما تدرس فيه المادة بالعربية ، وأحدهما الثاني تدرس فيه بالفرنسية • ومثل ذلك يقال في فرع علم النفس•

مع ان الطلاب آتون من مدارس متشابهة جدا فى المواد الدراسية والسياسة التربوية . فلم ابقاء هذه الفرنسية بجانب العربية ؟

فما بال هذه الضرة تصاحبها فى كل محفل ، وتصارعها فى كل ماقط ؟ فاما ان تعرب المادة ، واما ان لا تعرب . ولا حالة بعد ذلك . وانا لا ندرى كيف تعرب الفلسفة والتاريخ تعريبا تاما ، ولا يستفيد علم النفس وعلم الاجتماع من هذا القرار الثورى العظيم .

18

اننا نطالب المسؤولين بتعريب هذين الفرعين تعريبا نهائيا كما وقع بالنسبة للتاريخ والفلسفة . لان علم الاجتماع أصبح يقوم على الدراسة الميدانية، والامتزاج بالاوساط الشعبية، والاتصال بالسكان فى القرى النائية والارياف البعيدة ، فمن الحق ، والحال هذه ، ان تعرب حتى لا يخاطب الطلاب الشعب بهذه الفرنسية التى أنى لها ان تنجزر انجزارا ، ويتقلص ظلها فينحصر ، موقتا فى المواد ذات الصبغة العلمية المعقدة كالطب مثلا .

19

أما دوائر اللغة العربية وثقافتها فى الجامعات الجزائرية ، فهى معربة طبعا ، بل منها يشع التعريب ، وفيها يقوى لينطلق مفيضا نوره على الدوائر والكليات الاخرى . فقد ذهب ذلك الزمن المظلم الذى كان المستشرقون فى جامعة الجزائر يدرسون فيه الادب العربى بواسطة اللغة الفرنسية وكيف يقبل عقل ان تدرس العربية بالفرنسية فى الجزائر ؟ وكيف يحق للغة ان تزدهر وتحيا على حساب لغة أخرى فى وطنها وبين أهليها ؟ ان الجواب عن هذا نعرفه ، ولكنا لا نخوض فيه . لان الله قد أذهب عن الجزائر ذلك الكابوس الرهيب الذى تسميه اللغة بالاستعمار .

غير اننى اعتقد ان دوائر اللغة العربية تلقى بعض التضييق المتعمد أو العفوى ، فى أداء مهمتها التعريبية . فان بعض الكليات ربما صعرت خدها واشمخرت بانفسها ، حين يقال لها : يجب على الطلاب المنتمين اليك أن يدرسوا العربية لانها أصبحت مقياسا واجبا على كل من يدرس باللغة الاجنبية . بل منهم من يتحمس فى الدفاع عن «مصالح» الطلبة فيزعم قائلا : كيف يعقل أيها الناس ، ان تضطرب دراسة طالب ممتاز فى الحقوق او العلوم او الطب بسبب هذا الشىء الذى تسمونه « عربية » ؟

ورغم النصوص القانونية الصارمة التى تحتم على كل طالب يتابع دراسته بلغة أجنبية ، ان يتلقى مقاييس محددة ، بالقوانين والقرارات ، فى تعلم العربية فانى أخشى ان كليات معينة لا تحترم هذه القرارات احتراما تاما فتتخذ من الحبة قبة ، ومن السبب البسيط نتيجة ضخمة ومن مشكلة التوقيت والقاعات عقبة كأداء لا يصعدها أحد !

20

غير ان هناك دوائر بالجامعات أصبحت ترحب بتدريس « مقاييس » اللغة العربية . بحيث تقوم

بجميع التسهيلات والمساعدات الممكنة لانجاح عملية التعريب • وأمثل لذلك ، بالنسبة لجامعة وهران ، بدائرة اللغات الاجنبية التى تعتبر اكثر الدوائر تحمسا للتعريب ، حتى ان رئيسها كان قد كتب جميع اللافتات التى تكتب على الابواب لتحديد وظيفة المكاتب ، باللغة العربية وحدها •

ومن الانتصارات التى حققها التعريب ، ما يتجلى فى اجبار كل طالب متخرج فى الجامعة بالفرنسية ان يؤدى امتحانا فى اللغة العربية • ولا تسلم له الاجازة الا اذا نجح فى هذا الامتحان غير اننى أخشى ان تكون بعض الكليات المعينة تجاهلت هذا القرار الثورى الكبير ، لتستمر فى استخفافها بالعربية وأصحابها •

21

فاذا ذهبنا الى كلية العلوم بجامعة الجزائر بالذات الفينا فيها قسما معربا • وهذه النتيجة التعريبية لم تحققها بعض الدول العربية رغم نيلها الاستقلال قبلنا •

أما فى كلية الحقوق فقد تعرب فيها فرع العلوم القانونية ولم يبق الآن الا فرع العلوم الاقتصادية الذى نود ان يشمله التعريب ايضا •

غير ان ما كنا لاحظناه فى علم النفس وعلم الاجتماع ، فان العلوم القانونية تدرس باللغتين معا • ونحن نرى ان ترك الفرنسية بجانب العربية يعتبر لونا من التشويش الفكرى ، أو ضربا من التلاعب بالقيم • فانا لا أفهم التعريب الا على انه ازاحة لفرنسية ، واحلال لعربية • فاذا ظلت الفرنسية وادعة مطمئنة ، وقائمة مستقرة ، فما قيمة العربية ؟ ان التعريب سيادة وطنية، وشعور شعبى ومبدأ أساسى فى تحديد معالم الشخصية الجزائرية ، وتطهيرها من الاوضار التى اصابتها من فعل هذه العجمة الغربية • ان التعريب ليس أمرا شكليا ، بحيث يدرس الناس العلوم القانونية بالفرنسية ان شاءوا ، وبالعربية ان شاءوا ايضا فان فى حرية هذه المشيئة كثيرا من الاثم الوطنى•

فاما ان نعرب ، واذن فلنمط هذه الفرنسية من الطريق ، واما ان نترك دار لقمان على حالها ، وهنالك فلتتربع هذه الفرنسية على أرضنا الى أجل معلوم • غير اننا لا نرضى ان تستمر فى تربعها سيدة مختالة متجبرة ، يملؤها البطر والغرور ، ويفعمها التعالى والازدراء ، على اللغة العربية صاحبة الدار •

22

نستخلص مما سبق ، أن الجامعات الجزائرية بذلت جهدا مشكورا فى مجال التعريب ، وانه بالنية الحسنة ، والارادة الطيبة فى التغيير والتصحيح ، سيكون للعربية شأن عظيم فيها ، فى العشر السنوات المقبلة ، بعد ان تم فى العشر السنوات الماضية تعريب العلوم القانونية ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع والفلسفة ، كما تم تعريب قسم خاص فى كلية العلوم بالجزائر العاصمة • بالاضافة الى فرض تعلم اللغة العربية ودراسة المصطلحات العلمية بها ، على كل الطلاب الذين يدرسون باللغات الاجنبية فى جامعتنا •

ينضاف الى كل ذلك فرض امتحان خاص فى اللغة العربية ، بالنسبة للطلاب الذين كانوا خاضعين للنظام القديم ، على كل من تخرج فى الجامعة ، وكان يدرس بلغة أجنبية ٠

أما التعريب فى المدارس الابتدائية فقد رأينا انه بخير كثير ، فى حين أنه أقل خيرا وسعادة فى التعليم الثانوى الذى لا يزال يدرس المواد العلمية كلها بالفرنسية ٠ ولكن لا يعنى ان هذه المواد لن تعرب ، فان الجزائر العظيمة التى صححت شخصيتها العربية فى بضع سنوات ، كفيلة بأن تحقق المعجزات فى مجال التعريب ، كما حققتها فى مجال التنمية والاقتصاد ٠

تجربتان فى التعريب

اسماعيل العربي
كاتب جزائري

بدات حركة النقل والتعريب منذ العصور الاسلامية الاولى ، تحت تاثير عدد من العوامل ٠ فبعد ما استولى العرب فى موجة الفتوحات الاولى على البلدان التى كانت خاضعة لنفوذ الفرس وبيزنطة الثقافى ، فى سورية والعراق وايران ومصر والمغرب ، حيث وجدوا حضارات عريقة وعمرانا مزدهرا ، تولدت عن الاحتكاك بهذه الامم حاجة للتعريب على شعوبها ولتفهم انظمتها الاجتماعية والاقتصادية ٠ وفى نفس الوقت ، اقتضى اتساع رقعة العالم الاسلامى ، معرفة العرب بالطرق التجارية والاقاليم والانتاج ، وغير ذلك مما يدخل فى علم الجغرافيا ٠ ثم ان القرآن الكريم الذى يحث على التفكير فى ملكوت السماوات والارض ، وعلى طلب العلم ، خلق حوافز لهذه الغاية ، وايضا لتطبيق احكام الشريعة بدقة (مثلا الامور التى تتعلق بضبط اوقات الصلاة وبداية شهر الصوم) ، فاتجه العرب الى معرفة علم الفلك وغير ذلك من العلوم التى بلغت مرحلة متقدمة عند هذه الامم ٠

ومن جهة أخرى ، فقد كانت الجيوش الاسلامية التى تطيح بالعروش والانظمة السياسية ، تكتفى بالاستيلاء على مقاليد الحكم فى البلاد التى تفتحها، بينما تترك المؤسسات والاجهزة الادارية واعمال المكاتب وشبكات الاتصالات التجارية والموظفين ، بل والعملة المتداولة نفسها (1) على الوضع الذى كانت عليه فى العهد السابق بدون تغيير • وكذلك ظلت اللغات اليونانية والفارسية والسريانيــة واللاتينية والقبطية (2) لغة الادارة والاعمـــال فى هذه البلاد عشرات السنين ، بعدما دخلــت تحت السيادة الاسلامية ، ولم يفرض العـــرب لغتهم فى هذه المجالات ، حرصا على عدم احداث خلل فى نظام الحياة العامة •

وفى هذه الاثناء ، كانت الاطارات المدربــة ومختلف الطاقات الذهنية التى تسير الدواوين وتوجه الحياة الثقافية فى الشعوب المغلوبة عـلى أمرها ، تدرك بفطنتها ، خطورة التطـور الـذى طرأ على الحياة السياسية فى بلدها . فاخذت تكيف نفسها بنشاط ، بتعلم اللغة العربية ، وباستيعاب ثقافتها ، وبالاندغام فى النظام الجديد (والناس على دين ملوكهم) ، بل وراحت تسابق العـرب انفسهم فى خدمة لغتهم وثقافتهم حتى جاء يـوم حازت فيه قصب السبق فلم « يقم » كما يقـول ابن خلدون «بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم»(3) •

وفى نفس الوقت ، أخذت اللغة المستعملة فى المعاملات والمرسلات التجارية وفى مختلف المرافق الاقتصادية ، تترك مكانها تدريجيا للغة العربيــة التى أثبتت حيوية ومقدرة عجيبة على التطور ، كما كانت الشعوب المغلوبة على أمرها تقبل على تعلم هذه اللغة لمارسة شعائر الدين الاسلامى الذى اعتنقته ، ولمواجهة التغيرات التى تطرأ على الحياة اليومية •

واذا كانت حركة التعريب العلمى لم تشهد الازدهار الذى عرفته الا فى العصر العباسى ، فان حركة الترجمة ، مع ذلك ، تمتد جذورها الى عهد بنى أمية ، بل والى فترة مبكرة من هذا العهد • فان الجاحظ وابن النديم ، يذكران ان خالد بن يزيد بن معاوية ترجمت له كتب فى الصنعـــة والطب والنجوم (علم الفلك) • (4)

على ان من الممكن القول بان النقل والترجمة العلمية ، قد أصبحت مهمة من مهام الدولـــة ، ترعاها وتنفق عليها بسخاء ، ابتداء مـــن عهـد جعفر المنصور ، الخليفة العباسى الثانى (158 هـ 775 م •) •

1) ظل الدرهم الساسانى المضروب من الفضة ، والدينار البيزنطى المضروب من الذهب يمثلان العملة المتداولة فى العالم الاسلامى على أساس نظام المعدنين ، حتى سنة 75 هـ ــ 667 م ــ ، حينما ادخل عبد الملك بن مروان اول اصلاح حقيقى للنقد بصك الدينار الاسلامى .

2) كانت اللغة القبطية ، كما يذكر لومبارد، فى الفصل المنشور فى هذا العدد من كتابه «الاسلام فى مجده الاول» ، هى لغـــة الحديث والكتابة فى مصر ، فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى ، بحيث ان المامون قد اضطر الى ان يصطحب معه مترجما حينما قام بزيارة وادى النيل سنة 217 هـ 832 م .

1) راجع الفصل الذى خصصه المؤرخ المغربى لمساهمة العجم فى تنمية الثقافة واللغة العربية ، فى مقدمة تاريخه ، طبـــع بيروت 1 ــ 543 ــ 545

4) البيان والتبيين ، نشر التاليف والترجمة والنشر ، ص ، طبع القاهرة ، ص 328 ، والفهرست ، طبع القاهرة ص 340 .

واذا كان تعريب الدواوين والاعمال فى مختلف المرافق يجرى فى عملية داخلية ويخضع لدوافع من مصلحة الافراد والجماعات ، كما اشرنا ، فان التعريب الثقافى والعلمى ، يحتاج الى تخطيط وتنظيم من الدولة والى تخصيص موارد مالية له • وهذه العملية ، ترتبط ارتباطا وثيقا بجمع الكتب وتأسيس المكتبات العمومية ، وباستقدام العلماء والمترجمين الذين يتقنون لغتين أو اكثر ، بالاضافة الى امتلاكهم قاعدة من المعرفة فى العلوم التى يترجمون فيها •

وقد تعرض المسعودى لذكر حركة التعريب الثقافى فى عصر بنى العباس ، فاشاد بدور الخلفاء فى هذه الحركة ، وقال فى معرض الحديث عن ابى جعفر المنصور انه « كان أول خليفة قرب المنجمين وعمل باحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه ـ وهو ابو هؤلاء النوبختية ـ وابراهيم الفزازى المنجم ، وعلى بن عيسى الاسطرلابى المنجم • وهو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات العجمية الى العربية، ومنها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السندهند • وترجمت له كتب ارسطاليس من المنطقيات وغيرها ، وكتاب أوقليدس » (1) •

ويضيف ابن اصيبعة ان المنصور أستدعى جورجيس بن بختيشوع ، كبير الاطباء فى بيمارستان جند يسابور ورئيس مدرسته ، ليكون بجانبه ، وانه نقل له كتبا كثيرة من اليونانية الى اللغة العربية • (2)

وفى عهد الرشيد ووزرائه البرامكة ، اتخذت حركة النقل والترجمة ابعادا جديدة تحت رعاية هذا الخليفة العظيم • فقد كلف الرشيد يوحنا بن ماسوية (3) بمهمة الاشراف على نشاط الترجمة العلمية ، بعد ما استجلب له كتبا من بلاد الزوم ووضع له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه • (4)

وكذلك قام الوزراء البرامكة بمجهود عظيم فى تشجيع الترجمة ورعاية المترجمين وعملوا على نقل الذخائر النفيسة الى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية • ونحن نذكر ، مثلا ، ان يحيى بن خالد البرمكى ، قد طلب الى بطريك الاسكندرية ان يترجم له كتابا فى الزراعة عن الرومية فترجمه له برسمه • (5)

وحينما نشطت الحركة العلمية فى العصر العباسى ، ظهرت طائفة من فطاحل المترجمين من مختلف اللغات ، الى اللغة العربية وقامت بتغطية

1) مروج الذهب ، طبع القاهرة 4 ـ 241

2) عيون الانباء ، طبع دار الفكر العربى ، الجزء الثانى من القسم الاول ، ص 37

3) يوحنا بن ماسويه ، ابو زكريا : من علماء الاطباء ، من اصل سريانى ولكنه عربى المنشأ ، كان ابوه صيدليا من جند يسابور (بخوزستان) والى جانب عمله فى خدمة النقل والترجمة ، كان ابن ماسويه يعمل طبيبا للرشيد والمامون ومن بعدهما الى ايام المتوكل ، وقد عرف شهرة واسعة كما كسب ثروة طائلة وخلف نحو 40 كتابا ، راجع ترجمته فى كتاب خير الدين الزركلى ، الاعلام ، الطبعة الثالثة ، طبع بيروت ، الجزء التاسع صفحة 279

4) ابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ، طبع القاهرة ، ص 65

5) راجع تاريخ الادب العربى ـ العصر العباسى الاول ـ لشوقى ضيف الذى ينقل عن ماكس مايرهوف ، طبع دار المعارف ص112

الحاجة لتغذيةهذه الحركةولتدعيمها بالاثار العلمية والفلسفية الاجنبية . ونحن لنأخذ فكرة عن مدى اتساع نشاط النقل والترجمة ، يكفى ان نلقى نظرة متأملة على قائمة مشاهير المترجمين التى أوردها ابن النديم فى الفهرست (1) . ولو انها تقتصر على ذكر المترجمين من الفارسية دون ما سواها من اللغات ، الى العربية . وسنجد فى مقدمة هؤلاء ، عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ومحمد بن جهم البرمكى ، وزادويه بن شاهويه الاصفهانى ، وبهرام بن مردان شاه ، وغيرهم ممن ارتبطت اسماؤهم، هم وغيرهم، مثل يوحنا بن ماسوية ، ارتباطا وثيقا بازدهار العلوم والفنون العربية وكانوا حلقة وصل بين الحضارات القديمة والنهضة الاوروبية فى عصر التنوير .

وقد بلغت حركة النقل والترجمة أوجها فى عصر المامون الذى غذاها بالموارد المالية وجمع لها الرجال والكتب ، وانشأ لها مؤسسات ، أهمها « بيت الحكمة » المشهور الذى وقف عليه الاموال للذين يريدون الانقطاع لترجمة كتب الفلسفة الى اللغة العربية . وقد ذكر ابن نباتة فى سرح العيون ، عند ترجمته لسهل بن هارون ، ان المامون عينه كاتبا على خزائن دار الحكمة ، التى تشتمل على كتب الفلسفة التى نقلت الى المأمون من جزيرة قبرص (2) . وذلك ان المامون ، لما هادن صاحب هذه الجزيرة ، ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فارسلها اليه ، وجعل سهل بن هارون خازنا عليها .

ولما استظهر المأمون على الروم (215 هـ — 130 م) بلغه ان اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات والقوا بها فى سراديب ، فكتب المأمون الى ملك الروم يستاذنه فى انقاذ ما يختار من هذه الكتب وان يعطيها له بدل الغرامة التى كان قد فرضها عليه ، فقبل ثيوفيل ، ملك الروم ، هذا العرض واعتبره كسبا كبيرا له . (3)

وقد شملت حركة النقل والترجمة جميع مجالات العلم المعروفة لدى الامم القديمة ، بما فى ذلك الفلسفة والطب والكيميا، والرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى ، وشملت فيما شملته الملل والنحل والديانات القديمة « وقد ترجم فيما ترجم كتاب زرادشت المسمى «أفستا» وما عليه من شروح) ، بل وكتب العجائب والاساطير ايضا . وهذه الاثار المترجمة ، تتجمع فى دكاكين الوراقين ويعكفعلى نسخها النساخون وسرعان ما تجد طريقها الى بيوتالعلماء والباحثين حيث تتحول الى خميرة للتفكير وشرارة تنبعث منها تيارات بعيدة الاثر فى الفلسفة والدين والاجتماع .

وقد اعتمد المترجمون فى النقل . طريقة الترجمة اللفظية ، أو التى نسميها اليوم «الحرفية»

1) الفهرست ، ص 224 وما يليها

2) سرح العيون ، طبع القاهرة ، ص 166

3) الفهرست ص 339

وطريقة الترجمة المعنوية ، معا • ففى الطريقـة الاولى ، التى كان على رأس العاملين بها ، يوحنا بن البطريق وعبد المسيح بن الناعمة الحمصى ، ينظر الناقل فى كل كلمة فى النص بمفردها ثم يضع لها مرادفها من اللغة الاخرى • وقد انتقدت هذه الطريقة بحق ، بان عددا كبيرا من الكلمات فى كل لغة لا يوجد مرادف لها يحمل معناهـا بالضبط ، فى لغة أخرى• ثم ان المجاز والاستعارة لا يمكن ان تنقل بالطريقة الحرفية من لغة الى لغة أخرى • والطريقة المعنوية , وكان يتزعم اتباعها حنين بن اسحاق ، تقضى بان ينظر المترجم فـى الجملة فيحصل معناها فى ذهنه، ثم يعبر عنهـا بالمعنى الذى يطابقه فى اللغة الاخرى ، جملـة فجملـة •

* * *

وبعد هذه النظرة السريعة نوعا ما الى التجربة الاولى للتعريب ولتلقيح الثقافة العربية ، يجدر بنا ان نطرح سؤالا . وهو ، هل يمكن استخلاص درس منها قد يفيدنا لتوجيه خطانا فى تجربـة التعريب الثانية ، التى تحاولها البلدان العربية فى العصر الحاضر ؟

لقد تغير كل شىء منذ عهد هارون الرشيـد والمامون • تغير مفهوم الدولة الاسلاميـة ونظـام الحكم ، وتغير مفهوم الفلسفة والعلوم , كما تغيرت اللغات التى تحتاج اللغة العربية الى الاقتباس منها والنقل عنها • ولكن اللغة العربية نفسها لم تزل حية ببلاغة تراكيبها وخصبها , وقد اتسعت ثروة مفرداتها وكسبت مرونة عبر العصـور •

والحاجة الى النقل والتعريب اليوم ـ وهى أقوى مما كانت من قبل ـ تقوم على نفس الاعتبارات التى قامت عليها فى العصر العباسى : سد الفجوة التى تمتد على عدة قرون والتى تفصل بين الحضارة العربية وحضارات أمم أخرى تقدمت عنهـا فى العلم والمعرفة ، والموارد المادية التى يتطلبهـا مجهود التعريب ايضا متوفرة للتجربة المعاصرة كما كانت متوفرة للتجربة الاولى • فان الثروة الطائلة التى كانت تتدفق على قصور بغـداد وسمحت للخلفاء العباسيين باقامة المؤسسـات وتشجيع الباحثين وجمع المترجمين واستقـدام الكتب ، اذا كانت تختلف من حيث مصدرها عن الثروة التى يملكها العرب اليوم والتى تمكنهم ان يخصصوا جزءا صغيرا منها للتعريب ، فهى ليست اكبر من الثروة المتولدة من النفط وغير ذلك من الموارد • وبصفة عامة , يمكن القول بان الفوارق بين التجربة الاولى والتجربة التى تمر بها اللغة العربية فى عصرنا , من حيث الدوافع والمناخ العام والنتائج المامول تحقيقها ، هـى فوارق ظاهرية اكثر منها حقيقية • وبالتالى ، فان التجربة التى تمت فى عصور الاسلام الاولى ، ذات قيمة حية ويمكن ، فى رأى هذا الكاتب ، الاسترشاد بها , ولا سيما فيما يتعلق بتحديد الاولويات وتركيز التوجيـه وبناء منشئـات التعريب وافساح المجال لمساهمة جميع العناصر فى مجهود التعريب ، بقطع النظر عن الاعتبارات الدينية والقومية •

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن فى سياق هذه المقارنة العامة هو :

ما هى قيمة النتائج التى حققتها البلدان العربية فى مجال التعريب على ضوء معطيات التجربة الاولى ، ثم ما هى قيمة المنهج الذى اعتمدناه لهذه الغاية ؟

فيما يتعلق بمحاولة الاجابة على الشق الاول من هذا السؤال ، يجب ان نبدأ بملاحظة فارق شكلى بين التجربتين ليس له صلة بالتعريب نفسه ، بل بالناخ العام الذى يجرى فيه التعريب ونعنى بذلك الوضع السياسى • فاللغة العربية قد دخلت فى التجربة الاولى للتعريب ، وهى فى مركز القوة ، فكانت جميع السبل ، لذلك مسيرة امامها • أولا من حيث توفر المادة العلمية (المخطوطات) الاصيلة التى يحصل عليها العلماء والخلفاء بسهولة (أو فى مقابل غرامة فرضت على البلد المفتوح) • وثانيا اقبال العلماء والاطباء والفلاسفة والمترجمين من مختلف الملل والنحل على المساهمة فى تنمية تراث الثقافة العربية طلبا للمال أو للجاه والحظوة لدى الخلفاء ، أو لكلا الامرين •

واما اللغة العربية فى العصر الحاضر ، فهى تواجه عقبات ادبية يصعب التغلب عليها ، اهمها حجود ابناء الحضارة الغربية الذين يعتبرونها لغة متخلفة ، ان لم تكن ميتة • وهذه النظرة ، بطبيعة الحال تؤثر على الاقبال على تعليمها والمساهمة فى تنميتها (I) وهذا فضلا عن العقبات المادية التى تتمثل فى شراء حقوق الترجمة ودفع نفقات النشر التى لا يمكن ضمان استرجاعها ، حتى على المدى الطويل فى كثير من القطاعات المتخصصة •

أضف الى ذلك ، ان التراث العربى الاساسى الذى يمكن ان يقوم عليه أى مجهود حقيقى واسع النطاق للتعريب ، ولا سيما فيما يتعلق باحياء المصطلحات القديمة وتكييف معانيها ، اصبح معظمه اليوم مشتتا فى مختلف انحاء العالم ، بعد ما نهبه المستعمرون ، فى شكل مخطوطات أو اعمال نشرت بقصد التعريف بها فى الغرب ونفدت طبعاتها منذ أزمان طويلة •

واما قيمة النتائج التى حققناها فى مجال التعريب بصفة عامة فى التجربة الحالية ، فهى تبدو ايجابية ، خصوصا ، اذا اخذنا الى الاعتبار عامل الزمن ، حيث ان المجهود المعاصر يمتد على أقل من نصف قرن ، بينما تمتد التجربة الاولى على اكثر من قرنين • ولكن الفرق الحقيقى بين التجربتين ، فرق فى النوع • فبينما اتجهت التجربة الاولى التى كانت تجرى فى مجتمع تسود فيه حياة البذخ واللهو ، بعزم وتصميم الى اثراء التفكير العربى بالاغتراف من العلوم والفلسفات الاجنبية ، بحيث تجاهلت الثروة الادبية اليونانية الهائلة ، بل وحتى اعمال المؤرخين اليونان والبيزنطيين (تلك الاعمال التى لو قدر لها ان تترجم لغيرت نظرة المؤرخين العرب الى الشؤون العالمية) ، اتجهت حركة الترجمة فى عصرنا ، اساسيا ، الى الادب ، ولا سيما القصص والروايات العاطفية (وكثير منها فى شكل افلام) ، ولم ننتبه الى اهمية ترجمة الاعمال العلمية الا فى وقت متأخر نسبيا •

(I) راجع بشان تناقص الاقبال على تعلم العربية وقلة عدد المستعربين فى فرنسا ، مثلا ، الاستعراض الذى نشرناه فى العدد السباق من مجلة الاصالة لكتاب بول بالطا ، المعنون « سياسة فرنسا تجاه العرب ، من دوجول الى بومبيدو » .

- ما هو سبب هذه الظاهرة ؟

ان تحليل هذا السبب ، سيفضى بنا الى محاولة الرد على الشق الثانى من السؤال الذى طرحناه آنفا ، وتعنى بذلك قيمة المنهج ·

فان الفرق الاساسى بين التجربتين يتصل بتخطيط التعريب وتنظيمه · فان الباحث والمترجم فى التجربة الاولى ، كان يستمد الوحى والتوجيه من القمة السياسية ، أى من الخليفة نفسه · وقد كانت هذه العناية الشخصية فى حد ذاتها ، كفيلة بضمان الجد فى العمل وعدم تضييع جهد المترجم فى اعمال تافهة . وخصوصا بابعاده عن السعى لكسب رضا الجماهير بالانتاج للتسلية · ولكن المترجم ، زيادة على ذلك ، كان يكلف بالعمل فى قطاع محدد ، أو بترجمة كتاب معين من قبل الخليفة · فان المؤرخين يذكرون ، مثلا ، ان وفدا هنديا حضر الى بغداد لزيادة ابى جعفر المنصور فى سنة 154 هـ ـ 771 م ، وكان ضمن رجاله احد العلماء الهنود . وكان ماهرا فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر اعمال الفلك ، على مذهب علماء الهند ، فكلف المنصور هذا العالم باملاء مختصر لكتاب السندهند باللغة العربية ثم أمر المنصور بان ينقل الكتاب كله الى اللغة العربية (1) · ثم ان الخليفة أمر أبا اسحاق ابراهيم بن حبيب الفزارى ، بان يستخرج من الكتاب المترجم ، كتابا تتخذه العرب اصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق بها ، فعمل منه زيجات (2) ، اشتهر بين علماء العرب فلم يعملوا الا به ، حتى ايام المأمون ·

فهذه القصة تدلنا الى أى مدى كان يبلغ اهتمام الخليفة بالتعريب العلمى · فان المنصور ، لم يكتف باستغلال فرصة زيادة عالم هندى له ، ليطلب اليه ان يملى فى عجالة ، بدون شك ، ملخصا لكتاب لا يتسع الوقت امامه لترجمته كله · بل هو يواصل الاهتمام بهذا العمل ليامر بنقله كله ، فى مرحلة تالية ، الى اللغة العربية · وكأنما ابى الا ان يقدم دليلا لتبرير اهتمامه بهذا العمل ، فامر باستخراج ما فيه من الجداول الحسابية لوضعها تحت تصرف العلماء والمهتمين بعلم الفلك ·

وفى مقابل عناية السلطة المركزية وتوجيهها المباشر لنشاط التعريب العلمى والثقافى ، تلك العناية التى تستمر فى بعض الحالات (كما فى المثال السابق) حتى مرحلة تطبيق النظريات المترجمة ، فى التجربة الاولى ، نجد ان السلطة المركزية فى التجربة الثانية قد منحت الاولوية المطلقة للتعريب فى قطاعين حيويين : الادارة والتعليم ·

وكذلك نجد ان معظم الدول العربية قد حققت فى ظرف وجيز لا يكاد يتجاوز ربع قرن ، تعريب مختلف النواحى الادارية وانظمة الجيش ، واجهزة الاعلام ، واعمال المصارف ، والاعمال التجارية ، ووسائل النقل الخ ··· ، وهذه

1) راجع احمد امين ، ضحى الاسلام ـ الجزء الاول ـ طبع بيروت ، ص 242 ـ 243 ، وشوقى ضيف ، المصدر المذكور ، ص111 وعمر فروخ ، تاريخ العلم عند العرب ، طبع بيروت ، ص 116 ، والمراجع التى نقلوا عنها

2) الزيج (جمعه : زيجات وازياج) ، جدول حسابى يبين مواقع النجوم وحساب حركاتها

مهمة تتطلب كثيرا من العناية والتخطيط ، كما تتطلب فترة طويلة من الوقت • ولكن النجاح فيها ، يتوقف خصوصا ، على مدى ما حققه البلد من التقدم فى تعريب التعليم • فان تكوين اطارات تلقت التعليم والتدريب فى مختلف المجالات ، فى معاهد قومية وباللغة العربية، بالعدد الكافى ، وعلى المستوى المطلوب ، امر حيوى لتعريب الادارة و مختلف مرافق الاعمال •

والبلدان العربية تختلف حظوظها من النجاح فى تعريب التعليم بين بلد وآخر • فبينما نجد بعض البلدان قد حققت التعريب فى جميع مراحل التعليم ، بما فى ذلك التعليم العالى ، ولم تعد تستخدم اللغات الاجنبية الا للتدريس فى بعض نواحى التخصص ، فاذا ببلدان أخرى لم تحقق سوى مرحلة ، قد لا تتجاوز مرحلة التعليم الابتدائى ، مع محاولات لتعريب بعض اقسام الدراسات العليا ، مما يتصل بالعلوم الانسانية•

وهذا التركيز فى البلدان العربية فى مجموعها على تعريب التعليم له ، بدون شك ، ما يبرره • بل ان تخصيص جميع الموارد والجهود لتعريب التعليم، فى المراحل الاولى ، كان ضروريا، بسبب قلة الموارد المالية والبشرية التى تملكها البلدان العربية فى تلك المرحلة • ولكن اهمال التعريب الثقافى ، أو بعبارة أدق ، تركه تحت رحمة التجار وقوانين السوق (العرض والطلب) ، كانت له نتائج سيئة ستظهر خصوصا فى انحطاط مستوى الانتاج ، حيث ان المترجم ، ودار النشر التى يهمها فى المكان الاول ، رواج العمل المترجم ، والحصول على الربح السريع ، سيتجه فى اختياره حتما ، الى تملق الجماهير وسد حاجتها الى التسلية وتزجية الوقت • واما الاعمال الهامة التى تعالج موضوعات ثقافية علمية فوق مستوى معين ، فان نشرها يتطلب استثمارات على المدى الطويل حيث انها تتجه الى جمهور محدود • وبالتالى، فهى تكلف عناء ومشقة للمترجم بدون مقابل ، ولا تضمن الربح المنشود للناشر التاجر • ثم ان المترجم الذى ينقل للتسلية وتزجية الوقت لايجد مبررا لاجهاد نفسه فى تحرى الدقة فى الترجمة والعناية بالاسلوب، فضلا عن محاولة اثراء العمل المترجم بالهوامش والشروح ، حيث ان القارئ المقصود ، لا ينتظر منه ذلك ، بل ولربما يتضايق منه ، اذ يفسد عنه قراءته السريعة المسترخية •

وهذه الظاهرة التى نشاهدها فى اسواق الترجمة ، خصوصا فى بلدين عربيين معروفين بنشاط المطابع وبسعة اسواق النشر فيهما (وهذا يشمل الكتب والافلام الطويلة والقصيرة) كانت لها آثار سلبية على مستوى التعليم الذى كان من المفروض ان يجد دعامة متينة فى الترجمة التى تسمح للطالب بان يستدرك ما فاته وتتيح له ما يكمل به معلوماته المدرسية التى هى ناقصة بطبيعة الحال ، كما تفسح المجال للخريج لتوسيع آفاقه الفكرية بدون عناء أو جهد خاص •

وعلى صعيد التعليم العالى ، يمثل الضعف الذى يعانيه التعريب الثقافى تهديدا بفشل محاولات تعريب هذا النوع من التعليم بان يصبح تعليما شكليا عقيما • فان التعليم الجامعى يقوم ،

أولا وقبل كل شيء ، على مجهود الطالب لاكمال تعليم نفسه وللتدريب على مناهج البحث والاستقصاء • واما دور الاستاذ الحقيقى ، فهو يكاد ينحصر فى النصح والاشراف على هذا المجهود وتوجيهه فى الطريق الصحيح • ونجاح هذا المجهود لا يمكن ضمانه الا بتوفر مكتبة غنية بالقواميس المعتمدة والموسوعات وأمهات الكتب فى مختلف العلوم والفنون •

والحق انه يوجد تناقض واضح فى السياسية التى تعمل جاهدة لتعريب التعليم فى مختلف مراحله ، وتهمل فى نفس الوقت العمل الضرورى لتوفير قاعدة من وسائل البحث من الكتب الاساسية والموسوعات الخ ••• التى يستحيل علينا القيام بوضعها فى المرحلة الحالية من تطورنا ، ولكننا نستطيع نقلها والاستفادة منها بلغتنا بسهولة •

وقد يقال ان الطالب العربى يدرس لغة اجنبية أو لغتين فى المرحلة الثانوية ، وبالتالى ، فهو يستطيع الاستفادة من المراجع الاجنبية فى المرحلة الجامعية • ولكن هذه الحجة تنطوى على تبسيط مضلل للمشكلة • وقيمتها الوحيدة فى نظرنا هى انها يمكن ان يستعمل للتخدير وتشجيع التقاعس والخمول الذهنى • لان الاستقلال الثقافى – النسبى – الذى ننشده ، لن يتحقق ابدا ، اذا لم نكتف بالبقاء عالة على غيرنا ، بل نأبى الا ان نستعمل ما يكتبه الاجانب وباللغة الاجنبية •

ونحن نعرف ان الفرنسى ، مثلا ، يدرس لغات اجنبية فى المدارس الثانوية كالانجليزية والاسبانية والعربية ، ولكنه انما يعتمد فى تكوينه العلمى على ما توفره مكتبة بلده وعلى ما ينتجه علماؤه ، أو ينقل الى لغته من الاثار الاجنبية • واما اللغة الاجنبية التى يدرسها ، فهو انما يستفيد منها ، خصوصا ، فى حالة ما اذا اتجه الى التخصص فى آداب تلك اللغة وتاريخها ، أو ينوى الاقامة أو ممارسة اعمال من نوع خاص فى البلد الذى يتكلم تلك اللغة •

صحيح ان بعض البلدان العربية قد اضطرت تحت ظروف صعبة واجهتها بعد الاستقلال مباشرة الى انتهاج سياسة محافظة فى التعريب ، فان تحويل المرافق والمعاهد والمناهج وخصوصا ، العقليات التى تركها الاستعمار ، لا يمكن ان يتم بين عشية وضحاها • ولذلك فقد فضلت حلولا سهلة نسبية ، واعتمدت نظام الازدواج اللغوى • ولكنه فى مقابل ذلك ، نجد بلدان أخرى حاولت متجاهلة جميع العوائق والمثبطات ، ان تطوى المراحل ، بحيث تحقق التعريب الشامل فى اقصر وقت ممكن • وهذه البلدان تعمل فى المكان الاول لاحداث الصدمة النفسية الضرورية لتحويل عقليات الافراد والجماعات ولتغيير العادات الذهنية المستعصية • ومن ثم ، فنحن لا يمكننا ان نتوقع منها ، ان تهتم فى هذه المرحلة بالنوع بقدر ما تهتم بالكم •

والمثال الذى يتبادر الى الذهن لهذه الفئة من البلدان ، هى الجزائر •

فان هذا البلد الذى بذل الاستعمار كل ما فى وسعه للقضاء على شخصيته ولغته العربية خلال

فترة تمتد على قرن وربع ، وضع مسألة التعريب بعد حصوله على الاستقلال ، فى مقدمة الاولويات القومية التى يسعى لتحقيقها • وعلى الرغم مـن بعض جوانب النقص التى تشوب جهوده ، فقد استطاع جعل اللغة العربية لغته الرسميـــة ، وتعريب التعليم الابتدائى وبعض فروع التعليم العالى ، ولا سيما دراسات التاريـــخ والآداب والقانون • وكذلك حقق التعريب فى عدد من المؤسسات وفى معظم اجهزة الاعلام والادارة • وقد حصل البلد على هذه النتيجة المبكرة بفضل سياسة واضحة هادفة للتعريب ، وجدت سندها خصوصا فى المرسوم الذى صدر فى سنة 1971 والذى يفرض معرفة حد ادنى من اللغة العربية على موظفى الدولة •

وتعليم اللغة العربية خارج المدارس ، يجرى تحت رعاية الدولة بعناية مختلف اجهزتهـا ، وسواء فى ذلك ما يتصل بالدروس الليلية التى تقدم للعمال فى نطاق برنامج محو الامية الذى نص عليه المخطط الربـــاعى الاول للتنميـــة الاقتصادية والاجتماعية (الذى ينتهى العمل به فى نهاية سنة 1973) ، أو بالدروس التى تلقى بواسطة الاذاعة الصوتية والاذاعة المرئية أو التى تلقى فى المساجد •

وبالطبع ، فان من سبق الاوان التكهن منذ الآن بالنتائج المنتظرة لجهود الجزائر فى مجال التعريب ولكن المؤكد ، ان الشعب يعلق آمالا كبيرة عـلى هذه الجهود ويعتبر النتائج التى يأمل فى الحصول عليها حيوية لاعادة تركيب شخصيته القومية ولتقدمه الثقافى •

وخلاصة القول ، ان التعريب ، بوصفه عملية واعية هادفة لاثراء التفكير واللغة العربيـــة ، ووسيلة لربط الحضارة العربية بثقافات الامـم القديمة من جهة ، وبالحضارة الحديثة التى تقوم على العلم والتكنولوجيا ، من جهة أخرى ، قـد شهد تجربتين اساسيتين ، بلغت أولاهما أوجها فى اواخر العهد العباسى ، وهذه التجربة عرفت حظا من النجاح لم يشهد له التاريخ مثيلا قبـل الفتح الاسلامى ، حيث وفرت الدعامة التى قامت عليها النهضة العلمية والفنية التى شهدتهـا أوروبا فى القرن السادس عشر • وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية ، فان التجربة الاولى ، تنطوى على عناصر ذات قيمة يمكن درسهـــا للاستفادة منها فى حركـــة التعريب المعاصرة ، ولا سيما ، فيما يتعلق باقامة مؤسسات التعريب ومنح الاولوية للتعريب الثقـــافى والعلـــمى ، والاستعانة بالعناصر الاجنبية الصالحة •

والتجربة الثانية ، هى التى تعيشها الامـــة العربية فى الوقت الحاضر • وهى على الرغم من انها سجلت تقدمـا تختلف درجتـــه باختلاف الاقاليم العربية ، الا انها ، فى مجموعها ، لا تزال فى المراحل الاولى • وتبعا لذلك ، فان الحكم على نجاح هذه التجربة أو فشلها ، يجب ان يكـون جزئيا ومؤقتا ، ولا يناول الا النواحى القطاعية • ولكنه من الضرورى ، مع ذلك ، متابعة التقيـيم باستمرار حتى يمكن اصلاح ما يقع فى التجربة من الخطأ فى التوجيه وفى اختيار الاولويات •

والملاحظة العامة (والاخيرة) التى نود تسجيلها بعد هذا التحفظ ، تتعلق باتجاه التعريب الذى يخضع فى الوقت الحاضر لقوانين السوق ، الى ارضاء حاجة الشعب الى المتعة والتسلية . واهمال التعريب الثقافى والعلمى ·

لاصلاح هذا النقص ، يقتضى الامر تدخل الدولة واجهزتها بطريقة فعالة ، تماثل تدخل أبى جعفر المنصور ، ان صحت هذه الاشارة · ونظرا لان التعريب العلمى ، يتطلب استثمارات كبيرة الحجم وتجنيد الطاقات العلمية المتوفرة فى جميع البلدان العربية ، يحتاج القيام بهذه المهمة بطريقة ناجحة الى تعاون وثيق بين الدول العربية · وهذا التعاون ، يمكن ان يجرى فى نطاق الاجهزة الاقليمية والشبه الاقليمية الموجودة (مثل جامعة الدول العربية واللجنة الاستشارية لدول المغرب العربى) . أو فى نطاق جهاز دائم مشترك بين الحكومات ينشأ لهذه الغاية ويقوم بمهام أساسية منها :

1 ـ تنسيق البرامج القومية التى تمولها الدولة للتعريب وادغامها فى مخطط عربى شامل وربط التعريب بمختلف النشاط الثقافى والبحث العلمى فى الوطن العربى ·

2 ـ تكوين مكاتب فرعية فى جميع البلاد العربية لتبادل المعلومات بين الناشرين الخصوصيين والعلماء والمترجمين ، بشأن الاعمال العلمية المترجمة والمنشورة . أو التى هى فى طريق الترجمة والنشر ، حتى يمكن تجنب التضاعف والتكرار الذى يكون مضرا ، حتما ، بالناشر والمترجم معا ·

3 ـ تسهيل الحصول على الاعمال العلمية المنوى تعريبها ومساعدة المترجم ، متى كان يقوم بالعمل لحسابه الخاص ، أو لحساب دار للنشر ، وخارج نطاق البرامج الحكومية ، للاتصال بالناشرين المحتملين . وتزويده بالمعلومات والاضاحات التى تتعلق بمختلف النواحى التجارية والقانونية (مثل حقوق التأليف والنشر الخ ···) ·

التعريب والشخصية الوطنية

د. محمد مصايف
كلية الآداب
جامعة الجزائر

موضوع « التعريب والشخصية الوطنيـة » ، موضوع لا أعتقد ان موضوعا آخر نال من الكلام مثل ما نال ، فقد تحدث عنه الرئيس بومديـن في مناسبات مختلفة ، واتخذ فيه موقفا من أوضح المواقف الرسمية عند ما أكد « ان التعريب مطلب ثوري » ، وناقشه وزيرا التربية الوطنية في غير مرة . وألقى فيه السيد وزير التعليم الاصـل والشؤون الدينية منذ حوالى ثلاث سنوات محاضرة قيمة ، وتحدث عنه الصديق عبد الحميد مهري ، الامين العام الحالي لوزارة التعليـم الابتـدائي والثانوي ، في محاضرة هامة كذلك ، وناقشته اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم طوال شهـور

*) محاضرة القيت بالمركز الثقافي الاسلامي التابع لوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية

متعددة، وكتب فيه الادباء ومنهم محاضركم الليلة، دراسات مطولة ثرية ٠ فهل وصلنا من كل هذه الاهتمامات والمواقف الى موقف موحد فى قضية التعريب ؟ هل نحن اليوم متفقون على الخطة الثورية الموحدة التى يجب ان يسير التعريب فى اطارها ؟ هل حققنا كل ما كان فى الامكان تحقيقه طوال السنوات الاحدى عشرة الماضية ؟ فما هى الاقتراحات العملية التى يمكن ان تسهم بها هذه المحاضرة المتواضعة فى دفع عجلة التعريب الى الامام ؟ هذه الاسئلة الاربعة وغيرها هى التى تشكل محور حديثى اليكم فى هذه الليلة ٠ وقبل محاولة الاجابة عليها اريد ان احدد على وجه التقريب ما نعنى بكلمة « شخصية وطنية » , وان اذكر العلاقة العضوية التى ربطت بين هذه الشخصية وبين اللغة العربية طوال تاريخنا الحديث ٠

لقد اعتدنا ان نبسط حديثنا عن مفهوم « الشخصية الوطنية » ، فنكتفى بذكر مقوماتها البارزة التى تقع تحت ادراكنا جميعا ، وهى المقومات التى غالبا ما نحصرها فى عناصر الدين، واللغة ، والتقاليد ، والحضارة او التاريخ ٠ وهى كما اسلفت ابرز ما يتبادر الى اذهاننا كلما اثرنا كلمة « شخصية » ، لانها السمات الاساسية الظاهرة التى تواكب اية امة فى مسيرتها التاريخية , ولو ان بعض المفكرين يناقشون فى كون الدين عنصرا من عناصر الشخصية الوطنية ، باعتبار ان الامة الواحدة قد تتعدد الأديان فيها ، كما هو الشان فى معظم الامم ، وفى الهند بصفة خاصة ٠ غير ان الامة الجزائرية تختلف عن هذه الامم ، لان مواطنيها يدينون بدين واحد ، هو الدين الاسلامى الحنيف ، الدين الذى واكب مسيرتها منذ ان اعتنقته فى القرن الاول من انتشار الاسلام , واتخذته نبراسا لها فى حياتها الدنيوية والاخروية ٠ هذا بالاضافة الى ان الاسلام هو الذى ضمن وحدتنا ، ومكننا من الصمود للضغوط الاستعمارية ، وحفظ علينا شخصيتنا الوطنية فى عهود التخلف والجهل ٠ فالدين الاسلامى بالنسبة الينا مقوم اساسى لا ينبغى التفريط فيه بحال ، لان التفريط فيه تفريط فى الجماهير التى قامت على كاهلها الثورة المسلحة ، وتقوم اليوم على عاتقها الثورة الاشتراكية ٠

وتشكل اللغة أبرز مقوم للشخصية الوطنية ، لانها وسيلة التعبير عن مشاعر الافراد والجماعات وأداة التفاهم بين ابناء الوطن الواحد ٠ واللغة التى يستعملها المواطنون أكثر ، وتثبت قدرتها على مواكبة الحضارة الانسانية هى اللغة الوطنية بالنسبة الينا ، وهى اللغة العربية التى ثبتت للمحن التى سلطها عليها الاستعمار طوال قرن ونصف قرن من الزمان ، وهى التى نقلت الينا حضارة أسلافنا ، وسجلت علومهم وامجادهم ، ونقوم اليوم بنفس الرسالة للامة العربية جمعاء ٠ انها اللغة القادرة على استيعاب اللهجات الوطنية للشعب الجزائرى ٠ فاللغة العربية اذن مقوم أساسى من مقومات شخصيتنا ٠ وسنرى كيف انها كانت المعبر الصادق عن شخصيتنا فى

مختلف العصور ، وانها لذلك ستكون الضمان الوحيد لحفظ هذه الشخصية من الامحاء والتبعية.

ومن المقومات الاساسية لاية شخصية وطنية ما نطلق عليه اسم « التقاليد » ، ونعنى بهذه الكلمة كل ما يعبر عن نفسية امتنا باعتبارها « امة » ، ويعطى صورة عامة عن حياتها اليومية خلال تاريخها الطويل . وابرز هذه التقاليد تقاليد الاسرة الجزائرية . وانك لتجد هذه التقاليد واحدة أو متشابهة جدا فى جميع انحاء الوطن . وبالرغم من ان اتصال بعض المواطنين فى المدن بالحضارة الغربية قد صور شيئا من هذه التقاليد ، فانها مع ذلك حافظت على روحها واهم سماتها . وان هناك تقاليد اعمق من السابقة ، وادل على نفسية شعبنا . ولعل احسن مصدر لمعرفة هذه التقاليد هو الادب الشعبى بما فيه الاساطير والشعر والغناء . وتعد التقاليد الوطنية من اهم الموضوعات للدراسات الاجتماعية. واتصال التقاليد بالحضارة والتاريخ الوطنى مما لا يخفى على احد . ولذلك كان التاريخ بما فيه التطورات الاجتماعية والحركات الشعبية التى تتخلل هذا التاريخ مقوما هاما من مقومات شخصيتنا الوطنية والجزائرى مهما تطور فى حياته اليومية ، ومهما اختلفت نظرته الى مواطنيه ، فهو اعلق بتاريخه الوطنى العربى الاسلامى ، فهو يذكر امجاده بكل اعتزاز ، ويتعظ بالنكسات التى حدثت لامته فى الماضى القريب أو البعيد . ويتمنى ان يتطور هذا التاريخ فى اطار الاستقلال والعزة والتقدم . وكل ما يقوم به المواطن فى سبيل الوطن يعد خدمة لهذا التاريخ ، ومساهمة فى تطويره . بل حتى اهتمام المواطن بمصالحه الخاصة يدخل فى آخر المطاف فى هذا الاطار العام الذى هو تاريخ امتنا الفتية ، لان انتظام حياة الافراد ما هو الا انتظام لحياة الامة .

هذه هى المقومات البارزة التى اعتدنا ذكرها بمناسبة الحديث عن «الشخصية الوطنية» ، وهى مقومات اساسية فعلا ، لانها تشكل ابرز السمات لنفسية الشعب الجزائرى فى جميع عهوده واطواره . ونفسية الشعب الجزائرى هذه هى التى اعتبرها الشخصية الوطنية الحقة لامتنا ، وهى من الاتساع والعمق والخلود بحيث تشمل ديننا وتقاليدنا وتاريخنا وحضارتنا وآلامنا وآمالنا ومطامحنا . فهى بذلك تنطلق من الماضى السحيق لتستمر فى المستقبل البعيد . ومن هنا كانت الشخصية الوطنية ميراثا وصلنا من الاسلاف ، وامانة يجب علينا ان نسلمها للاجيال المقبلة كما استلمناها من الاجيال الماضية . وما دامت الشخصية الوطنية تشمل التاريخ والحضارة والتقاليد التى هى أثر من آثار الاجيال السابقة فاننا لا نخطىء اذا ارجعنا جذور هذه الشخصية الى العهود الاولى من حياة امتنا ، فشخصيتنا تعتمد على تاريخنا قبل الاسلام ،وتزداد قوة وتأصلا وتحديدا بدخول الاسلام الى هذه الديار ، وباتخاذ اسلافنا اللغة العربية اداة تعبير بينهم . ولو قارنا بين مواقف اسلافنا فى الماضى ، ومواقفنا فى الحاضر ابان الاستعمار واثناء الثورة ، لوجدنا شبها كبيرا

في النظرة ، وفي ردود الفعل ازاء الاحداث والمحن. وآمال الجزائري قبل قرون هي آماله اليوم . والمستقبل سوف لا يكون غير امتداد طبيعي لهذا الماضي الذي صنعه اسلافنا ، وهذا الحاضر الذي خلقناه وما نزال نخلقه في هذه الفترة الحاسمة من حياة امتنا . فالشخصية الوطنية للشعب الجزائري اذن هي قبل كل شيء نفسيته ، وما يتفرع عن هذه النفسية من تقاليد ومواقف وآمال ومطامح ، وهي بصفة عامة هذه الحضارة العربية الاسلامية التي نتحرك في اطارها . وما الدين والتقاليد واللغة الا مظاهر لهذه النفسية وبما ان حياة هذه المقومات دليل على حياة الشخصية الوطنية . كانت المحافظة على اللغة والدين والتقاليد محافظة على الشخصية ، والتفريط فيها تفريطا في الشخصية . وفي نهاية الحديث عن مفهوم الشخصية الوطنية كما اتصوره يكون من المفيد جدا ان نتبين العلاقة بين هذه الشخصية وبين اللغة العربية ، لنرى بعد ذلك السبب الذي يجعل دعاة التعريب الكامل يلحون على الاسراع بتطبيق هذا الاخير في جميع مراحل التعليم . وعلى تعميمه في الادارات والمؤسسات المختلفة .

لقد ادرك الاستعمار هذه العلاقة بين الشخصية واللغة ، ولذلك لم يفرق في عدائه للامة الجزائرية بينهما ، فكان يحاول سلخ الشعب الجزائري من شخصيته الوطنية، والحاقه بالشخصية الفرنسية. ولبلوغ هذه الغاية استخدم جميع الوسائل التي ابسطها الاغراء والتهديد . واشدها تحويل المساجد الى كنائس ومنع الواطنين من تعلم دينهم كما يريدون،وارغامهم على التحاكم لقوانينه المدنية المنافية للاسلام . فلما صعب عليه ان يحقق مراده ادرك انه ما دام الشعب الجزائري يتحدث اللغة العربية ، ويعرض عن اللغة الفرنسية ، يستحيل عليه ادماجه في الامة الفرنسية . ولهذا وجه أكبر جهوده لمنع اللغة العربية من التعلم ، واضطهاد من حاول تعليمها بطريقة أو باخرى . ولعل معظم الحاضرين يذكرون الاضطهاد الذي نال المعلم الحر قبل اندلاع الثورة المباركة ، ويعرفون ان المدارس الحرة كانت لا تفتح الا لتغلق ويلقى بمسيريها ومعلميها في السجون . هذا كله بالاضافة الى اعتبار اللغة العربية لغة اجنبية في درجة اقل من اللغات الاجنبية الاخرى . ومن الواضح ان الاستعمار لم يقف هذا الموقف من اللغة العربية الا لادراكه ان العلاقة بين هذه اللغة وبين الشخصية الوطنية الجزائرية علاقة عضوية يستحيل معها القضاء على احداهما دون الاخرى . وفعلا فان الشعب الجزائري ظل يعتبر اللغة العربية رمزا لحياته الوطنية ، ومقوما من مقومات شخصيته التي لا ينبغي التفريط فيها بحال . وهذا ما يفسر انكماشه فيما يخص تعلم اللغة الفرنسية في عهد الاستعمار ، التي كان يعتبرها بحق منافسة للغته القومية ، كما يفسر كذلك تحمله كل شيء في سبيل الحفاظ على لغته ، وتعلمها بكل الوسائل والطرق ، يبنى من اجلها المدارس بالمآت رغم فقره واحتياجه ، ويحول الزوايا والمراكز والمساجد الى حلقات دروس تعلم

فيها اللغة العربية ، ويبعث بابنائه الى تونس والمغرب الاقصى والبلدان العربية الشقيقة الاخرى استزادة من فقه اللغة واصول الادب والدين ٠ وما اهتمام الجزائريين فى عهد الاستعمار بتتبع اخبار ابنائهم الطلبة فى البلـدان العربيـــة ، والاعتزاز بهم بعد رجوعهم الى مساقط رؤوسهم ، والالتفات حولهم رغم تهديد الادارة الاستعمارية لهم ، الا دليل قاطع على ربط الجزائرى العادى بين ثقافته العربية وبين حياته الوطنية وحضارته بصفة عامة ٠

لم يخطىء الشعب الجزائرى فى فهم هـــذه العلاقة بين الشخصية الوطنية واللغة العربيـــة كما لم يخطىء الاستعمار كذلك فى هذا الفهـم ، فقد افاد تعلم اللغة العربية واصول التاريـــخ والحضارة العربية افادة كبرى فى نشأة الوعى الوطنى بين الجماهير ، وتطوره بسرعة عجيبـــة أدت الى تأصل النزعة الثورية فى هذه الجماهير ٠ ولعل موقف المصلحين والسياسيين الجزائريين من الشخصية الوطنية واللغة العربية مما يدل على فهمهم لهذه العلاقة التى سبق الحديث عنها ٠ فقد يذكر الكثير ان المصلحين والوطنيين لم يكونوا دائما على اتفاق٠وفتح الجرائد الوطنيةوالاصلاحية قبل ثورة نوفمبر وحده يبين لنا جانبا من المعارك التى كانت تدور بينهم حول تزعم الامة الجزائرية ولكن بالرغم من هذا النزاع،ومن المعارك الشديدة التى كثيرا ما ادت الى السباب والشتم ، فـــان مواقفهم كانت مع ذلك تقوم على احترام المبادىء التى كان يمثلها كل منهم ٠ وهكذا لم نجد وقوفا واضحا من طرف أهم الشخصيات الاصلاحية ضد الحركة الوطنية كمبدا ، ولا وقوف الوطنين ضد المصلحين باعتبارهم حركة تخدم اللغة العربيـــة والثقافة الاسلامية ٠ وهذا لان كلا منهم كـــان يعرف ان الوطنية التى هى عنوان الشخصيـــــة الثائرة ، واللغة العربية التى هى تعبير صـــادق عن هذه الشخصية ، لا يمكن ان تتعاديا مبدئيا ، وان الاولى لهما ، ان لم تستطيعا السير معا فـــى حركة واحدة ، ان تسيرا متوازيتـــين نحو غايـــة واحدة ، هى تحرير االشعب الجزائرى من جميع أنواع التسلط الاستعمارى ٠ وهذا ما حصـــل بالفعل الى ان دقت ساعة الثورة ، فصهرت جميع الحركات الاصلاحية والوطنية فى حركة تاريخية واحدة ، هى حركة التحرير الشامل ٠

فالمعركة التى كانت دائرة بين الشعب الجزائرى وبين الاستعمار اذن كانت معركة حول الشخصية الجزائرية واللغة العربية ٠ وكما كان الاستعمار لا يفرق بينهما فى موقفه العدائى من الشعـــب الجزائرى ، كان شعبنا كذلك لا يفرق بينهما فى صموده ومقاومته وحفاظه على مقوماتـــه ٠ فمـــن نجح يا ترى فى هذه المعركة التى دامت ما يقرب من قرن ونصف ؟ فهل نجح الشعب الجزائرى ، فحافظ على شخصيته ولغته الى يوم الاستقلال ، أم نجح الاستعمار فقضى على هذه الشخصيـــة وهذه اللغة ؟ الواقع ان الاجابة على هذا السؤال يتخذ **شكلين اثنين** : شكلا عاما يلاحظ فيه بكـــل سرور نجاح الشعب الجزائرى بالرغم من كـــل ما سلط عليه من تهديد ، واغـــراء ، واضطهاد ،

وتفقير ، وتقتيل في كثير من الاحيان ، فقد استقلت الجزائر سنة 1962 وشعبها عربي في لغته ودينه وقوميته وآماله ومطامحه • والدليل على هذا انه ما كادت علائم الاستقلال تبدو في الافق حتى ظهر الشعب الجزائري في شوارع المدن كأقوى ما يكون ، وهذا رغم اسلحة الاستعمار ودباباته • ولم تكن مظاهرات 1961 في شوارع المدن الكبرى الا تشخيصا لهذه النفسية التي سبق الحديث عنها ، نفسية الاباء والتضحية والحفاظ على التقاليد ، وهي كما سبق من اهم مقومات شخصيتنا •

بيد ان هناك جانبا آخر من الجوانب ، وهو لحسن الحظ لا يخل بالجانب السابق•وهذا الجانب الثاني هو ان الاستعمار كان قد نجح في تشكيل بعض النفوس الجزائرية بالشكل الذي اراد ، وهذا بفضل ثقافته ولغته من جهة ، وعن طريق اغراءاته من جهة ثانية ، واعني ببعض النفوس الجزائرية ها هنا هذه الطائفة الجزائرية التي تثقفت باللغة الفرنسية وحدها ، ولم تطلع الاطلاع الكافي على الحضارة العربية ، بل لم تعرف عن هذه الحضارة الا ما يحط من قيمتها في نفوسهم • واذا عرفنا ان الاستعمار هو الذي كان يلقنهم تاريخهم في مدارسه وبلغته ، سهل علينا ان ندرك القدر الذي حصلوا عليه من الثقافة العربية ، والشكل الذي حصلوا به على هذا القدر • فهؤلاء الجزائريون رغم مشاركتهم في حركة الثورة ظلوا يحافظون على هذه النفسية الخاصة التي خلقها الاستعمار فيهم ، وانتظروا نهاية الحرب التحريرية ليعلنوا عن هذه النفسية في غير مواربة • وهم الذين وقفوا في طريق التعريب منذ سنة 1962 ، ولم يفتأوا يشيعون القيل والقال حول الدين الاسلامي الحنيف ، واللغة العربية ، والصبغة الشرقية لحضارتنا • وكانوا يهدفون من وراء ذلك الى اقتطاع الشعب الجزائري من هيكله العام ، هيكل العروبة والاسلام • والذي زاد من خطورة هذا الموقف هو وجود هؤلاء الاخوان – لثقافتهم وحاجة الجزائر اليهم – على رأس الحركة التربوية في بلادنا • فمنذ سنة 1962 الى سنة 1969 تقريبا ومسؤولية التربية الوطنية بين ايديهم•وبالرغم من اخلاص وزراء التربية الوطنية في حكومتنا،وقصدهم الى احلال اللغة العربية مكانتها،فانهم لم ينجحوا الا قليلا فيما ارادوا ، اذ كانوا دائما يصطدمون بهذا الاطار المسير الذي كان يقدم لهم الامور بالصورة التي يريد،والسبب واضح فيوقوفهؤلاء الاخوان ضد الاسراع بالتعريب ، وهو انهم يخشون من تسلط اللغة العربية على مقاليد التعليم والتسيير، فيفقدون المسؤولية التي يتمتعون بها في النظام التربوي • فهم لا يفرقون بين مصالحهم الخاصة ومصلحة الشعب الجزائري • على انهم مخطئون شديد الخطأ في تخوفهم من نجاح التعريب ، فهذا لا يعني الافراد مهما كان تصورهم للاشياء ، ولا يهدف الى تحقيق مصلحة طائفة معينة ، بل يهدف الى ارجاع الامور الى مجاريها ، وتمكين الجماهير العربية من متابعة المسيرة الثورية التي تسيرها بلادنا • وهكذا نستطيع ان نؤكد ان الشخصية

الوطنية للشعب الجزائرى قائمة كما ارادها الله والتاريخ ، وان اللغة العربية ما تزال هى المعبر الوحيد عن هذه الشخصية فى أحسن الظروف كما عبرت عنها فى أحلكها .

ولكل ما سبق كان على الحكومة الجزائرية منذ قيامها فى آخر سنة 1962 ان تفكر فى قضية اعادة اللغة العربية الى مكانتها التاريخية المشروعة ، وان تبحث عن احسن الطرق للقيام بهذه العملية فى احسن الظروف . ولم يكن للحكومة الجزائرية ان تفعل غير هذا ، لان العلاقة بين اللغة والشخصية التى سلف الحديث عنها ، هى التى تفرض عليها مثل هذا الموقف ، فالجزائر استرجعت سيادتها بعد كفاح مرير ، وتضحيات لا نظير لها فى حروب التحرير ، وهى لا تريد ان تفقد هذه السيادة من جديد ، بل تريد ان تمتن استقلالها السياسى باستقلال اقتصادى وثقافى كامل ، وهذا لا يكون الا بالاعتماد على نفسها فى جميع الميادين ، وبالمحافظة على شخصيتها واختياراتها الوطنية . وقد رأينا قبل ان المحافظة على الشخصية الوطنية لا يمكن ان يكون دون المحافظة على اللغة، والعكس صحيح . فالسبيل الوحيد للمحافظة على مكتسبات الثورة اذن هو افساح المجال للغة العربية فى نظمنا التربوية ، وفى حياتنا اليومية ، لانه بفضل هذه اللغة وحدها يستطيع الجزائرى ان يعبر عن آماله ومطامحه ، فتقوى عاطفته الوطنية ، ويعمق وعيه بالمرحلة التى قطعتها الثورة ، وبالمرحلة التى عليها ان تقطعها فى ظل الاستقلال .

فاذا اضفنا الى هذا الاعتبار خروج الجزائر من الكفاح الوطنى ، أى احتفاظها بالمبادىء التى كانت تكافح من أجلها، عرفنا انه لم يكن فى امكان الحكومة الجزائرية ان تغفل هذه المسؤولية الوطنية مسؤولية احلال اللغة القومية مكانتها فى المدرسة الجزائرية ، وفى الادارات والمؤسسات المختلفة . وقد حاولت ان تنهض بهذه المسؤولية ، فادخلت اللغة العربية منذ فجر الاستقلال فى منهاج التربية. ولكن امكانياتها لم تكن تسمح لها بان تفعل شيئا كثيرا فى هذا الميدان ، فكانت السنتان الاوليان بالنسبة لتعليم اللغة العربية عبارة عن محاولة لاحلال الحق فى نصابه ، فلم تكن النتائج مرضية للمسؤولين لسببين : الاول انعدام الكتاب العربى فى ايدى المعلم، فضلا عن التلميذ، والثانى ضعف مستوى معظم الاطار الجديد الذى انخرط فى سلك التعليم لاول مرة . ولست فى حاجة الى التنبيه الى ان هذا الضعف كان عاما فى اللغة العربية والفرنسية معا ، ومصدره هو ان الجزائر اضطرت فى السنتين الاولى والثانية الى قبول حاملى الشهادة الابتدائية فى سلك التعليم ، وهو المستوى الذى لا يكفى لخلق معلم مقتدر . وبعد سنتين من الاستقلال اخذ هذا الاطار يتطور، وتشدد فى اجراء امتحان الانخراط فى سلك التعليم . غير ان هذا كله لم يفد كثيرا حركة التعريب ، فظلت القضية غامضة بالنسبة لكثير من المسؤولين الجزائريين ، وظهرت نزعات متباعدة فى كيفية تعريب التعليم ، وبرزت قضية ما اسمى « الازدواج اللغوى » ، وما دعى « بالاتجاه العلمى»

للمدرسة الجزائرية ، وألح بعض الاخوان الذين سبقت الاشارة اليهم على ان اللغة العربية غير متطورة ، أى انها لا تكفى كأداة علمية فى السير بالجزائر الثورية فى طريق التقدم·وهذه النزعات المخلصة منها وغير المخلصة،هى التى كانت السبب الرئيسى فى كون التعريب لم يحقق أهدافه المنتظرة الى اليوم ، وظل يحبو عوض ان يسير سيرا ثوريا ومضبوطا الى الامام ·

لقد صرح الرئيس بومدين مرة بان «التعريب مطلب ثورى لا هدف فقط » · وفى هذا التمييز بين المطلب والهدف ما يبين شعور الدولة بضرورة التعجيل بتحقيق التعريب ، اذ ان كونه «مطلبا» يمنحه صفة المشروعية الثورية ، ويجعله فى مقدمات اهتمامات الثورة ، وتتخذ من اجل تحقيقه جميع الوسائل الضرورية ، فى حين ان كونه « هدفا » لا يعنى اكثر من انه احد الاهداف التى تسعى الثورة الى تحقيقها ، وقد يكون من الاهداف البعيدة التى يمكن ان تنتظر · فاذا اضيف الى هذا التحديد الرسمى لقضية التعريب ان المدرسة الجزائرية يجب ان تكون **ديمقراطية ، وان تكون** فى خدمة الجماهير ، أى فى خدمة الاهداف التى تنتظر هذه الجماهير تحقيقها بالسرعة المطلوبة ، اذا اضفنا هذا عرفنا مدى ضرورة التعجيل بتحقيق التعريب ، فديمقراطية التعليم تقتضى ان تكون الاداة التعليمية لغة الجماهير ، اى اللغة التى يمكن ان يتابع بها مجموع الشعب الجزائرى تعلمه بمساواة كاملة · وهذه المساواة لا يمكن ان تحصل بين طفل المدينة وطفل القرية الا بلغة واحدة ، هى اللغة القومية · ثم اننا نريد ان تكون الثورة من الشعب والى الشعب ، أى ان تكون من صنع الشعب · وهذا يتطلب من هذا الشعب ، وعيا بالمسؤولية ، وفهما للمرحلة التى تجتازها امتنا ، واستعدادا للعمل الواعى الجاد·وكل ذلك يكون بالتعليم والتوعية ، وكل من التعليم والتوعية لا يفيد الا اذا كان باللغة التى تفهمها الجماهير ، وهى اللغة العربية · وهكذا نرى ان التعريب كان منذ الاستقلال ضرورة لم يدع اليها الاخلاص لارواح الشهداء فحسب ، بل دعت اليها كذلك حتمية الدفاع عن السيادة الوطنية ، والرغبة فى تمتين الشخصية الوطنية التى تضررت اثناء العهد الاستعمارى ، كما تطلبتها استراتيجية الثورة الاشتراكية التى تستند اليها مسيرتنا الوطنية ، ويؤمن بها شعبنا · فهل وفقت بلادنا الى تحقيق هذه الضرورة فى التعريب ؟

لا بد ان اعترف بان حركة التعريب لا تسير وفق تخطيط ثورى هادف · وهذا للاختلاف فى النزعات الذى اسلفت الحديث عنه · واهم هذا الاختلاف يكمن فى النظر الى اللغة العربية ، اذ يتفق الجميع على ان من حق المدرسة الجزائرية ان تتجه اتجاها علميا ، لان هذا الاتجاه هو الذى ينقذ بلادنا من حالة التخلف التى ورثناها عن العهد الاستعمارى البائد · واذا كنا نتفق الى هذا الحد فاننا نختلف بعد ذلك فى الاداة اللغوية التى ينبغى اعتمادها فى هذا الاتجاه ، فدعاة التعريب ، والغيورون على الشخصية الوطنية ، ومعتنقوا الايديولوجية الاشتراكية

كل أولئك يرون ان لا سبيل الى تطوير بلادنـــا علميا الا فى اطار لغة قومية قوية ، ويعتقدون ان هذه اللغة من الاستعداد للتطور بحيث تستجيب لاهداف ومطالب ثورتنا ، لا سيمـــا وان بلدانا شقيقة سبقتنا الى التجربة ، واظهرت ان لغتنـــا لا تختلف عن اللغات الحية الاخـرى فى شئ • وافراد هذه النزعة ، وهم يشكلون الاغلبيـــــة الساحقة من المواطنين الواعين ، يرون ان استخدام لغة اخرى مكان اللغة القومية كفر بروح الثورة ، وتنكر للمبادىء التى سقط من أجلها ما يربو على المليون شهيد • وهم لذلك لا يقبلون أى تنازل فى هذا المطلب الثورى على حد تعبـــير الرئيس بومديـــن •

بيد ان النزعة الثانية ترى غير هذا ، وتؤكد لمن يريد ان يسمعها ان من المخاطرة بالثـــورة الجزائرية اعتماد اللغة العربية كأداة تعليم، وتضيف الى هذا ان اللغة الفرنسية قد اظهرت قدرتهـــا على استيعاب العلوم المختلفة ، وهى موجـــودة بالفعل فى المدرسة الجزائرية ، فلم لا تتخذ أداة لتعليم العلوم ، على ان تخصص اللغة القوميـــة بتعليم الدين والتربية والعلوم الانسانية الاخرى ؟ ان افراد هذه النزعة لا يشكلون الا أقلية ضئيلة فى نظام تربيتنا ، غير انها أقلية ديناميكية تشغل مسؤوليات عليا فى وزارتى التربية والتعليم • ولهذه الديناميكية وهذه المكانـــة الادارية التى تشغلها استطاعت ان تعطل اتخاذ موقف ثـورى فى قضية التعريب ، فكلمتها مسموعة فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، وكذلك فى وزارة التعليم العالى ، وهى التى تضع المناهج ، وتقدم التقارير ، وتفرض من خلال هذه المناهج وهــذه التقارير وجهة نظرها التى ليست دائما فى صالح اللغة العربية • والغريب فى الامر انها استطاعت ان تجعل حركة التعريب تقف على ابواب السنة الثالثة ابتدائى ، وان تفرض تعليم الحساب باللغة الفرنسية ابتداء من السنة الخامسة • وبالنظر فقط الى المرحلة الابتدائية يتضح ان وجهة نظـر هاته الطائفة من المواطنين مطبقة حرفيا فى نظام تعليمنا ، فالطفل يتعلم باللغة الام وحدها فـى السنتين الاولى والثانية ابتدائى ، لانه لا خطــر منها فى نظرها على سير التعليم فى المستويات التالية • فاذا ما دخل الطفل الى السنة الخامسة ، السنة ما قبل الاخيرة فى اعداده لدخول المرحلة التكميلة عادت العربية غير قادرة فى نظـر هذه الطائفة ، لان تعليم الحساب مثلا يصبح شيئـــا جديا لا تقدر على تأديته غير لغة متطورة هى اللغة الفرنسية • ومن هذا الوقت المبكر ، بل ابتداء من السنة الثالثة التى يصطدم فيها الطفل باللغة الفرنسية لاول مرة ، تبدأ الصعوبات فى المدرسة الجزائرية ، صعوبات مصدرها فرض لغة اجنبيـــة على طفل صغير السن والعقل • ولا غرابة اذا راينا بعد ذلك هذه الصعوبات تلاحق الطفل فى اللغتين الى آخر مرحلة من التعليم • فهو فى الغالـــب لا يهضم أية لغة بطريقة مرضية ، ويظل يبحـث له عن طريق بين اللغتين فلا يفلح الا فى تعميـق احساسه بالعقبات التى تحيط به ، ولا يستطيع منها فكاكا •

ان من بين العقبات التى يضعها هؤلاء الاخوان فى طريق التعجيل بالتعريب عقبة ما يسمونه « الازدواج اللغوى » ، وهو شىء ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قبله العذاب • ويعنون به ان تأخذ الجزائر بلغتين اثنتين فى نظامها التربوى ، فلا نفرط فى لغتها القومية ، ولا فى اللغة الفرنسية التى تشكل النافذة الحقيقية لثقافتها على العالم الخارجى • وهم فى هذا يعتمدون على ان الثقافة الحية المعاصرة لا تقوم فى البلدان المتقدمة على لغة واحدة ابدا . وكثيرا ما يضربون مثلا بسويسرا التى يتكلم شعبها اكثر من لغة واحدة ، وببلجيكا التى يتكلم مواطنوها الفرنسية **والفلمانية** • وهنا يكمن الخطأ ، وهو ان هؤلاء الاخوان يجرون قياسا مع وجود الفارق ، فشعب سويسرا لا يتكلم اللغات الثلاث او الاربع بنفس المستوى ، والفرنسية والفلمانية لا يتعايشان بنفس الدرجة فى نفس الصف • فاذا اراد هؤلاء الاخوان بازدواجهم اللغوى ان يتحدث الطفل الجزائرى اللغتين فى نفس الوقت ، وبنفس المستوى ، فهذا شىء لم يقل به احد ، ولا سيما بالنسبة للاطفال • فاذا ارادوا بذلك ان تتوزع اللغتان المواد الدراسية بالسوية ، فهذا شىء ينطوى على قصد الاضرار باللغة القومية ، لان القائلين بهذا سيضيفون اليه ان المواد العلمية يجب ان تكون من نصيب اللغة المتطورة علميا ، وهى عندهم اللغة الفرنسية طبعا ، وان المواد الادبية والاجتماعية من حقها ان تقصر على اللغة القومية ، لعلاقة هذه المواد بالشخصية الوطنية اولا . ولعجز اللغة العربية فى نظرهم عن تادية المواد العلمية من جهة ثانية • وهذه النظرة الى اللغتين ، وهذا التحكم فى توزيع المواد الدراسية عليهما ، هما اللذان سميتهما « عذابا » تارة ، و « اضرارا باللغة العربية » تارة اخرى ، لان مثل هذا الموقف من اللغة القومية سيجعلها لغة اقليمية تفيد فى التخاطب والحياة اليومية ، ليس غير ، وهو ما سيحيلها مع الايام الى لهجة محلية عاجزة عن تحمل اية رسالة انسانية • ومن الواضح أن قبول هذا المصير للغة العربية يعد تراجعا خطيرا عن اهم مبدا من مبادىء ثورتنا ، وهو مبدأ المحافظة على الشخصية الوطنية بما فيها من دين ولغة وتقاليد •

ولكنى ساكون مقصرا اذا انا لم اسجل فى هذه المحاضرة الخطوات الايجابية التى حققها التعريب فى السنوات الثلاث الاخيرة ، فقد استطاعت وزارة التعليم الابتدائى والثانوى بفضل وزيرها الديناميكى ، وامينها العام الصديق عبد الحميد مهرى ، ان تخطو بالتعريب بعض الخطوات العملية التى سيكون لها اثر مؤكد على نظام التربية الوطنية • وتتلخص هذه الخطوات فى تعريب الشعبة الادبية ابتداء من السنة الاولى ثانوى تعريبا كاملا ، اذ بفضل هذا التعريب الكامل لشعبة هامة من شعب التعليم الثانوى سيزداد عدد المترشحين المعربين لامتحان الباكالوريا سنة بعد أخرى ، وفى السنة المقبلة سيكون المترشحون لنيل هذه الشهادة كلهم عربيى الثقافة ، ويسقط بنفس المناسبة ما يسمى

بالباكالوريا المزدوجة ، وهو شيء ذو خطر علـى مستقبل التعليم الجامعي ، اذ ستلتحق اغلبيـة الحاصلين على هذه الشهادة بفروع اللغة العربيـة وعلومها بالجامعة • ومما يذكر لوزارة التعليـم الابتدائي والثانوى انها عربت ثلث اقسـام الشعبة العلمية فى السنة الاولى ثانوى ، الامر الذى سيضطر الجامعة الى انشاء شعبة علميـة معربة لاستقبال الحاصلين على الباكالوريا العلمية المعربة • وهذا شيء سيكون له اثر كبير عـلى موقف المسؤولين من اللغة العربية ، فيضاعفون من مجهوداتهم فى ميدان التعريب • ويعـد من الخطوات الهامة فى تحقيق التعريب ما قامت بـه الوزارة من تعريب ثلث السنتين الاولى والثانية من المرحلة التكميلية ، لان هذا التعريب سيمكن نسبة هامة من التلاميذ من التشبع بروح الثقافة العربية منذ بداية المرحلة التكميلية ، ويضاعـف عدد التلاميذ الذين سيلتحقون بالشعبتين الادبية والعلمية المعربتين فى المرحلة الثانوية • كـل هذه الخطوات التى حققتها وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ستضطر المسؤولين على التربية والتعليم الى ان يعدلوا من نظرتهم الى اللغة العـربية ، وبالتالى الى ان يتخذوا مواقف اخرى اكثر ثورية فى صالح هذه اللغـة •

وتبين الخطوات التى سبق الحديث عنها المبدأ الذى اختارته وزارة التعليم الابتدائى والثـانوى فى مجابهة قضية التعريب ، فهى لا تريد ان تتعجل الامور ، لان العجلة قد تؤدى الى بعض الانتكاسات وقد سمعنا حتى مللنا الحديث عن تراجع الاشقاء المغاربة والتونسيين عن بعض المواقف التـى اتخذوها فى ميدان التعريب • والتعليل الشائع لهذا التراجع هو ان هذه المواقف اتخذت دون دراسة كافية للمخاطر التى قد تنجر عنـها للاجيال المقبلة • ولا يشك احد فى ان مسـؤولى وزارة التليم الابتدائى والثانوى لا يريـدون ان يلحقوا اى ضرر بالاجيال الجزائرية الصاعدة، ولهذا يحتاطون اشد الاحتياط فى كل خطوة يخطونها ، ولا يخطون الخطـوة التالية حتى يتأكدوا مـن نجاح الخطوة السابقة • وهذا الاحتيـاط هـو الذى جعلهم يميلون الى التعريب النسبى فى السنة الاولى تكميلى والسنة الاولى ثانوى ، ويرفضـون التعريب حسب المواد ، وبصورة شاملة • ان هذا التعريب النسبى يسمح لوزارة التعليم الابتدائى والثانوى باعداد الاطارات الضرورية ، ويمـكن فى الوقت ذاته بقية الاقسام من متابعة الدراسة باللغة الفرنسية • وهو شيء لا باس به اذا نظرنا اليه من حيث العمل والتطبيق ، ولكنه شيء مضر من حيث مكافاة الفرص ، لان المقياس الذى تختار بموجبه النسبة المعربة مقياس غير سليـم ، ولان هذا العمل يثير بين تلاميذ المستوى الواحد نوعا من النعـرة والتنافس نريد الا يحدث بين جيل واحد صاعد • وكان فى امكان الوزارة ان تنتهج نهجا آخر فى اختيار النسبة المعربة ، كان تلحق بالاقسام المعربة مثلا كل تلميذ يقل معدلـه فى الفرنسية عن عشرة ، سواء كان قويا فى العربية او متوسطا • غير ان هذا كله شيء ثانـوى بالقياس الى ما يجب ان يتخذ من موقف ثـورى

واضح فى قضية التعريب ، لان مثل هذا الموقف الثورى الواضح هو الذى يملى على المسؤولين الخطة العملية المناسبة · وما دمنا لم نتخذ هذا الموقف الثورى فان التعريب سيظل عملا اجتهاديا اكثر منه خطة محددة توفر لها الميزانيات ، وتعد الاطر والمناهج · وقبل اقتراح بعض المواقف العملية للاسراع بتحقيق التعريب فى اسرع وقت ممكن ، وفى ظروف حسنة ، اريد ان اشيد بموقف الصديق عبد الحميد مهرى من اللغة القومية ، موقف يعد ردا حاسما على النظرة القائلة بعجز اللغة العربية عن استيعاب العلوم·

يتلخص هذا الموقف الذى عبر عنه الاخ مهرى فى المحاضرة التى القاها فى 29 ماى 1970 ، وعلق عليها محاضركم الليلة فى 1 جوان من نفس السنة فى جريدة الشعب ، فى القول بضرورة الاتفاق على « الاداة الاساسية للتعليم » فى المدرسة الجزائرية ، وعلى نوع التعايش الذى يجب ان يقوم بين اللغتين القومية والفرنسية · والموقف يمتاز فى الواقع بالشجاعة وعدم التهرب من مجابهة الحقيقة العارية ، فالاخ مهرى لا يريد اقل من تحديد « اللغة التعلمية » · ومن الطبيعى ان يختار الاخ مهرى اللغة العربية كأداة تعليمية · وموقفه الى هذا الحد موقف ممتاز يستوجب منا كل تقدير ، غير انه يعود فيطالب باقامة علاقة جديدة بين اداة التعليم ، وهى اللغة العربية ، وبين اللغة الفرنسية التى لا يمكن انكار وجودها فى المدرسة الجزائرية · ولو قصر الاخ مهرى هذه العلاقة على المرحلة التكميلية لكان موقفه واضحا وعلى غاية من الاهمية · ولكن الامين العام لوزارة التعليم الابتدائى والثانوى يرى اقامة هذه العلاقة بين اللغتين فى المرحلة الابتدائية ، وهو ما اضعف قوله السابق بجعل اللغة العربية « اداة تعليم » ، لان مثل هذه النظرة هى التى سمحت ببقاء اللغة الاجنبية فى المرحلة الابتدائية ، وبجعل تدريس الحساب والمواد العلمية من نصيب هذه اللغة · فى حين ان التعريب ينبغى ان يتجه اتجاها آخر اكثر وضوحا · بيد ان هذه الملاحظة العابرة لا تقلل من اهمية المجهودات العظيمة التى يقوم بها الاخ مهرى فى خدمة اللغة العربية فى باقى المراحل التعليمية ·

اريد ان اختم هذه المحاضرة المتواضعة باقتراح بعض الحلول العاجلة للخروج من المازق الذى تتخبط فيه قضية التعريب · وقبل ذلك اؤكد من جديد ان الحلول التى اتخذت الى اليوم ، والحلول التى سأقترحها فى هذه الخاتمة ، سوف لا يكون لها المفعول المنتظر الا اذا طبقت فى اطار موقف ثورى يقوم على اساس اعتبار اللغة العربية « الاداة الوحيدة للتعليم فى المدرسة الجزائرية »، على الا تكون اللغة الفرنسية اكثر من لغة اجنبية من بين لغات اخرى يختار منها الطالب عند ما يدخل السنة الاولى او الثانية من المرحلة التكميلية

ارى ان من الضرورى مواصلة التعريب تدريجيا فى المرحلة الابتدائية ، بحيث يعم التعريب السنة الثالثة ثم السنة الرابعة وهلم جرا ، لان هذا الحل وحده هو الذى يخرج الطفل الجزائرى من البلبلة التى تحيط بدراسته ،

فيكون فى امكانه مواصلة هذه الدراسة فى ظروف عادية كسائر اقرانه فى البلدان المتقدمة • وهو ما سيسمح للمدرسة الجزائرية كذلك بتحسين مستوى اطفالنا ، وتمكينهم من المبادىء الاساسية الاولى للغة الام بطريقة مرضية • واعرف ان مثل هذا التعريب عند ما ينتهى فى المرحلة الابتدائية سيستلزم منهجا جديدا فى المرحلة التكميلية ، لان تعلم الطفل لمادة الحساب الى السنة الاولى تكميلى باللغة القومية سيجعله قادرا على مواصلة هذه المادة وغيرها بنفس اللغة • وبهذا يكون على وزارة التعليم الابتدائى والثانوى ان تنظر نظرة جديدة الى المكانة التى ينبغى للغة الفرنسية ان تحتلها ، او بعبارة اخرى سيكون عليها ان تنظر فى طريقة التعايش بين اللغتين ابتداء من السنة الاولى او الثانية من المرحلة التكميلية ، لا قبل هذه المرحلة • وبهذا فقط تتوحد المستويات , وتنشأ المدرسة الجزائرية الموحدة • ينظر الى مكانة اللغة الفرنسية من نظام تعليمنا فى المرحلة التكميلية ، اما على انها لغة اجنبية كسائر اللغات الاخرى الحية ، واما على انها لغة اجنبية محظوظة • ففى الحالة الاولى يخير الطالب بينها وبين اللغات الاجنبية الاخرى ، وفى الحالة الثانية يطالب التلميذ باختيارها ودراستها كلغة اجنبية محظوظة الى آخر المرحلة التكميلية ، وفى السنة الاولى ثانوى (الخامسة ثانوى سابقا) يختار الطالب لغة اجنبية ثانية • وفى كل الحالات ينبغى ان تدرس اللغة الفرنسية كلغة اجنبية حية ليس غير ، اذ جميع المواد يجب تدريسها باللغة الام ، اللغة التى درس بها الطالب فى المرحلة الابتدائية • اعرف ان مثل هذا الحل سيضطر بلادنا الى اعداد الآلاف من الاطر المعربة • غير انه هو الحل الوحيد الذى يخلق المدرسة الجزائرية , ويمنح هذه المدرسة ذاتية تتميز بها عن المدرسة الفرنسية القديمة • واعداد الاطار ليس من الصعوبة بحيث يظن بعض الاخوان • والصعوبة الكبرى.انما تكمن فى ايجاد عشرات المراكز لاعداد المعلمين، وفى احضار الاساتذة الاكفاء لهذه المراكز • ولا اعتقد ان ايجاد الاساتذة والمراكز مما يعسر على حكومة ثورية تعالج شؤون البلاد بحزم وتصميم • اما الطلبة الذين سيقبلون فى هذه المراكز فلا اعتقد ان العثور عليهم يشكل مشكلة صعبة الحل ، فالشبان الذين يحملون الشهادة التكميلية يعدون اليوم فى بلادنا بالآلاف • وانما ينبغى ان يكون قبول ترشيحهم حسب خطة مدروسة مسبقا ، حتى يكون اعدادهم مفيدا للمدرسة الجزائرية،وحتى يملأوا الفراغ الهائل الذى نحس به فى الاطار العربى • ولا اشك فى ان تخطيطا هادفا وثوريا لتكوين الاطار العربى سيقلب الوضع رأسا على عقب فى بضع سنوات ، وسيقضى قضاء نهائيا على الادعاء القائل بعجز اللغة العربية فى المواد العلمية •

اقترح كذلك ان تنظر وزارة التعليم العالى والبحث العلمى فى طريقة جديدة لقبول الحاصلين على الباكالوريا فى الجامعة ، وان تفرض فى اطار هذه الطريقة على هؤلاء الطلبة كيفما كان

الفرع الذى يختارونه سنة تحضيرية قبل الليسانس يدرسون فيها اللغة العربية وحدها ، لان اغلب هؤلاء الطلبة ياتون مزدوجي اللغة ، اى ضعيفى المستوى فى اللغة القومية . وبهذه الطريقة تنحل مشكلة التعريب الذى يفرض على هؤلاء الطلبة فى فروع اللغات الحية والعلوم والطب والحقوق وما اليها . فسنة دراسية واحدة فى اللغة العربية كفيلة بتحسين مستوى هؤلاء الطلبة وجعلهم بعد ذلك قادرين على استخدام اللغة القومية فى مباشرة مهنهم التى يتخصصون فيها . وان مثل هذه الطريقة ستسمح لكثير من الطلبة بالقيام بتدريس العلوم مثلا فيما بعد باللغة العربية ، فنكون قد ربحنا عددا لا باس به من الاطر لمواصلة قضية التعريب بنجاح وفعالية .

هذه هى بعض المقترحات التى اراها ضرورية كمرحلة عملية عاجلة فى انتظار موقف جذرى يضع اللغة العربية فى مكانها الى الابد . واعود فاؤكد ان العمل بهذه المقترحات لا يتطلب اكثر من العزيمة والتصميم وبعض التضحيات المادية. وقد علمتنا بلادنا الا تبخل بشىء فى سبيل خدمة القضايا الوطنية الاساسية . واعتقد ان بلادنا ستزداد رفعة فى عين الامة العربية اذا ما قامت بهذه الخطوات التى تطوى صفحة الماضى الى الابد ، وتفتح صفحة جديدة يظهر فيها الشعب الجزائرى كأقوى ما يكون وطنية وايمانا بنفسه ومستقبله .

وبعد ، فهذه محاضرة ما هدفت منها الى انتقاد احد ، وانما قصدت من ورائها الى توضيح الحالة التى وجد عليها التعريب خلال السنوات الاحدى عشرة الماضية ، والى تبيين العقبات التى ما تزال تقف فى طريق اللغة العربية ، والتى يجب ان تزال بحزم وتصميم حتى يظهر الشعب الجزائرى كما هو فى الواقع ، وكما كان فى سائر العصور الماضية التى عرف فيها الفشل فلم يؤخره عن واجبه الوطنى ، وذاق النصر فلم يحمله على ترك النظرة الواقعية للاشياء . وان شعبا خاض حربا تحريرية عرف التاريخ قليلا من مثيلاتها لجدير بان يخوض ثورة التعريب فى ثقة بالنفس ، وايمان بالنصر المؤكد ، والله الموفق فى الاول والآخر .

والسلام .

التعريب

عبد القادر حجار
مفتش بوزارة التعليم
الابتدائي والثانوى

ان موضوعى ليس محصورا فى التعريب داخل المدرسة فقط ، بل يتعداه لميادين اخرى وعوامل اخرى لنرى منها ما كان مناصرا ودافعا للنجاح ، وما كان مثبطا ودافعا للفشل ، وأحاول ان أنقل الواقع بكل آلامه وويلاته كواحد عاشه لحظة بعيدا عن اصطناع المناهج واتباع الترقيم ، تاركا الواقع يتحدث بكل مرارة وانفعال ، ولست ناقلا الا ما أعتقده وأعمل له وأستعد للدفاع عنه بكل ما يتطلب ذلك من جهد واجهاد ، ويبدو لاول وهلة ان الكلام عن موضوع مثل هذا أصبح مملا ومعادا لما كثر فيه من لغط وخلط ، ولما دار فيه من جدال ونزال، وهو موضوع على اى وجه قلبناه اثرنا حساسيات عديدة ومتنوعة ، وكلما حاولنا

الموضوعية والابتعاد عن الذات الا وجدنا انفسنا منغمسين فيها ، متحدثين بها وعنها ، لان اللغـة ليست وصفا لمسميات الجوامد من الصخـور فحسب ، بل هى احسن وسيلة معبرة عن خلجات الشعور ، بل هى بطبيعتها شحنات نفسية مليئة بالآمـال ، متفاعلة بتقلب الظروف والاحوال ، والالفاظ كالانسان حيوات متجددة على طـريقة التناسخ فى فلسفة الهنود ، تسمو فى لحظات سمو النبوة والاشراق ، وتتية فى لحظات أخرى تيهان التشرد والهلاك ، ومن هنا تكون مهمـة الباحث صعبة ومعقدة ، لان حديث اللغـة باللغـة هو : حديث بالذات عن الذات ، وخاصـة اذا كانت العلاقة بين الذات وذاتها علاقة نرجسية تتحـول من واقعها الى واقع تصنعه الاحلام والخيالات ، وتنميه وتباريح العشق والهيام.

* * *

اللغـة ظاهـرة اجتماعية تتقدم بتقدم شعوبها .

ان اللغة العـربية كجميع اللغـات الحضارية ظاهرة اجتماعية ووعاء جامـع لتجارب الشعوب العربية رفعـة وسموا او ضعة وانحطاطا تقدمت بتقـدم شعوبها فحوت كتاب اللـه لفظا وغـاية وسبرت أغـوار الفلسفات اليونانية ، والحكمـة الهندية ، ومعماريات الفرس ، بل لم تعجز عـن الفلك والطب والصيرفة ، ولا عن الهندسة والجبر والحساب ، ولا عن التاريخ والاخبار والانساب ، ولا عن الفقه والحديث والتفسير ، ولا عـن الادب شعرا ونثرا فى كل أغراضـه وفنونـه ، كان ذلك عندما كانت شعوبها راقيـة بالجهد ، متقدمـة بالجهاد ، مكتشفة بالاجتهاد ، ولما تحول الجهد الى كسل وتواكل ، والجهاد صار جهادا للنفس وقتلا لها بواسطة الصوفية المخالفة لتعاليم الدين الحنيف ، والاجتهاد اغلقت ابوابه بأمر من صاحب سلطان ، فتحجر التفكير وجمدت معه لغة التعبير ولم ينتبه العرب الا وهم تحت وطأة الاستعمار ، فلسبـت خـيرات البـلاد واستعبدت الارواح والاجساد ، ولم أجد صيحة أقـوى من صـرخة الفجيعة لشاعر النيل مغموسة بجرحات قلب الى كل القلوب النابضة بالعروبة والاسلام :

ايطر بكم من جانب الغـرب ناعب

ينادى بوادى فى ربيـع حيـاتى

واذا تركت العوامل الداخلية ورحت استشف أعمال المستشرقين ودراساتهم المغرضة والمنطلقة فى غائيـة عرقية وحقد صليبى أعمى ، فتحاملوا على اللغـة لكونها تعبيرا عن قرآن ، ورموها بالعقم والجمود ، واعتبروا القـواعد التى كانت دلالة البيان عـرقلة وعجـزا فى اللسان ، ولم يعترفوا لها بفضل الا من شذ منهم عن الاجماع ، فاذا كان فى العـربية بعض من صعـوبة فهذه الفرنسية التى اعتبرت بغير حق فى بلادنا لغـة العلم والخبر والادارة ، تشكـو كثرة الازمنـة والقوالب ، وصعوبة الاملاء والالقاء ، وكثـرة الحـروف وتنوعها وتقاربها فى اللفظ الـواحد ، فهل هانت لغة فرنسا عند الفرنسيين لانها صعبة وعويصة ، ولغة الصين أقوى حجة ، وافحاما لكل متقول أفاك ، لانها عبارة عن رموز لمسميات بصيغ كاملة تتجاوز العشرات من الالوف ، ولم تعرف حتى الآن الضرب على الآلة الراقنة ، ولم تقف صعوبة اللغة حاجزا فى طريق الوصول لصنـع القنابل الذرية والهيدروجينية .

وهذه اسرائيل التى طالما سميناها بالعصابة او بلدويلة ، ونعتنا جالها رجالها بنفايات الارض وشذاذ الآفاق ، أحيت لغتها بعد آلاف السنين من الموات ، وصيرتها لغة علم وادارة ، وفيما تقوله بعض الصحف : ان معهد ويزمان للعلوم النووية بتل أبيب تدرس فيه جميع المواد باللغة العبرية ٠ ومن هنا نلاحظ ان العبرة كثيرة والقدوة اكثر ،

ولكن ما فائدة القدوة بدون اقتداء ؟ وما قيمة العبرة بدون اعتبار ٠

التعريب بين الخصوم والانصار :

كفانى تجوالا ، فقد حان وقت الحديث عن جرح نتألم له وبه منذ عشر سنوات ، بل حول مريض أعراض الداء فيه واضحة ، واختلافنا فى تعريف التشخيص ، ذلكم المريض هو التعريب فى الجزائر ، يراه أهلوه وذووه ضعيفا يجب ان يقوى » هزيلا يجب ان يسمن ، مظلوما يجب ان ينصف ، ويراه الخصوم دخيلا متطفلا يجب ان يبعد ، مريضا معديا يجب ان يتقى ، شبحا مخيفا يجب ان يزول ٠ ومن هنا تعثر التعريب بين عين راضية لا تـرى فيه الا الكمال وبين عين ناقمة لا ترى فيه الا المساوئ والنقائص ، ودون ان أتوه فى الحديث عن محاربة فرنسا للعربية ، وتكوين لجان ابتداء فى ١٨٨٠ وظيفتها العمل الجاد لمحو ثلاثة عشر قرنا فى العروبة والاسلام فى الشمال الافريقى وايصال افريقيا المسيحية قبل الفتح العربى بتمسيح شمال افريقيا بعد الغزو الفرنسى ، ولا اتحدث عن حربها الضروس على المدارس العربية ولا من اعتبار تدريسها جرما يعاقب عليه القانون ، ولا من مخططات كثيرة ومتنوعة تهدف للقضاء على شخصية الشعب الجزائرى فى أعز مقوماته : الدين واللغة ٠ ومشروع قسنطينة سنة ١٩٥٨ والذى جعله ديجول مخططا للقضاء على الثورة الجزائرية كان من بين أهدافه تعميم التعليم بالفرنسية سنة ١٩٥٩ وفى اعترافه الشهير ١٩٥٩ فى تقرير المصير للشعب الجزائرى شريطة ان يضع الثوار سلاحهم ويجرى استفتاء شعبى عام بعد أربع سنوات ، ولما رفضت الثورة هذه الاغلوطة وتنبهت لهذه الاحبولة ، واصلت فرنسا حربها الاستعمارية لمدة أربع سنوات ٠ ما معنى ذلك ؟ انه تخطيط محكم يهدف لاشياء كثيرة منها فى اسوء الحالات التبعية التامة لفرنسا وفى أحسنها تهزم الثورة وتتحقق أكذوبة الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا٠ وبواسطة الثورة والتضحيات والعزم قضى الشعب الجزائرى على المخططات والوهم ، وكان النصر حليفنا ، ولم يكف الله المؤمنين القتال ، حيث انتقلنا من جهاد فيه جنود العدو على مرمى بنادقنا ، الى جهاد فيه فكر العدو داخل رؤوس الكثير من ابنائنا ٠

(أ) تسلل المتفرنسيين غير الثوريين لمراكز حساسة بأجهزة الدولة

خرجت البلاد من حرب ضروس دفعتها الحاجة لكل ابنائها ، ولم تصنع الاخلاص مقياسا لتسليم المناصب ، ولا الكفاءة ميزانا لعمل الرجال ، وصدفة وبلا مقدمات وجدت جماعة من المتفرنسين من غير الثوار نفسها فى أعلى مراكب السلطة والتوجيه ، وراحت تخطط من مصادر التشريع لمستقبلها ومصالحها على حساب المبادىء والاختيارات ، فجاءت كثير من القرارات حسب المقاس ، وهى واعية ان وصولها لمراكز السلطة

وصولية وانتهازية يأتى اليوم الذى فيه تسأل الحساب ، وبطبيعة العمل واغته انتشرت الفرنسية فى سنوات قليلة أكثر مما انتشرت فى عهد الاستعمار ، رغم المشاريع والتشريع ، ورغم المناهج والبرامج ، ورغم الدراسات والابحاث فى علوم النفس والاجتماع ، وأصبحت هذه الفئة متحدة بالمصلحة على التعريف المشهور فى السياسة « السياسة تصالح على المصالح » واذا كان الوفاق فيما بينها على المصلحة والحاجة فعدواة التعريب ومحاربته كانت بالطبع والضرورة أوصلتهم الفرنسية لقمة السلطة ، والجالس على القمم لا يخشى شيئا الا السقوط الى الحضيض رأسا دون ان يمر بالمنحدرات ، لانه وضع على القمة رأسا دون اجتياز المرتفعات أنصار الفرنسية وضعا ومصلحة كانوا فى القمة ، وأنصار التعريب واقعا ومكانة كانوا فى الحضيض ، أنصار الفرنسية هم المشرعون والمخططون والساهرون على التعريب وكان كل ذلك وليد دراسات وحسابات متعمقة ودقيقة تسير بالتعريب للنهاية المحدودة والمحددة بالفشل والاخفاق ، بل شرعوا للمعربين كذلك ، فابعدوهم عن مراكز القيادة فى كل شىء ، وسودوا ملفاتهم بملاحظات تسويدا وتشويها تهتز له الضمائر ، طعنا فى الكفاءة ، ومسا فى الشخصية ، وامتهانا للكرامة وتعقيدا للمشاعر ، عومل المعرب معاملة العبيد وهو حر ، وفرضت عليهم الغربة والعزلة بين أهليه وذويه ، وكان يرجى منه لكونه ممثلا للطبقات الكادحة ان يغير ويبدل أوضاعا وحقائق صنعها الاستعمار لخدمته وخدمة أذنابه ، كان يرجى ان يكون فى طليعة الثورة الاجتماعية لقلب المفاهيم المتعفنة رأسا على عقب ، كان يرجى منه ان يكون فى خط الهجوم اعتمادا على انه يمثل حضارة هذا الشعب وآماله وآلامه غير ان الطعنات وجهت له تباعا ، والصقت به نقائص الدنيا كلها ، من تحجر فى الفكر ، وجمود فى الطبيعة ، وتزمت فى السلوك ، ورجعية فى السياسة ، وتخلفا فى النظر ، وعجز فى الكفاءة ، ونقص فى الوعى وبعد عن المدنية ، وافساد للحضارة ، وما الى ذلك من الاوصاف والتشبيهات ، وأصبحت كلمة : Arabisant هى العنوان الشامل لكل هذه المطاعن والمثالب ، لغته لغة الشعر والخيال ، ولغة فرنسا لغة العلم والحضارة ، وهكذا صور العربى بعربيته ، ممثلا لسلبيات العصر ، وهكذا صور المتفرنس بفرنسته ممثلا لايجابيات العصر فى فهم الغفل والاغوار · لم تتوقف دعاياتهم عند هذا الحد ، بل امتدت لاخواننا الشرقيين الذين طلبنا منهم يد العون والمساعدة ، وتعللنا لهم فى سنوات الظلم والاضطهاد ، اولائك الذين وجدناهم بالامس سندا قويا فى أحلك الظروف القاسية ، تعرضوا من أجلنا للغزو والاحتلال وجعلوا أراضيهم واعلامهم ومواقفهم السياسية والديبلوماسية خدمة لقضيتنا ، وكان الغرب متعاضدا ضدنا وكانت أحلافه متحالفة علينا بالمال والرجال ، وبضربة لازب انقلب العدو صديقا ، وجاءت جحافله فى اطار التعاون « المحترم » ، قدمت للفاتحين الجدد من فرنسا وأروبا الهدايا والصبايا ، ولهجت الالسنة بعلومهم ومعارفهم وحولت ضعفهم الى قوة ، وسلوكهم الشائن الى خلق حميد ، ووفرت لهم الجو النفسانى المساعد على التغرير باجيالنا التى قدمت لهم طينة مسنونة قابلة لكل شكل أو تشكيل اما اخوان السراء والضراء من بنى العروبة فوجهت اليهم اشنع التهم ومسوا فى أقدس ما يملك الانسان : وهى الكرامة والنفس · وتعرضوا

للعراقيل المفتعلة فى الادارة والامتهان المبيت فى المعاملة والاهانات اللااخلاقية فى الشوارع وشربوا من تعجرف بعض المسؤولين السم القاتل اعمالا تتنافى وكرم الضيافة ، وتعادى روح الاخوة وتخالف أعراف التعاون النزيه حتى لو لم تجمعنا وشائج القربى ، وأواصر الرحم ، وذكريات الآلام والآمال وليت كان هذا من السوقة والرعاع ، بل ارتقع لاعلى المستويات .

أيها السادة ، ان الموقف واضح أبلج من نهار ، وان هذه الفئة التى وطنت نفسها على محاربة شخصيتها الوطنية والتى تنتمى لنا بالجنسية والولادة ، والتى فوض لها ان تتحدث وتخطط وتنفذ باسم الجزائر العربية للقضاء على اللغة العربية ، اذا ننتسب لمثل هؤلاء ، فانى أصرخ مع نزار قبانى صرخته اليائسة :

ان كان من ذبحوا التاريخ هم نسبى
على مدى الدهر انى أرفض النسبا

انحسار التعريب وضعف الكم والكيف :

وان كنت صريحا واضحا عندما تعرضت لاعلاء التعريب فلن اكون اقل صراحة عن الحديث عن أنصار التعريب واجراء عملية تقويم على علي ان اشخص الداء الذى نخر عظامنا . لقد كان نحن حماة العربية وانصارها ضعافا كما وكيفا وما زلنا كذلك اذا ما قيست قوتنا بكثافة المتطلبات العاجلة والمستحدثة التى واجهت البلاد فى كل الميادين ، وخاصة فى ميدان التعليم والتعريب ، كانت الميزة الجامعة لنا هى اننا ابناء الطبقات الكادحة ، وان ماضينا الدراسى كان غير متجانس بالقياس الى الينابيع التى نهلنا من معينها ، والمتمثلة فى الكتاتيب القرآنية وزوايا الطرقية والمدارس الحرة او من الزيتونة والقرويين ومع عدد ضئيل من خريجى الجامعات العربية والجزائرية . وقد ساعد على اضعافنا بالاضافة لعدم التجانس هو ما تعرضت له البلاد من حرب ضد كل المقومات ، وتميزنا فى أغلب الاوقات بضباب فى الرؤية وتضارب فى التدبير ، ونقص فى اليقظة والتفطن لما يحاك لنا فى الظلام ونتيجة لذلك عشنا فرديين ، كل قيس وليلاه ، فهزيمة الواحد او ضربه او عزله لا تتحرك له الجماعة ، وصارت المسالمة وروح الاستسلام هى أكبر علامة يحملها المثقف بالعربية كثور كسير القرن ، دليل ضعفه فوق رأسه ، وفى كثير من الحالات فرضت علينا المعارك فرادى فى كثير من بقاع الصراع وترك المقاتل فردا فى الساحة يجابه يمنة ويسرة حتى يخر مجندلا على مسمع ومرأى منا ، تنافرت صفوفنا وتناثرت وانزوينا ذهولا امام الصدمة لبلد كان يناضل من أجل مبادىء من بينها لغته ، تحول الى واقع من مصلحته محاربتها واختلق الخصوم وسائل جهنمية وقفت ضد الشرعية التى نتمتع بها نظريا ، وحولوها الى حرب بيننا وعداوة تستعصى فى كثير من الحالات عن التصالح او الاصلاح بل رحنا نلوك بعضنا بالسنة حداد واختلقنا مثالب وعيوبا قدمناها لاعدائنا على مائدة التملق والابتذال ، واحتقرنا كل انتاج لنا فى الثقافة والادب ، ومن اراد ان يقتحم الصفوف من جماعتنا ويلقى بصدره نار الخصوم من أجل المبدأ العام والظلم المشترك وجهنا له طعنات فى الظهر غادرة ترديه طريحا يئن تحت وطأة الخيانة وكل لسان صرخ باسمنا أخرسناه ، وكل نبيه منا وصل مركزا هو أهل له وأصلح ، رميناه بالجهل فى العلم والجهالة فى السلوك .

علام نخاف ايها الاخوة ، وقد فقدنا كل شيء حتى الكرامة ، وفيم التخاذل ونحن الصق الناس بأرضنا واكثرهم تمثيلا لشعبنا لانجاح ما لـــم يتحد الصف ، ولا نعتبر التعريب رسالة مالـــم يستعد رسل العربية لبذل كـل غال ونفيس وان قلدت الثورة زمـام الارض للفلاحين والكادحين لتغيير وضعية الريف ، واعطـاء خيرات الارض لفالح الارض ، فقد كلفتنا الثورة رغما عنا باحلال لغة الضـاد محلها الطبيعي ، وارجاع اللسـان العربي للشعور العربي ، وانى اقتبس فقرة مـن كلمة الترحيب في ملتقى المفتشين بالجـزائر اذ جاء فيها ما مفاده : ان مليونين ونصف من ابنائنا في مـدارسنا وتحت اشـرافنا فان نجحنـا في تعريبهم نكون قد قضينا نهائيا على خرافة الفرنسة في الجزائر وان كان العكس لا قدر اللـه ، فان محكمة التاريخ لن تغفر لنا ، وعلى عظم الجـرم يكون العقاب •

انجازات التعـــريب :

ولنعد الآن في لمحة خاطفة على الانجازات التي تحققت في ميدان التعـريب ، فبالنسبة للتعليم عربت السنتان الاولتان تعـريبا كليـا والثالثة والرابعة جـزئيا والثلث في مـادة الحساب في السنتين الخامسة والسادسة ، وتعريب العلـوم والتاريخ والجغرافيا وادخال العربية بمعدل عشر ساعات في باقي السنوات ، اما الثانوي فـقد عرب التاريخ في كل الاقسام والجغرافيا سنـة فسنة والفلسفة في الشعب الادبية وتعريب ثلـث الاقسام ابتداء من السنة الاولى اعدادي وتانوي اي ؟ وعربت الاقسام الادبية نهائيا ابتداء من نفس السنة ، كما لا ننسى الاقسام المعربة كلية داخل أغلب الثانويات المزدوجة ، وهناك ثانويات معربة كاملة ، اما باقي الاقسام المزدوجة فتتراوح فيها حصص العربية من خمس لعشر ساعات ، امـا في التعليم العالي فقد أنشئت ليسانس فلسفـة وليسانس تـاريخ وليسانس جغـرافيا ، وأخذت العربية حصصا مرموقة في ليسانس علم النفس ، وليسانس عـلم الاجتماع ، هذا بالاضافـة الى ليسانس في اللغة العـربية وحوصرت اللغـة الفرنسية في دائرة اللغات الحية ولا يمكن للدارس ان يحصل الا على ليسانس في الآداب الفرنسية هذا في كلية الاداب وقررت اجبارية اللغة العربية مستوى الثالث على حملة الليسانس في اللغـات الحية كما احدثت ليسانس بالعـربية في كليـة الحقوق وبدأت الافـواج الاولى من المتخرجين تحتل مراكزها في كثير من المستويات ، وفرضت العـربية كمادة اجبارية في ليسانس حقـوق بالفرنسية كما لا ننسى ليسانس في الترجمة عربية فرنسية والعكس ، وليسانس في العلوم الصحفية بالعربية وديبلوم التجارة وشهادة الكفاءة للتفتيش كما فتح قسم معرب في كلية العلوم ، اما باقـي الفروع ففرضت فيها اللغة العربية كمادة اجبارية كما يجب ان ننوه بالخطوة الجبارة التي قامـت وزارة العدل في تعريب التقاضي والمرافعة فـي الاحوال الشخصية والمدنية ، ونرجو ان تقدم على تعريب القضاء في الاحوال الجنائية اما التعريب في دواليب الدولة واجهزة المؤسسات الوطنيـة فقد صدر فيه مرسوم رئاسي حدد فيه حد ادنـى لمعرفة اللغـة العـربية وجعـل سنة ١٩٧١ سنة للتعريب وخصصت الدولة ميزانية سميت بميزانية التعريب وقررت ثلاث ساعات أسبوعيا لكل موظف او مستخدم داخل النصاب القانوني لعمله لكـن القضية لم تؤخذ ماخذ الجد حيث اقتصرت عـلى

تعريب البوابين والضاربين على الراقنات اما علية القوم وأكابر السادة فقد أعفو انفسهم لكونهم مسؤولين عن التعريب ومثقفين جدا بلغة الاستعمار ونزولهم لمستوى التلمذة خدش في كرامة المسؤول. ان تخصيص ميزانية ضخمة للتعـريب وتنظيم الدراسة بهذا الشكل تعتبر ضربة قاصمة للتعريب والمعربين ، فالتعريب مسؤول عليه من جعل لـه وفرض عليه ، وأستاذ العربية الذى طالما تغنى برسالة التعريب تحول الى مرتزق حقير يجـرى وراء السويعات الاضافية هنـا وهناك وأصبـح يعامل بامتهان وذل ، لان كرامته داسها شـره الارتزاق ، ومن هذه السلبيات تولد جو نفسـى قاتـل امتزجت فيه القيـم والمفاهيم بالاغراض والاطماع وأصبحنا نسمع كلاما وثرثرة لا متناهية حول علية التعريب ، وتخطيط التعريب ، وتنظيم التعريب ، ومنهجة التعريب ، والتمهل فى التعريب وتهويل تجارب تـونس والمغـرب فى التعريب ، وكلها اقنعة زائفة سخيفة اذا ما قيست بالعواطف الكامنة لدى شعبنا وحبه للغته وتلقائيته فى تعلمها والتغنى بها والعمل بها .

لا تنجح التعريب الا بالقضاء على التزييف :

ان نجاح التعريب الكامل لا يكون الا بالقضاء على التزييف ، وكشف أعدائـه اينما وجـدوا ، والقيام بحملة نفسية مركزة تتوجة رأسا للقضاء على مـركبات النقص التى تعـانى منها بعض الموظفين فى مستويات عليا بأجهزة الدولة ، وعقد النقص أمراض مستوطنة فى اللاشعور ، يصعب علاجها بأدوية عادية ، ولن يكون الدواء ناجعـا الا بتحديد مدة زمنية جادة وصارمة يشمل فيها التعريب كامل الادارات ويقضى نهائيا على الميوعة والانحلال الثقافى ، وعزل الجراثم الطفيلية بطريقة فرز سهلة للقياس ، وذلك بمعرفة كل الذين مرت عليهم عشر سنوات بعد الاستقلال دون ان يتعلموا لغتهم ، واعتبارهم عجموات بهمية لخلوهم مـن الضمير الوطنى والانتماء الثقافى اما المثقفون بالفرنسية والذين ما زالوا مرتبطين بشعبهـم متفاعلين بأتراحـه وأفراحه ، عليهم ان يتحملوا المسؤولية ويبرهنوا أكثر من أى وقت مضى على انتمائهم لهذا الشـعب ، ودفاعهم عـن قضاياه الجوهرية ، والقيام بواجباتهم كاملة غير منقوصة وتحويلهم الواجب حقا ينبغى مطالبته والدفـاع عنه ، تمشيا مع أحدث الفلسفات الاخلاقية الثورية التى تعتبر الحـق وحده استهلاكا فى عـرف الاقتصاد والواجب انتاجا ، وكل شعب تجاوزت حقوقـه واجباته تقهقر واندحر ، وكل شـعب تجاوزت واجباته حقوقه تقدم وازدهر ، وكفاهـم من تحميل اخوانهم المعربين اكثر مما احتملـوا فهذه الحواجز هم بناتها ، وهذه الثمار المتعفنة هم الغارسون لاشجارها واشواكها ، فقد حـان الوقت للتكفير وعليهم بالانصاف دراسة ، وعلينا بالافضـاح تدريسـا ، وتعريبهم ليـس تبديل المصطلحات العجمية ببديلة عربية ، بل التعريب هو تعـريب العقول والوجدان وتعريب السـلوك واللسانى .

التعـريب تعـريب للفكر والسـلوك :

اننا لا تريد من التعريب ان يكون بدلا للفرنسية فقط بل نريده خـلاقا توافا طموحا نحـو العلى ومشاركا فعالا فى ميادين الحضـارة الانسانية والرقى العلمى والتقنى ، واذا توافرت النـوايا الحسنة وتكاتفت الجهود وتوعينا دور المدرسـة الحاسم والفعال فى تزويد مرافق الدولة بالاطارات المختلفة واذا خلقت المدرسة الانسان الجـزائرى

المؤمن بالجزائر وطنا ، وبالاسلام دينا ، وبالعربية لسانا ، وبالعروبة انتماء ، وبالاشتراكية نهجا لا شك اننا مهدنا سبل النجاح أمام الاجيال ، واذا تنبهنا للشراك التى ما زالت منصوبة وعربنا المواد العلمية ابعادا للتهم التى تصف العربية بالعاطفة والخيال وجعلناها لغة تدريس فى جميع المواد وتتحول ميزانية التعريب التى خصصت للادارة الى مرافق تعليمية صحيحة تشفع بقوانين صارمة تجبر الطغاة على الركوع أمام لغتهم حتى يتعاملوا مع شعبهم وكفاهم اذلالا لهذا الشعب وإستقلالا وغطرسة ، وكفاهم من اشعار المواطنين بوجود فرنسا خطابا ومعاملة رغم ذهابها •

ويكون دور المثقفين بالعربية هو جعل التعريب رسالة ولكل رسالة شهداؤها وضحاياها •

برهن الحوب فى هذه الفترة على صلاحية الحياة فيه وفى لغتـه

لم يبق لي الآن الا ان اقول فى الختام ان رجال العربية رغم قساوة الظرف ، وكهربة الجو ، وضعف الصف ، برهنوا على أهلية الرسالة وعلى صلاحية الحياة فيهم وفى لغتهم وبذلوا جهدا لولا تكاثف الاخبات وتكاثف الاعداء لاعتبرت أعمالهم معجزة من اكبر المعجزات وان الكثير منهم بذل فوق طاقة البشر فى جهود مضنية لحاقا بالركب ومسايرة للعصر وخدمة للبلاد والثقافة وان الكثير منهم ثبتوا فى الميدان ببسالة المجاهدين لا يئنون ولا يبكون ، ولكنهم يكافحون على جبهات عديدة ، ويواصلون السير رغم الكلوم الدامية ورغم شضايا الحقد والكراهية المبثوثة لهم فى كل سبيل •

ولقد تلقى المعربون خلال سنوات خلت ظلم ذوى القربى بشجاعة الصبر ، ومرارة الوعى ، وكانت ثقافتنا محصورة حتى اليوم فى النقد كتعبير ، ولكن يجب ان تتحول الى تقويم وتغيير ، وان الفرصة التى تعيشها البلاد اليوم لمواتية للعمل ، وان الظروف الموضوعية التى حققناها بجهادنا مقدمة للنجاح ، وان وقت الدفاع عن النفس تجاوزته الاحداث ، فالنفس آمنة ، والخطى ثابتة والسلاح حاد وفتاك وتباشير النصر لا حت فى الافق ، واشارة الضوء أعطيت للهجوم ، وان هذه الجولة لهى الجولة الحاسمة بيننا وبين التفرنس ، فلنأخذ مواقعنا فى الصف الاول ، ولن يكون ذلك الا بتوحيدنا وايماننا والمشاركة الواعية لجميعنا •

ملاحظات حول تطوير اللغة العربية
لمسايرة التطور العلمي والتقني

د. محمود الجليلي
عضو المجمع العلمي العراقي

تضمن جدول اعمال مؤتمر التعريب الثانى المقرر عقده فى الجزائر فى شهر كانـــون الاول (ديسمبر) 1973 بحوثا للمناقشة فى الاجتماع العام للمؤتمر منها (الطرق المتبعة لتطوير اللغة العربية العلمية) ، واقترحت المنظمة العربيـــة للتربية والثقافة والعلوم اعداد بحث عن الموضوع. فقمنا باعداد الملاحظات التالية الغرض منها اثارة النقاش وتوجيهه وجهة عملية .

بحث قدم الى المؤتمر الثانى للتعريب المنعقد بالجزائر من 12 الى 20 ديسمبر 1973 .

1 ـ ان اتساع اللغة العربية يجعلها قابلة للتطور لتستوعب النمو السريع فى مختلف العلوم والفنون ، وقد سبق لها ان استوعبت العلــوم والفلسفة قبل مئات السنين ، وهى الآن ماضية فى نفس السبيل ٠

2 ـ ومن اهم العناصر اللازمة لتطوير العربية وجود مصطلحات تفى بالاغراض العلمية الـــتى اصبحت سرعة نموها فى سنوات اكثر مما كانت عليه فى قرون ٠ وقد أولت المجامع فى البــلاد العربية المصطلحات العلميــة والحضارية عنــاية متزايدة ، كما أخذ الباحثون يعملون بجد فى هذا المضمار ، ولكن لا بد من ان نؤكد نقطة مهمة وهى ضرورة العمل على توحيد هذه المصطلحات قبل ان تتعدد وتتنوع فى الاقطار العربية ، فيصعب بعد ذلك توحيدها بعد ان تكون قد رسخت فى القطر الذى وجدت فيه ٠ ان وجود مصطلحات موحدة متفق عليها أو مقبولة فى الاقطار العربية اصبح حاجة ملحة ٠

ومما يجب التنويه به ان انشاء اتحاد المجامع العربية والاتحادات العلمية والمهنية الاخرى خطوة مهمة فى تسهيل وتوحيد المصطلحات ٠ وقـــد تم انجاز المعجم العسكرى الموحد بسعى جامعة الدول العربية ، وتم انجاز معجم المصطلحـات الطبية بسعى اتحاد الاطباء العرب ، كما أقرت مصطلحات كثيرة فى مختلف العلوم فى اجتماعات للمتخصصين أو المعنيين بها فى الاقطار العربية ٠

3 ـ وقد كان تيسير اللغة العربية موضــع اهتمام منذ عشرات السنين ٠ ويجب ان نفــرق بين مجموعتين من طلاب الدراسات العـــربية ٠ أولئك الذين يختصون بها وعليهم اتقانها عـلى اوسع مدى واولئك الذين يختصون بفروع أخرى مـــن المعرفــة كالطب والهندســـة والعلـــوم الصرفة (البحتة) أو التطبيقية ، والذين عليهم اتقان مقدار كاف يسهل لهم حسن الاداء من دون خطأ ، اذ لا يمكن الفصل بين الفكرة العلميـــة والتعبير عنها ، واللغة أداة عرض الفكرة وواسطة التفاهم بين المشتغلين بالعلوم ٠

ان الحاجة الى لغة عربية للمشتغلين بالعلــوم واضحة ، وتزداد مع تقدم العلوم السريع ، ويوجد فى لغات كثيرة كتب لغوية للمشتغلين بالعلــوم عامة والعاملين بفروع علمية أو فنية خاصة وقد حان الوقت لاعداد شىء من ذلك باللغة العربية خاصة ونحن نجد كثيرا من المشتغلين بالعلوم ليس بامكانهم الكلام أو الكتابة بلغة صحيحة خالصة من الخطأ ٠

ولا بد ان نذكر ان طلبة المدارس بعد انهائهم احدى عشرة أو أثنتى عشرة من الدراسة ليس بامكانهم ـ الا من ندر ـ التكلم أو الكتابة دون لحن أو خطأ كبير ، كما ان كثيرا من طلبة الجامعات فى الدراسات العلمية وربما الادبية هم كذلك ٠ فلا بد من بحث وتقييم الطرق التى يدرس بها الطلاب اللغة العربية ، فهل الخطأ فى اعـــداد الطالب ، أم فى اعداد المدرس ، أم الخطأ فى مادة وطريقة التدريس ، أم فى الكتاب المدرسى ، أم الخطأ فى اكثر من جهة واحدة ٠

4 ـ ولقد عملت لجان الاصول خاصة فـــى مجمع اللغة العربية فى القاهرة ثم فى المجمـع

العلمي العراقي على تذليل بعض الصعوبات ، كما قام بعض الباحثين بشيء من ذلك وقد حظي القياس والاشتقاق واستعمال صيغ للدلالة على الامراض أو الحرف أو الآلات ، ولكن العربية ما زالت تحتاج الى كتاب في النحو والصرف يحتوي القواعد العامة ويتجنب الشواذ • ويوجد باللغات الاجنبية كتب من هذا النوع تتدرج مع الطالب ، أو تكتب لمعلمي اللغة من الاجانب •

لقد جرت محاولات لتسهيل النحو وتيسيره ولكن الذي نحتاجه هو كتاب لطلبة العلوم لا لطلبة قواعد اللغة •

5 ــ يضاف الى ما تقدم توضيح الاملاء بحيث لا يترك مجالا للخطأ مثال ذلك تنقيط الياء لتفريقها عن الالف اليائية مثل المصفي والمصفى ، اذا لم يكن ثمة مجال لكتابة الالف المقصورة الفا قائمة •

غير ان الدعوة الى اجراء تبديل في الحروف العربية لا مبرر لها وقد تؤدي الى قطع صلة الامة بماضيها وتراثها • اما مشاكل الطباعة فلم تمنع النشر باللغة العربية منذ انعرفت الطباعة ، وحلها يكون عن طريق التطور التقني في هذا الشأن •

6 ــ الاسلوب العلمي ــ ان عرض الفكرة العلمية يحتاج الى اختيار دقيق للكلمات واستعمال موفق للجمل ، وذلك يستوجب تحديد المعاني واستعمال الكلمات بوضوح بحيث يقل المجاز المرسل وغيره مما ينافي دقة التعبير العلمية ، وتقل الصيغ والتعابير التي فيها مجال كبير للتأويل والتفسير ، ومن المستحسن ان يصار الى الاسلوب الموضوعي المجرد بدل الاسلوب الشخصي

ومن الضروري ان تحتوي كتب الادب واللغة نماذج من الكتابات العلمية الى جانب الشعر والنصوص الادبية الاخرى • وهناك مسألة النسبة في اللغة وضرورة الاستعانة بها للتمييز الدقيق كأن ينسب بطرق مختلفة للتدليل على معان مختلفة كأن يقال في النسبة الى كلمة بيضة بيضي عندما تقصد البيضة ومشتقاتها ، ويقال بيضوي عندما يقصد شكلها ، وكذلك النسبة الى الجمع أو المفرد للتفريق فيقال جرثومي عندما نقصد الجرثومة ويقال جراثيمي عندما يقصد المختص بعلم الجراثيم •

7 ــ ان الاستعمال الدقيق للمفردات يوجب بحث الترادف فهل هو ترادف صحيح ام ان لكل كلمة مدلولها المميز ، ام ان كل قبيلة كانت تستعمل كلمة دون أخرى • وما يضيرنا في اللغة العلمية اذا حددنا لكل من هذه المترادفات مدلولا خاصا • اما الاضداد فلا بد من اهمالها •

ان تحديد المعنى الدقيق للكلمة يستوجب معرفة تطور استعمالها •

ولنضرب لذلك مثلا كلمة التعريب • فللتعريب معان متعددة اقربها الى ما نحن بصدده قول مجد الدين الشرازي (الفيروزابادي) في القاموس المحيط (والتعريب تهذيب المنطق من اللحن) ، وفي لسان العرب لابن منظور قوله (وتعريب الاسم الاعجمي ان تتفوه على منهاجها ، نقول عربته العرب وأعربته أيضا) •

وفي المعجم الوسيط الذي أخرجه مجمع اللغة العربية التعريب الآتي (اعرب الاسم الاعجمي

نطق به على منهاج العرب ٠٠٠ وعرب الاسم الاعجمى عربه ٠٠٠) ٠

وعند بدء المصطلحات العلمية بحث «التعريب» بحثا واسعا وتقرر استعماله فقط عند الضرورة القصوى ٠

ولكنا نجد انه اصبح للكلمة مدلول آخر ، فاصبح الكلام عن (تعريب التعليم) مألوفا ويقصد به التدريس باللغة العربية ، وكذلك اسم مؤتمرنا هذا (مؤتمر التعريب الثانى) وكما سبق ان أنشىء (المكتب الدائم لتنسيق التعريب) واصدر دراسات وابحاثا عديدة ٠

8 ـ على ان تسهيل اللغة العربية للعلوم يجب ان لايدع مجالا لتسلل العامية أو الركة الى اللغة الصحيحة ، فهناك درجات من البلاغة فيجوز استعمال البليغ مع وجود الابلغ وكذلك هناك درجات كافية من المعرفة بقواعد اللغة واصولها لتؤدى الى اداء صحيح بها كتابة أو تكلما ٠

ـ ان استمرار البحث العلمى فى اللغة واستنباط القواعد الشاملة من الامور الضرورية ، وقد يكون فى استعمال الحسابة فى ذلك ما يسهل هذه البحوث ٠

10 ـ ولأجل ان تتمكن اللغة العربية مسايرة التطور العلمى والتقنى فلا بد من اتباع السبل التالية :

1 ـ ايجاد مصطلحات موحدة تستعمل فى البلاد العربية ، بامكانها مسايرة التطور السريع فى العلوم ٠

2 ـ استعمال الاسلوب الواضح الدقيق واللغة الصحيحة فى التخاطب والكتابة والتدريس وابتعاد وسائل الاعلام كالاذاعة من غير ذلك ٠

3 ـ تأليف المعاجم المتخصصة وقد ألف بعضها ، ومن المفيد تأليف معجم للتطور الحضارى لاستعمال الكلمات ٠

4 ـ اصدار نشرات أو مجلات دورية باللغة العربية فى مختلف العلوم تحتوى على البحوث الاصلية والتطبيقية اضافة الى بحوث مراجعة المصادر والمستخلصات والخلاصات ٠

خصائص اللغة العربية فى التعبير العلمي

د. عبدالحليم منتصر
عضو مجمع اللغة العربية
ـ القاهرة ـ

منذ اكثر من احد عشر قرنا من الزمان وفى عهد الخليفة المامون على التحديد تقاطر المترجمون على بيت الحكمة فى بغداد ، ينقلون الذخائر العلمية التى تركها الاغريق والفرس والهنود والسريان والقبط وغيرهم الى اللغة العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية العارمة فكان يولى العلماء عطفه ورعايته كما فتح لهم خزائن المال ، يغدق عليهم منها ، استحثاثا منه لهم على نقل هذا التراث الى اللغة العربية وكذلك تم نقل هذا التراث الضخم فى الطب والفلسفة والمنطق والاخلاق والسياسة والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان وما اليها من علوم لم يكن للعرب بها عهد .

بحث قدم الى المؤتمر الثانى للتعريب المنعقد بالجزائر من 12 الى 20 ديسمبر 1973

وليس من شك فى ان تلك كانت نقطة بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز اشعاع علمى حضارى تاهت به على حوافز ذلك العصر ودانت الحضارة الانسانية لبغداد المأمون وغدا الخليفة المأمون رمزا للملك العالم ، وجمع حوله جمهرة من العلماء علا بهم بلاطه وزين ملكه نقلوا له روائع ابقراط وفيثاغورس وافلاطون وارسطو وبطليموس وجالينوس وديسقوريدوس واقليدس وارشميدس وغيرهم من علماء اثينا والاسكندرية ٠

وعرفت الامة العربية طب ابقراط وفلك بطليموس وهندسة اقليدس وقرأوا مجسطى بطليموس ، واصول اقليدس وجامع اوريباسوس، ومئات بل الوفا من كتب ارسطو وجالينوس وثاون وهيرون وغيرهم من رواد العلم فى العصرين الاغريقى والاسكندرى ووسعت العربية الجومطريا والاسطرونوميا والميتافيزيقا والاريثماطيقا والماثيماطيقا ومصطلحات التشريح والهندسة والفلك والطب والرياضيات وما اليها٠ واستمرت الحركة العلمية فى النمو والازدهار وشملت الحواضر العربية كلها من بغداد الى دمشق الى القاهرة الى مراكش الى الاندلس فى الجامع المنصور والجامع الاموى والجامع الازهر وجامع القيروان وجامع قرطبة وفى بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم٠ فكانت هذه وتلك تؤدى ما تؤديه الجامعات ومعاهد العلم فى الوقت الحاضر، وكانت منازل العلماء وقصور الخلفاء والامراء والمساجد ودور الكتب تزدان بمجالس العلم والادب وامتدت الامبراطورية العربية والاسلامية من حدود الصين شرقا الى حدود فرنسا غربا واكب علماء المسلمين على التاليف بلغة عربية سليمة حتى كانت اعمال العالم منهم تعد لا بالاحاد ولا بالعشرات ولكن بالمئات ، وتاه هذا العصر بعشرات ومئات من العلماء العرب يقرنون الى اعاظم العلماء فى كل عصر وآن وها هى ذى تآليفهم ومخطوطاتهم تزدان بها دور الكتب والمتاحف ، مما يعد بمئات الالوف مما يحتاج تحقيقه وعرضه الى جهود عصبة من أولى العزم من العلماء ليعكفون على دراستها وتحقيقها وعرضها ملخصة ومخلصة وقد انصفنا بعض مؤرخى العلم حين قالوا ان الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب فى كل فروع المعرفة وانه كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والصوفى والبيرونى والكندى لكى يتسنى ظهور جاليلو وكيلر وكوبرنيق ، وانه لولا اعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الاوروبية ان يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتاخر سير المدنية عدة قرون وانه لو لم يعوقنا المغول والتتار والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة التى تفاخر بها اوروبا تكون من نصيب الامة العربية وتكون لغتها هى العربية وتتقدم عليها فى التاريخ عدة قرون ٠

ولا شك ان القارىء لمؤلفات ابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وجابر والخوارزمى والرازى وابن النفيس والزهراوى والصوفى وابن يونس وابن العوام وغيرهم ليتملكه الاعجاب والاكبار باسلوبهم العلمى الاخاذ ولغتهم العربية السبيمة التى كتبوا بها فى الفلك والرياضيات والضوء والهندسة والجبر والطب والكيمياء٠ لقد طوعوا العربية لمصطلحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة حتى قال المنصفون ان الينبوع الاول للعلوم الطبيعية انما تفجر فى العصر العربى الاسلامى الذى ازدان بامثال من ذكرنا ٠

واكن الايام دول كما يقولون فضعف امر الامة العربية بعد ان قدمت لاوروبا زاد نهضتها العلمية

عن طـريق الاندلس التى سطعت فيها الحضارة العربية الاسلامية عدة قرون وعن طريق صقلية التى دانت لحكم العرب بضعة قرون ، وعن طريق الحروب الصليبية ثم عـــن طريق الامبراطورية العثمانية فى شرق اوروبا وظلت كتب من ذكرنـا من العلماء العرب هى المراجع المعتمدة فى جامعات اوروبا طيلة قرون وانشئت الجامعات الاوروبية على غرار جامعة الازهر العتيدة وترجمت الكتب العربية الى اللغـــة اللاتينية واللغات الاجنبية الاخرى وسطعت شمس الحضارة العلمية عـلى اوروبا فى حين انحسرت عن الامة العربية ·

* * *

وفى اوائل القرن الماضى بدأت الاتصالات بين بعض الدول الاوروبية وبعض البلدان العربية كان هدفها الاول حربيا استعماريا ، لم يكتب لهـا فيها نصر ولم تتحقق اغراضها منه ولكنما تحققت اتصالات علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة الى البلدان العربية وانشاء بعض المدارس الحديثة وارسال البعثات العلمية الى اوروبا ، وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة· ومـنذ اوائل القرن الثامن عشر انشئت فى مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها مـن مدارس وشارك علماء من اساتذة هذه المدارس من الاجانب والمصريين فى ترجمة امهات الكتب العلمية الـى اللغة العربية ان فى الطب او الهندسة او الزراعة او الصيدلة او الكيمياء ومـا اليها من علـوم وفنون· وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم الى اللغة العربية وان تكون اللغـة العربية لغة التدريس فى هذه المعاهد ·

وفى أخريات القرن الماضى عاد الاحتلال ينشر ظله الثقيل مرة أخرى ، وشيئا فشيئا جعل لغـة التدريس هى الاجنبية ، ولم يكتف بان يكون ذلك فى المعاهد العليا وحدها ولكن عم ذلك فى المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر فى اذهان الكثيرين ان هذه العلوم مستوردة هى الاخرى من الخارج وأنه لم يكن لنا بها عهد ، وتناسى الكثيرون انها بضاعتنا ترد الينا وان العلماء العرب هم واضعو اسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من اجهزتها وادواتها بل ومصطلحاتها ايضا ·

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت للغة العربية مكانتهـا فى التدريس فى المـدارس الابتدائية والثانوية ، كما انشئت فى مصر الجامعة الاهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب كمـا انشئت معاهـد عليا كثيرة وفى اواسط عشرينيات هذا القرن ، انشئت الجامعة المصرية الاميرية وكانت تتكون آنئذ من اربع كليات هى الآداب والحقـوق والطب والعلوم وكانت العلوم هى وحدها التـى انشئت انشاء فى ذلك التاريخ لم تكون متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى ، وضمت اليها بـعد ذلك كليات أخرى ، ثم انشئت فى اوائل الاربعينات جامعة الاسكندرية ثم جامعة عين شمس فى سنة ١٩٥٠ · وتتابعت الجامعات فى مصر بعد ذلـك فى اسيوط وطنطا والمنصورة والزقازيق كمـا تتابع انشاء الجامعات فى كثير من البلدان العربية فى العراق : فى بغداد والموصل ، وفى سوريا : فى دمشق وحلب وفى الاردن فى عمان ، وليبيا وتونس ، والجـزائر ، والمغـرب ، والكـويت ، والسعودية وغيرها · كما انشئت المجامع اللغوية فى القاهرة وبغداد ودمشق للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مسايرة للنهضة العلمية ·

ومن أسف أن اللغة العربية لا تزال وئيدة الخطو لتكون لغة التدريس فى الكليات العملية خاصـة باستثناء جامعة دمشق ·

وقد آمن الكثيرون ان التدريس انما كان بلغة اجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها وانهم ليرقبون اليوم الذى يعم فيه اتخاذ العربية لغة العلم . فالعربية لم تقصر عن اللحاق بركب العلم انما قصر ابناؤها .

وفى اوائل الثلاثينيات صدرت فى مصر مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة لتحقيق هذا الهدف ، وكان العدد الاول يحمل استفتاء بين كبار اعضاء هيئة التدريس وكلهم يجمع على تحقيق ذلك الهدف . وتكونت جماعة اطلقت على نفسها اسم جماعة انصار اللغة العربية كان هدفها تحقيق هذا العلم وتدريب اعضاء هيئة التدريس والطلاب معالجة الموضوعات العلمية بلغة عربية سليمة ، يتناولون فى محاضراتهم ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من كيميائية وجيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة عربية لا عجمة فيها . لقد حدث كل ذلك آنئذ فى كلية العلوم بالجامعة المصرية وكان للانجليز فى ذلك الوقت سلطان ودولة ، لا فى السياسة فحسب بل فى العلم والتعليم كذلك. ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين من أبناء العربية من القوة والشجاعة ما جعلهم ينادون بتعريب العلم. وانى لاسجد لله شكرا ان عشت حتى أرى فجر هذا اليوم يبزغ وما أشك فى أن ضحاه قريب ما دمنا نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية ، وما دام أبناء العربية ، فى ارجاء الوطن العربى يستهدفون وحدته ورقيه وقوته ومتعته ليكون وطنا كريما يسعد أبناءه ويشرف أبناؤه بالانتساب اليه .

وهاهم العلماء العرب يتزايد عددهم يوما بعد يوم يحاولون ان يعيدوا مجد اسلافهم من امثال من ذكرنا وهاهم أولا يعقدون المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية والعلمية العربية فى كل رجا من أرجاء الوطن العربى من أقصى شرقيه الى أقصى غربيه تحت راية لغة الضاد ـ ليعلن عن حيويته الكامنة وليقود الانسانية مرة أخرى الى رحاب العلم والرفاهية والسلام وانه على ذلك لقدير ما اتخذ من العلم هاديا واماما وما رفع راية لغة الضاد يجعلها من مقومات ثقافته وحضارته ، بل وكيانه ، ولا مراء فى أن أولى مراتب الثقافة الرفيعة علم المرء بلغته ، وقدرته على التعبير والابداع العلمى فيها فى كل مرفق من مرافق الحياة .

ولا مراء فى ان مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ وقد عاصرته زهاء ثلاثين عاما ـ اعظم خدمة لتعريب العلم اذ خصص جانبا غير يسير من وقته وجهده لترجمة المصطلحات العلمية الى اللغة العربية بعد ان جند لها الخبراء من الاساتذة المتخصصين. كان يجتمع بهم اعضاء المجمع فى لجان واجتماعات تعقد بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض ما تقرره اللجان على اعضاء المجمع مجتمعين فى صورة مجلس ثم تعرض مرة أخرى على هيئة المجمع فى صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمره السنوى ليناقش ويقر ما انجزه المجلس من اعمال طيلة العام فكان مرور المصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعا كفيلا بصقله وحسن صوغه .

وقد اقر مجمع اللغة العربية الوف المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم ، نشر منها حتى الآن نحو خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من الوف المصطلحات ، فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المعجمان اللذان يصدرهما المجمع ، وهما الوسيط والكبير .

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسألة الى انه لا بـــد من ايجاد جـذور عـــربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها ، وانه لا ينبغى ان تدنس العربية بعجمة أو لكنة وانمـا تبقى مصفاة مطهرة · وقد يبدو هذا الرأى وجيها لولا أن هناك استحالة فى تنفيذه او الاخذ به على أية صورة· فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بـل انها لتتكاثر كمـــا يتكاثر الانسان والنبات والحيوان ، فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أضحى مجرد حصرها مشكلة تعترض الفنيين والمتخصصين واضحت دور النشر تخرج علينا بين حين وآخـــر بمعاجم تتفاوت حجوما واشكالا ، وتختلف فى لغاتها وطرائقها ، فمنها ما يصور بلغة واحدة ، ومنها ما يصور بلغتين ، ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر· فملاحقة هذا التكاثر بلغـة عـربية أصيلة يبدو مستحيلا لاسباب ، ليس اقلها شأنا ان العرب لم تكن تعرف هذه الموضوعات وان هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين وان الكثير منها انما رأى النور وعرفته الانسانية فى مطالـــع هذا القرن ، بل وبعد ان تنصف فمن أين تـــأتى الجذور العـــربية لهذه المستحدثات والمستعدنات والنظريات التى لم يكن للعرب بها عـــلم ·

اننا نكلف العربية شططا ، ونكلف أنفسنا جهدا لا طائـــل تحته ان نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عـربية للميكروسكوب والترمومتر والالكترون والنيترون والميزون وما اليها مما يعد بعشرات الالوف ، فما علينا الا أن نبحث وندقق فان اسعفتنا المراجع ببغيتنا ، فبها ونعمت ، والا ففى التعريب متسع لهذه الالوف المؤلفة من المصطلحات والتعبيرات العلمية فى كل علم وفن ويسعنا ما وسع الاقدمون من استعمال اريثماطيقا وميتافيزيقا وجومطريا واسطرونوميا وغيرها ·

واذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الاقطار العربية ، بل التزام هذا الاستعمال واذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل او مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقـول مجهار على وزن مفعال ·

واذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول « محـرار » على وزن مفعال أو نبقى على ترمومتر تقريبا فهذا كما نرى امرا محيرا ، تختلف فيه الآراء وتتباين فيه الاذواق ·

توحيد الترجمة العـربية للمصطلحات

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية والمثقفين العرب بشأن هذه المصطلحات فالعراق والاردن ومصر لوثتهم الثقافة الانجليزية حينا فتأثروا بها· وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية فتأثرت مصطلحاتهم العلمية بالاصول الفرنسية للكلمات ، فلا بد لنا اذن من الترجمة ثم توحيد هذه الترجمة · ولنضرب بعض الامثلة لهذا التباين فى التعبير العلمى فى بعض البلاد فعلم الطبيعة كما نعرفه فى مصر يسمى فى سوريا والعـــراق والاردن ولبنان « فيزياء » والاولى ترجمة والثانية تعريب على ان التعريب ليس كامــلا او صحيحا فالتعريب الصحيح هو « فيزيقا » كذلك استعمله العلماء الاقدمون كما استعملوا ارثماطيقا للحساب وماثيماطيقا للرياضيات وجومطريا للهندسة وهكذا فكلمة فيزياء لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا

التعريب السليم ولا عيب في كلمة طبيعة الا احتمال الشبهة مع Nature التي تترجم بنفس الكلمــة « طبيعــة » ٠

ونحن نقول في مصر كما يقول أهل العـــراق بؤرة العدسة ولكن الاقطار الاخرى تقول «المحرقة» ونحن في مصر نقول بندول الساعة تعريبا لكلمة Pendulum وفي العراق يقولون « رقاص » وفي سوريا « نواس » وفي الاردن « خطار » فينبغي ان تختار الدول العربية ترجمة واحدة للمصطلح الــواحد ٠

وفي مصر والعراق تطلق كلمة « طحلب لتدل على Alga على حين انهم في سوريا ولبنــان يقولون « اشنة » اما اشنة فنستعملها في مصــر لكلمة Lichen على حين تقول الاقطار الاخرى طحلب ٠

وكلمة Endosperm عربت في مصــر الى اندوسبرم وترجمت في بعض البــلاد العــربية الاخرى الى سويداء ٠

وكلمة Ecology ترجمت في مصر الى عــلم البيئة وفي اقطار اخرى الى علم المحيط «وفصيلة» Rutaceae ترجمت في مصـــر الى سدبية نسبة الى اسم النبات الذى اشتق منه اســم الفصيلة واستعملت الاقطـــار الاخرى ليمونية نسبة الى اشهر نباتاتها ٠

وكلمة Nucellus ترجمت الى « جويزة » في البلاد العربية وعربت في مصر الى نويسلة ٠

وكلمة Micropyle ترجمت الى نفير في مصر وفي البلاد العربية الى «بويب » ٠ونحن في مصر نقول « جرام » تعريبا لكلمة Gram الافرنجيةوغيرنا يقول غــرام ٠

ونقول مغنطيسية تعريبا لكلمـــة Magnetism فعربنا الجاف بالجيم حينا وبالغين حينا آخر ٠ ونحن نقــول ابجروسكوبى وآخـــرون يقـــول ايغيبروسكوبى ٠٠٠ وهكذا ٠

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامـــدة ابدا فما أيسر ان نتبين أن هناك ترجمة او تعبيرا أفضل حتى نعدل عن الاول اليه ، فلم تكن الترجمة جامدة ابدا ، فقد كانت الترجمة تعرض في المقالات والبحوث وللدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام والاستعمال٠ ومن أمثلة ذلك ترجمة المصطلح الذى يدل على درجة تـــركيز ايون الايدروجين ويرمز له بالافرنجية بالرمز P H ، فقد سمـــى اولا ــ الجهد الايدروجيني ثم الاس الايدروجيني ثم عدل اخيرا الى « الرقم الايدروجيني » ٠

وكذلك تلك الظاهـــرة التي سميت حينـــا « ادمصاص » ثم عدل عنها الى التجمع السطحي وها هي ذى يقرها المجمع اللغوى والذوق العــام بين المشتغلين بالعلم الى « امتزاز » ترجمة لكلمة Adsorption

ومصطلح غروى اتخذ ترجمة لكلمة Colloid ثم عدل عنها الى شبه غروى ثم الى غراوانى٠ وكذلك ـمة Alkaloid عربت حينا الى قلويد ثم ترجمت الى شبه قلوى ثم الى «قلوانى» وهكذا٠

« مصطلحات في عــلم الطبيعــة »

وهناك مصطلحات متقاربة المعـــنى متفاوتة المدلول لا بد من تعريفها تعريفا دقيقا ، ولا بد من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح يتميز بها عن المصطلح الآخر فالممانعة والمعاوقة ، والمقاومة قريبة في معناها ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

الممانعة ترجمــة لل Reluctance

والمقاومة »	الـ	Résistance
والمعاوقة »	الـ	Impédance

ثـــم المجاوزة والمهاودة والمسايرة قريبة فى معناها ، ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

المجاوزة ترجمة	الـ	Permittance
والمهاودة »	الـ	Susceptance
والمسايرة »	الـ	Admittance

ثم المفاعلة ، والمنافذة ، والمواصلة ، والمحانة قـــريبة فى معناها ، ولكـــن مدلولاتها متباينة فوضعت :

المفاعلة ترجمة	الـ	Réactance
والمنافذة »	الـ	Perméance
والمواصلة »	الـ	Conductance
والمحانة »	الـ	Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل كثيرا كالمصدر الصناعى فنقول :

المانعية ترجمة	الـ	Reluctivity

وهى مقدار قابلية المادة المغنطيسية لتوصـــيل الفيض المغنطيسى وهى مقلوب المنفذية

والمنفذية ترجمة	لـ	Permeability

وهى النسبة بين كثافـــة الفيض المغنطيسى المنتج فى وسط ما الى القوة المغنطة المنتجة له·

والمجاوزية ترجمة	لـ	Permittivity

وهى النسبة بين الازاحة الكهربية لوسط مـــا الى القوة الكهربية المنتجة له

والمقاومية ترجمة	لـ	Resistivity

وتعنى المقاومة الحجمية للمادة ، ويقصد بذلك مقاومة جرام من تلك المادة طوله الوحدة ومساحة مقطعه الوحدة تسمى ايضا المقاومة النوعية ·

والمتاثرية ترجمة	لـ	Susceptibility

وهى النسبة بين شدة التمغنط الى شدة المجال المغنطيسى فى الدائرة المغنطيسية

والمفاعلية ترجمة	لـ	Reactivity
والمعاوقية ترجمة	لـ	Impedivity
والموصلية ترجمة	لـ	Conductivity

وهى خاصية للمادة بفضلها تسمح للتيـــار الكهربائى بالمرور خلالها · اذا كان هناك فـــرق جهد وهى مقلوب المقاومية ·

وكذلك تتقارب معـــانى الانحـــلال والتدهور والفساد والتفتت والتحلل وقد ترجمت على هذا النحـــو :

انحلال ······	Dégénération
تدهور ······	Détérioration
هـــدم ······	Destruction
تفتـــت ······	Disintégration
تحـــلل ······	Analysis
فســـاد ······	Decay

« مصطلحات طبيـــة »

وابتكرت صـــيغ قياسية كثيرة فى المصطلحات الطبيـــة ، كأن نقول عصـــاب ترجمة للمصطلح Neurosis

وهو مرض عصبى وظيفى لا تصحبه علامات عضوية ، ومن انواعه :

أ) عصاب القلـــق ······	Anxiety neurosis
ب) عصاب اصابى ····	Teaumatic neurosis
ج) عصـــاب قلبى ····	Cardiac neurosis
د) عصاب كـــلالى ····	Fatigue neurosis
هـ) عصاب متاخر ····	Neurosis tarda
و) عصاب انحصارى قسرى ·	Obsessive Compulsive
ز) عصاب مهنى ····	Occupational neurosis

وكذلك نقول عن المرض الجلدى ــ جلاد
Dermatosis

وعن مرض الصدفية ، صداف	Psoriasis
ونقول بواغ الشعر	Sporotrichosis
والورام الزهمى	Stratomatosis
وفطار الشعـر	Trichomycosis
وعقـاد الشعـر	Trichonodosis
والعـراق المصن	Asmidrosis
والعـراق الفسفورى	Phosphoridosis
الصحـــــام	Ochronosis

وترجم الى العمه الحسى مصطلح Agnosis
وهو القصور عن تمييز الاشياء وانواعه :

أ) عمــه سمعى	Auditory agnosis
ب) عمــه بصــرى	Optic agnosis
ج) عمــه لمســى	Tactile agnosis

وترجم الى ... الحركى المصطلح
Apraxia agnosis

وهو عدم القدرة على الاتيان بحركة ذات قصد ·

وهناك عشرات من الامثلة لهذه المجاميع من الكلمات او المصطلحات التى تتقارب فى معانيها وتتفاوت فى دلالتها ومن اسف ان المراجع الاجنبية كثيرا ما تستعمل الكلمة الواحدة لاكثر من معنى ومدلول · فكان على المترجم ان يحتاط كذلك · ومن حسن حظ العربية انها غنية جدا بالمترادفات وان فقهها من اغنى لغات الارض بالمدلولات والالفاظ والاقيسة ، وكانت الطريقة الوحيدة هى جمع هذه الاشيـــاء وتسليط الاضواء عليهـــا واستنباط المدلولات الحقيقية لهـــا والغوص فى المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمــة وتعميم الاستعمـــال والتزامــه ·

«الوحدات والرموز والثوابت »

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة ، وتميزت اللغات الاجنبية بالخطوط المتغايرة ، فالرومانى والاغريقى والايطالى والخفيف والثقيل والكبـير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور للحروف الابجدية ، ومن حسن الحظ ان الخط العربى هو ايضـــا متعدد الصور فهناك النسخ والرقعة والمثلث وما الى ذلك فنجد مثـلا هذه الصـــور :

الكـاف	ك	ك	ک	ک
الميـم	م	م	م	م
النـــون	ن	ـنـ	ن	ـنـ
الجيـــم	ج	جـ	ج	جـ
الســـين	س	س	س	س
القـاف	ق	قـ	ق	قـ
اليـــاء	ے	ى	ى	ى
الـــراء	ر	ر	ر	ر

فكان علينا ان نؤلف بين هذه الحروف لنجـد الرمـوز الكافيـــة لمئـــات الوحدات والمقاييس والعناصر ، فنهاك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء ، ثابت ، فوجادرو ، ثابت فراداى ، ثابت شحنة الالكترونات ، ثابت الجاذبية ، وثابت لكتلة الالكترون ·

وهناك وحدات المقاييس من طول وعـــــرض وارتفاع ونصف القطر والقطر والزاوية والمساحة والحجـــم ·

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعـــة وطول الموجة والاتساع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشـد والثنى والانحراف والالتواء والاحتكاك

واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحد والسعة والفيض والجهد والمقاومة والممانعة والمجاوزة والمواصلة والاضاءة ٠

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذرى والوزن الذرى والتكافوء والتحلل والتاين ٠

ثم المتر والمليمتر والسنتيمتر والميكرون والميليلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل والكيلو سيكل والجرام والميلجرام والكيلو جرام٠

والسعر والكيلو سعر والواط والفولط والامبير والجول والقنديلة والكولومب والفولط كولومب والفولط امبير والهنرى والفاراد والكورى والميكروكورى ، والبوصة والقدم والياردة والجالون والحبة والاوقية والباوند والباوندال والحصان ٠٠٠ الخ ٠

هذه أمثلة لوحدات لا تجاوز المائة وهناك مئات غيرها لا يتسع المقام لذكرها عدا اكثر من مائة من العناصر الكيميائية ينبغى أن يتفق على رموز من حروف عربية لها ٠ وقد قال قوم بالابقاء على الوحدات والرموز الاجنبية الا ان هذا الرأى قد رفض ورؤى التزام بالعربية والمعادلات الكيميائية رؤى تعريبها هى الاخرى ما دامت الرموز قد عربت جميعها ٠

وتتبين الصعوبة اذا عرفنا ان القدرة والقوة والقطر ، وقوة المجال المغنطيسى والقوة الدافعة الكهربائية والطاقة والدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز اليه بالحرف «ق» ولا بد من التمييز بينها فقد يقع اثنان او اكثر فى معادلة واحدة كذلك المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها بالحرف «س» ٠ والشدة والشغل والشحنة ومعامل الانتشار وغيرها يرمز لها بالحرف «ش» والتردد والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت ومعامل الانتقال وثابت سرعة التفاعل يرمز لها بالحرف «ت» ٠

وعدد افوجا درو والزمن وثابت الدوران وعدد اللفات الجزئيات والسعة الحرارية للجزىء وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل ذلك يرمز له بالحرف «ن» ٠

وهكذا من عشرات الامثلة التى يرمز فيها بالحرف الواحد لعدد كبير من الاحداث والثوابت والمعاملات وما اليها من وحدات ومقاييس عالمية معيرة ينبغى ان توجد لها مقابلات بالاحرف العربية فضلا عن ان الحرف الواحد قد يرمز الى اكثر من عنصر كيميائى واحد فالزئبق والازوت والزرنيخ قد يكون رمزها جميعا « ز » فضلا عن ان حرف «ز» نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات مثل وحدة ازاحة التيار ومعامل الاسموز وما أشبه ٠

لذلك كان لا بد من اختيار صور مختلفة للحرف الواحد فضلا عن ضرورة الجمع بين حرفين أو اكثر منعا للبس وكذلك الابقاء فى بعض الحالات على الحروف الاغريقية كرموز بعض الوحدات العالمية المعيرة او الرموز الرياضية حيث بدا صعبا احيانا ايجاد رموز من حروف عربية موحدة ٠ ولا بد أن يمضى بعض الوقت حتى تتكامل طريقة سوية مبرأة من المآخذ بعد ان يصقلها ويصححها ويسبغها الرأى العلمى العام والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسابك على ايجاد الصور المطلوبة للحروف وقد جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة والمثلث والفارسى والكوفى بل وحروف التاج التى ابتدعت حينا ثم عدل عنها ٠

وعلى الذين يقولون بالابقاء على الرموز والمعادلات الحروف الافرنجية ويضربون امثلة على ذلك باللغات الاوروبية المختلفة التى اتفقت على الرموز نفسها فى هذه اللغات فاتهم ان الحروف فى هذه اللغات جميعا متشابهة الى حد كبير فضلا عن انها تكتب جميعا من اليسار الى اليمين فاذا فرضناها فى كتاباتنا وبين سطورنا العربية جاءت نشازا ٠

وفى علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربية قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب اسماء المواليد والاعيان ومن نبات وحيوان فاقر حلقات التصنيف الآتية :

عالـم	Kingdom
عويلم	Sud Kingdom
شعبـة	Phylum
شعيبة	Sub Phylum
طائفة	Class
طويئفة	Sud Class
رتبـة	Order
رتيبـة	Sub Order
فصيلـة	Family
فصيلـة	Sub Family
قبيلـة	Tribe
قبيلـة	Sud Tribe
جنـس	Genus
جنيس	Sub Genus
نـوع	Species
نويـع	Sub Species
ضـرب	
سلالـة	Race
عـنزة	Strain
فـرد	Individual

وقد ازالت هذه الاسماء التى اتفق عليها واقرها مجمعنا الموقر ازالت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفى كتب المواليد ، واصبح اليوم كل اسم عربى يدل اصطلاحيا على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الاسماء الاعجمية المقابلة لها وواضح ان اسماء حلقات التصنيف هذه تعد من أسماء المعانى ، وانها ترجمت الى العربية ولم تكن الصعوبة فى الترجمة ولكن فى تخصيص كل حلقة باسم عربى واحد راجح وهذا ما أقره المجمع٠ وهو قرار خليق بان يتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى فى هذه المسميات وذلك لان فيه خلاصا من فوضى تعدد الاسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد ٠

وقد اقر المجمع القواعد الآتية فى ترجمة وتعريب اسماء المواليد والاعيان

الاولى ترجمة الالفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الاوسع فى حلقات التصنيف العليا وهى الشعب والطوائف والرتب ٠

الثانية اسماء القبائل والفصائل النباتية او الحيوانية تكون عربية او معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذى تنسب اليه٠

الثالثة اجناس المواليد التى ليس لها اسماء عربية تعرب اسماؤها العلمية اذا كانت منسوبة الى الاعلام وتترجم بمعانيها اذا امكن ترجمتها فى كلمة عربية واحدة سائغة وان لم يكن ذلك ممكنا رجح تعريبها ٠

الرابعة لا مجال للتعريب فى الالفاظ العلمية الدالة على انواع النبات لان جميع الفاظها او معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة فى جميع اللغات الحية ٠

الخامسة يوجد مجال للترجمة او التعريب جميعا فى الالفاظ الدالة على السلالات والاصناف او الضروب ·

السادسة لا مجال للبحث ولا للتركيب المزجى فى تصنيف المواليد ولا حاجة اليهما وفى اللجوء اليهما تشويه للغة العربية ·

ومع ذلك فقد رأى المجمع ضرورة الازدواج اى ذكر الاسماء العلمية اللاتينية فى الدراسات العليا وفى حالة احتمال اى لبس ·

فمثلا لا مجال للتعريب فى الفقاريات والاسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات فى رتب الحيوان· كذلك لا مجال للتعريب فى غشائية الاجنحة وحرشفيات الاجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الاجنحة وما اليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما اليها ·

فهذه جميعا ترجمات معقولة مقبولة مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا وكذلك نقول فى الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والنرجسية والسحلبية والخبازية وكذلك اسماء الاجناس كالقمح والشعير والخردل والقطن والورد وما اليها ·

اما النوع فينبغى ان دل على صفة بعينها ان نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمى كاملا ويتعين ذلك خاصة فى الحالات التى تختلف فيها المسميات فالبطاطس فى مصر هى البطاطا فى سوريا ، والخوخ هو الدراق والكمثرى هى الاجاص · بل ان الديس والبوط والبردى اسماء مختلفة لنبات واحد ولكنه يعرف باسماء مختلفة فى الجهات المختلفة ففى كل هذه الحالات وفى مجال البحث العلمى والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمى باللغة اللاتينية ·

« فى الجيولوجيا »

وفى المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بالفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضحالة والملوحة والعذوبة والبرى والتفتت والتشقق والانفصال والانفصام وما الى ذلك فاذا بها معطاء كاجزل ما يكون العطاء ·

فنجد النور والغسق والدغش والغبق والاظلام ·
كما نجد الضد ، والغائر والعميق والسحيق ·
وفى مدى استجابة الصخور ورد الفعل فيها بالنسبة للحركات الارضية ·

فاصل وتفصل ······	Jint, Jinting
صدع وتصدع ······	Fault, Faulting,
شق ، تشقق ······	Fracture, Faulting
دسرة ، ودسر ······	Thrust, Thrusting
تفلق ······	Cleavage
انزلاق ······	Sliding
تزحلق ······	Slipping
زحف ······	Creeping

وفى باب الطى :

طية وطى ······	Fold, Folding
ثنية وثنى ······	Plicate, Plicating
تعرج ······	Corrugation
قبة ، تقبب ······	Deme, deming

وفى درجات ملوحة الماء نقول :

ماء عذب ······	Fresh water
ماء مسوس ······	Brackish water
ماء ملح ······	Saline water

مـاء زعـاق ...... Hypersaline water
مـاء اجـاج ...... Brine water

وفى بـاب ما يشبـه :

غـراواتـى ...... Colloid
بلـورانـى ...... Crystalloid
فلـزانـى ...... Metalloid
سكـرانـى ...... Saccharoid
كروانـى ...... Spheroid
دلتـانـى ...... Deltoid

وفى موضوع البرى والسحج والتحات والتآكل :

نقـول :

البرى او السحج ..... Abrasion
التحـات ...... Erosion
التـآكـل ...... Corrosion

ونقـول :

صـواعـد ...... Stalagmites

وهى اعمدة من كربونات الكلسيوم ترسبت فى أرضية الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى اعلى :

وهـوابـط ...... Stalactiles

وهى اعمدة من كربونات الكلسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخر الماء متجهة الى اسفل · وهى صيغ عربية سليمة ما أظن ان الاقدمين قـد استعملوها ·

وفى مراتب ومراحل الزمن الجيولوجى نقول : الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة واللحظة·

١) الدهـر : Eon

اطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجى لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل الى الف او اكثر من ملايين السنين · مثل دهر الحياة الظاهرة

٢) الحيـن : Era

اطول مـراحل العصر فى الزمن الجيولوجى ويقاس مداها ببضعة ملايين من السنين (لا يتجاوز العشرة عادة) ويتميز كـل حين مـن الاحيان الجيولوجية بفصائل اجنـاس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته· مثل حين الحيـاة القديمـة ·

٣) الحقـب : Period

المدة من الزمـن ترسبت اثناءها صخـور المجموعة· وتقدر بمئات الملايين من السنين مثل الحقب الكربونى ·

٤) العصـر : Age

اطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين· ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض اغلبها أو تقل اهميتها الجيولوجية مـع نهايـة الحقـب

ولم تسمح وسائل تقسيم الاحقاب الى عصـور الا فى الاحقاب الثلاثة الاخيرة فقط التى تتبـع دهر الحياة الظاهرة ·

٥) البرهـة : Hemero

مرحلة من الزمن الجيولوجى يقاس مداهـا بمئات الآلاف من السنين ويندر ان يبلغ مداهـا اكثر من مليون سنة· وهى اطول مرحلة ينقسـم اليها حين من الاحيان الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة انـواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض او تقل فى الاهمية الجيولوجية كثيرا مع نهايتها ·

٦) اللحظـة : Moment

أقصر مراحل الزمن الجيولوجى واصغـر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من الاف

السنين ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها او بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع ٠

« جهود مجمع اللغة العربية »

واذا نحن عرضنا للهيئات التى كان لها الفضل فى هذه الحركة المباركة من تطويع للغة العربية للاستعمال فى التعبيرات والمصطلحات العلمية فاننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية٠ فهو الذى يسر الامر بجهود اعضائه وخبراته من اساتذة الجامعات المتخصصين فهم جميعا قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهى الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين قطان الوطن العربى اذ ان العامية واللهجات المختلفة لا يستقيم بهما تخاطب ولا تفاهم وانما يكون ذلك باللغة العربية السليمة التى يحافظ عليها وينميها مجمع اللغة العربية باعضائه ولجانه وخبرائه وكانت حصيلة جهوده فى هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الالوف من المصطلحات فى العلوم المختلفة٠

« المجمع المصرى للثقافة العلمية »

واذكر بالتقدير المجمع المصرى للثقافة العلمية وقد عاصرته منذ انشائه منذ نيف واربعين عاما لا اذكر انى تخلفت عن محاضرة من محاضراته او مؤتمر من مؤتمراته الا لعذر قاهر طارىء لقد جعل من اهم اغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية٠ وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر واذاع من كتب ومحاضرات وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هى من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة لقد استحق اعضاؤه ومؤسسوه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب فى خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمى ٠

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التى نظمها الاتحاد العلمى العربى والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التى عقدت فى العواصم العربية منذ عشرين عاما ٠ فقد عقد المؤتمر الاول فى الاسكندرية سنة ١٩٥٣ ، وكان الثانى فى القاهرة سنة ١٩٥٥ ، والثالث فى بيروت سنة ١٩٥٧ ، والرابع فى القاهرة سنة ١٩٦١ ، والخامس فى بغداد سنة ١٩٦٦ ، والسادس فى دمشق سنة ١٩٦٩ ، والسابع فى القاهرة سنة ١٩٧٣ ٠ لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات واوصت من بين ما أوصت بضرورة الاسراع فى وضع معجم علمى عربى موحد اعد له نحو مائة الف مصطلح روجعت حيزا ذات نحو ثلثها ومن اسف ان توقف العمل فيه وكان فى كنف وزارة البحث العلمى ثم اكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ٠

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتاليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية ٠

وينبغى ان نذكر بالشكر جهودا اخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الادارة الثقافية بها ــ المصطلحات العلمية التى تستعمل فى المدارس الثانوية وعملت على توحيد ترجمتها فى الاقطار العربية فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل فى الرياضيات والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعرضتها على المختصين فى البلاد العربية وقد اقرت الترجمة العربية الموحدة فى المؤتمرات العلمية ٠

« خبير أجنبى »

ولعلنا ان نذكر فى هذا الصدد جهود خبير أجنبى هو السيد « جمبلت » الذى استقدم بمعرفة

اليونسكو ابان انعقاد المؤتمر العلمى العربى الثانى سنة ١٩٥٥ ، وامضى بمصر ستة اشهر عكف فيها على جمع نحو الف واربعمائة مصطلح فى علم الطبيعة جميعها وتعريفها من المعاجم المعيرة وفرقها فى جذاذات وزعت على المختصين لترجمتها ، ثم جمعت فى كتاب يقع فى جزأين عرضت بعد ذلك فى المؤتمر العلمى العربى الثالث فى بيروت٠ وقد اشار الخبير بمعالجة المصطلحات جملة حسب الموضوعات لافرادى حسب الترتيب الابجدى كما اشار بانشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشرى العالمى فى تنسيقها وتبويبيها ٠

« مكتب التعريب »

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره فى هذا المجال وقد اخرج حتى الآن عددا من المجموعات التى تضم الوف المصطلحات ٠

« معاجم مختلفة »

ولعلنا نذكر كذلك عددا من المعاجم كان لها اثرها فى تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم المعلوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الالفاظ الزراعية للامير مصطفى الشهاوى ثم معجم المصطلحات العلمية والفنية الذى يضم نحوا من خمسة وثلاثين الف مصطلح فى العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما اليها ٠

وهناك المعجم العسكرى الموحد الذى اشرفت على اصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين الف مصطلح ٠

ولعله قد آن الاوان لتنسيق هذه الجهود جميعا والعمل على اصدار معجم علمى عربى موحد وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة وكذلك العمل على اصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة٠

« خاتمة »

وخلاصة القول ان اللغة العربية قد اثبتت قدرتها على التعبير العلمى وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة اليها وانها قادرة على ملاحقة التقدم العلمى فى مختلف مجالاته لولا هذا التعويق الذى يأتى عن طريق نفر من ابنائها ولا يصبرون على ادائها يستسهلون استعمال اللغات الاجنبية فيظن شبابنا ان هذه العلوم مستوردة من الخارج مع انها بضاعتنا ترداليها ومع اننا نحن العرب أهل اصالة واثالة فيها ٠

ومن الحق ان نقول ان التعليم فى كل بلاد العالم باللغات العربية لتلك البلاد ، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التى تعددت فيها اللغات الاقليمية او التى خضعت للاستعمار الاجنبى ردحا طويلا ، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها ٠

ونحن فى وطننا العربى لا نستطيع ان نحقق ديمقراطية التعليم ما لم يكن باللغة القومية ولست ادرى لماذا لم تكن العربية هى لغة التدريس فى الجامعات العربية ؟ فلماذا يتعين ان تكون الانجليزية او الفرنسية ؟ ان استعمال اللغة العربية فى التعليم الجامعى انما هو وسيلة اكيدة للابداع العلمى وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافى والعلمى للامة العربية ومنع

الانفصال بين التفكير والتعمير ولامــــراء فى ان الدعوة الى بناء المجتمع العربى تبقى ناقصة اذا اغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيسى للوجود العـــــربى وليس معنى اتخـــاذ العربية لغة للتدريس فى الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الاجنبية بل على النقيض ان ذلك ادعى بمضاعفة الجهد فى سبيل تقوية الطلاب فى اللغات الاجنبية وذلك لمتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية بلغاتها الاصلية ٠

واذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقـــدم العلمى الهائل حيث ينشر اكثر من مليونين مـــــن البحوث العلمية المبتكرة سنويا فى اربعين لغـــة فلا اقل من ملاحقة ما ينشـــر باللغات الاجنبية الاكــثر شيوعا كالانجليزية والفرنسية والروسية والالمانية الى جانب الوف الكـــتب العلمية التى تنشر بهذه اللغات ، وانما يكون ذلك بتقليد مـــــا فعله الرشيد والمامون من انشاء ديوان للترجمـــة فى بيت الحكمة فى العصر الذهبى للحركة العلمية فى العصر الاسلامى ٠

والآن وقد ثبتت قدرة اللغـــة العـــربية على التعبير العلمى فحبذا ان يوصى مؤتمرنا بالآتى :

١) لان تكـــون العـــربية لغـــة التدريس فى جميع الجامعات والمعاهد العربية ٠

٢) الاسراع فى اصدار معجم علمى عربى موحد٠

٣) انشاء ديـــوان للترجمة تحشد له ارقـــى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية الى اللغة العربية ٠

٤) تاكيد العناية بتدريس اللغة العربية واللغات الاجنبية فى المدارس والجامعات والمعاهد ٠

وبعد ، فانه مما يشـــرف جيلنا ان ننفى عن العربية تهمة الجمود والقصور وان نجعلها لغة العلم كما فعل اسلافنا فى الزمن الماضى ، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمى العالمى وعنها نقل أهل اوروبا علوم العرب وفنونهم ٠٠ ولولا هذه الاغفاءة التى طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال ، ولا ستمر قصب السبق فى ايدينا ، نـــدل به على من نشاء ، وها نحن ننضو ثوب الخمول ونركض نحو المجد وثبا نريد ان نستعيد مجـــد السلف وان نلحق بالركب ونشارك فى بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الائى اسسنا بناءه واقنا دعائمه فى سالف الازمان ، ونمد نـــهر المعرفة برافد من أعذب روافده واغزرها مادة وأسلسها اسلوبا وافصحها بيانا ، انها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الانفس هــم قطان الوطن العربى نريد لهم وحدة قوية عزيزة ، محاطة بسياج من العلم ، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى ٠

والله ولى التوفيق والسلام ٠٠٠

أن نكون أو لا نكون تلك هي المشكلة *



د. محمد عزيز الحبابي
مستشار في البحث العلمي
بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي

في المؤتمرات السابقة ، عرضت ، على مسامعكم الموقرة ، تأملات عن « الانسان والتعبير » وعن « الانسان والرمزية » ، وعن « الانسان حيوان يتكلم » . سيرا على هذه السنة ، أتقدم اليوم بتأملات أخرى ، من نفس النوع ، شاكرا لكم مسبقا ، الملاحظات التي ستتفضلون بها .

*) نص محاضرة ألقيت بمجمع اللغة العربية في دورة 1973

ينطلق هذا العرض من أرضية تتصل مباشرة باوضاع اللغة العربية بالتجارب التى يعانيهـا المتكلمون والكاتبون ، وبما تعانيه هى بدورها منهم • انى،قبليا متيقن من تسامحكم عما قد يجده البعض من تطرف فى النقد الذاتى الذى تتسـم به هذه الصفحات • فاذا كان الهدف صالحا ، سهل تجاوز شكلية الوسائل •

والتوفيق من الله •

* * *

أيها السادة الخالدون •

عنوان هذا العرض شكسبيرى ، وقد أتى كذلك عن عمد وسبق اصرار ، لان وضع لغتنا وضـع درامـى •

أكدنا ، فى الموضوعات السابقة ، ان اللغـة تعكس الوجدان والفكر ، وانها أيضا من صميم الجسد لكونها حركات لا تتصل بالاجهزة الصوتية وحسب ، بل تحرك شخص المتكلم بكليته وتتفاعل معه•اما نوعية التفاعل والانفعال فهى التى تميز اساليب الكلام بعضها عن بعض ، من فرد لآخر ، ومن طبقة لاخرى • فمثلا ، نحن هنا نستعمـل جميعا نفس اللغة ، ولكننا نتكلم مختلفين • لا أقصد اختلاف اللهجات ، ولكن اختلاف الثقافات، ولبيانه كما يتجلى فى اختيار الالفاظ والصيـغ التركيبية والمحتوى ، حسب المحيط التربوى لكل واحد منا • فقد لا تستغربون منى استعمـال اصطلاحات ك«فكرلوجيا» (للدلالـة عما اشتهر اليوم بـ«ايديولوجية») وك«ذوت الامر» (نسبة الى ذات ، فى مقابل موضوع) •

ولكن هذه الالفاظ لا محالة تفاجئكم كثيرا لـو استعملها ، مثلا ، استـاذ كبـير من المحافظـين (من اسرة) الاتباعية الكلاسيكية • فالمتحدث يخضع للمحيط المعشرى الذى عاش فيه ، والمحيط المكتسب الذى يعيش فيه ، (نقابـة ، ومعمـل ، وشوارع) اذ لكل مناخ لغوى نكهة اقليمية وطبقية: تعابير المثقفين ليست تعبير الاميين ، عمـالا وفلاحين • ونحن هنا لا نعطى تقييما ولا نفضل هذا الاسلوب أو ذاك ، وانما نكتفى بملاحظـة واقع محسوس فقد يكون كلام فلاح ما أكثـر دقة واقل حشوا من كلام كثير من الجامعيـين والصحافيين • وذلك انالكلام صدى خاصللحياة، أى اسلوب شخصى لكل متكلم • وتتعدد الاساليب اللغوية بتعدد المتكلمين ، فى اللسان الواحد •

* * *

للكلام وظيفتان : اسبهام اعلامى « موضوعى »، وتواصل ذاتى يحمل رنات وجدانية وفكريـة وثقافية • فالحديث تعرية للمتحدث : « تكلموا تعرفوا » • ان الاناقة فى التعبير ، كالاناقـة فى اللباس، اشارات الى ما لا يظهر عيانا • فبقطع النظر عن قوة أو ضعف التمكن من المعرفة اللغوية فى حد ذاتها ، يمكن أن نتبين عدة مستويات فى

التحدث·فالمستعرب الذى يحتاج الى مترجم اذا شاء اقتناء تذكار من (خان الخليلى) ينال اعجاب الفيلولوجيين المرموقين عند ما يحدثهم عـن معانى « اذ » وعن وجوه استعمال « اما » فى العربيـة الفصحى ·

اذن ، هنـاك مستوى الادراك الحسى ، (أى المعرفة المباشرة عن طريق الحواس ، وهو مستوى الملاحظة والتقاط الانطباعات) وهناك مستـوى فهم ما تحمله الدلالات وما يكتسبه الكلام حسب المحيط المجتمعى ، حيث « لكل مقام مقال » · فهذا المستوى الاخير يخضع لعادات ولاعراف اصطلاحية (كلمات حب ، وخمر ، وفناء ، عند ابن الفارض ، لا تدل على نفس المعانى فى قصص احسان عبـد القدوس ، مثلا) ·

* * *

ـ ماذا نود قوله ؟

نريد ان نؤكد (خلافا للنظرية الفلسفيـة المثالية) انه لا يمكن التفكير ان يستقـل عن الجسد وعن المجتمع ، هذا أولا · ثانيا ، ان اللغة والجسد والفكر أقانيم متلاحمة فى كينونة كـل شخص سوى ·

فالتفكير السليم لا يحصل الا باللغة السليمة والجسد السوى · ان الفكر يسير الجسـد وان اللغة ، بوصفها كيانا للفكر وطرقه وقوالبه ، لا تنفصل عن حياة الجسد وتطور المجتمع ·لـذا ، يجوز القول بأن وهن الاجساد ينعكس فى التفكير السقيم · فما اعطت قط أمة جائعة خائرة القوى تفكيرا خصبـا ·

نتيجة لذلك ، ان تجربة التأمل تؤكد ان فصل المعنويات عن الماديات ، أى فصل « الروح » عن الجسد ، ثنائية مثالية تخالف الواقع ، وتفسـد على الناس الالتزام التاريخى الـذى تفرضـه الحياة ·

جاء فى القرآن (الذاريات الآية 23) : « فورب السماء والارض انه لحق ، مثل ما انكم تنطقون » هناك معادلة بين **حقيقة الواقع** وبـين **النطق** ، فكما لا يمكن نكران ما هو واضح وبديهى ، مثل غريزة الكلام فى الانسان ، لا يمكن نكـران الظاهرات الكونية ، بل يجب ان لا يراودنا ريب فى حقيقة وجود الارض وفى ما بها من آيـات ·

اللغة نوع خاص بين الغرائز : انهـا صنف وحيد نوعه ، أى « جوهر محايد » ، كما سميناه فى مكان آخر (1) · فقوام اللغة ليس فقط معانى (مجال الفكر) ، وليس مجرد مقاطيع صوتيـة (مجال الجسد) ، ولكنه مزيج خاص يستلزم وجود الكائن الكل ، أى وجود تكامل مصاغ فى وحـدة منسجمة ، هى الشخص ، فكما لا أضع وجودى الشخصى محل تساؤل (ما عدى فى الشك المنهجى المؤقت ، كما عند ديكارت) لا استطيع ان انـكر الكيان اللغوى لاى شخص ·

«··· وفى الارض آيات للموقنين ، وفـى انفسكم أفـلا تبصرون ؟ وفى السماء رزقـكم

1) محاضرات الفكر الاسلامى (الملتقى الخامس ، ص 100 ، الجزائر ، 1972)

وما توعدون • فورب السماء والارض انه لحــق مثل ما أنكم تنطقون » •

يؤكد القرآن المعادلة بين تلك الحقيقة وبــين التكلم ، بالقسم وبلام التأكيد • فالكلام فــى نفس الدرجة من الواقع التى تتبوأها الظاهــرات الكونية فى سلم البديهيات المعاشة • فهو ليس طبيعيا فى الكيان البشرى وحسب ، بل انه من « جوهر » حقيقتنا ومن « حقيقة » واقعنــا ، لا نستطيع ان نجادل فى ذلك او نمارى • ان اللغة قوام الفكر والتخاطب ، فلا مجال للفكر خارج الكلام •

ـ البيضة أم الدجاجة ؟

اللغة والانســان « يتــذاوتان » ونعــنى بـ « التذاوت » ان علاقة اللغة بالانسان ليست ذاتية ، وليست موضوعية : اللغة تصنع الكائن البشرى وتشخصه وهى ، من جهتها ، صنيعــته وصنعته أى أنه لا فراق بينهما ، هذه وليــدة ذلك ، وهذا وليد تلك • (2)

نعم ، ولادة ، بل توالد ، ولكن لا نستطيع ان نعرف من هو الاسبق • نحن أمام الام التى تلدها ابنتها ، أو بالاحرى ، اننا نجهل من هى الام ومن هى البنت : فالمفارقة فى كون البنت أم والدتها وطفلة لها ، فى نفس الآن • لذا كثيرا ما انمحت اللغة باندثار قومها (اللغات الميتة) , كما اندثرت شعوب باندثار لغاتها • فأنى للمؤرخين ان يعلموا من منها علة موت الاخرى !

ان انبعاث الامم يكون باللغة ، واللغات تنهض بنهضة الامم • ولنضرب مثلا على ذلك : توقفت العبرية عن الحركة وبقيت فى اسبات شبيه بموت أبدى ، وذلك منذ بداية التشرد • وها هى اليوم قد انتعشت واصبحت لغة التدريس والمعاملات اليومية ، لغة أدب وعلم ، لان اصحابها نهضوا ، وها هم يتقدمون لان لهم لغة تماشى التقدم• تلك تجربة تسلتزم الكثير من الامعان عالم العروبــة وهو يبحث عن نهضة حق ، وعن تفاعل قويم مع التاريخ الحــديث •

* * *

اذا كان وضع اللغة من الانسان هو كذلــك , فهل من الصواب ان تنصب كل اهتمامات مسؤولى الدول العربية على القطاعات الاقتصادية والدفاعية ليجعلوها قطاعات فى مستوى التصنيع الكبــير أو نفاثات الميراج ، وبـ 52 ••• ، فى حين يتركون اللسان العربى فى مستوى الحرف اليدويــــة والصناعات التقليدية ، وحرَوب السيف والرماح؟

هذا سؤال اول , وانه لمذهل لو فحصنــــاه بالقدر الكافى ، وانتصرنا للموضوعية عــــلى العاطفــة •••

2) « التذاوت » مقولة فى نظرنا لا تقل واقعية عن سواها ، مثل الفعل والانفعال والاضافة

ان نوعية علاقات الاحـــداث والظاهـــرات الوجدانية والطبيعية هي التى تحدد نوعية ارتباط التاريخ بالتأريخ • (3)

عندما اتحدث ، من المتحدث ؟ كل كلام هـو عمليا ، محادثة عن احداث • الحديث ولغة الحديث لا يفترقان ، كما ان المتحدث والمتحدث معهـم ينتسبون لتاريخية l'historicité (4) واحـدة موحدة (بكسر الحاء) • فعندما أتحـــدث ، ان العالم الذى احمل معى هو الذى يتحدث • فنحن هنا ، على مستوى التداوت • ففقر اللغة ينبىء عن تقلص مادى ومعنوى على اختلاف الآفـــاق ، كما ان حيوية اللغة تعكس دينامية حضرية •

* * *

مفارقة ؟ ان الكائنات الحية الاشجار والاحجار كلها معطيات طبيعية ، ولكن تسميتها من ابداع الانسان • ومع ذلك ان اللغة لغـــز ، فليست مقاطع صوتية ، وليست ألفاظا ، بل نسق بديع انها جهاز مركز فى وجدان الافراد والجماعات ويتصل بأشياء وكائنات الطبيعة • اذن : اللغة ذات وموضوع فى آن وتفاعل مستمرين • وبالاضافة الى ذلك ، وبمعية ذلك ، بل وفوق ذلك ، انهـا فى تذاوت مع المتكلم : لا كلام بدون نطق ، ولا ناطق دون لغة • النتيجة هي ان اللغة معاناة الانسان لأصالته ، فيها وبها يمارس انسانيته • اللغة جهاز طبيعى بشرى بلا سحر ، وبلا قدسية • اللغة هى الحيز الذى يقع فيه الوعى بالاحداث •

* * *

بعد ما سبق ، يجب التساؤل عن اللغة العربية فى علاقاتها بالانسية المعاصرة l'humanisme على اختلاف الصراعات والظاهرات •

ان الامة العربية جائعة ، ومريضة ، وجاهلة • فلا غرابة ان تكون لغتها مفككة العضلات هزيلة ، وضبابية فى التعبير •

فهل اللغة هى المسؤولة عن أوضاع العرب ، أم العرب هم المسؤولون عن تخلف لغتهم ؟

نحن هنا امام مشكل شبيــه بالبيزنطينيات (على الاقل من حيث وضعه الصورى) : هـــل البيضة ولدت الدجاجة ، أم الدجاجـة هى التى اعطت البيضة ؟ رغم المعنى القدحى الذى يصاحب « البزنطينية » والسفسطائية ، لا بد من الاعتراف بأن فى الحياة مواقف حاسمة لا نستطيع ان نفرق فيها بين ما هو علة وما هو معلول • هناك تذاوت اى ان شيئا من «الموضوع ـ السبب وشيئا مـن

---

3) هناك فرق بين **التاريخ** l'histoire **والتاريخ** l'histoire
فالمفهوم الاول يدل على :

أ ـ مجموع الاحوال المتغيرة التى يمر بها كائن من الكائنات الحية او العالم ، مثلا : لكل انسان تاريخ (سجل أو لم يسجل) كما ان هناك تاريخ الارض وتاريخ الطب .

ب ـ تطلق هذه اللفظة على الاحداث والاحوال الخاصة التى تمر بها المتجمعات البشرية فى تطوراتها
المفهوم الثانى (تاريخ) : مصدر من ارخ ، اى دون أحداثا تاريخية

4) l'historicité التاريخية : تاريخ الوجود البشرى ، اى ابراز مميزات علاقة الانسان بالتاريخ

أ ـ فى المعنى الابستمولوجى : خاصية كائن ما من حيث اتصاله بواقعه التاريخى
ب ـ عند الوجوديين : تدل اللفظة على وضعنا كموجودين يدفعنا الوجود الى استخدام حريتنا فى نزوع نحو المستقبل

الموضوع ـ المسبب» تداخلا ، بحيث بقيت الحدود دون تحديد . لذلك يمكن القول بان الدجاجة ذات (اى فاعل) والبيضة موضوع (اى نتيجة لها) كما يمكن ان نقول العكس .

* * *

فلنعد الى السؤال عن تخلفنا .

اذا سلمنا بالثالوث الذى عملنا على ابرازه (الجسد ـ اللغة ـ التفكير) كان الجواب هو ان المسؤولية مشتركة . فلغة شبه ميتة تعكس شعوبا متخلفة والتخلف الاقتصادى والثقافى يقضى على اللغات بالسكون وبلبلة رتيبة .

طغت الدارجات على الاذاعات والاغاني والافلام وحتى على الدروس الجامعية ، أحيانا . طغت الدارجات المحلية فاصبحت اللغة العربية الحق لغة الابراج العاجية . انها « لغة فصحى » ، وقفا على قلة القلة من النخبة ، تستعمل فى محافل خاصة . وعند ما ينزل من البرج العاجى احد المتقنين لـ« الفصحى » ويضع رجليه على عتبة سيارته ، يخاطب السائق بالدارجة ...

وما أدراكم ما الدارجة ؟ خليط من تعابير عربية محرفة ، والفاظ اعجمية مشوهة .

* * *

ـ اننا أمة بدون لغة :

سنبقى فى وضعنا الغريب المفجع ، ما دامت لغة مجامع اللغة والجامعات تقترب من لغة القاموس المحيط أكثر منها من لغة الخباز والجزار ، ودونما علاقة بالمطبخ وغرفة النوم ، والازقة ، أى من الحياة فى مدها وجزرها ، من التاريخ اليومى الذى نعانيه ، نصنعه ويصنعنا .

لقد كثرت المعارك الكلامية حول صلاحية أو عدم صلاحية اللغة العربية لتدريس العلوم الحديثة . هناك النافى ، وهناك المرتاب ، وهناك الحائر . وانه لمشكل خاطىء لو تدبرنا الامر على اعتبار الواقع الموضوعى لا على الاوهام التى تعشعش فى ذهنية السواد الاعظم .

للغة العربية قابلية تدريس كل العلوم والفنون ولكنها تظهر قصورا وتقصيرا فى الحياة العادية .

فالخوارزمى ، والبيرونى ، وابن النفيس والرازى والادريسى ... ألفوا بالعربية ، وتعد تآليفهم علمية ، بل مراجع فى بابها وحجة على ما وصل اليه البحث فى عهدهم . فاللغة لم تعقهم عن ان يصلوا الى القمة المعرفية ويكونوا أساتذة عباقرة عالميين . لغة العلوم ليست هى العقبة الاولى والكبرى .

لقد اقامت العربية الحجة على قدرتها فى نشر المعرفة بكل أنواعها ، من الحرف والصنائع ، الى الفلك والرياضيات والفلسفة والطب والالعاب الفكرية،كالشطرنج.ان المشكل فى العوائق التى ورثتها عن عصور غابرة ، ولما يهتد او لما يتشجع المحدثون لصارعتها بجدية المكافح وموضوعية الباحث . حقا ، لغتنا تتطور ، ولكن ببطء يبقيها دون ما جريات الحياة المتسارعة . اللغة العربية لم تعد تتذاوت مع التاريخ الجارف ، فبينها وبين صراعات الواقع تفاوت كبير ، لا تزيده الايام الا شدة وعمقا .

ان مصير العرب فى شدق الغول الذى يفترس أوقاتنا ، ويتحول أحيانا الى سلحفاة تتربع فوق الادمغة ، وأحيانا الى حلزون ديق فوق الالسنة انه الضفدع المهـرج ابدا (ضوضاء ولا ابداع) ليس ذلكم الغول المارد ذو الرؤوس العديدة الا لهجاتنا الكثيرة ! لقد تفرقت أمتنا فى اللســـان لهجات ، وتفرقت كل لهجة دارجات ، حتى أصبح لكل شعب عربى لهجات ودارجات ، ولكن مجموع الامة لا لغة تجمعه ، لغة يتكلم بها الجميع ، ويكتب بها الجميع ويقرأها الجميع ·

فى صالون (الجوبرى) ·

يسألنى التونسى : كيف نك ؟

ويطلب منى المصرى : انت عاوز أرب الكوبر خذ طاكس اجرة جيـز ··· باردو افنـــدم ؟

ويظهر على عدم الفهم ، فيصيح الجزائرى :

روح دروك ، راه مخلوقة تزق عليك ·

ويضيف المصرى :

أى خدم يا بيه !

وأجيب ، أنا المغربى

ما بغيت حتا حج ·

قد يسترسل حوار الاخوة العرب على هـــذا النمط ، بدارجات لا نسب لها ، ولا حسب ، ولا عرض ··· وكأنهم صم ـ بكم ·

اننا أمة جد غنية بالعاميات ، ومفتقـــرة الى لسان جامع ·

نخلص من هذا الى وجوب اعادة النظـــر فى المفاهيم التى نكونها عن الانسان وعن اللغة · لقد لاحظ المرحوم أحمد أمين أننا : « نعلم التلميـــذ والطالب فى المدرسة والجامعة قرابة اثنىعشر عاما ثم لا يستطيع بعد ذلك ان يقوم لسانه ، وهـــذه هى العقبة الكبرى التى تقف امامنا الآن اذا اردنا ان نعمم التعليم بين طبقات الشعب ، من فلاحين وعمال » (5) · يلاحظ د·احمد امين اخفـــــاق طرق التعليم عندنا ، و يصرح منذ ربع قرن ، وقد لاحظ ذلك قبله عبد الرحمن ابن خلدون، وعرضته **المقدمة** بوضوح ·

ومرت ستة قرون على النقد الخلدونى وما زلنا نجتر الخيبة خانعين · لا ينقصنا الدارسون الذين يبحثون اللغة من حيث كنهـها وخصــــائصهـا وتطوراتها · فهؤلاء كثيرون ، ولكن ، كما يؤكده د · ابراهيم أنيس ، ان أبحاثهـم ، بتفاصيلهـا واسهابها : « تبقى جهودا مقصورة أو محصورة فى مجال ضيق من الدارسين المتخصصين فـى اللغات بالكليات والمعاهد وينتقل سيادة ذ · د · الى ابراز مدى الاثر العميق للغة فى عقول الناس ونفوسهم ، والى « مدى استمساك الشعـــوب بلغاتهم ، واستعدادهم للتضحية فى سبيلهـــا بالانفس والارواح » (6) · من ذلك « المشاكل التى لا تنتهى بين شعوب الارض » · (7)

---

5) محضر جلسات المؤتمر 14 لمجمع اللغة العربية (1948) ، ص 472

6) **اللغة بين القومية والعامية** ، القاهرة ، دار المعارف ، 1970 ، ص 5

7) انظر : الفصل الرابع نفس المرجع : « فتش عن اللغة » من ص 113 الى 147

خيبة العروبة ، انه لا اصداء بين مشاعر المتأدبين الواعين والكافة المنتجة • فالتفاعل بين الطبقتين سطحي وغامض • هذه في جزيرة مهددة دوما بالفيضانات ، والاخرى محصنة (أو محاصرة) في بروج مغلقة • فلن نستحدث لانفسنا وسائل التجميع والتآلف والتناغم اذا لم نزح من طريق العربية الفصحى الموانع التي تعوقها عن ان تكون لغة شعبية •

ان خطورة هذا الوضع لا تعادلها أية كارثة : شعوبنا تعيش فراغا ذهنيا ووجدانيا،لانها تعاني استلابا لغويا هو افظع من نكبة الفيضان أو الحريق فالنجدة تنظم للغارقين،ويوجد علاج للمحروقين، لكن لا دواء لصدمات اليأس والحرمان اذا استأثرت بوجدان العامة حيث تجد قلوبا خالية فتتمكن • **هواء ، ولغة ، واختناق** • يتحمل المرء الجوع والعطش لضرورة أو عن ارادة (كالصوم التعبدي والاضراب عن الطعام احتجاجا) لكن لا حياة ، ولو مؤقتا ، دون هواء ودون لغة •

* * *

هذه الصفحات لا تدعو الى حذف اللهجات والعاميات ، وانما تود ان يقع تقارب اكثر ما يمكن بينها وبين الفصحى ، وذلك بالعمل على التوحيد والتسهيل لتصبح الفصحى أداة تعامل شامل في كل مرافق الحياة اليومية ، يشترك في استعمالها الخاصة والعامة •

فالقضية ليست كما يقول د• احمد امين ، في « العقبة التي تقوم أمامنا الآن » ، بل في محافظتنا على العقبة ، التي ورثناها عن عصور الانحطاط ، ولا نعمل كل ما يجب • وبالشكل الذي يجب ، على تسطيحها وتعبيد وسائل • العقبة لا « تقف امامنا الآن » بل **أقيمت و منذ زمان •••**

ليس هناك ابهام يصعب استجلاؤه • فبين نية الاصلاح (أو الانقاذ) وبين ما نحققه عمليا بون شاسع • وهذا مظهر آخر من مظاهر التخلف •

يخيل لنا انه لم يستقر المسؤولون بعد على خطة قاطعة • فكثيرهم الذين طالبوا بتيسير اللغة الفصحى لتعود لها شعبيتها ، وبالتالي صلاحيتها• فالقوات التي تكبح التطور ، ولو بخطوة متواضعة ما تزال تصول وتجول وتردع وتعوق كل تفتح• لقد التزم القوم بمهمة واحدة : ان يرغموا العربية على ان تقتنع بالتعبير عن دنيا الفكر والعلم والفن، دون باقي ميادين الحياة ، أي أن تقتنع بان لا تكون الا لغة المصطلحات ، يتداولها الاختصاصيون وحدهم • فطبيعي ان ينفصم اللسان العربي الى لغة فصحى يستعملها الخاصة (في حالات خاصة) والى عاميات يستعملها الكافة والخاصة ، **معا ، وفي كل الحالات** ، الا ما ندر •

لقد بلغ اليوم مدى هذا الانفصام حدا خطيرا ، اذ الفصحى تختص بالعبادات وببعض ما يكتب ، أما الدارجات فتستولي على التخاطب ، بكل أنواعه مما يجعل التعامل مذبذبا ، كثير الالتباس ، لان الدارجات لا تتوفر على اللوينات التعبيرية في كل المستويات • هناك ، اذن ، شقة خلاف بين لغة

الكتابة والعبادة ولغة كل الناس ، فى كل الاوقات ·

ومن الاخطار على الفصحى فى وضعها الحالى ، ان لكل دارجة شعراء قصائد (الملحون) ومسرحيين وسينمائيين ، مما يهددها على صعيد الكتابة ، فى الميدان الادبى – الفنى · فاللاتينية بقيت لغة الكنيسة ولغة الكتابة الى ان ظهرت آثار أدبية بالدارجات المتفرعة عنها · فأول مؤلف فلسفى لم يصدر باللاتينية ، هو « حديث المنهج » لـ (رونى ديكارت) سنة 1636 ، الذى كتب باللغة الفرنسية ، وقد صدرت قبله « الكوميديا الالهية » لـ (اليغى دانتيه) الاطالى فى (القرن الرابع عشر) و « دون كيشوط للاسبانى » سيرفانطيس » فى اوائل القرن 17 · بمثل هذه الراوئع ، تحولت تلك اللهجات الى لغات قومية تفرض نفسها واضحت مسامير فى نعش اللاتينية·

فلنحذر ، اذن ، المحبة التى تحتضن الحبيب أكثر من اللازم فتقتله ! ··

* * *

لا ندعى ان وجود العاميات فى العربية بدع فى تاريخ وتطور اللغات · لكنا نؤكد ان الفصحى ارث فخم ، بيد انه ، وياللاسف ! محظور على الورثة الشرعيين حق التصرف فاستنادا على أى قانون عقلى أو وضعى يحرم على الاحفاد حق المتعة بما ترك الاجداد ؟

فلا مبرر معقول لهذا التحجير وتلك الحضانة· فحفاظا على الفصحى ، يجب ان « ندرجها » ، دون اطاحة بالبنيات ، فتقويض أركان اللسان العربى جريمة ، كما يعد جريمة تجميدها والالقاء بها فى الاخطار القاتلة ·

« نفصح » الدارجات ، بتيسير كلما جاز التيسير فلا يكفى ان نستبدل « مبتدأ وخبر » بـ « مسند اليه ومسند » بل الامر الملحاح هو حل مشكل « نون النسوة » ، و « العدد ، والممنوع من الصرف ، وحروف العلة فى الفعل الاجوف ، مع تسهيل قضية الاعراب ، وتوحيد الخطوط ، ووضع الحركات على الحروف وتحت الحروف » ، الى غير ذلك من المشاكل التى راجت منذ أيام زمان وما زالت تروج دون حلول حاسمة ، ولا يدرى ، أحد متى ستصل الى الانقاذ (8) فالشباب يفتن بالاغنية الحديثة الدارجة ، وبالفلم العامى ، وبالقصة الغرامية العامية · الشقة تتعمق واننا لنقترب من الحافة ، من الطلاق البائن بين الفصحى والدارجات ولا أحد يستطيع ان يعارض تيار الحياة الجارف بعنف الرفض اللفظى وباللعنات ففى طبيعة العاميات الغزو السريع والمباغتات · فهل من مخرج قبل ان يفوت الاوان ، والى الابد ؟

المسابقة مفتوحة ، والعاقبة للمجدين · حقا ، الانتصار لن يكون سهلا ، ولكن على قدر أهل العزم تأتى العزائم ·

8) انظر : د . محمد كامل حسين ، « النحو المعقول » ، **مجلة مجمع اللغة العربية** ، ج 27 (1971) القاهرة ، الهيأة العامة لشؤون المطابع الاميرية . ان فى هذا البحث ما يشفى غليل كل الغيورين وينير طرق الاصلاح بمنهج « معقول »

لقد وضع المشكل بكثير من الدقة ذ . محمد فريد أبو حديد ، هنا بهذا المجمع الموقر ، فى 3 أسئلــة :

1 ـ ألا يمكن ان نقبل فى الفصحى غير مـا يصح فى لغة قريش ؟

2 ـ هل نجعل الاصل هو منع ما لم يستعمل فى الفصحى من قبل ، أو نجعل الاصل اجازة كل ما يمكن اجازته ، ما دام قائما فى لغة الحياة ؟

3 ـ ألا يمكن ان نتجرد من التحيز الى أساليب القدماء فى الكتابة والتعبير اذا كانت لا تعبـــر حقا عن احساساتنا وتفكيرنا ؟ (9) .

ـ العربية لغة التجديد ، لغة الثورة :

أتى الاسلام بثورة شاملة ، وكانت معجزتــه اللغة ، ولا نعنى بالاعجاز عـــدم مقدرة فصحاء الجاهلية على ان يأتوا بمثل آيات القرآن ، ولـــو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، بل نقصد ان المعجزة المحمدية فى كون الاسلام استطاع ان يكيف بـين الاقوال والافعال،وان يتلاحم آمال القبائل العربية، مع نماذج بنسبة شمولية . جاء بلسان عـربى مبين ، أى مفهوم من الجميع ، لسانا شعبيا موحدا موحدا . فبعد ان كانت العربية لهجات بدويــة قبيلية ، قسرت الى لغة تصنع تاريخا مجتمـعا عاما ، هو تشريع ، وفن وعلم . يتجاوز حـدود العروبة .

فواجب المسلمين الثوريين (والمسلم الحقيقى ثورى بطبيعة مبادئه) ، وواجب العرب (مسيحيين واسلاميين) ان يفتحوا المجال للسان العـربى ليعبر عن مقتضيات الساعة .

وسيتحقق ذلك عندما يتيقن ان أى لســـان لا يكون مبينا ومعبرا حقا الا عندما يصبح **شعبيا**. فالعلوم والتقنيات مكتسبات شعبية ، لان التاريخ البشرى تصنعه الشعوب .

كان مجيىء الاسلام ثورة خلقت معها لغتها . فلا نعثر فى الجاهلية على فكرولوجيات عربية ، ولا نثرا فنيا يفى بحاجات التعبير المتفتح عـــلى الترجمة والتفلسف،والبحث فى العلوم الطبيعية. واتى الاسلام ، فبدأت الثورة الجديدة فى الذوق والذهن ، واندفع المجتمع الاسلامى يتفتح عـلى الترجمات ويحتك بالثقافات المختلفة ، فتقـوى المد الفكرى والحضارى .

نترك الى المؤرخين ان يفسروا كيف تم للاسلام ان يأتى بثورة لم تهيئها لغة . انه مثل شاذ فى التاريخ . لكن توحيد القبائل العربية فى أمـة متفتحة على كل انماط التلاقح ومتوثبة الى النضج المعنوى والرقى الحضارى ، اتى معاصرا لتوحيد اللهجات المختلفة فى لغة واحدة نموذجها القرآن .

تاريخيا ان الاسلام حدث ثورى ، جعل مـــن القرآن حدثا لغويا ثوريا ففى القرآن نظرة كونية جديدة ، بالاضافة الى توحيد اخلاقى يتناسق مع

---

(9) محاضر الجلسات ، الدورة 13 (1946 ـ 1947) من ص 6 23 ، الى 301 ، والدورة 14 (1947 ـ 1948) من ص 455 الى 467 ، والمناقشات من ص 468 الى 477

تشريع موضوعى مجتمعى تتمحور فيه العلاقات البشرية ، داخل اطار مقدس حول الله : ان الله رب الجميع ، بالتساوى ، فلا قدسية للاوثان ، أو القوى ، أو العصبيات ·

كانت الفصحى ، فى صورتها الاولى «شعبية» والا لما فهم العرب القرآن الذى خاطب البرجوازية المكية ، من أصحاب الرحلات التجارية ، وبقية القريشيين ، كما خاطب مجموع القبائل ، على اختلاف طبقاتها ، فكان المستضعفون من فقراء وأرقاء ، هم اوائل المسلمين : « قالوا انؤمن لك واتبعك الارذلون ؟ » (١٥) ·

وبعد طفرة التيار الحيوى الوحداوى ، تنبه المسلمون الى قيمة الكتابة وأثرها فى تركيز الدعوة القرآنية ، فحولوا الابجدية العربية اذ جعلوا نقطا فوق حروف واخرى تحت حروف · وهذا تجديد جذرى تغلبوا به على الكتابة المنقوصة فقفزوا بالعربية الى رتبة لسان حضارة ، يهضم ثقافات الهند والاغريق ، وفارس ، بلا حرج ، مطبقا « أطلبوا العلم ولو بالصين » ·

نعم ، تقبل اللسان العربى الترجمات الكثيرة واستساغها ، وخلق حولها مناقشات ، بلا ملل وكأنه يقول : « هل من مزيد ؟ » ·

نقط على الحروف وأخرى تحت الحروف ! مثال على الشغف بالوضوح ، وعلى الشجاعة أعطاه أوائلنا ، فتركوا لنا حق الاجتهاد مفتوحا · فالثورة التى تستوجبها ظروفنا هى ان نعمم وضع الحركات على المفردات ليتسنى تسهيل القراءة واعطاء الكلمات كيانها الكامل · **لا بد من حد معقول لهيمنة الاسلوب الجاهلى المعاصر ، اذا كنا نود ان نتغلب على التخلف بذهنية ثورية ، والثورة فى الفكر تمر بالثورة اللغوية · انه توازٍ مطرد ·**

* * *

يريد منا المتشبثون بالماضى فى كليته ، بخيره وشره ، يريدون منا ان لا نفكر الا بمقولات ذهنية وسيطية لم يعد يعتمدها الفكر الحديث فى دراسة الطبيعة والمجتمعات الحية · لقد اكتشف المفكرون المعاصرون بعدا هاما فى الطبيعة البشرية ، هو البعد المأساتى المشترك بين جميع الافراد والشعوب لكن ، بينما الآخرون يصعدون الشعور بالمأساة ويجعلونه طاقة فى توتر خلاق ، لم نع نحن المأساة بعد ، على مداها الحقيقى ، وحتى الذين شعروا بها ، لا يحيونها الا على حدة ، وبحياد ، اما خوفا من مواجهتها مجتمعيا ، واما لانهم لم يجدوا وسائل دقيقة للتعبير عنها ، أو للسببين معا · على كل حال ، الشعوب العربية لم تع بعد المأساة ، لذا ما تزال تتخدر ، فى الغدو والآصال بـ « ليلى يا عينى ··· يا ليلى ··· » ويطلع الفجر فيتساوى مع الغروب فى تفاهة المصير وعبث الايام الرتيبة · وقديما قالوا بخرافة : « التاريخ يعيد نفسه » ، واليوم ، نحن العرب نعيش على هامش التاريخ ، نحيا فى تاريخ لا يفعل ولا ينفعل ولا

١٥) القرآن ، الشعراء آية ١١١

يعيد شيئا ، لانه دون حركة ودون نفس ودون نفس • ان مرجع هذه القطيعة بيننا والتاريخ ، هو انفصال النخبة عن الشعب •

* * *

فلا يكفي ان ينتسب مثقف للشعب ليكون منه فالنخبة العربية ، مثلا ، تسيطر على الوساطات المؤثرة فى الرأى العام ، من مدرسة وصحافـــة واذاعة وكتب وسينيما ، وغير ذلك من أصناف (Mass-mechia) • فماذا فعلت بها ؟ ان أمتنا فى أشد الحاجة الى بداغوجية منهجية جديدة ، والى فلسفة اعلامية جديدة لكى تفهم بدقة القوانين التى تتحكم فى تطور المجتمعات البشرية • فالــذى ينطلق فى البحث بقبليات وبوثوقية ، عازما على ألا يغير شيئا ولا يقبل أية تضحية ، لن يتحرك من مكانه ، ان لم يرجع القهقرى • فبدون لغــة مبسطة ، نحوا وصرفا ، وكتابة ، أى لغة عامــة موحدة ، لايمكن تأطير الجماهير ورفعها الى مستوى وعى الاوضاع • ولن تلعب اللغة (أية لغة) هذا الدور الا اذا خضعت لقانون التطور الذى يقضى بتكيف دائم قصد انسجام الفكر بالصيغ التعبيرية وانسجام الذوات بالاحداث والموضوعات المتجددة•

* * *

علينـــا ألا ننسى ان الحركات التى أطــاحت بالاحتلالات الاجنبية للوطن العــربى ، حركــات جماهرية ، وانه بمقاومتها حافظت على الكيــان التاريخى للامة العربية ، بما فيه اللغة • فلماذا تبعد النخبة الشعوب من مكتسباتها ؟

فبمجرد ما تفقد اللغة طابعها الشعبى تصاب بهبوط الضغط الحيوى • فالانتساب الى «الفصحى» ليس فى مستطاع الشعبيين ، لان منهج كتــاب سبويه وألفية ابن مالك والشمقمقية لا يفهمه الا الخاصة والذين يتوفرون على الكثير من الوقت • أيجوز ان يطالب من يريد الانتساب الى الفصحى ان يحفظ المعلقات والمقامات ؟ هذا ايضا ليس فى متناول الا القلة من الناس • (II)

انى استعمل لفظة « انتساب » لان النخبــة نفسها فى غربة عن اللغة ، تعاملها كلغة ميتة ، اذ لا تسمح بأى تغيير • ان الاستقرار الدائم على حال واحدة من خاصيات الموتى : الموت وحده عدو التحول •

لا بد من منهج علمى عملى يرمى الى الدقــة والايضاح والوضوح لنرقى بالعربية الى مستوى الواقع الشعبى الحى ، فيتفتح لساننا على الاصالة دون تناقض مع دينامية التاريخ العام المعاش • بذلك المنهج ، يمكن أمتنا ان تجند مجموع طاقاتها الكمينة وامكانياتها الابتكارية والتطورية ، تلبية لحاجات القطاعات الحياتية ، والا سنبقى على هامش التاريخ وصيرورته ، حفاظا على تخلف تعبر عنه لغة مكبوتة ومجمدة ، يتبرك برناتها الموسيقيــة بعض المحظوظــين • لقد موضعــوها ، ونصبوها

(II) وحتى هؤلاء ، على قلتهم ، مطالبون بان يصارحوا ابن ما لك بان الالفية « احاجى الا ان تجعل الطلاسم مقبولة عند بعض الناس ، وقد يعجب من يستهويهم هذا اللون من التاليف دون ان يتعلم بها احد صواب الكلام » محمد كامل حســين المرجــع السابق ، ص 25

وثنا ، ولا يسمحون بتذويتها وتداوتهـا • ان خصوم تطور اللغة يعملون ، موضوعيا ودون وعى أحيانا ، على ان نبقى حراس مقابر • ان العربية فى محنة، ومحنتها آتية من الذين يحتضنونها حتى الاختناق ، « ومن الحب ما قتل ! » •

يجب ان نتعلم كيف نحب ، اعنى كيف نعامل المحبوب وكيف ننمى المحبة • فالركود يقتل الحب• اذا لم يتجدد وجه الحبيب يبلى ويقل تعلق المحبين• فكثيرهم مثقفونا الذين يفضلون التخاطب بلغات أجنبية . لانها مرنة ، لانها تفى بحاجاتهم التعبيرية الانجليزية والفرنسية والالمانية تلتصق بالانشطة البشرية (لان أصحابها فى صميم الواقع) كأداة اتصال لا تنفصل عن تطور الانسان وحاجاته •

تتجذر مشارب حياة اللغات فى الحياة العملية حيث تتلاقى الشلالات الدافقة من التاريخ العـام فى صيرورة لا منقطعة ، اللغة بنت السوق والمعبد، بنت الحقول والمعامل ، تلازم الانديـــة والملاعب الرياضية ، انها ربيبة الشمس ومسامرة الليل • فلماذا لا نبحث عنها الا حيث تصيبها الرطوبـة المزمنة ، فى قعـر الكتب الصفراء ، ومناقشات المصنف والمحشى . والمحشى على المحشى ، والمعلقين على المعلقين ؟ ارفعوا العربية الى مستوى مقتضيات العصر لتصبح كما كانت ، كانت لغـة السوق (ويا ما اشهر سوق عكاظ •••) ، ولغة الواقع كما تظهر فى القرآن والحديث ومؤلفات التشريع حيث الكلام يمتزج بالحس والفكـــر • يجب الا نحملها نحن على ظهور قوضها التخلف وقرون من التعسف ، بل ان نجعلها مطيعة مطواع تؤدى مهامها على الوجه الاحسن الممكن • الحقيقة المـرة تبرق فى كأس بلورى • فلنسقها جهرا « رجال الفكر » و « رجال الثقافة ! » يا قوم ! أعطونـــا لغة حية ، لنكون أمة غير متخلفة : **اتركونا نستغل لغة الماضى لبناء المستقبل** • نريدها مجالا ديناميا نحركه فيحركنا ، نتداوت واياه ! ان « الفصحى » تمثل فى الواقع مجالا مستقلا عن الحياة ، وكأنها (No mans land) بالنسبة لكل الشعوب العربية ، بما فيها الاجهزة التعليمية والادارية • وتلك هى المأساة •

هل من سبيل ؟

نعم ، ان نفعل ما فعله غيرنا • فالى جانـــب تجربة العبرية التى وثبت من الجمود الى المعاصرة والعصرية، هناك مثال أضخم واوسع • لقد حررت الصين الشعبية ربع سكان المعمورة أو يزيـــد ، والفت بينهم فى امة واحدة ونظام واحد ، وذلك بفضل اعادة النظر فى اللغة وتسهيل ضوابطهـا وحصر المفردات اللازمة الاستعمال (اللغة الاساسية)

انطلقت الماهورية من سياسة « المشى عـــلى قدمين » ، أى ان السياسة التحريرية بالصـــين كانت ترتكز على الثورة الصناعية والثورة الثقافية، بعد ان مر المكافحون بمرحلة « المسيرة الكبرى » التى قام بها الفلاحون •

لقد اتخذت الشقيقة الجزائر خطـة مماثلة فى نطاق خاص بوضعياتها • يرمى التصميم الجزائرى الى استكمال بلورة الشخصية الوطنية ، بتكييف الاصالة وتطويـر البنيات الـذهنية والجســدية

والمجتمعية ، نعنى ان الجزائريين قد اختاروا السير على ثلاثة أقدام ، سيرا متوازيا : الثورة الصناعية والثورة الثقافية ، والثورة الزراعية · فقضية التعريب غير مستقلة عن التيار العام الذى جندت له الدولة كل الامكانيات الانسانية والمادية · فالتعريب أساس الثورة الثقافية ، وهذه تنصهر فى الثالوث : صناعة ــ زراعة ــ ثقافة · ففى نظر المسؤولين ، لن تتم جزأرة الاقتصاد الا على كيان الأصالة ، اى الا باللغة القومية التى تتجسد فيها شخصية الامة ، كما لا يكتمل استرجاع الاستقلال الا اذا كان فى صالح مجموع الشعب ، بلغة شعبية ، لغة الجهاد اليومى · لذا لزم ان تعمل الجزئر على تعبئة كل الطاقات لاثبات أسس المجتمع الجديد · (12) ان النمو الاقتصادى ضرورى لحاربة التخلف الثقافى كما ان كلما ازدهرت الثقافة ازدهر معها الاقتصاد ، فالتقدم أفكار تتجسد فى أفعال ، والافعال أعمال منظمة لا نظريات تجريدية محض : كل انتاج تطورى يتطلب لغة تطور ، فبالنسبة للفكر الخلاق ، اللغة هى المادة الاولى (كما فى اصطلاح علم الاقتصاد) بها ينمو ، وبها ينمى ما حوله ·

ــ خاتمة :

فيما تقدم ، أشرنا الى دراسة للاستاذ الدكتور محمد كامل حسين تحت عنوان : « النحو المعقول » وانه بحق مقال ثورى قد يكون فتحا جديدا بالنسبة للسان العربى ، لو أخذناه بعين الاعتبار ، ففيه الكثير من الحلول لمشاكل الاعراب ، والصرف · (13) يكفى ان نجرؤ ، فنتجرد من عبء الاغلال المنقولة التى تكبل الاساليب والتراكيب لتحل أمامنا الصعاب ، فنطور الفصحى تطويرا يقترب من العاميات ، أى من لهجات الشعوب العربية فى تفاعلها الصيرورى والمصيرى مع الجغرافية والتاريخ يقينا ان ذلك لن يعود على الفصحى ، وعلى الامة العربية الا بكل خبرات اليقظة والنهوض ، ويكسبها شبابا وحماسة ·

* * *

التأملات السابقة موجزة ، وفى مجملها وتفصيلها قابلة للمناقشة · فكلما احتد النقاش حول أمورنا الجوهرية ازددنا تعمقا للمشاكل ووعيا للمناهج الموصلة الى حلها · فالمهم هو ان نعمل على ألا نسيء وضع المشاكل وتأويل بعض المحاولات خوفا أو مجاملة ، أو نقصا فى التقييم ·

اللغة صورة صادقة عن مدى تقدم أو تأخر الناطقين بها · فالنمو العام فى أمة مرتبط بنمو لغتها · فهذه الوحدة مسلمة أساسية يجب ان ينطلق منها كل بحث عن المأساة العربية الحالية ·

12) نحن هنا لا نقيم نتائج المشاريع الجزائرية ، وانما نحاول ابراز الخطاطة التى رسمتها الدولة للقضاء على التخلف كما نحاول اظهار قيمة اللغة القومية فى تلك المشاريع . فالطريق مازال غير معبد ، والعراقيل كثيرة

13) من ص 24 الى 59 (من المرجع السابق)

مستقبل اللغة العربية

بالمغرب الأقصى

محمد محيي الدين المشرفي
الامين العام لوزارة
الثقافة والتعليم الاصلي
بالمغرب

الحديث عن موضوع اللغة العربية وما يتطلبه ذلك من بحث في كيفية العمل للوصول الى تطويرها ليس بالسهل ولا باليسير ، حتى على اولائك الذين لهم دراية واختصاص بعلم اللغات عامة ، وعلم اللغة العربية بنوع خاص ، فكيف يستطيع رجل مثلي لم يدع ابدا هذا التخصص وهذا الاقتدار ان يحدثكم في موضوع يعتبر من الصعوبة بمكان ، وهو هذا الموضوع الذي اتطفل على مسامرتكم في شانه هذا المساء ، ذلك ان الظروف وحدها ـ بحكم الوظيفة التي اضطلع بها كمدير لمعهد التعريب منذ ما يزيد على ثلاث سنوات هي التي دفعتني في الواقع الى الاهتمام بهذا الموضوع الشائك وما يثيره من مشاكل مختلفة الجوانب نحن نعمل بكل قوانا على قهرها وازالتها من الطريق ٠

من جل هذا وذاك ، يسرنى جدا ان اقدم لزملائى المحترمين المجتمعين حول هذه المائدة المستطيلة طائفة من الملاحظات توصلت اليها بعد مشقة وبحث طويلين ، فيما يرجع لمستقبل اللغة العربية فى هذه البلاد وفى بقية بلدان المغرب العربى ، وما يعترض هذه اللغة من عقبات وعراقيل تصدها صدا عن اداء مهمتها على الوجه الاكمل باعتبارها اداة تلقين وبحث فى آن واحد ·

والذى لا سبيل الى انكاره فى هذا المقام هو ان هذه اللغة مع مالها من المزايا التى لا ينكرها الا مكابر او عنيد لم تعد بقادرة فى الوقت الحاضر على القيام بالدور الفعال الذى كانت تقوم به فى الزمن الماضى ايام ازدهار الحضارة العربية الاسلامية · والبرهان على هذا الضعف الذى اصاب المتكلمين باللغة العربية فى هذا العصر هو الوضع اللغوى الذى تعيش عليه بلدان المغرب العربى جميعا ، وهو وضع يدل دلالة واضحة على تقلص نفوذ اللغة العربية الفصحى خلال سنوات الاحتلال على الاقل ، وتقهقرها لفائدة لغات ولهجات اخرى شرعت فى غزوها فى كل مكان بصورة يكاد يضمن لها النجاح · واذا عدنا الى الواقع اللغوى الذى اشرنا اليه بعدما سلخت بلاد المغرب العربى الكبير عدة اعوام من حياتها فى الاستقلال ، نلاحظ ان كل بلد من هذه البلدان يتحمل بصفة عامة اعباء ثلاث لغات :

اولا ـ اللغة العربية الفصحى التى نستخدمها فى حياتنا الدينية واليومية ، كما نستعملها اداة لتبليغ بعض المواد الدراسية كالفقه والتوحيد والجغرافية والتاريخ فى كافة المدارس بوجه عام ، باستثناء المؤسسات العلمية التى تعول على اللغة الاجنبية خاصة فى تدريس المواد العلمية ، او القيام بأعمال فنية بحتة ، ولعل هذا هو الذى جعل شبابنا يرمون اللغة العربية بالعقم ويرون انها ليست قادرة على مسايرة الحضارة العصرية ومما لا شك فيه ان الامة الراقية لا تكون لغتها راقية فى ناحية دون ناحية ، كأن تكون لغة الادب والشعر والدين ولا تكون لغة باقى العلوم ، ولذلك قال علماء اللغة العربية الكبار : « اللغة التى لا تعبر الا عن بعض احوال الامة هى لغة عوراء تظل عرضة للزوال » ·

ثانيا ـ اللغة العامية وهى اكثر انتشارا من الفصحى نظرا لسهولة تعابيرها وبساطة القواعد التى تختص بها هذه اللغة العامية التى تولدت ـ كما تعلمون ـ عن الفصحى ، وواكبتها نتيجة اتصال العرب الفاتحين بغيرهم من الشعوب الاخرى ، وعلى كل حال فالعامية دليل على ان الناس عندما لا يستطيعون تحمل ضوابط نحوية ثقيلة كالتى حملتها الينا اللغة العربية الفصحى او اية لغة اخرى كاللاتينية مثلا ، يتحررون منها نسبيا ، ومن ثم نشات العامية التى اصبحنا نعتمدها كلغة تخاطب ومعاملات نظرا للتساهل الذى سمحنا به لانفسنا فيما يرجع لتطبيق القواعد النحوية الفصيحة · وهذا التساهل هو الذى فعل فعله ايضا فى اللغة اللاتينية مما ادى بالمتكلمين بها شيئا فشيئا الى احداث لغة اخرى بعيدة نوعا ما عن اللاتينية تعرف باللغة الرومانية ، التى اصبحت بعد قرون معروفة باللغة الفرنسية ·

هذا ونظرا لانتشار العامية بيننا ، وسهولة تعابيرها وقواعدها بالنسبة للعامة ، فانه بدا لبعضهم ان اللغة الفصحى مرادفة للتعقد والتحجر والجمود ، ولا يدرون ان الجمود كامن فى عقول المتكلمين بالفصحى ، اما اللغة العربية الفصحى

فانها ما زالت حية ترزق فى بطون الكتب وعقول الذين درجوا على التحدث بها على الاقل ·

هذا ولا ننس انه بازاء اللغة العامية توجد عدة لهجات بربرية لا يزال العمل جاريا بها وان كانت اللغة العربية تغزوها شيئا فشيئا لعدة اعتبارات ، اهمها انتشار التعليم فى السهول والجبال ، وتعدد المواصلات بين مختلف جهات هذه البلاد ·

ثالثا – وهناك اللغة الفرنسية التى تستعملها طائفة من السكان فى اقطار بلدان المغرب العربى عموما ، باستثناء ليبيا التى عاشت فيها اللغة الايطالية ايام الاحتلال والتى استعاضت عنها – على ما يظهر – بالانكليزية منذ الاستقلال · ويبدو ان طائفة من المواطنين ما زالوا يتحدثون بهذه اللغة الاجنبية اما لضعفهم فى اللغة الام ، او لتفضيلهم اياها على لغتهم الاصيلة ، لانهم درجوا عليها منذ الصغر ، وقد يلجأون اليها لانها تتوفر على المصطلحات التى تمكنهم من التعبير عما تطفح به قلوبهم من مشاعر واحاسيس ولم يتفطنوا الى ان استعمالهم لغة اجنبية عوضا عن لغتهم الاصلية يؤدى بهم شيئا فشيئا الى اضمحلال شخصيتهم وطمس معالم ذاتيتهم القومية · ومن ثم ضعفت اللغة العربية وانكمشت على نفسها ، لا تستفيد الا قليلا مما تحمله الحياة العصرية فى طيها من مفاهيم ، وتجره معها من مصطلحات صالحة للتعبير بدقة عن تلك المفاهيم·

ولقد افضت هذه الحالة الى صراع عنيف على ارض المغرب الاقصى طيله عشرات من السنين بين اللغة العربية واللغة الاجنبية او اللهجات الاخرى ، فكانت معركة المصير التى غذتها المدارس الحرة بروحها الوثابة ، معركة مصير لغة اصيلة استطاعت ان تبقى وتحيى وتدوم بفضل تضحية ابنائها البررة ، وذلك ما عبر عنه احد فلاسفة اللغة بقوله : « عندما تتلاقى لغتان تحت سقف واحد ، اى على لسان شعب واحد ، لا يبقى هذا التلاقى باردا ، بل تلتحم اللغتان فى معركة حامية الوطيس ، وماذا يحصل بعد ذلك ؟ تغطى لغة المستعمر على لغة المستعمر حتى اذا اشتد وعى الامة المستعمرة ، وانتفضت فى سبيل حريتها عادت لغة المستعمر القومية الى سالف مجدها ··· » وهذا هو الهدف الذى اصبحت اللغة العربية تتجه اليه فى بلادنا ، بما نشاهد من نشوء محيط عربى صار يغمر الاوساط وكافة مرافق الحياة ، ومما يلاحظ ان هذا المحيط اللغوى او المناخ اللغوى هو الذى يدعم عادة اللغة السائدة ويساعدها على الذيوع والانتشار ·

ماذا نستنتج من كل ما سبق ؟ انه من العبث ان نعتمد على لهجة من اللهجات ، او لغة من اللغات الاجنبية لخلق ذلك التطور الذى تفتقر اليه بلادنا بل اذا كنا نريد لشعوبنا الالتحاق بركب الدول المتقدمة ماديا ، والاسهام فى عملية الخلق والابتكار فلا بد من ان نقر اللغة العربية الفصحى كاداة ثقافة وعمل فى المدرسة والادارة والمجتمع ، واللغويون يعلمون حق العلم ان اللغة بنت الالزام لا تتطور الا بتطويرنا اياها ، فاذا كنا لا نزج بانفسنا فى مثل هذه الحاجة ، كى نشعر بضرورة البحث عن الكلمات التى تنقصنا ، لا نرى كيف نستطيع ان نزود اللغة العربية بمصطلحات نحن بأمس الحاجة اليها ، وان كانت المصطلحات لا تكون وحدها بنيان اللغة العربية ، نعم هى جزء من هيكلها الضخم ، بل الذى يكون هيكل اللغة بالذات هى المفاهيم الحضارية ، والمفاهيم الحضارية لا تنشأ وتتفرع الا عن مجتمع يعج

بالحياة النشيطة الخلاقة ، اذ المفروض فى الذين يعملون داخل هذا المجتمع الحى انهم يكتسبون بحكم النشاط الذى يزاولونه ، وعن طريق اللغة التى يتكلمون بها جملة من الافكار والمفاهيم المتصلة باعمالهم مهما كانت تلك الاعمال متنوعة معقدة ، وهكذا تخلق اللغة المعبرة عما يكمن فى النفوس بما يقتضيه ذلك المجتمع المتقدم من دقة فى التعبير ووضوح فى التفكير ٠

اذن يتعين علينا ان نوجه كامل اهتمامنا لهذه اللغة ، ونعتمد عليها فى سائر مرافق الحياة ، وذلك بزجها فى الحياة الاجتماعية عن طريق حملات تعريبية منظمة بواسطة محاضرات وندوات وملتقيات ومناظرات تستخدم فيها ايضا امواج الاذاعة والتلفزة ، وبذلك سنتمكن من خلق المناخ اللغوى المنشود الذى يساعد على انتشار اللغة واخذ حظها من الذيوع والرواج بحيث تاخذ بلاعناء مكانها فى المجتمع ٠

على ان هذه العملية لا تكفى وحدها لجعل اللغة العربية صاحلة للاستعمال ، ذلك انه لا بد من ادخالها للادارة ، ودخولها المؤسسات الادارية يعيد الى العربية قطعا اعتبارها ، ويمكن الطبقات المتكلمة بها من ان تتعرب عقليا ، فيزداد الاقبال عليها يوما بعد يوم ، وتصبح شيئا فشيئا اداة صالحة للتعامل والاتصال ، على ان اقرار اللغة العربية فى الادارة لا يتطلب اكثر من استعمال طائفة من المصطلحات يوجد معظمها فى بطون القواميس والمعاجم ، ولا حاجة الى الاثبات فى هذا المقام ان العرب الفاتحين عرفوا جيدا بعد اختلاطهم بالشعوب اليونانية والفارسية كيف يأخذون عنها عن طريق الاقتباس والتعريب ما تحتاج اليه العربية من كلمات واسماء لمسميات كانت جديدة بالنسبة اليهم ٠

وكما يجب ان نعمل على اقرار اللغة العربية فى المجتمع والادارة يجب كذلك ان تحتل محلها فى كافة معاهد التعليم على اختلاف مستوياتها ٠

فبالنسبة للتعليم الابتدائى لا يعقل ان يحمل الاطفال على تعلم لغة اجنبية بالاضافة الى لغتهم الاصلية ، خاصة فى سن مبكرة من حياتهم ، لما يترتب عن ذلك من تحريف لشخصيتهم ، بل حملهم على تعلم لغتهم الاصلية وحدها فى هذه المرحلة من حياتهم لما يعين على ابراز شخصيتهم والمحافظة على كيانهم الروحى ، وهذا معناه ان استعمال لغة اجنبية او عدة لغات فى المرحلة الابتدائية بالاضافة الى اللغة الوطنية يضاعف لامحالة من الصعوبات التى تعترض الطفل بما تضيفه من صعوبات لغوية الى صعوبات فنية فى حد ذاتها ٠ ثم ان اللغة الام لا تستطيع الحياة مع لغة اخرى تحت سقف واحد ، كما اسفلناه ، والا بقى الطفل موزعا بين عقليتين : عقلية يستمدها من لغته الام وعقلية يستمدها من اللغة الاجنبية ٠ ولا سبيل ان يستشهد فى هذا المقام بما يجرى فى بعض البلدان او المقاطعات التى يتحدث اهلها باكثر من لغة واحدة كسويسرة وبلجيكا وكندا او مقاطعة الالزاس بفرنسا ، بل نعتقد ان فى ذلك حجة على الذين يريدون ان يثقلوا كاهل الصغار بحملهم على تعلم اكثر من لغة فى صغرهم ٠ فالجماعات التى يخيل الينا انها تتكلم لغات كثيرة فى تلك البلدان لا تحسن فى الواقع الا لغة واحدة ، انما هى تستعمل بالاضافة الى اللغة المتمكنة منها لغة ثانية بصفة ثانوية لا تمكن تلك الجماعات من التعمق فيها الى حد الابتكار والاختراع ٠ ففى سويسرا مثلا ثلاث مناطق يتحدث اصحابها الفرنسية والايطالية

والالمانية، لكن هناك منطقة خاصة يحسن اصحابها الفرنسية اصلا وشيئا قليلا من الالمانية . كما ان المنطقة المجاورة لالمانيا يتكلم اصحابها الالمانية بطلاقة فى حين انهم يستعملون ايضا اللغة الفرنسية ، وما قيل فى الفرنسية يقال كذلك فى الايطالية بمعنى ان الذين يتحدثون سليقة باحدى اللغات الثلاث يستطيعون مع ذلك استخدام لغة بصورة تعينهم على قضاء حوائجهم العادية لا اكثر ولا اقل ، فهل ذلك معناه انه من الخير ان يدرس الانسان اكثر من لغة فى المرحلة الابتدائية ؟ بل نعتقد انه من المفيد ان نقتصر على تدريس لغة واحدة فى المرحلة الابتدائية ·

ان الوضع الطبيعى للتعليم فى كل مكان وبالنسبة لكل امة هو ان لا يكون الا بلغة الام ، اذ فى ذلك تركيز لاستقلالها ، وتجسيم لشخصيتها حيث يجعلها محررة من كل تبعية للغير · يضاف الى ذلك ان تعريب التعليم العالى قبل غيره بمواده الادبية والعلمية والتكنولوجية على الخصوص واجب ، وضرورى ان يسبق تعريب التعليم الثانوى والابتدائى ·

التعريب فى بلادنا لكى لا تتعرض معاهدنا على نوع من التدهور والاضطراب يجب أن يشرع فيه من أعلى ، وينحدر بالتدرج حسب مخطط واضح الى اسفل ، وذلك بحمل الطلاب عقب انهاء دراستهم العالية على تدريس ما درسوه باللغة العربية فى المعاهد الثانوية · ويكون تعريب التعليم الثانوى تصاعديا رعيا لصعوبة المواد وتخصص الاساتذة ، فنبدأ مثلا بتعريب الفلسفة والعلوم الاجتماعية ثم تعريب العلوم الطبيعية ، ومنها ننتقل الى الكيمياء والفيزياء والرياضيات ، فلا يمضى وقت طويل حتى تتعرب المدارس الثانوية ، ويسرى مفعولها فى المدارس الابتدائية بما يتكون فى هذه المعاهد الثانوية من شبان قادرين على الانخراط فى سلك معلمى المدارس الابتدائية ، اذ كل متخرج من مدرسة ثانوية يكون بحكم تكوينه العربى قادرا على تحمل اعباء التعليم فى المدارس الابتدائية بلغة عربية سليمة مع المحافظة طبعا على المستوى اللائق ·

واذا كان من الواجب العمل من الآن على اعداد الاطفال لتلقى دراستهم الثانوية بالعربية لانها الاصل ، وذلك هو الوضع السليم ، فان نظاما كهذا لا يمنع مع ذلك من اعطاء التلاميذ فرصة تلقى عدة لغات اجنبية كالفرنسية والانكليزية والاسبانية والروسية او لغات شرقية يمكن ان تحل محل اللاتينية واليونانية عندنا ، هى الفارسية والتركية والعربية : والاعتقاد السائد عند علماء اللغة والمربين ان تعاطى هذه اللغات من شانه ان يعين على تفتح اذهان الدارسين وتطعيم اللغة الاصلية بكثير من المفردات والمفاهيم التى تعوز العربية اليوم ·

والواقع ان العربية الفصحى لم تتمكن لحد الآن من ان تتبوأ المقعد اللائق بها ، وذلك يعاد بحسب علماء اللغة والاستشراق ، الذين بحثوا طويلا عن اسباب الانحطاط الذى اعترى بوجه عام الحياة الاسلامية واللغة العربية خاصة ، ابتداء من النهضة الاوربية ، الى عوامل كثيرة من الممكن ان نعددها فيما يلى مع ما يقتضيه المقام من التحفظ والاحياط فى الحكم ، هذه العوامل هى عوامل لغوية وبيولوجية واجتماعية وسياسية وفنية ·

اولا ــ يعتقد اولائك العلماء عن حق أو بدون حق ان كمال اللغة العربية كما فصلت تفصيلا فى

القرآن الكريم والفصاحة التى طبعت آياته الكبرى كل ذلك من العوامل التى بهرت عقول العرب الاولين بما جاء به القرآن من سحر وبيان ، اعجزهم عن محاولة الاتيان بمثله ، وعاق بالتالى علماء اللغة عن اغناء العربية بما يمكنها من الاستمرار فى التقدم والتطور ، تطورا يجعلها لا تتخلف عن ركب اللغات الحية الاخرى ، بل يضيف علماء الاستشراق الى ذلك – ولا ادرى الى اى حد يمكن الموافقة على ما يقولون – ان العجز الذى اصاب اللغويين كان ايضا من حظ الفقهاء والمتكلمين الذين لم ياتوا باحسن مما جاء به القرآن والحديث من احكام وقوانين تشريعية تعتبر اية فى الدقة ·

ثانيا – وهناك عامل اساسى كان له الدور الفعال فى تقهقر اللغة هو ذلك النوع من الاستسلام او الخضوع الذى يلاحظ فى الجماعات الاسلامية تجاه حوادث معينة ، حملت المسلمين على الاعتقاد بانها نتيجة للقضاء والقدر ، ولا سبيل الى الفرار منها ، هذا النوع من الاستسلام ادى بطبيعة الحال الى نوع من التحجر الذهبى تبعا للرضى بالامر الواقع الذى لا يرتفع ، ومنعهم من البحث عما يغنى اللغة العربية بشتى وسائل العمل والتفكير ، بل يزيد اولائك الذين يعيبون علينا هذه العقلية المتحجرة انه حتى عندما كانت المجتمعات الاسلامية تتمتع بنوع من التقدم من الوجهة الاقتصادية ، كان من نتيجة هذه العقلية الجامدة ان عاقت المشتغلين فى ميدان الصناعة عن البحث عن وسائل جديدة ترقى بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه · فانظر مثلا الى الوضع الاقتصادى الذى كانت تعيش عليه المدن المغربية كفاس مثلا تجد هناك مجموعة من الصناع اوضح ما يوصفون به هو ذلك الرضى بالحالة الاقتصادية التى كانوا يتمتعون بها كانوا يربحون اقواتهم من صنع يدهم كما انهم كانوا يستخدمون ما كان بيدهم من ادوات وآلات لصنع عدد من الاشياء التى كانت تتوقف عليها حياتهم اليومية ، وذلك حسب اسلوب رتيب وروتين لم يكونوا ليقلعوا عنهما بسهولة ، ولم تحدثهم انفسهم فى يوم من الايام بالتفكير فى وسيلة تمكنهم من احداث آلة ارقى من التى كانوا يستخدمونها بحيث تعينهم على صنع ادوات احسن واكثر عددا من التى كانوا يصنعونها · وكانت الجماعات الاوربية فى ذلك العصر بالذات تعيش هى الاخرى فى وضع اجتماعى وجغرافى مماثل للوضع الذى كنا نعيش فيه ، بل ربما كانت تلك الجماعات متاخرة متخلفة بالنسبة للمجتمع المغربى كما كان يظهر فى عواصمنا المتحضرة خلال القرون الوسطى ، الا ان الصانع الاوربى كان فى ذلك الوقت يشعر بضرورة المثابرة على العمل المفيد ، ويتوق الى سلوك احسن الطرق واقربها لتحسين المنتوجات الصناعية التى كانت تخرج من يده كما انه كان يشعر دائما بنوع من الفضول ويستسلم لتساءلات لا يستطيع ان يتملص منها ، هى التى كانت تحوم فى ذهنه حول ما يشاهده من احداث ومظاهر طبيعية تثير انتباهه احب ام كره ، والملاحظ انه كان يعمل فكره فى كل ما يشاهده من حوله بغية معرفة الاسباب الدافعة الى حصول حوادث معنية · ولا شك ان هذا الفضول هو الذى حمل « دونى بابان » على ان يركز انتباهه فى ارتفاع غطاء القدر نتيجة تصاعد قوة البخار · قد يكون الحادث المذكور بسيطا فى حد ذاته ، ولكنه على اى حال كان نقطة انطلاق ابتدأ منها تطور العالم باسره تطورا مدهشا · فنحن لا ننكر ان مئات الآلاف من الشخصيات ممن درجوا على وجه الارض سبق

لهم بالتاكيد قبل « دونى بلبان » ان شاهدوا غطاء القدر يتحرك فى صعود وهبوط ، ولكن من المؤكد ايضـــا انه لم يتفطن واحـــد منهم من قبل الى استغلال تلك الظاهرة الطبيعية البسيطة حتى طلع علينا القرن التاسع عشر ، فكان ذلك التحــول العميق فى سير المدنية المعاصرة من حظ عامـل بسيط ، له ضمير حى متوقد ، وارادة تستطيع ان تهز الجبال ٠

ان ذوى الضمائر الحية هـــم الذين يتصفون ايضا بمـــا يسمى بالعقلية الصناعية والعقلية الصناعية هى وحدها التى تستطيع ان تدفع بعجلة البلاد الى الامام ، وتضعها على قضيت التقــدم السـريع ٠

ثالثا ــ يقول المستشرقون الذين سبق لهم ان تعمقوا فى دراسة اسباب التقهقر الذى تشكـو منه اللغة العربية اليوم ، ان نوع النظام السياسى قد يكون له اثر فى انتشار اللغة العربية واشعاعها ويعللون ذلك بقولهم انه اذا كان النظام ارستقراطيا فان الامـــة تكون اذ ذاك تعيش داخل جماعات صغـــيرة مفصلـة بعضها عـــن بعض بحكـــم الفـــوارق التى تفصلهـــا عن بقيـــة الشعب ، وتكون هذه الجماعات الصغيرة ، فى مثل هـذه الحالة ، تستعمل لغة خاصـــة قليلة الشيــوع ، ومفردات وتراكيب لا تقوى بالتالى على الانتشار ، فتبقى اللغة محبوسة الأنفاس ان صح هذا التعبير فى حين ان النظام الديموقراطى يعين طبعا على ذيوع لغة بحكم استعمالها من طرف الســـواد الاعظم من الامة ، وفى هذا ما يضمن حيـاتها وبقاءها ، وهذا الرواج الذى يحدث داخل جماعات لا تفصلها حواجز عنصرية عن بعضها لا يضمن للغة امكانية الانتشار والذيـوع فحسب ، ولكن يمهد لها سبيل الاستقرار فى الاذهان ، ومما يلاحظ فى هذا المقام ان النظام الديموقراطى لا يضمـن الحياة والبقاء الا للالفاظ والكلمات التى يتقبلها الذوق السليم ، اما الالفاظ التى تمجها الاسماع فانها تضمحل بسرعة وتتبدد مع الرياح الاربع ٠

يضاف الى ما تقـــدم ان من منافـــع النظام الديموقراطى انه يعطى المسؤولين فرصة توزيع الارزاق بالتساوى على افراد الجماعات ، كـــل بحسب ، قدرته على العمل والانتاج فى وسـط غنى بالمواد والمقومات الحضارية التى جـاءت بها الحياة العصـــرية ، او قل ، ان احببت ، ان النظام الديموقراطى يساعد معظم المواطنين على التمتـــع بهذه المقومات الحضارية المتمثلـة فى الاشياء والادوات التى تستخدمها يوميا ، كمـا يعطيهم فرصة استعمال الالفاظ والتراكيب الدالة عليها ، فتروج اللغة تبعا لذلك وتصبح شائعـة اكثر فاكثر بين الناس ٠

رابعا ــ يعتقد بعضهم ــ وهذا صحيح الى حد بعيد ــ ان انقسام المجتمع الاسلامى الى طبقتين ، طبقة الرجال وهم الذين يستاثرون بالاعمال كلها على وجه التقريب مع تحمل جميع المسؤوليات ، وطبقة النساء اللواتى لا يظفرن الا بقدر قليل من تلك الاعمـــال لدليل على تخلف هذا المجتمـــع الاســلامى وتحجره ، وبالاضافة الى ان ابقـاء النساء بعيدات عن مراكز العمل والانتاج حكـم فى الواقـــع على ذلك المجتمـــع بالعقم والافلاس مسبقا ، ان ظاهرة اجتماعية كهذه تعوق اللغة عن الانتشار بالسرعة اللازمة وذلك لان المتكلمين بها لا يزيد عددهم على نصف ذلك المجتمـــع المتخلف الذى يعتبر نصفه جامدا أشل ٠

خامسا ــ وهناك عـــوامل تقنية تعوق اللغة العربية فى حالتها الراهنة عن الذيوع والانتشار وهذه العوامل ترجع الى قواعد اللغة التى يعترف

الكثيرون بصعوبتها كما تكمن فى تعدد اشكــال الحروف العـــربية بحسب وقوعها من الكلمة ، بحيث يتحمل الصغار مشقــة كبرى فى التعرف عليها وبالتالى فى الانطلاق وراء عملية القراءة ، ومما لا شك فيه ان تلك المصاعب تقف حجر عثرة فى نشر الكتاب بالسرعة المطلوبة وتحمل الناشرين ثمنا باهضا عند طبع كتبهم مما يسبب عرقلة فى سبيل سير اللغة العربية وانتشارها ٠

ويضيف بعض المهتمين بمستقبل اللغة العربية ان الداء كله يكمن فى عدم توفرنا على المفردات العـــربية الدالة على المفاهيم التى جاءتنا بهــا الحضارة الغــربية ، ويذهبون الى القول بأنــه يكفى لايجاد تلك المفردات وخلقها خلقا عن طريق النحت والاقتباس وغير ذلك من اساليب الاشتقاق الاخرى لتصبح اللغة العربية قادرة على الذيــوع والانتشار ، وهذا قول مردود ، اذ لو كان الامــر كذلك لكفى المتكلمين بالعربية وجود هذه المعاجم والكتب التى امتلأت بشتى المفــردات والتراكيب ليتمكنوا من التعبير عن كل ما يروج فى خواطرهم من افكـــار ومفاهيم تتصل بهذا المجتمع الحى المتطور الذى نحياه ٠

لكن القضية لا تتعلق بكمية هذه المفردات بقدر مــا تتعلق بقدرتنا على استحضار هذه المفردات وترويجها فى الوســـط الفقير الذى نعيش فيه ، وبكلمة اخرى يمكن القول بأنه ما دام المحيط الذى يتقلب فيه الطفل المغربى كالبيت مثلا يشكو فقرا فى الاثاث والادوات ومقومات الحياة المادية التى يزخربها عادة بيت الطفل الاوربى الذى ينتسب الى مجتمع متقدم راق ، فان هذا الطفل العــربى او المغـــربى سيظـــل فقيرا كذلك من حيث الالفاظ والكلمات التى تنطق بمعالم الحياة المادية ، لانه لا يجد فرصة لاستعمالها فى البيت ولا فى الشارع٠

ومعلوم ان توفر الادوات التى ترتكـــز عليها الحياة البيتية فى مجتمع متقدم ، دليل قاطع على تقدم البلاد التى ينتمى اليها ذلك المجتمــع مــن الوجهة الاقتصادية ، بحيث كلما توفرت الاشياء والادوات التى تشـــير اليها الكلمــات الجديدة المتولدة عن الحياة العصرية الا واصبحت هـــذه الكلمات حية رائجة بحكم الضرورة والحاجة الى استخدامها ٠ وهكذا نستطيع ان نقول ان الكلمة لا تروج وتعلق بالذهن الا اذا اقترن استعمالها ، على الاقل فى اول الامر ، بالشىء الذى تـــدل عليه ، ومن ثم تفهم قيمة النصيحة التى ننصــح بها المعلمين المبتدئين كى لا يقدموا درســـا فى المحادثة او الاشياء الا مقـــرونا بالاشياء التى يتحدثون عنها للصغار ، فذلك ادعــى لرســوخ الكلمات والمفاهيم التى تعبــر عنها فى عقولهم ، اما اذا كان الدرس عبارة عن محادثة لفظية فان من المقطوع به ان الاطفال سيبقون غائبين بعقولهم عما يقول المعلم ، والتجارب علمتنا فيما يــرجع لدرس الاشياء والمحادثة خاصــة ان الكلمة اذا كانت مصحوبة بالشىء الذى تدل عليه تستقر فى اذهان المتعلمين بصورة لن يمحوها الزمن ٠ معنى هذا ان الوسط كلما كان غنيا من الناحية المادية اضطر اهله الى البحث عــن الالفاظ والتراكيب التى تعبر عما اشتمل عليه ذلك الوسط من ادوات وآلات واشياء هى وليدة الحياة العصرية المادية نفسها ٠

ان تطور اللغـــة رهـين بالتطور المادى الذى يتمتع به المتكلمون بتلك اللغة ، ومع ذلك يقــول بعض اللغويين ان اللغة رهينة بالاوضاع السياسية

التى تعيشها الامة ، فمتى كانت الامـــة عظيمة متحدة زاد الاقبال على لغتها وآدابها ، فالمشكلة الاولى فى نظرهم مشكلـة سياسية ، ويضربون على ذلك مثلا فى ان اللغة العربية انتصرت على اللغة الفارسية لان اللـه كتب الغلبة للمسلمين بعدما خضعت الدولة الفارسية لسلطانهم • اجل ان فى هذا القول نصيبا من الصحة ، فقد سبـق لكل منا ممن عاشـــوا الحرب العالمية الثانية ان لاحظوا كيف تحولت رغائب معظم تلاميذ المدارس الثانوية ، سنة ١٩٤٥ بعد اندحار دول المحـور امام الجيوش الاميركية المظفرة الى دراسة اللغة الانكليزية عوضا عن اللغات الحية الاخرى • لكن النظرية السابقة لا تعبر مع ذلك الا على جانب من الحقيقة ، اذ لو كان الامر كما قيل ان السياسة تتحكم وحدها فى انتشـــار اللغـة وازدهارها لاستطاعت بلدان المغرب العربى التى يهمنا امرها قبل غيرها من ان تركز اللغة العربية فى كل مكان بعدما انجلى الحاكـــم الاجنبى عن اراضيها • لكن القضية ليست سياسية فقط ، بل لها عـلاقة وثيقة فى آن واحـــد بالنمو الاقتصادى وتقـدم المجتمع الذى يعتمد هذه اللغة او تلك فى حياتـه اليومية ، بـل يرى بعض المتخصصين فى علمى الاجتماع والاقتصاد ، ونرى معهم ، ان التطـور الاقتصادى فى بلد ما شرط اساسى فى التطـور الاجتماعى والفكرى فى ذلك البلد • فهناك نمـو وتقدم من الوجهة الاقتصادية والمادية كلما كانت الحياة الفكرية نامية مزدهرة ، كما يلاحظ ان تقدم الجماعات من الناحية الفكرية والعقلية فى احدى الجهات تعبر فى الواقع عن تطـــور ملحوظ فى احوالها من الوجهة الاقتصادية والعمرانية •

والذين يعودون الى التاريخ يلتمسون منـــه الاسباب التى دعت الى انتشار اللغة العربية فى الاقطار التى بسط المسلمـــون نفوذهم عليها ، يلاحظون ان هذا الانتشار كان دائما متمشيا جنبا الى جنب مع التطور الاقتصادى فى تلك البـلاد ، بحيث كلما ازدهت الحيـــاة الاقتصادية فيها الا وواكبها تقدم لغوى وبالعكس ، وتـرتب عن ذلك زيادة فى الدخل الفردى بالنسبة للسكان عموما • ولنا دليل على ذلك فى التقدم الاقتصادى الـذى كانت تتمتع به بلاد المغرب العربى خلال القـرون الوسطى ، اى عندما كانت الحياة مزدهرة فيها بوجه عام • فقد كان الناس فى دائرة تلك الحياة البسيطة يعبرون عن مدركاتهم وان كانت محدودة بكلمات واسماء دقيقة واضحة ، فـــلا يعوزهم المصطلح للتعبير عما كانوا يقومون به من اعمال ونشاطات مختلفة فى مجتمع متطور ، وليس مـن شك فى ان ازدهار الصناعات المحليـة فى ذلك العصر كما يحدثنا عنها ابن خلدون فى مقدمتـه فى مدن المغـرب المتحضرة كالقيروان وتلمسان وفاس مثلا كان يواكبه ازدهار فى الثقافة ايضا • فلما تدهورت الحالة فى تلك المدن على الخصوص لاسباب لا سبيل الى ذكرها فى هذا المقام لحـــق الحياة الفكرية نوع من التحجر والركود •

هذا ويلاحظ من جهـــة اخرى ان الدول التى سبقتنا فى طريق النمـــو والازدهار الاقتصادى كالولايات المتحدة الاميركية وروسيـــا وفرنسا تتمتـــع هى الاخرى بازدهار ملحوظ فى حياتها الاجتماعية والفكرية ، والذى يدعو الى الانتباه هو ان اثر ذلك التطور لم ينحصـــر فى الحياة المادية بل انتقل مفعوله الى اللغات التى تتحدث

بها تلك الدول ، وهكذا اصبحت لكل من تلك الدول لغة طيعة مرنــة استطاعت ان تستوعب مفاهيم الحضارة العصرية بدون عنـــاء ، فكأن اللغة ، والحالة هذه ، ثمرة بيولوجية لما يجرى عادة فى سائر المجتمعات التى طرأت على حياتها تحولات عميقة كانت فى الواقع قاعدة لانطلاقها فى طريق التقدم والرقى ، لا فرق فى ذلك بين تقدمها فـى الميدان المادى او الفكرى ، وذلك معناه ان هذا التطور المادى والاقتصادى يتمشى مع التطـور الفكرى واللغوى جنبا الى جنب فتكون اللغة وهى وعاء كل حياة فكرية بالطبع متقدمة راقية متـى كان المجتمع الذى تنتسب اليـه مجتمعا راقيـا متقدما ، والحياة الاقتصادية فيه فى نمو مستمر ، كما انها تكون متأخرة فقيرة كلما تقهقر الوسـط الاجتماعى الذى هو مبعث هذه اللغة ٠

واذا كان الامر كذلك فينبغى على المسؤولين فى البلاد النامية عموما وفى بلاد المغرب العـربى على الخصوص ان يعطوا الاسبقية لكل ما مـن شأنه ان يعين على تحقيق نهضة اقتصادية تدفـع بعجلة التقدم فى هذه البلاد الى الامام ، وذلـك بتركيز وحدات صناعية فى كل مكـــان لان ذلك لا يساعد فقط على بعث نهضـــة اقتصادية فيها تكون بمثابة نقطة انطلاق وتحرر من كل تبعية ، بل هى فى نفس الوقت خير وسيلة لتنمية لغـــة الوطن واغنائها بما هى فى حاجة اليه من مفردات ومصطلحات علمية وفنية ، من شأنها ان تجعل هذه اللغة قادرة على تلبية حاجتنا اليها كوسيلة للتعبير عن مفاهيم الحضارة التى اصبحت مـن مميزات اللغات الاوربية الحية ٠ ذلك ان اقحـام اللغة العربية فى المعمل والمصنع والورش والشارع وحمل الصناع والمزارعين على استخدامها يتيح لها لا محالة فرصة التكيف والنمو طبقا لمتطلبات الحياة الاجتماعية باعتبار ان اللغـــة ظاهـــرة اجتماعية وثمرة بيولوجية لحياة الفرد تخضـع كما يخضع غيرها من الوان النشاط الانسانى الى عوامل الزمان والتطور والحاجة ٠ نقول عندمـا تتقدم الصناعـة والزراعـة وتنتشر التعاونيات ويزدهر من جهة اخرى العلم والثقافـة والتربية بالاعتماد على اللغة العربية فى التعليم والادارة معا ، اذ ذاك يرتفـــع مستوى المواطنين ماديـا ومعنويا ، وتتضاعف حتمـــا قدرة اللغـــة على التعبير ، فيـزكو محصولها من الالفاظ واذ ذاك ــ واذ ذاك فقط ــ يكون فى مستطـاع القطاعات الخلاقة التى يؤلفها الصناع والمزارعون والفنيون وارباب الحرف والصنائع على اختلافها ان تمـد اللغة بامدادات من اسماء الآلات والادوات وما تتصف به من حركات كما تمدها فى نفس الوقت بكل الالفاظ المعبرة عن الحضارة بما فيها مـــن علوم وآداب وفنون وقدرة على الخلق والابتكار ٠

يستخلص من كـــل ما سبـق ان الاقبال بكل حيويـة ونشاط على الحياة الصناعية هو الذى يورث العمال تلك العقلية الصناعية ، التى بدونها لا يستطيع بلد من البلدان ان يخطو خطوة الى الامام فى طريق التقدم ، بكل ما فى هذه الكلمة من مدلول وبما ان رواج اللغة يتصل اتصالا وثيقا بالتطور الذى يعترى الحياة الاجتماعية فى بلد ما ، وان هذا التطور الاجتماعى الذى هو فى الواقع نتيجة لتقدم مادى ينعكس مفعوله على مجتمع معين ، يخيل الى انه بالامكان ابراز المشكل كله فى شبه معادلة ثلاثية نستطيع ان نعبـــر عنها بقولنا : الاقتصاد الناهض يفضى حتما الى تكوين مجتمع حى متطور والمجتمع المتطور الحـــى لا يستعمل اهله الا لغة حية طيعة متطورة كذلك ٠

على ان ذلك كله لا يتم الا اذا تذرعنا بالصبر والعمل المستمر ، والاكباب على ما نحن مطوقون به بكل جد وفعالية ، اذ ذاك نستطيع ان نقفز الى مرحلة الخلق والابتكار ٠

التعريب بين اللغة والفكر

فتيحة بغاي
استاذة فلسفة
الجزائر

تعرضت فى مقال سابق الى مشكله تدريس مادة الفلسفة بلغتين مختلفتين ومن طرف استاذين مختلفين وما تحدثه هذه الوضعية من ذبذبة فى التفكير وتقسيم للشخصيــة ، واشرت الى بعض الحلول ، تاركة اختيار أصلحها للمعنيين بالامر ـ وتقرر اخيرا تعريب هذه المادة الهامة واننا اذ نشكر المسؤولين بوزارة التعليم الثانوى عـــلى اتخاذ هذا القرار الثورى العظيم الذى سيساهم لا محالة فى استرجاع احد العناصر الاساسيــة للشخصية الجزائرية الا وهو التفكـــير الوطنى فاننا ندرك مدى أهمية هذا القرار ومدى خطورة أبعـــاده ٠

ولقد جاء القرار فى أوانه بعد تجربة طويلة ووعى تام لوضعية أضحت غير محتملة فى فترة تخوض فيها البلاد ثورة ثقافية كبرى لبعث الاصالة الجزائرية من جهة ولايقاظ الوعى الفكرى وتنشيطه من جهة أخرى ٠

هذه الثورة التى تستمد جذورها أساسا من اصلاح التعليم بجميع مراحله ٠

اصلاح فى طرق تعليم اللغة العربية واصلاح فى تحرير التفكير منرواسب الذهنية الاستعمارية ومن أهدافها المغرضة لارساء أسس سليمة تقوم عليها مقومات شخصية امة باكملها بما لديها من تفكير ولغة ومناهج تسلكها فى الحياة لتساير بمقتضاها ركب الحضارة الانسانية وان ما اردت الاشارة اليه فى الموضوع السابق هو ان يوضع الطالب بين يدى استاذ واحد يتولى تكوين تفكيره ملتزما ببرامج جزائرية تخدم اهداف المجتمع وحاجاته الاكيدة على ضوء المذاهب الفكرية الكبرى وعلى ضوء مناهج التفكير العلمى والرياضى ٠

تلك المناهج التى من واجب الاستاذ ان يسعى الى تحويلها الى حقائق واقعية حتى تصبح سلوكا عمليا وذهنيا ينتهجه الطالب فى حياته اليومية حاضرا ومستقبلا ٠

وان تحقيق ذلك يتطلب اعداد تخطيط دقيق واستعدادا ماديا وبشريا ٠

الاستعداد المادى :

يتمثل الاستعداد المادى فى اعادة النظر فى البرامج واعداد مراجع بسيطة فى متناول الطالب بالاضافة الى المرجع الموسع الجزائرى : الوجيز للسيد المفتش العام محمود اليعقوبى ٠

أما البرامج فهى تتطلب بعض التغييرات من حيث المحتوى ومن حيث التجزئية كأن يضاف مثلا . الى المواضيع المقررة بعض المواضيع الخاصة بالجانب التوجيهى والتوعية الوطنية — ويقع ذلك بدراسة مشاكل المجتمع الجزائرى واتجاهاته السياسيةمع اعطاء مكانة بينةللفلسفة الاسلامية٠

ويستحسن ان تقسم البرامج على السنتين النهائيتين من التعليم الثانوى فيخصص للسنة السادسة من التعليم الثانوى :

1 — قسم علم النفس وعلم الاجتماع ٠

2 — قسم المناهج والميتافيزيقا والاخلاقيات للسنة السابعة النهائية ٠

وينطبق هذا التقسيم على الفرع الادبى والعلمى على السواء ٠

المراجع :

بالاضافة الى الاعتماد على المرجع الجزائرى : « الوجيز فى الفلسفة » والى المراجع العربية والاجنبية الاخرى ينبغى العناية بالتأليف المشترك

كأن تطبع مثلا بعض المحاضرات لاساتذة الجامعة أو الثانويات وتوضع تحت تصرف طلاب الاقسام النهائية ٠

التأليف :

1 — تشكل لجنة تحت اشراف المفتش العام تختص بتبسيط أسلوب بعض مواضيع الفلسفة الاسلامية المتعلقة بالبرامج الخاصة بهذه المادة ووضعها فى سلسلة مبسطة واضحة ٠

2 ـ لجنة لترجمة بعض المواضيع من وثائق أجنبية ٠

3 ـ تأليف قاموس لترجمة مصطلحات الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع التابعة للدروس المقررة فى البرامج الجزائرية ٠

الاستعداد البشري :

يستحسن ان يتقن استاذ الفلسفة لغة اجنبية الى جانب اللغة الاصلية العربية كما يجب ان يتخرج من المدرسة العليا للاساتذة أو يتلقى تكوينا مهنيا عمليا فى الجامعة يمكنه من الشروع فى مهمته وهو يمتلك تجربة مهنية ضرورية حتى ولو كانت ضئيلة بحيث يكون ملما عند مباشرته للعمل بمادة تعليمه وبمبادىء علم النفس عامة وبنفسية المراهق خاصة واستعداداته وقدراته كما يلم بمناهج تدريس هذه المادة وتقنياتها الاولية التى تعصمه من التعثر فيضيع وقتا طويلا ثمينا لاكتساب هذه الخبرة الاولية وبالتالى تضيع أوقات الطلاب المقبلين على امتحانات بها يتحدد مصيرهم ومصير عائلاتهم فى المستقبل وعليها يعتمدون ٠

2 ـ التكوين المهنى بعد التخرج من الكلية :

أ، من المدرسة العليا للاساتذة وكلنا نعلم ان مجهودات المفتش العام فى هذا الصدد كبيرة ٠ هناك ندوات تربوية تعقد ودروس مثالية تعرض على الاساتذة ولو اضيفت بعض الندوات الشهرية تعرض خلالها أهم المشاكل التى تعترض الاساتذة فى تدريس هذه المادة ٠

ويقع البحث عن حلول مشتركة من شأنها ان تساعد الجميع ٠

عرض دروس مثالية : من طرف اساتذة مختلفين اذا امكن الامر ، كل حسب درجة نجاحه فى جانب من جوانب مادة الفلسفة أو علم النفس أو علم الاجتماع أو المناهج ٠٠٠

دروس تجريبية :

تخصص بعض دروس تجريبية للمبتدئين يفسح فيها المجال لناقشات حرة بناءة من شأنها اضاءة السبيل للجميع والكشف عما هو غامض كما تعطى لهم نماذج لمذكرات فى تدريس كل نوع من انواع مواضيع البرامج ترسم عليها :

- مراحل عرض درس فى المنهجيات ٠
- مراحل عرض درس فى علم النفس ٠
- مراحل عرض درس فى علم الاجتماع ٠
- مراحل عرض درس فى الميتافيزيقا ٠
- مراحل عرض درس فى الاخلاقيات ٠

الدروس المتلفزة لمادة الفلسفة :

ساهمت الدروس المتلفزة مساهمة فعالة فى تكوين الاساتذة من جهة وفى مساعدة الطالب على مراجعة بعض الدروس والتعمق فى فهمها غير انها لم تعرض كل الدروس المقررة كما ان وقت عرضها غير مناسب للتفكير والتأمل ـ كما ان عملية معاناة

المشكل الفلسفي المطروح كانت غير مضمونـــة للمشاهد ومحاولة حل الاشكال المطروح والتفاعل معه ومع جو القسم لا يمكن ان يحصلا في هـذا الصدد وبالتالي فان تقويم تفكير الطالب المشاهد غير ممكن ٠

هذا علاوة على ان مستوى الطالب ووضعيته كمشاهد لا تسمح له بأخذ ملاحظات كتابيـــة – نرجو ان تضاف الى مثل هذه الدروس محاضرات فلسفية عامة من نوع الثقافة للجميع متبوعـــة بمناقشة قصيرة حول الموضوع في نطاق برامج الفلسفة المقررة لطلاب التعليم الثانوي ٠

هذا بالنسبة لتعريب مادة الفلسفة وما تطلبه من مجهودات ، رغم انها لا تمثل الا جزءا مـــن عملية التعريب ككل اذا اعتبرنا اللغة كمنطلـق لكل تعريب٠

والتعريب كما نعلم قضية مفروغ منها غير ان المشكل لا ينحصر في حذف لغة أجنبية ووضع لغة وطنية مكانها وتدريسها بالوسائل القديمـة بما فيها من نصوص وأساليب وتفكير لا تساير التاريخ ولا تعبر عن احداثه المختلفة وميادينـه المتنوعة في المجال الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والفني والعقائدي والفلسفي والسياسي ، فحيث تكون لغة عادة يكون عالم متغير متطور ايـــدا عالم العمل والقرارات والمشروعـــات والخلـــق والابداع ، وعالم الصخب والعطب والتعثر كذلك٠

وحيث يكون عالم يكون تاريخ لان اللغة ليست أداة جاهزة أو تراثا مقدسا تركه الاجـداد ولا يقبل أي تغيير ، بل هي تلـك « الحادثـة » التي تملك بين يديها أعلى امكانيات الوجود الانساني وتطور اللغة لا يعني ضعفها ، بل حياتها ، وحتى لا نترك اختيار التطور اللغوي والحضاري لحريـة التقدير وشعوذة هذا وذاك ، حسب مفاضلة كل منهما بين شتى المصادر ومختلف الاتجاهات وجب اعادة النظر في أسس تدريس هذه اللغة حتى لا نقضي عليها بوسائلنا وبذلك نحود عن الهدف الذي لا بد ان يرمي اليه تعليم أية لغة وهو اعداد الاجيال الصاعدة لخوض الحياة الثقافية المقبلـــة والقيام بمهامها الاجتماعية الحديثة وما تتطلبـه من يقظة ووعي ودقة في التعبير والتفكير والايجاز والوضوح حتى يخرج الطالب من المدرسة وهـو يمتلك زمام لغة عصرية دقيقة واضحة مرنـــــة وتفكيرا سليما منطقيا قابـــلا للتطور والنضج بعيدا عن التحجر والجمود والثقل والاطراء ، لان الهدف الاساسي مـــن تعليم اللغة هـو دراستها كوسيلة للتعبير عن أفكارنا في هذا العصر لا عن أفكار أسلافنا تعبيرا دقيقا منطقيا ، أي دراستها كمادة حية تؤدي وظيفتها في الاتصال والتفاهم من خلال وحدانها المتفاعلة المتكاملة ٠

واننا لا ندرسها لنتامل رونقها ، بل ندرسها لاعادة أكتشاف عناصرها أكتشافا جديـدا كي نستثمر مكنوناتها استثمارا ثريا ٠ ونتنـاولها كعلم ملاحظة لا يقل عن العلوم الطبيعية الاخرى دقة وتشخيصا وحيوية ٠

ان ملاحظة أشياء طبيعية ومقارنتها واستنتاج القواعد التي تخضع اليها مجموعة ما من الاشياء

ثم الخروج بهذه القواعد أي القوانين لتطبيقها على ظواهر أخرى متشابهة ما هي الا ملاحظة التراكيب اللغوية وتحليلها وفهمها وتركيبها ومقارنتها ثم استنتاج قواعد الوحدات اللغوية للخروج بها الى ميادين مشابهةحرة نعبر بواسطتهاعن افكارنا تعبيرا قياسيا منهجيا صحيحا ·

وكل ذلك يتطلب أسسا منهجية وتربوية ولغوية ونفسية واطارات كفأة لتحمل مسؤولية هذا المصير الحضارى الوطنى ·

ورغم ما حققه التعريب فى مختلف مستويات التعليم من نجاح فانه لا زال يعانى ضعفا كبيرا ويلاقى عراقيل عديدة منها العراقيل العفوية الناتجة عن جهل بعض المعربين لاسس تدريس اللغة الحية ومنها العراقيل المدبرة والمقصودة من طرف مناهضى التعريب والتى تهدف الى معارضة وتمديد أجل انتشاره بشتى الوسائل الفنية والديبلوماسية المحكمة ·

فالتعريب قضية تنفيذ عملى أكثر مما هو قضية تخطيط وزارى · والتنفيذ لا زال معهودا الى ذوى اللغة الاجنبية ·

أما كيف يسير التعليم حاليا ؟ فمما لا جدال فيه هو ان اللغة العربية تدرس لجميع التلاميذ وعلى جميع المستويات الابتدائية والثانوية والجامعية غير ان بعض الاقسام أخضع لتجربة التعريب الكامل بما فيه المواد العلمية والاخرى تدرس فيه هذه المواد باللغة الاجنبية بالاضافة الى تعليم اللغة العربية كلغة · ويواصل كل فريق دراسته حسب الاتجاه الذى أعطى له فى الابتدائى وهذا على جميع مستويات التعليم ، من الابتدائى الى الجامعى الامر الذى يجعلنا نلاحظ ان التعليم يسير وفق اتجاهين مختلفين : ويخرج طبقتين متميزتين : طبقة معربة وطبقة مفرنسة · ومهما كانت أسس هذه التجارب منطقية ومعقولة فى فترة من الزمن ، فانها الآن تشكل خطرا جسيما على ديمقراطية التعليم وعلى وحدته الحضارية ان لم نقل انها تواصل خطة استعمارية طالما عملت على تفرقة افراد الامة الواحدة لغويا وفكريا ومنهجيا ·

ان التعريب لا بد ان يشمل كل المواد الدراسية وكل المستويات مع ادخال اللغات الحية الاخرى فى جميع المدراس من الابتدائية الى الجامعية وهذا معمول به فى عدة بلدان غربية متقدمة ·

أما على مستوى الاطارات والتكوين المهنى :

فرغم التحسن الملحوظ ، وسير الاطارات نحو الجزأرة التامة فانها لا زالت تشكو تنوع اتجاهات المدرسين وتنوع طرقهم ولهجاتهم واختلاف تكوينهم مما يجعل مهمة الاطارات المشرفة على المراقبة والتكوين المهنى أساسية وخطيرة فى نفس الوقت ، ان لم تؤد على أكمل وجه · فبقدر ما يكون للمفتشين العامين والابتدائيين والمستشارين التربويين من كفاءة دينية وعلمية واداية وخبرة فنية واختصاصات معينة يمكن ان نضمن تحسين اطارات المدرسين ·

دور المعاهد التكنولوجية فى عملية التكوين المهنى:

ان المعاهد التكنولوجية من أروع الانجازات التى حققتها القيادة الثورية والتى تعلق عليها آمالا كبيرة وقد ساهمت فى ادخال بعض التحسن على الاطارات الحديثة من الشباب ولو أدخلت عليها بعض التعديلات ، على ضوء التجارب الاخيرة لكانت فى طليعة الاجهزة الحيوية للتكوين المهنى الناجح ، كأن تحدد ادارة التكوين المهنى مثلا :

1) المذهب Doctrine التربوى التوجيهى العام وتضبطه فى وثائق رسمية ومراجع مدرسية يكون الغرض منها توحيد طريقة اعداد المدرس الجزائرى .

2) نوع الاطارات المسيرة والمنشطة لهذه المعاهد التكنولوجية .

3) التنسيق بين مختلف عناصر التكوين المهنى من مفتشين الى اساتذة التربية والى المعلمين المطبقين . ونصل فى النهاية الى دور التاليف المدرسى ودور المراجع المدرسية فى عملية التعريب عامة والتكوين المهنى خاصة .

فنلاحظ ان المراجع المدرسية والوسائل التربوية تكاد تكون فى طليعة الادوات التى تضمن لنا حاليا التغلب على كل النقائص المذكورة سابقا . وهذا اذا ما تحسن محتواها ومنهجها :

والدليل على ذلك ، ان التجربه التى اجريت فى السنة الاولى والثانية من التعليم الابتدائى ادت الى نتائج مدهشة بنسبة 90 ٪ رغم قلة خبرة المعلمين ، وهذا دليل واضح على مدى اهمية هذه المراجع فى تكوين المعلم وافادة التلميذ بمعلومات مدروسة مسبقا ، روعيت فيها الجوانب التربوية والنفسية والعلمية – كيفا وكما – مما يجعلنا نعتقد ان التعريب يتوقف بالدرجة الاولى ، من الناحية العملية على هذه الوسائل التربوية والمراجع المدرسية . فاننا عند ما نعد كتابا يحتوى على نصوص حية من واقع الطفل ، فيه تمارين عملية متنوعة تشمل كل فروع اللغة ومذكرات خاصة بكل فرع منها فاننا نصل فى هذا الطريق الى :

1) ضمان اعداد الدروس اعدادا كافيا .

2) اجبار المعلم على استعمال هذه الرسائل الجاهزة وتطبيقها حسب التوجيهات التربوية التى ترافقها .

3) افادة التلاميذ بمعلومات مدروسة تتوفر فيها الشروط التربوية الضرورية .

وكل ما أضافه المعلم الى ذلك يعتبر من باب التوسع والابداع وهذه من الكمالات بالنسبة لواقعنا – فى الوقت الراهن .

واقع اللغة العربية
في الصحافة الإصلاحية في الجزائر

د. محمد ناصر
كلية الآداب
جامعة الجزائر

تمهيـــد :

لعل المقاومة التي حاضتها الامة الجزائرية من اجل الحفاظ على لغتها ضد طوفان «التغريب» لم تقل عنفا وضراوة عن مقاومتها من اجـــل الارض ٠ فانه بقدر ما كانت زوابـــع التعـرية والتجريد من طرف السلطات الاستعمارية هوجاء عنيفة ، بقدر ما كانت نزعة التشبث بلغة القرآن من طرف المسلمين الجزائريين مصرة وعنيدة ٠

فمنذ السنوات الاولى للاحتلال الفرنسى ، راحت السلطات العسكرية تنفذ مخططا جهنميا تهدف من ورائه الى القضاء على مميزات الشخصية الجزائرية وذلك بالقضاء على دينها الاسلامى ، ولغتها العربية ، حتى تسهل لها بعد ذلك عملية تذويب هذه الامة الصلبة ٠

فقد كتب الجنرال « فالز » سنة (١٨٣٤) بان كل العرب (الجزائريين) تقريبا يعرفون القراءة والكتابة حيث ان هناك مدرستان فى كل قرية ٠٠ وفى تقرير لنابليون الثالث ، كتب الجنرال « دوهوتبول » سنة ١٨٥٠ بان الدراسات الاسلامية كانت فى وضع مزدهر نسبيا عشية الاحتلال ٠

اما الاستاذ « ديميرى » الذى درس طويلا الحياة الجزائرية فى القرن التاسع عشر ، فقد اشار الى انه قد كان فى قسنطينة وحدها ، قبل الاحتلال خمسة وثلاثون مسجدا تستعمل كمراكز للتعليم ، كما كان هناك سبع مدارس ابتدائية ثانوية يحضرها ما بين ستمائة وتسعمائة طالب ويدرس فيها اساتذة محترمون لهم اجور عالية (١) ٠

ان امثال هذه الاعترافات (١) ٠٠ تصور لنا مدى الازدهار الذى وصلت اليه اللغة العربية فى الجزائر وتبين لنا من جهة اخرى ، نتيجة انتصار الاسلحة الفرنسية التى قوضت المساجد التى كانت تزاول فيها هذه اللغة ، وشردت الشيوخ والطلبة فى مطاردة وحشية ٠

ويبدو ان الحكومة الفرنسية قد ادركت جيدا بانها بمحاولاتها تلك قد اصابت المسلمين فى الصميم ، وفضحت سياستها اللاتينية المسيحية باسلوبها العدوانى ذاك ، فراحت تتحايل على الاهالى باصدار القوانين التى تزعم بانها ستفتح للغة العربية مكانا فى مدارسها ٠

ففى قانون التعليم الاجبارى الصادر فى سنة (١٨٨٢) بفرنسا والذى اصبح سارى المفعول بالجزائر فى سنة (١٨٨٣) احتوت مادته الثالثة والاربعون على ان التعليم فى مدارس الاهالى سيكون باللغتين العربية والفرنسية (٢) ٠٠ غير ان هذه المادة لم يكتب لها رؤية النور ابدا ٠

وحتى تلك المدارس الرسمية الثلاث المؤسسة منذ سنة (١٨٥٠) فى انحاء مختلفة من القطر فانها لم تدرس اللغة العربية الا لتخرج لها ما تحتاج اليه من موظفين فى ادارتها ، قضاء وترجمة ، وتدريسا بل ووعضا فى المساجد ايضا ٠

ولقد اوضح بعض غلاة «المعمرين» انه من الافضل للحكومة الفرنسية ان تستمر على تدريس اللغة العربية فى هذه المدارس ، لان هذا يضمن لها توجيه ، المثقفين بها توجيها سياسيا كما تريد ، ثم لتضرب بها «الزوايا» التى ما انفكت تتمسك بلغة القرآن بدافع التعصب الدينى (٣) ٠

والحق ان فضل بعض الزوايا « على الامة الجزائرية لا ينكر ، فانها — حسب — شهادات

---

1) ابو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ص 73
1) انظر Ali Merad, Regards sur l'Enseignement... pp. 617-621.
2) انظر م . س ، ص : 617 — 616
3) انظر م . س ، ص 168

متعددة (١) قاومت فى صبر عظيم فى سبيل الحفاظ على لغة القرآن سيما بعض تلك الزوايا « الكبيرة التى كانت تفضل العمل الجدى على الشطحات الصوفية ، مثل معهد الهامل ، ومعهد البلوابى ، ومعهد سيدى منصور ·

كما كان فضل الجرائد والمجلات العربية المشرقية التى كانت تمد الجزائريين بنفس الحيلة فى هذا المجال عظيما · فانها هى التى لقحت افكارهم بالنهضة العلمية الرائعة التى كانت فى هاتيك البلاد · وعلمتهم بان «صيانة اللغة العربية لغة الدين والثقافة ولغة القومية من احسن الاسلحة اصابة لخيبة مساعى الاستعمار ·· فزادهم ذلك التحقيق ايمانا وتشبثا وعزما وحرصا على الدراسات اللغوية وحثهم على العلوم الاسلامية اكثر من ذى قبل (٢) » ·

وعلى اعتاب الحرب الكبرى أخذت بوادر اليقظة تفتح بعض الاعين فتأسست فى سنة (١٩١٣) بجهود بعض الفضلاء المخلصين فى مدينة « تبسة » الجمعية الصديقية لاحياء اللغة العربية » فكان من اعظم نتائجها فتح مدرسة اهلية على نظام عصرى بديع ، اعدها لتكون اول مدرسة حرة نظامية أسست بالقطر الجزائرى واستقدمت للقيام بشؤونها معلمين من علماء تونس ، ولكن الاستعمار الذى كان يفزعه شبح اللغة العربية وترعبه كلمة الاسلام ، اغلق ابوابها وشرد اصحابها ، بعد ثلاثة اشهر فقط من افتتاحها (٣) » ·

ولندلعت الحرب العالمية الاولى فكانت للغة العربية فى القطر الجزائرى حدا فاصلا بين ماض حالك متجهم ، ومستقبل مضطرب مضبب ، فانها « اثرت تأثيرا لا يقل نفوذا عن تأثير الاستيلاء الفرنسى ولو كانت نتائج الحرب العالمية الاولى مناقضة كل المناقضة لنتائج الحرب الاستعمارية الفرنسية ، اذا الحكم الفرنسى اوقف سير ونمو اللغة العربية بالجزائر بينما الحرب العالمية الاولى بعثت فى المجتمع الجزائرى العربى تيارات اقتصادية وسياسية وثقافية طفرت باللغة العربية طفرة لا مثيل لها (١) ·

وتمخضت احداثها الكبرى عن جيلين : شباب مثقف باللغة الفرنسية متخرج فى مدارس الحكومة ، اكثره معجب بهذه اللغة وآدابها · وشباب مثقف باللغة العربية متخرج فى الزيتونة بتونس والازهر بمصر وغيرهما ، مؤمن بلغته وحضارته وبينما كان الفريق الاول يسعى لان يجعل من لغة المستعمر اداة بعث ووسيلة حصول على الحقوق ، راح الفريق الثانى يكافح فى استماتة عن لغة القرآن ، ويتخذ منها حجر الزاوية فى بناء الشخصية العربية الاسلامية لجزائرية·

واستمر الصراع بين الفريقين على اشده حتى انتصر ألفريق الثانى وتبلورت نتيجة جهاده فى تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التى كانت تدوى من مدارسها هذه الشعارات « الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، الجزائر وطننا »·

---

1) انظر توفيق المدنى ، كتاب الجزائر ، ص 375 ، وسعد الدين ابن شنب ، النهضة العربية فى الجزائر ، مجلة كلية الآداب ، ع 1 ، (1965) ص 38

2) م . س ، ص 40

3) انظر تاريخ نشاة هذه المدرسة بجريدة البريد الجزائـرع 3 (1913/9/12) وجريدة الصديق ع 30 (1921/4/18)

1) ابن شنب النهضة العربية ، ص 33

المقالة الصحفية واللغة العربية

كانت الصحافة الوطنية فى طليعة الصفوف تدافع باستماتة عن حرمة اللغة العربية ومكانتها فى الجزائر ولم يتبلور دفاعها ذاك فى المقــالات الحارة التى فتحت لها صدرها ، وتدفقت عــلى أنهرها فحسب بل كانت هى نفسهــا عامـــلا من عوامـــل نموها ، وانتشارها فى انحاء القطـر الجزائرى بما منحته لهذه اللغة من تطور مـــع متطلبات العصر ، واستعمال للاساليب البسيطة الهادفة التى خرجت باللغــة من قوالب عصـــر الانحطاط المتحجرة ٠

ولقد نبهنا ابن باديس الى ما كان للصحافة من فضل كبير فى جعل اللغة العربية فى الجزائر لغــة متداولة رغـــم الحواجز والعقبات : ٠٠٠ « والشعور بهذا الواجب يعزى الفضل فيه الـــى ما قام به نبغاء الجزائر ودهماؤها من الدعــوة والارشاد فظلوا ينافحون عن اللغــة والديـــن ، مظهرين ما لهما من الروعة والجلال ، والى مـــا قامت به الصحافة الجزائرية الفتية من ضروب التعضيد والتأييد والاذاعة ، فتوصلت بعد جهاد طويل الى غرس ملكة الذوق العربى فى النفوس ، فتذوق العموم من ثم حلاوة اللغة العربية وطلاوة اساليبها الرشيقة (١) » ٠

ويبدو أن ابـــن باديـس يعنى بالصحافة الجزائرية الفتية ، تلك الصحف الوطنية الصادرة فى العشرينيات على الاقل ، لان هذا الموضوع لم تعالجه المقالة بصفـــة جدية متكاملة الا بعد الحرب الكبرى ، اما قبل ذلك فاننا لا نجد غـير مقالات قليلة جدا تعد على الاصابع ٠

ـ ١ ـ

يجىء فى طليعـــة المقالات التى تصدت لمعالجة قضية اللغة العربية فى الجـزائر ، مقال (٢) ٠٠ قد صدر فى سنة (١٩٠٤) جمـع الــى افضلية السبق ، التركيز والموضوعية ونم عمـا يتمتع به كاتبه من عقل نير وافق واسع ، ونظرة بعيدة ٠

ويدلنا عنوان المقال « حياة الامة بحيـاة لغتها » على الفكرة الجوهرية التى اتخذها الكاتب منطلقا ثم راح يجمـــع حولها آراءه فى ثـلاث حلقات ، فجاءت قويـــة غزيرة تتدفـق بالامثلة الواقعيـة والشواهد المحسوسة دون ضعف او تـــردد ٠

٠٠هذه لغتنا العربية الشريفة التى انزل بها الكتاب ، لغة القرآن والدين الاسلامى ٠ قـــد اصبحت منذ عهد مديد بعد اشراق انوارها على الخليقة كسفينة فى لجة البحر تتهددها العواصف وتتجاذبها عوامل الحدثان ، تكاد تذهب بها ريح الاهواء وعوامل الاهمال بمنعتها الراسخة عــلى دعائم البيان ٠ ويسؤنا ان نرى من تلك العوامل ، واسباب التدلى والتداعى لبنائها السواد الاعظم من بنيها الذين رضعوا افاويقها ، وتغذوا بلبنها فانفطروا على تعشقها تعشق العارف بمقدارها٠٠ كيف لا وقد جاء الكتاب المبين بهذا اللسان الفصيح آيـــة الاعجاز ومنتهى البلاغة ٠٠ ولذلك نـــرى الشعوب الاسلامية على اختلاف لهجتهم وتعدد صبغتهم يجتمعون فى لغـة القـرآن العظيم لـما يعلمون من انــــه الاس المتين لهيكل الجامعـــة الاسلامية مهما بعدت الدار ونأى المزار ٠

1) الشهاب ، ج 8 م 5 (سبتمبر 1929 م ، ص 29

2) المقال بدون امضاء عنوانه « حياة الامة بحياة لغتها » المصباح ع : 18 و 19 و 20 (1904/9/30) واقدر بانه مطبوع باسلوب عمر بن قدور وروحه

1) م ٠ س ع : 19

··وان كان الفضل للغة العربية ومحاسنها فى عالـــم الترقيات الفكرية الاوروبية انصــــار ينشرون مفاخرها ، ويتحدثون بذكرها ويمجدون آثارها على صفحات النشر والاطراء فلها مــن غيرهم خصوم واعداء يطوون فضائلها ويغبنونها حقها ، فيقولون بصعوبة مناطقها وتعقد الفاظها ·· واستحالة الالمــام بجميعها لــن استغــرق العمر فى تدريسها وما ذلك الا لاحد امرين اما جهلا وتجاهلا بحقيقتها واثباطا للعزائم وتكاسلا عن مزاولتها او لغاية فى النفس ودسيسة تدس··

··وقد طالما رأينا من الفريق الثانى افرادا تطفلوا على العربية فلم يشموا لبلاغتها ريحــة الا بالاحتكاك او المخالطة ، ينكرون على العربية فضلها فيقولون انها لغة غير صالحة لتعليم العلوم الوقتية مانعة عن تقدم النشــأة الاسلامية بحبب العدول عنها فى التقدم اما الى البربرية العامية او الى لغة اجنبية وربما تفنن بعضهم فى افانين الاختراع فجاءت قريحته الكاسدة بتعويضها بلغة عامية تكتب بحروف افرنجية وهو رأى الالمــانى (ولهلم سبتا) المتوفى (١٨٨٢) وقامت الجــرائد الشرقية عموما والمصرية خصوصا بتفويق سهام التنديد والتقريع وتشديد الملام على المستريلمور المستشار بمحكمة الاستئناف المصرية الذى الف كتابا ادلاج « المؤيد الاغر » ترجمة مقدمته ـ فى جعــل اللغة العامية المصرية فى التعليم بـــدلا من اللغة العربية الفصحى وحاول اقناع المصريين بان ذلك الاستبدال خير لهم واولى ولا يخفى ما فى هذا الزعم الذى ردته صحيفتنا « المــؤيد » وغيرها بردود ابكتت وافحمت والجمت من قــام به التلاعب بالافكار ودس السم فى الدسم واظهار الشر للامة والعمل على محو رسمها من لـــوح الوجود بترك لغة دينها وشريعتها وعلومها وآدابها والاجهـــاز على قـــوام وجودهـــا وحياتهـــا الاجتماعية (١) ··

هذا مقال صدر فى سنة١٩٠٤ وقد عرضنا اكثر فقراته ، عمدا ، حتى تقف على ما يحتــوى عليه من افكار هادفة تجمع بين الدقة والشمول · وكان تلك الافكار الحية التى عرض الكاتب على ضوئها ما تلاقيه اللغة العــربية من خصومها ، واعدائها ، تمهيد مكثف يحتوى على كل العناصر الجوهرية التى ستصادفنا فى المقالات القادمــة بصفة متفرقــة · وهو قبل هذا وذاك يوضـــح للمهتم بتتبع سير حركة الفكر فى الجزائر بــان موقف الجزائريين من لغتهـــم كان ابـدا موقفا رصينا ثابتا لا يتزحزح وهو يوضح بان الحرص على مصير اللغة العربية ، والتمســك باهدابها معناه حرص وتمسك بالدين الاسلامى بل هــو الحرص والتمسك بالجامعــة الاسلامية قاطبة ، لان لغة القرآن لا تجمع تحت لوائها العرب وحدهم فقط ولكنها تحتضن كل المؤمنين بشريعة الاسلام·

كما يندد بخصوم اللغة العــربية واعدائها ســـواء فى ذلك ابناؤها الذيــن جحدوا فضلها ففضلوا عنها لغات دخيلة اخرى ، او اعداؤهــا الاجــانب الذيـــن ما فتئـــوا يكيدون لها بالدس والتحايل لمطامع سياسية او احقاد صليبية ·

كتاب الحركة الاصلاحية واللغة العــربية : (١٩٢٥ ـ ١٩٣١)

لقد كان من اهداف الحركـــة الاصلاحية الاساسية نشر الثقافة العـــربية فى الاوســاط

١) م · س ع : 20

الجزائرية ، وقد صاحبتها هذه الدعوة منذ بداية ظهورها على صفحات المنتقد والشهاب ، ومـا عاضدها بعد ذلك مـن صحف عـربية اخـرى « كـالبـرق » (١) « ووادى ميـزاب » (٢) « والاصـلاح » (٣) ٠

وظهرت فى المقـالات المنشـورة فى هذه الفترة بعض الافكار الجديدة التى لم نعرفها من قبل فقد انقلب التشكى من الواقع المرير الى دراسة تحليلية جدية لمعالجة الموقف ، وتحولت النظريات الفردية ، الى شبه اجماع تلتقى عنده نظـرات المصلحين ، وكان هذا التوحد سببـا فى اثارة اعداء اللغة العربية بمختلف نزعاتهم واهوائهم ، وكان على الكتاب الاصلاحيين من جهة اخـرى ان يتصدوا لكل هذه العناصر وهم ، ينافحون عن اللغة القومية كأداة لبناء الشخصية الجزائرية٠

هنالك شباب متفرنس بهره بهرج المدنيـة الغربية فتعصب للغة الفرنسية وتنكر للغة القومية وهنالك المستعمرون الحاقـدون الذيـن يسعـون جاهدين لاخماد انفاس كل مـا من شأنـه بحث الذاتية الجزائرية٠وهنالك الطرقيون الاستغلاليون الذين يرون فى انتشار العربية الفصحى بأساليبها العالية وسيلة لفتح الا عين فتطلع على اصـول الاسـلام الصحيحة ، فيخسـرون بذلك هـذه الجماعات الهائلة التى كانوا يسخرون جهلهـا وسذاجتها لجشعهم ٠ واخيرا العنصرية البربرية التى اخذ المستعمر يـروج لها ويغذيها ليصيب الوحدة الوطنيـة بالتجزأة والتفرق ٠ وبقدرما كانت تلك المقالات الصريحة عنيفة مع المتفرنسين والطرقية بقدر ما كانت حذرة ، متحايلة مـع السلطات الحاكمة ٠

لعل تعصب المتفرنسين للغة الفرنسية ، كان من اشد العقبات وقوفا امام انتشار اللغة العربية بل ان المصلحين انفسهم كانوا يعانون فى جلساتهم من وباء انتشـار اللغـة الفرنسية وهى تعـرقل باشواكها سيرهم ٠

فاننا نجد فى جريدة « المنتقد » مقالا (١) ٠ يحدثنا فيه كاتبه عما عاناه المجتمعون فى احدى الجلسات من تفـرق لغتهم ، وصعـوبة وسيلـة التفاهم بينهم وكانت الحاجة الى شرح وجهـات النظر جد اكيده ، لانها جلسـة تأسيسة لانشاء احد النوادى ٠

٠٠كان اكثرية الحضور بالجلسة العامـة الفارطة تفهم العربية الكتابية وفيهم عدد قادرون على الخطابـة بها ، وكثير منهـم لا يعرفـون الفرنسوية وكانت الاقلية تفهم الفرنسوية وتخطب بها ، ولا تعـرف من العربية الا الدارجة ولكنها لا تستطيع ان تعبر بها عن جميع افكارها ، ومن هؤلاء الذين تولوا تحرير قانون النادى لمعرفتهم وذكائهم ، فكتبوه بالفرنسوية التى يعرفونها دون العربية التى يجهلونها ، فلما اجتمع القوم جـاء المشكل المحزن وهو عسر التفاهم بين اخوة دينهم واحد ، ووطنهـم واحد ، ولغتهـم واحدة بم يتفاهمـون ؟ أبالدارجـة ؟ أم بالعـربيـة ؟ أم بالفرنسوية ؟

1) البرق : صاحبها محمد إلسعيد الزاهرى صدرت بالجزائر 1927
2) وادى ميزاب : لابى اليقظان صدرت بالعاصمة فى سنة 1926
3) الاصلاح : للطيب العقبى صدرت فى بسكرة فى سنة 1927

1) بدون امضاء (ولعله لابن باديس) نقدات حول النادى ،لا تفاهم بغير العربية ، المنتقد ، ع : 9 (1925/8/27)

··نكتب هذا والاسف ملىء قلوبنا على ضياع لغتنا حتى كاد ينسد طريق التفاهم بيننا ، وبكل اخلاص نقول لاخواننا الذين برعوا فى لغة غيرهم حتى كادوا يفوقون اهلها : « يجب عليكم ان تعتنوا شيئا بلغتكم حتى لا يحرم اخوانكم من جواهر معارفكم ولا تحرموا انتم مما عندهم فانه لا يحصل التفاهم بينكم الا بها ·

تلك هى المأساة الاليمة التى كانت تعيشها لغة الضاد بين اهلها وتلك هى احدى النتائج القاسية التى سجلتها اللغة الفرنسية على ارض يدين اهلها بالاسلام ، ولعمرى ان الصورة المحزنة التى وصفها المنتقد فى سنة ١٩٢٥ م كانت نتيجة حتمية لما حذر منه كاتب مقال « المصباح » فى سنة (١٩٠٤ م) ·

ــ ٢ ــ

وعن هذه الحالة الاسيفة يطالعنا ، الحافظى الازهرى (١٨٩٥ ــ ١٩٤٨) هو الآخر بمقاله وقد عاش الازهرى فى مصر طويلا ، ولمس عن قرب ما للغة العربية فى تلك الديار من الاجلال والتقدير ثم قارن بين حالها هناك وحالها فى القطر الجزائرى فهاله ما رآه من هوان امرها ، وما سمعه من رطانة الشباب المسلم ، واستنكافه عن النطق بلغته القومية ·

وكانه ادرك عقدة النقص التى دفعت اولئك الشباب الى اساءة الظن بلغتهم ، والنظر اليها بنظرة فيها كثير من الزراية والاحتقار فهم ما انفكوا يصفونها بالعجز عن مسايرة التطور العصرى ، فرجاهم ان يلفتوا انظارهم الى الافق المشرقى ليشاهدوا ما هنالك من تقدم ورقى لم تقف اللغة العربية حجر عثرة فى سبيله ابدا ، وان اهلها المعتزين بها قد بلغوا من النهضة شاوا بعيدا وسجلوا فى الميدان الثقافى انتصارات رائعة ·

بينما يجد الجزائريين المتفرنسين فى الميدان العلمى فى مؤخرة القافلة وفى الميدان الوطنى القومى مذبذبين بين جنسيتهم وغيرها من الجنسيات الدخيلة ·

··» هذه المظاهر التى تراكم عليها فى هجران لغة قومكم ، واعتناق لغات اوروبا حتى فى العوائد الجارية والمخاطبات الاعتيادية مما يحملنا على الظن بان العاقبة بكثير من الجزائريين بعد حين من الدهر ــ ستكون نتيجتها استبدال جنسية بجنسية لا سمح الله · ولست اقول بان نبقى على جمودنا بان لا نتعلم اللغة الفرنسوية وغيرها · كلا والف كلا ·· بل اقول يجب ان نتعلم اللغة الفرنسوية والعلوم المدرسية ، ويجب ان نتعلم بجانب ذلك لغتنا العربية الفصيحة لنحتفظ على تعاليمنا الدينية ، ومزايانا التاريخية وآدابنا القومية حتى نأمن من الانسلاخ من جنسيتنا وشعارنا العربى ··»

ــ ٣ ــ

ثم نجد ابا اليقظان (١) (١٨٨٨ ــ ١٩٧٣) هو الاخر متألم النفس ، منكسر القلب ، حين يحدثنا عن المستوى المنحط الذى هوت اليه لغة الحديث بين المسلمين فى المجتمعات الجزائرية فقد

١) الحافظى الازهرى صوت العلم يناديكم فهل من مجيب ؟ الشهاب ع 43 (1926/8/2)
١) اللغة العربية غريبة دارها ، وادى ميزاب ، ع 55 (1927/11/3)

اصبحت بحكم المسخ العام « رطانة غريبة ، وخليطا من اللغة لا هو عربى ولا بربرى ، ولا فرنسى ، وانما هو مزيج من اللغة العربية والبربرية ، والفرنسية ، والعربية منه اقل الثلاثة مع ما هى عليه من التكسر ـ والاختزال ، والاغرب من هذا ، انه كثيرا ما يقع اشكال بين المتخاطبين بالعربية واذا التجؤوا الى الفرنسية تفاهموا وزال الاشكال والكل عرب مسلمون » .

ولا تخفى ما فى هذا التعليق الاخير من تهكم مرير ، وسخرية لاذعة حزينة لا يدانيها فى المرارة والحزن الا العوامل التى يعتبرها الكاتب سببا فيما وصلت اليه لغة القوم فى هذه الديار.

اولا : جهل المسلمين واعراضهم عن العلم الصحيح ، وضعف تمسكهم بالدين الحنيف ، فلو انهم عضوا عليه بالنواجذ واقبلوا على العلم الصحيح ونفروا من الجهل نفورهم من الفقر ، لكان للغة العربية بينهم مالها بين اخوانهم فى المشرق من المكانة العليا والمنزلة الرفيعة .

ثانيا ـ عدم غبة الحكومة فى وجودها ، والعمل على قتلها واماتتها لاسرار تعلمها هى ، فلو تركتها وشانها ولم تصبها فى مقاتلها بتقييد حرية نشرها اوانها نشطت سيرها . وانعشت روحها فجعلتها بجانب لغتها ، رسمية فى الادارات والمدارس وغيرها كما يقتضيه الانصاف نحو الاغلبية الساحقة ؟ لكان لها شان واى شان .

ثالثا ـ وهن القومية العربية ، واندماجها فى القومية البربرية ، وعدم اعتبار هذه العربية لما يجب للاسلام من الاعتبار وللوسيلة حكم المقصد ، فلو كانت للعنصرية العربية نعرتها على احياء لغتها ، وكان للعنصرية البربرية نحو اللغة العربية مالها نحو الدين من التقدير ، والاعتبار لقاموا جميعا ـ وهم كلهم مسلمون وهى لغتهم جميعا ـ بخدمات جليلة نحوها تجعلها فى الجزائر كما هى فى تونس ..

غير ان ابا اليقظان رغم كل هذه المظاهر المحزنة يتفاءل خيرا ببوادر النهوض المتمثلة فى ظهور الجرائد العربية وتاسيس بعض النوادى كما يعتبر ان الشعور السارى بين الكتاب لواقع اللغة العربية المرير ، دليل تقدم وباعث على النهضة .

ـ ٤ ـ

ويبدو ان تلك التيارات المعاكسة للغة العربية اخذت تتجمع مع مرور الايام وتتعالى امواجها الصاخبة مهددة بطوفان مسخ شامل ، فقد ازدادت جبهة المستعمرين صلابة ، وكشرت عن انيابها علانية ، ونشرت مخططاتها العدوانية وهى تستعد لغزو فكرى مع مرور مائة عام للاحتلال العسكرى .

وآية ذلك رد الفعل القوى ، الذى اخذ يطبع المقالات المكتوبة ما بين (١٩٢٩ ـ ١٩٣١) بصفة عامة ، والمعالجة لقضية اللغة العربية بصفة خاصة فقد تدفقت افكارها فى حرارة عارمة ، وكانها صرخة استنجاد أخيرة تحذر المسلمين الجزائريين من الوحش اللاتينى المسيحى الذى فغرفاه لا بتلاعهم .

ولم تكن خطورة الموقف لتذهل الكتاب من اتخاذ الحيطة ، ودراسة المعركة عن روية وتدبر ، فاقترحوا لها الحلول المناسبة وهيؤوا لها المناورة الذكية كما ان قوة الخصم بمختلف عتاده لم تسلمهم للياس والقنوط ، وانما راحوا يقاومونه فى صبر وجلد حتى كتب لهم النصر (بتاسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) .

ففى سنة (١٩٢٩) طالعتنا جريدة «النجاح» بمقال «يصور فيه كاتبه خطورة الموقف ويستنفر الامة الجزائرية لتعمل يدا واحدة فى سبيل انقاذ لغتها • والفكرة فى حقيقتها لا تختلف عما رأيناه عند الكتاب الآخرين ، ولكنها تتخذ هنا طابع التوكيد والالحاح اكثر •

••هذه الامة الجزائرية بست ملايينها اصبحت خاملة الذكر لا شعور لها بمالها من واجبات ولا علم بما يجرى امامها من ضروب العبر والعظات ••

•• اننا اذا لم نفن العظم واللحم فى احياء لغتنا ، والسهر على نشرها لا ترجع لنا حياة ، ولا يبقى لا قدر الله لا مجدولا فخار والحال اننا كنا اسانيدها والذادة عن حماها •

•• ان لغتك العربية اصبحت غريبة لا يستقر لها قرار الا اذا نفضت عنك عبار الكسل وتقدمت لها بالمال لتؤسس المدارس وتشيد المكاتب فانفق لها ساعة من الزمن واحيى بنى ملتك بماء لغتهم ••

ـ ٥ ـ

اما ابن باديس •• (١) فقد حز فى قلبه ما رآه من تقهقر اللغة العربية فى المدارس والقرى وهو ان حالها فى المدن الكبيرة ، وهو يرى ان السبب فى تقهقرها فى المداشر والقرى ـ حيث المقبلون عليها ـ ما يستعمله مشائخها فى التدريس من اساليب عقيمة فالعناية فى هذه الكتاتيب مصروفة الى الحفظ والاستظهار لمتون اللغة دون التفقه فيها وصقلها بالادب لما وقر فى النفوس من جعل قواعد اللغة اداة صماء ، لفهم المسائل الدينية فهما سطحيا لا غير وهو يريدها ان تكون اداة ناجعة يفهم على ضوئها الجيل الناشىء دينه فهما صحيحا فان ادراك المسائل الدينية ادراكا صحيحا يتوقف على حذق اللغة واساليبها الدقيقة بن وعلى حذق العلوم الاجتماعية •

لكن العوائق التى وقفت دون تحقيق هذا الغرض فى رأى ابن باديس يشترك فيه طبقتان •

الاولى طبقة الاكفاء الذين فى قدرتهم تدريس اللغة العربية بهذا الاسلوب ، انسحبوا من الميدان وانزووا الى بعض المدن حيث لا رواج لبضائع امثالهم فيها « لان الجمهور من قطين المدن الكبرى عاد اليوم لا يصرف جزءا فى الالف من عنايته بلغته بالنسبة الى عنايته بغيرها ، وقد انفعل بذلك تغليبا للمنفعة الراهنة ••»

اما الطبقة الثانية فهم الذين استهوتهم اللغة الفرنسية ففضلوها على غيرها « استجابة لعاطفة الشهوة واللذة المؤقتة فطفقت تثقف النشىء باحد اللسانين مقتصرة عليه ، وغافلة عن اللسان الاخر القومى •• »

وينبه ابن باديس هو الآخر الى ما ينتظر الجزائريين من خطر ان استمروا على هذه الحالة من الغفلة والبرود •

••« الخطر كل الخطر الذى يواجه الشعب الجزائرى فى هضم هذه الطبقة لحقوق لغة البلاد الملية ، ولعل السبب فى هذه النزعة المرتكزة على غير العقل والوعى الصحيح هو اخفاق هذه الطبقة فى مسعاها حيث انها لم تجد اية ثمرة مادية من اللغة العربية ، فشاعت من ثم ان تقصر الابناء على تعلم اللغة الضامنة للعيش واليسر •• »

---

١) مستقبل اللغة العربية بالجزائر الشهاب ، ج 8 م 5 (سبتمبر 1929) ص 25 ـ 29

- ٦ -

اما احمد توفيق المدنى او (المنصور » ـ كما امضى مقالـــه هذا (١) ·· فانه يـرى الامـــة الجزائرية » « بين الموت والحياة » وهى فيمـــا يقدر تقبل فى ســـرعة مذهلة على هوة سحيقـة لا قرار لها ، فليست القضية عنده قضية صـراع بين لغة عربية وفرنسية ولكنها صراع بين شخصية عربية اسلامية تريد للامـــة الحياة ، وشخصية مسيحية لاتينية تريدان تسلب من الامة الحياة · ولقد كان المـدنى موضوعيا صـريحا ، وكذلك وجب ان يكون لانه يضـــع للجزائريين برنامج الحاضر والمستقبل على حد تعبيره ·

·· فـالمسالة الموضوعة امامنـا الآن ، هى **مسالة المحافظة على الاســـلام وعلى العربية ، وهذه المحافظة هى البرنامج الوحيد الذى يجب ان يكون برنامج الجـــزائر بأسرها فى حاضـرها ومستقبلهـــا ··**

·· وكان الجزائر اليوم ، غير شاعرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التى نراها رأى العيـن امامنا ، كأنها ليست شاعـرة بان الاســـلام فى الجزائر سائـر فى طريق الموت ، وكأنها ليسـت شاعرة بان العربية فى الجـــزائر سائـرة نحو الاضمحلال ، وكأنها ليست شاعرة بانها ان فقدت اسلامها وعربيتها فقد فقدت كل شىء ولم تنـل اي شىء ··

والرأى عند المدنى ، بانه لا حياة للغـــة العربية فى الجزائر ما لم يعمل الشعب الجزائرى العمل الجدى الصالح فى هذا السبيل ، وليس له من سبيل الا ان يعتمد على نفسه وحدها ، امـا ان يعتمد على الحكومة فعليه ان ينتظر عشرين قرنا آخر ، ولا يقول ذلك عاطفة او اتهاما ، ولكنه حساب صحيح مبنى على تجربة قرن كامل ·

·· ان الحكومة قد عاشت اليوم معكم مائة عام كاملة ، فما كانت نتيجـة جهودها لتعليمكم الاســلام والعربية ؟ ··

خاتمـــة :

ان النهضة الوطنية التى بدات مع السنوات الاولى للعشرينيات غيرت من نظرة الكتاب الـى اللغة العربية فاتخذوها اساسا لبعث الشخصية العربية الاسلامية فى الجزائر وصحبت النهضـة بتمجيد عظيم للغة العربية على انها لغـة الدين ولغة الحضارة ، وحركت هذه النظـرة الجديدة الاحقاد فى نفوس المتحزبين للغة الفرنسية فراحوا يعملون على ان تكون اللغة الفرنسية هى السائدة فى الجزائر وحدها ، واثارت هذه المعركة كذلـك حفيظة الاستعماريين الذين كانوا متاهبين للقضاء على كل حـركة تشتم منها رائحـة العـــربية او الاســـلام ·

وعندما دخلت اقلام الكتاب الاصلاحيين الى الميدان فى سنة ١٩٢٠ استفادوا من هذه التجربة فغلفوا دعوتهم الى اللغة العربية اول الامر بداعى محو الامية والقضاء على الجهل ، والمحافظـــة على الدين ، وكانت تلك النظرة منهم حذرا وتقية لا شك · كما وقفوا من اللغة الفرنسية موقفا مسالما فهم لم يدعوا الى نبذها وراء ظهـــريا ، ولكنهم كانوا يدعون دائمـا الى الاعتناء بهذه اللغـات

١) المنصور ، بين الموت والحياة ، الاصلاح ع : 13 (1930/2/27)

الاجنبية كاداة للثقافة المعاصرة (١) ·· التى لا بد منها لكل امة تريد الحياة وهذه النظرة تنم عن سعة فى الافق هنا ·

ولكن الايام انضجت افكار كتاب الحركة الاصلاحية ، وعلمتهم التجربة أن يمارسوا اساليب جديدة اخرى تتسم بالاصالة والعمق ، وبعد النظر ، واذا بالدعوة التى كانت تستوجب اللغة العربية بدافع دينى او قومى ، تصبح عقيدة وطنية تهدف فى تحمسها للغة العربية تحمسا للشخصية العربية الاسلامية الجزائرية التى يجب ان تكون مبنية من هذه العناصر حتى تقف امام كل سياسات التجنيس والادماج والفرنسة ·

وكان لها لكى تنجح خطتها الجديدة هذه ان تقاوم فى اربع جبهات فى سبيل الحفاظ على اللغة العربية ·

١) تقاوم المستعمرين الذين كشفوا عن نواياهم السيئة فى محاولتهم القضاء على كل مقومات الامة الجزائرية لغة ودينا بغية افناء هذا العنصر الصلب ·

٢) الطرقيين الذين شوهوا الدين بالخرافة والتدجيل مستغلين بساطة العامة وجهلها وسذاجتها ، وما من سبيل ينقذ هذه الامة من براثنهم سوى فهم الاسلام فهما صحيحا ، ولن يتسنى هذا بغير حذق اللغة العربية وتذوق اساليبها واسرارها البيانية والبلاغية ·

٣) المتفرنسين الذين اغواهم بريق الحضارة الاوروبية فشدت انظارهم الى الافق الغربى فتنكروا للغتهم وحضارتهم ودينهم واعتقدوا فى اللغة الفرنسية التقدم ، والتطور ، والرقى ، بينما نسبوا للغتهم ، التاخر ، والجمود ، والعجز ·

وهكذا لم تعد الدعوة الى اللغة العربية دعوة الى محو الامية او محافظة على القرآن فحسب ولكنها اصبحت دعوة فيها فلسفة عميقة وبعد نظر فالفصحى واجبة للجيل الصاعد لا زمة له ، لانها هى التى تحفظه من كل التيارات الدخيلة والمنحرفة ، ثم هى الاداة التى تفهم بها الامة دينها فهما صحيحا صافيا من كل خرافة او تدجيل ·

وكان هنالك هذا التطور الفكرى الذى اخذ يضرب الامثلة بتونس ومصر والشام ، وكان هذه النظرة من بعض الكتاب ، كالامير خالد ، والحافظى وابى اليقظان ، وابن باديس ، محاولة منهم لربط الشباب الجزائرى بالافق المشرقى حيث العروبة الاصيلة ، والحضارة الاسلامية الزاهرة تحويلا لابصارهم عن هذه الافق الغربى الذى بهر انظار المثقفين المتفرنسين ·

---

1) يقول ابن باديس عن هذا الموضوع ما يلى « يعلم قراؤنا اننا لا زلنا نصرح فى كل مناسبة ان التعليم العربى الفرنساوى ضرورية حيوية للجزائريين وان اخذ الجزائريين منه بلازمهم هو فى صالح فرنسا ايضا ومنفعتها وشرف سمعتها ولذا ترانا دائما مؤيدين لكل دعوة اليه وسعى فيه خدمة للجانبين . الشهاب ج 3 ، م 6 (1930) ص (152)

في قضايا اللغة العربية

ومستوى التعليم العربي

أحمد الأخضر غزال
مدير معهد الدراسات
والابحاث للتعريب
- الرباط -

تمهيـــد :

كثر الكلام عن موضوع انخفاض المستوى فى التعليم العربى ، وأبديت فيه الآراء العديدة ، منها ما هو نتيجة ملاحظات واقعية أو نظريات عامة ، ومنها ما هو صادر عن عواطف صادقة أو افكار سديدة . الا ان الباحث المتعمق فى قضية انخفاض مستوى تعليمنا يجد ان كل هذه الآراء مهما كان مبعثها ، صحيحة لا ينبغى نبذها كلها أو اعتبار بعضها دون بعض ·

وبعبارة أخرى كل ما قيل في هذا الموضوع جائز بصفة عامة وكل رأى فيه مبني على أساس له نصيب من الصحة ، اذ كل قول من هذه الاقوال يدل على وجه من وجوه الانخفاض • وهذه الآراء المختلفة اذا دلت على تعدد الوجوه فانها تشعرنا بأن الموضوع خطير انه لا يجدر بنا ان نقلل من أهميته وستصغره ، بل يجب ان نقتنع بعكس ذلك وان نقول : بما اننا لم نصل بعد الى حل المشكل فذاك لانه مشكل معقد عويص وان لم يكن كذلك في حد ذاته فهو كذلك في مكوناته • ومكونات التعليم كثيرة بطبيعة الحال ، منها المباني والاثاث والسن والعدد والبعد والقرب ، والصحة والمرض والفقر والغنى ، والتفتيش والمراقبة ، وأوقات العمل وفراغها ، والتجهيز حسنه وسيئه ، والميزانية توفرها وقلتها ، وتحسين وظيفة المعلم وعدم تحسينها ، ووجود اطر التعليم وعدمها ، وحصول التلاميذ على الكتب والادوات التعليمية وعدم حصولهم عليها ، الى غير ذلك من الشروط الضرورية العامة العادية لكل تعليم كيفما كان نوعه وبلاده ولغته • واذا اختل جزء من هذه الاجزاء أثر ذلك الاختلال على صحة التعليم وكأنه كائن حي هو الآخر ، كلما اشتكى منه عضو تألم له الجسم بكامله • كل هذا نسبيا كما هو الشأن في جميع الامور •

ولكنني لا أظن ان جميع مدارسنا ناقصة في هذه الميادين ولا أظن ان العالم العربي يفتقر كله الى هذه الحاجيات • ولا اعتقد كذلك ان التعليم العربي اذا اشتكى من انخفاض المستوى فذلك لان جزءا من هذه الاجزاء المذكورة نقصه اذ هناك مدارس في بلدان عربية تتوفر فيها الشروط السابقة وتخرج أجيالا تعتبرها صالحة من معلمين واساتذة واطباء ومهندسين ، ومع ذلك فان الاجماع ما زال على ان المتكون بالعربية ناقص بالنسبة الى المتكون بلغة من لغات الامم الراقية • هذا هو الامر الواقع العام ، وفي كل أمر بطبيعة الحال تفاوت نسبي ، منه ان المتكونين بالعربية اذا اكتسبوا لغة اجنبية امكنهم اتمام تكوينهم بها واصبحوا في مستوى لا بأس به •

بقي لنا النظر في رمي اللغة العربية بالنقص • وفعلا فقد رماها بالنقص كثير ممن لهم تكوين اجنبي ورماها بالنقص كثير ممن لهم تكوين عربي • وهل هذا صحيح ؟ ان الجرائد والمجلات تزخر بمقالات كثيرة في هذا الموضوع ، تناولتها أقلام من يقولون بان العربية بخير وأقلام من ينكرون هذا الرأى ويزعمون بان العربية ليست بخير اما نحن فقولنا هو ما يلي : صحة لغتنا في يدنا وذلك نسبيا بطبيعة الحال لان زمام الامر في هذا الميدان منه قسم نتصرف فيه ومنه قسم ليس في أيدينا ولا سلطة لنا عليه لان اللغة ، وهي كائن حي ، لها ناموسها الخاص في حد ذاتها تخضع له ـ وله وحده ، في تطورها البدني ؛ وفي نفس الوقت تتغذى بما يغذيه بها اهلها من مواد حسية وشعورية وفكرية وعقلية وروحانية الخ ••• فمثلها مثل شجرة تنمو طبقا لنواميس احيائية وطبقا لما يتوفر لها من مواد غذائية • ولنترك هذه المسألة

مؤقتا لان صلتها بموضوعنا صلة غير مباشرة ·· نسبيا بطبيعة الحال ! سنعود اليها من بعد ان شاء الله ·

لا يتعلم ابناؤنا بالعربية ما يتعلمونه باللغة الاجنبية ·

نقول – وصلب موضوعنا هو انخفاض المستوى – ان المستوى يحدد بالنسبة الى درجة معينة · وهذه الدرجة هى ، فى الوقت الراهن درجة مستوى التعليم عند الامم الراقية التى نقتدى بها ونسعى فى الالتحاق بركب حضارتها · وبما ان التكوين هو حصيلة معلومات ما ، فى ميدان ما ، يكتسبها الشخص بواسطة تعليم ما ، بقى ان المستوى فى هذا التكوين هو تلك الدرجة التى يجب على الشخص ان يحصل عليها بواسطة ذلك التعليم فاذا كان التعليم ناقصا كان التكوين ناقصا واذا كان التعليم فى المستوى كان التكوين كذلك فى المستوى · وقولنا بأن المعلمين غير اكفاء معناه ان تكوينهم ناقص واذا كان تكوينهم ناقصا فذلك اما من ناحية المعلومات واما من ناحية التلقين · ولنترك ناحية التلقين (البيداغوجية) ولنسلط الاضواء على ناحية المعلومات ·

ان وسائل التعليم الاساسية هى اللغة والبرامج والكتاب المدرسى والمعلم · وهذه الوسائل متداخلة تداخلا وثيقا ، الا ان فيها يجد مادته الملموسة السهلة المنال فى الكتاب المدرسى لانه مرآة اللغة والبرنامج وحتى المعلم كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد ·

نقول : يجب ان يكون مضمون الكتاب المدرسى محتويا على نوعين أساسيين من المعلومات : نوع يتصل بمفاهيم العلوم الضرورية المشتركة بين البلدان الراقية ، والتى تلبى حاجة التحاقنا بصف هذه البلدان ، ونوع يتصل بمفاهيم قيمنا الوطنية الخاصة التى نريد ان يكون متوفرا عليها مواطننا الصالح · وبناء على هذا ينبغى ان يكون الكتاب الاداة الصالحة لبلوغ هذه الغاية باحتوائه على المقدار العلمى المشترك بين الدول الراقية ·

وهذا الكتاب العربى الذى يوجد بين أيدى ابنائنا ، والذى يصحبهم دوما على ادراكها من حيث المعارف العلمية ومن حيث القيم الوطنية ؟ كتابنا هذا الذى به يتكون التلميذ ونمنحه الشهادات باعتبار ما حصل عليه فى ذلك الكتاب من معارف ، ونسميه معلما فيما بعد ، ونعينه فى مدرسة من مدارسنا ليعلم بدوره النشء الصاعد· هل هو فى المستوى المحدد أعلاه بالنسبة الى المحتوى العلمى عند الامم الراقية ؟

مقارنة المعلومات بين الكتب العربية والكتب الاوروبية ·

هاكم الجواب عن هذا السؤال بعد احصاءات عديدة ومتنوعة غايتها مقارنة الكتب الاوروبية الرسمية (فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا، وانكلترا) بالكتب العربية كيفما كان بلدها · وما أثبتنا هنا من ارقام يعتبر معدلا بين الكتب الاوروبية وبين الكتب العربية · (ملاحظة : نستسمح القارىء فنغفل عن اسم الكتاب ومؤلفه وبلده)·

1) الحيوانات :	الكتاب الاجنبي :	112 اسم —	الكتاب العربي :	44 اسم
2) النباتات :	» »	95 » —	» »	22 »
3) جسم الانسان :	» »	50 » —	» »	11 »
4) المحسوسات :	» »	370 » —	» »	106 »
5) الاوصاف :	» »	262 » —	» »	94 »
6) الافعال :	» »	444 » —	» »	250 »
المجموع :		1333		527

واليكم مثالا لقائمة الالفاظ المتعلقة بجسم الانسان :

في الكتاب الفرنسي :

ـ فم	1 bouche
ـ حدبة	2 bosse
ـ ذراع	3 bras
ـ ندبة	5 cicatrice
ـ قلب	6 cœur
ـ شعر	7 cheveux
ـ لمة	8 chevelure
ـ جسم	9 corps
ـ عنق	10 cou
ـ جمجمة	11 crâne
ـ اصبع	12 doigt
ـ ظهر	13 dos
ـ عاتق	15 épaule
ـ سِيا ، وجه	16 figure
ـ جبهة	17 front
ـ ركبة	18 genou
ـ سبابة	19 index
ـ ساق	20 jambe
ـ لسان	22 langue
ـ شفة	23 lèvre
ـ عضلة	24 muscle
ـ يد	25 main
ـ ربلة	26 mollet
ـ شارب	27 moustache
ـ انف	28 nez
ـ اذن	29 oreille
ـ عظم	30 os
ـ عين	31 œil
ـ ظفر	32 ongle
ـ رجل	33 pied
ـ ملمح	34 profil
ـ مقدم الرجل	35 pointe des pieds

- صدر	36 poitrine
- معصم	37 poignet
- سلامى	38 phalange
- هيكل عظمى	39 squelette
- عقب	40 talon
- رأس	41 tête
- وجه	42 visage
- صوت الحلق	43 voix
- بطن	44 ventre
- سن	45 dent
- خد	46 joue
- ذقن	47 menton
- مرفق	48 coude
- هدب	49 cil
- حاجب	50 sourcil

فى الكتاب العربى :

عين ، ناب ، كف ، فم ، ظفر ـ عظم ، يد ، اصبع ، وجه ، رأس ، قدم •

ملاحظة 1 : الكتب الاجنبية المجردة خاصة بنصف السنة التحضيرية وسنة الامومة ، أما الكتب العربية المجردة فهى مقررة فى السنة التحضيرية بكاملها •

2) كثير من المدارس عندنا فى المغرب لا يدرس الطفل فيها الا نصف الحصة ،فيجب اذن اعتبار نسبة التخلف أخطر مما هى عليه فى الحقيقة •

3) اذا اعتبرنا ما سبق فنسبة التخلف بين لتلميذ الاوروبى وبين التلميذ العربى الذى يدرس الحصة بكاملها تتعدى 40٪ ، أى ان التلميذ العربى لا يعرف الا 40٪ مما يعرفه التلميذ الاوروبى فى نفس المستوى ، واليكم نوعا آخر من احصائية لها مدلولها :

أخذنا أربعة كتب فرنسية مقررة فى السنة التحضيرية وأربعة كتب عربية من مختلف الاقطار العربية مقررة فى نفس السنة • واخترنا موضوع « القسم » فاننا نجد فى الكتب الفرنسية الكلمات الآتية مشتركة فيما بينها • ونجد فى مقابل الكلمات الفرنسية الكلمات العربية الآتية :

الكتب الفرنسية	الكتب العربية			
	الاول	الثاني	الثالث	الرابع
classe	0	غرفة الدرس	فصل	غرفة الصف
mur	0	جدار	حائط	جـدار
plancher	0	0	0	ارض مغطاة بالخشب
plafond	0	0	0	سقف
porte	0	باب	باب	باب
fenêtre	0	شباك	نافذة	نافذة
table	طاولة	0	0	طاولة
banc	0	مقعد	مقعد	مقعد
pupitre	0	0	0	0
chaise	0	كرسي	0	0
bibliothèque	0	0	0	0
gravure	0	0	0	0
image	0	صورة	صورة	مصورة
maître	معلم	معلم	معلم	معلم
tableau noir	0	لوح اسود	سبورة سوداء	لوح اسود
écolier	0	0	0	0
cartable	0	0	0	0
cahier	0	0	0	0
livre	كتاب	0	0	0
ardoise	0	0	0	0
porte-plume	0	0	0	0
crayon	قلم رصاص	0	0	0
règle	مسطرة	0	0	0
plume	0	0	0	0
poêle et tuyau	0	0	0	0

ملاحظة : فى كل كتاب عربى الفاظ لا توجد فى الكتب العربية الاخرى وهى :

فى الكتاب الاول : ورق ، املاء ، تلاوة ، قصة ·

فى الكتاب الثانى : منبر ، خريطة ، ممسحة ، طباشير ·

فى الكتاب الرابع : منبرالمعلم، فناء ·

مقارنة النصوص

1) المطالعــة

قبل استخلاص النتائج حول هذا الموضــوع ينبغى ان نتمم هذه المقارنة بمقارنــة النصوص لتكتمل الفكرة وتتضح . لان المواضيع ، كمـــا قلنا . متداخلة بعضها مع بعض ولان كل موضوع له أثره فى غيره · فقلة المفردات لها أثرها فــى قيمة النصوص وفى اساليب التعبير وفى الحصيلة التكوينية كما سيتضح ذلك فيما بعد · ودونكم اذن النص الفرنسى فى موضوع الضفدع مثــلا وهو فى مستوى نصف السنة التحضيرية كذلك ·

LA GRENOUILLE

Puc était devenu une belle petite grenouille verte qui sautait dans l'herbe ; personne ne l'aurait reconnu. Les gracieuses libellules passaient près du pauvre Puc sans le voir.

Pour se nourrir, il devait maintenant dévorer ses amis les insectes. Le premier jour, il crut mourir asphyxié dans l'étang : Il n'avait pas encore l'habitude de vivre dans l'eau ! «Quelle triste existence est la mienne ! se lamentait Puc. Ah ! si la fée Sylvue pouvait me voir ! ».

A ce moment survient un jeune garçon. Avec une épuisette, il captura Puc sans effort. On mit la pauvre grenouille dans un bocal.

Depuis, Puc reste perché tout en haut de sa petite échelle !

واليكم نصا حول الضفدعة فى مستوى السنة التحضيرية بكاملها :

★ ضفــدعــة ★

ذهب صالح الى حوض ، عــــلى حافته ضفادع تنقنق ، فضحك صالح من نقيقهــــا · سمعت ضحكه ضفدعة ، فغاصت فى حوضها وتبعتهــا اخواتها فسكتن ·

وهــذا نص فرنسى فى مستـــوى السنـــة التحضيرية :

LE CHAT

Vous ne l'auriez jamais deviné :

Celui qui a bu tout le lait du grand pot blanc, c'est moi, le chat. Je me suis régalé : Tant pis pour vous : il ne fallait pas le laisser sur la table de la cuisine.

Ensuite, étendu sur votre beau tapis, j'ai fait un bon somme.

C'est là que vous venez me caresser, me dire que je suis beau, mais en voilà assez ! Je ne suis pas un jouet. Je m'étire et à petits pas, je m'en vais. N'insistez pas, je vous prie, car si je commence à baisser mes oreilles et à découvrir mes dents pointus, pff ! gare à ma griffe : elle vous laissera sur la main une douloureuse marque rouge et, croez-moi, vous la garderez longtemps !

Je n'aime pas le chien : il est brutal et maladroit. Quand je le vois, mon poil se hérisse et je fais le gros dos, Grr !!

Je voudrais bien croquer le serin qui sautille dans sa cage.

Mais elle est accrochée si haut, si haut ! que l'oiseau jaune ne craint rien ; sûr de lui, il me nargue.

La nuit, le grenier m'appartient. Penda nt des heures, je guette la souris qui grignote dans son coin. Je l'entends sans la voir, mais je sais où elle est. Gare,, si elle se risque hors de son trou : hop ! je ne la raterai pas !

En hiver, j'ai ma place à la chaleur, sur mon coussin, près du radiateur. Qu'importe le vent ou la neige ! Moi, j'ai chaud, je ronronne. Je m'étire et je baîlle en montrant ma langue sèche et rose.

Puis, jusqu'à l'heure de ma tasse de ait, je dors, je dors. Je suis bien !... je suis le chat !

قطتى (فى مستوى التحضيرى)

لمنير قطة لطيفة · منير يقدم لها لبنا فى كوب· يقبل منير قطته ، قطة منير هى رفيقته فى داره ، رسم لها منير صورة بقلمه ·

وهذه قطعة اخرى :

★ هــــرى ★

هــرى هــرى * حسن الشعر
ولــه وجــــه * مثــل النمــر
ولــه عـــين * مثــل الشــرر
يمشى حــولى * حانى الظهــر
فــأداعبـــــه * فــوق الحجر
وعــلى كتفى * وعلى صــدرى
فــاذا لاقــى * فــأرا يجــرى
يعــدو حــالا * خلف الفـــأر

وهــذه قطعة اخرى :

★ قــطـــتى ★

(فى مستوى الابتدائى الاول !)

لى قطة جميلة أحبها كثيرا · شعرها ناعــــم وعيناها زرقاوان وانفها صغير · تحرك ذيلهــــا عندما أتمسح بها وامر يدى على شعرها ، فتتطلع الى وتدخل رأسها بين ذراعى ، سميت قطاتى : كوكو·فاذا ناديت كوكو ! جاءت مسرعة وتمسحت بى · وأختى آمنة تناديها : بش بش ولكن كوكو تحبنى أكثر من أختى آمنة ·

أنا لا أضرب كوكو ولا أزعجها ان كانت نائمة لذلك أجدها فى انتظارى بباب المنزل كلما رجعت من المدرسة ·

ان قطتى أليفة · ولكنها تدافع عن نفسها اذا حصل لها ضرر . فتخرج مخالبها وتخمش جسم من يعتدى عليها ·

انها تجازى الخير بالخير والشر بالشر ·

2) دروس الاشياء :

العربى ج 2 والفرنسى ج I

العــــين

العــين أثمن الحواس · هى نور الانسان بــه يهتدى لقضاء حاجاته ، وبدون العين تصبح لــه الدنيا ظلمة دامسة · أبدع الخالق القدير العــين

بحكمة فائقة ، اجزاؤها دقيقة جدا ، وقد وضعت للمدافعة عنها الحواجب والجفون والاهداب • حافظ على سلامة وصحة هذا العضو الثمين بكل الوسائل الممكنة • اذا اغتسلت بالصابون فلا تدعه يدخل فى عينيك ؛ لا تمسح عينيك بيد قذرة بل بمنديل نظيف ولا تدع الذباب والحشرات تستقر عليها ، لا تستعمل ماء أو منديلا استعمله قبلك آخـــر منعا للعدوى ؛ ولا تعرض عينيك للنور الشديد ، ولا تقرأ فى موضوع مظلم •

L'ŒIL

Les yeux sont très fragiles, mais ils sont bien protégés. Chaque œil est logé dans un renforcement des os de la tête appelé orbitre.

Devant les yeux, les paupières se ferment au moindre danger et leurs cils arrêtent les poussières. Les deux sourcils empêchent la sueur du front de couler dans les yeux.

Les yeux sont très mobiles. Chaque œil ressemble à une bille blanche sur laquelle on voit de petits vaisseaux sanguins. Sur le devant de l'œil, une peau transparente laisse voir à l'intérieur un anneau coloré, nommé l'iris.

Au centre de l'iris, se trouve un petit trou appelé pupille. Par ce trou, on voit le fond de l'œil : il est tout noir. La lumière pénètre dans l'œil par la pupille. Celle-ci s'élargit à l'obscurité et au contraire, se rétrécit quand la lumière est vive.

ملاحظة :

1) يحتوى الجزء الاول العربى على ما يلى : « واعلم يا بنى » اننا نعرف ما يحيط بنا بواسطة حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس •

2) ينقسم الدرس الفرنسى الى قسمين : قسم للتلاوة وهو الذى ترجمناه وقسم خاص بالاسئلة والملاحظات والتطبيقات الكل مصور ملون لـــم نترجمه •

3) الدرس الفرنسى للسنة الثانية من التعليم الابتدائى والدرس العربى للسنة الثالثة مــــن التعليم الابتدائى •

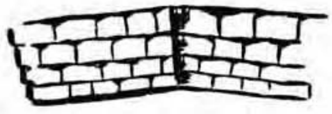
4) عدد المصطلحات فى الدرس الفرنسى 14 وفى الدرس العربى 4 •

5) أرجو من القارىء ان يتحقق بنفسه مــــن الفرق العظيم الذى يوجد بين كتابين فى دروس الاشياء الاول بالفرنسية والثانى بالعربية •

3) الهندسـة :

المستوى المدروس هوالسنة الاولى من الثانوى• الدرس الفرنسى يبتدىء بأعمال تجريبية من ضغط سن قلم رصاص على ورقة وسؤال التلميذ عـــن وصف أثر عمله وتشبيه النقطة بنقطة الوقف الخ الشىء الذى لا يوجد فى الكتاب العربى •

الخط :



(جدار)

السلك المعدنى مثلا ليس بخط ولكنه جسم ، ولكننا مهما بالغنا فى سحب ذلك السلك حتى يصبح فى غاية الدقة فالناتج لا يكون خطا هندسيا بل يقرب جدا منه .

النقطة :

نرى فى شكل الجدار انه اذا التقى خطان منه ، فانهما يلتقيان فى نقطة فالنقطة هى حد الخط وليس لها طول ولا عرض ولا ارتفاع . ويستنتج من ذلك ان .

« النقطة هى كل ما له وضع مجرد من الطول والعرض والارتفاع » .

من الممكن اعتبار نهاية كل خط أو موضع تلاقى خطين كنقطة هندسية .

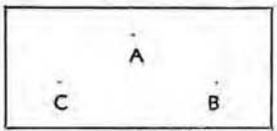
يقول الدرس فى الهندسة بان « النقطة هى حد الخط » بينما الخط لا نهاية له .

1 - Le point :

En appuyant la pointe d'un crayon bien taillé ou d'une aiguille fine sur une feuille de papier, en évitant tout glissement, on marque un point.

On désigne un point par une lettre (en général majuscule d'imprimerie) que l'on place au voisinage du point de façon qu'elle soit bien visible et qu'il n'y ait pas de doute sur le point qu'on veut désigner.

Ainsi la figure 1 représente trois points désignés par les lettres A, B, C.



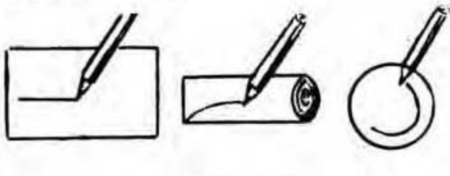
شكل (1)

2 - Ligne :

Si l'on déplace la pointe du crayon ou de l'aiguille sur le papier, sur un mur, sur un rouleau ou sur une boule, on dessine une ligne (fig.2).

Nous exprimons ce fait de la façon suivante :

.... Un point qui se déplace engendre une ligne



شكل (2)

Souvent une ligne est désignée par une lettre majuscule placée entre parenthèses.

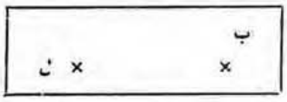
Applications : etc...

وهذا كتاب عربى آخر فى نفس الموضوع :

بند 8 ـ النقطة . الاثر الذى يتركه سن قلم أو دبوس على قطعة من الورق يدل على وجه التقريب على النقطة .

فالنقطة وضع هندسي مجرد عن البعد ، ليس لها طول ولا عرض ولا سمك .

وتسمى النقطة باحد الحروف ، فنقول مثلا : النقطة (ل) أو النقطة (ب) (شكل 6)

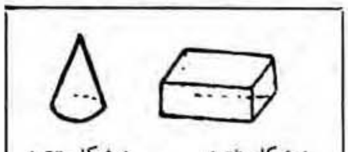


(شكل 6)

(ثم ينتقل الى الجسم ثم يدرس السطح ثم يأتي في البند 11 الى الخط فيقول) .

بند 11 . سطوح الاجسام تنفصل بعضها عن بعض بفواصل نسميها خطوطا وهذه الخطوط قد تكون مستقيمة أو منحنية ، تأمل متوازي المستطيلات :

(شكل 11) ان له سطوح مستوية تتلاقى مثنى مثنى في اثنى عشر خطا تسمى أحرفه وهي خطوط مستقيمة .



(شكل 11) (شكل 12)

أما المخروط فسطحه الجانبي سطح منحن وقاعدته سطح مستوى وينفصل السطحان بخط منحن على شكل محيط دائرة (شكل 12) .

فالخط اذن ينشأ عن تقاطع سطحين 2

وهو على نوعين :

1) مستقيم الخ

2) محن الخ

3) الاثر الذي يتركه سن قلمك عندما يتحرك على ورقة هو خط وعلى ذلك يمكننا اعتبار أيضا ان الخط مسار نقطة متحركة .

خلاصة مقارنة النصوص :

في المطالعة	**النص الفرنسي** . حي بألفاظ غنية ، موح بافكار وعواطف ، واصف بفتح آفاق الخيال ـ مشوق للمطالعة والانشاء مسل بالطرف والتشخيص وفن الاساطير الخ ... **النص العربي** . قليل الالفاظ ، غير موح ، واصف بالسرد الجاف ، غير مشوق ، غير مسل ، بسيط الفكرة ساذج الشعور الخ ..
دروس الاشياء	**النص الفرنسي** . مضبوط ، مفصل ، مشجع على الملاحظة ـ موح بالتشبيه بين الاشياء المحيطة بالتلميذ ، غني بالمصطلحات الخ ... **النص العربي** . غير مضبوط ، مجمل ليس فيه ما يحض على التبصر والملاحظة موح بالقدرة الالاهية في صنع الانسان ، قليل المصطلحات واعظ الخ ...

الهندسة	**النص الفرنسي** • ممهد للتلميذ، آخذ بيده لممارسة الدرس • مشرك اياه في توسع الدرس ، مبنه اياه على الفروق . مضبوط المنطق في تسهيل وتبسيط (من النقطة الى الخط الى السطر)
	النص العربي • غير ممهد ، غير آخذ بيد التلميذ ، غير مضبوط ، غير منطقي (من الخط الى النقطة أو الى الاشكال ثم الى السطر فالنقطة) •

فكرة أساسية :

ومن تأمل جيدا مقارنة أنواع الكتب في اللغتين لكشف اشياء أخرى غير هذه ولاتضحت له ما هي عليه كتبنا بصفة عامة ، من فراغ علمي وفقر فكري مما يفسر ازمة الثقافة العربية التي امتلأت صفحات مجلاتنا وجرائدنا بالاسئلة عنها والتأسف عليها • والثقافة انما هي نتيجة اختمار المعلومات والشعور والاحاسيس والعواطف والافكار داخل النفس البشرية • فاذا كانت مواد الاختمار قليلة نقص نضج اختمارها وبالتالي بقيت فطيرة • والثقافة تعبير عن ذلك الاختمار فاذا قل التعبير قلت الثقافة • وبديهي ان المعلومات والعواطف والافكار لا يعبر عنها الا باللغة • واللغة الفاظ من اسم وفعل وحرف وتراكيب تكتسب بالتعليم بمعناه العام كما ان مادتها الخام تكتسب بالمشاهدة والتحليل والتأمل والتركيب والتجربة ، وبعبارة أخرى فان اللغة تغني العقل والنفس والروح كما ان العقل والنفس والروح تغني اللغة • ولكننا اذا تعمقنا في هذا الموضوع بالنسبة الى الامر الواقع في يومنا هذا وفي الظروف الحديثة التي نعيش فيها وجدنا ان اللغة هي الاداة الاساسية لكل تنمية كيفما كان نوعها والوسيلة الضرورية اللازمة لكل رقي مهما كانت درجته • وسنعود الى هذه النقطة في مقال آخر ان شاء الله !

المحادثة :

واذن فان المعلومات والعواطف والافكار التي توجد في الكتاب العربي ناقصة بالنسبة الى المعلومات والعواطف والافكار التي يحتوي عليها الكتاب الفرنسي ، ولو كان هذا النقص ضئيل النسبة فحسب لما اكترثنا لذلك • ولكن هذه النسبة منخفضة انخفاضا مدهشا فوجب علينا ان نبوح بالامر وان نقرع ناقوس الخطر . لا سيما وان المستوى منوط بهذه النسبة ، ومع استواء التعليم يستوي التقدم ومع انخفاضه يحصل التأخر •

وحقيقة الامر ليست في عدد الكلمات بل في اختيارها وفعاليتها بالنسبة الى الواقع والمفهوم والفكرة ، فان الطفل أول ما يتعلم يتعلم الحروف بواسطة أسماء ما يحيط به من الاشياء التي يعرفها • ومن المسلم به ان ما يحيط بالطفل في الوسط الحضري يختلف عما يحيط به في الوسط البدوي • والاشياء التي يعرفها طفلنا المغربي في سن السادسة كثيرة ولكنها مجسمة في ذهنه باللغة العامية • مثال ذلك في الاسماء خيزو (جزر) كرموس (تين) شطابة (مكنسة)

وفى الافعال : دار يدير (عمل يعمل) ناض ينوض (نهض ينهض) وشاف يشوف (رأى أونظر) باش (لـ أو كى) منين (لما أو عندما) لهيه (هناك) بعكس الطفل الفرنسى الذى تكاد جل ألفاظه الشفوية تطابق ألفاظه المكتوبة ٠

وحتى نقوم لسانه منذ الخطوات الاولى ، ونجعل لهجته العامية تتقابل مع اللغة الفصيحة يجب ان نعلم طفلنا الالفاظ الفصيحة المقابلة للاسماء العامية التى فى دهنه والتى يمارسها كل يوم وذلك بالتدريج مثل : خبز ولحم وفراش وقط (لا « هر ») وخيمة ودار وعين وسن لا (« ناب » ولا « ضرس » ولا « قاطعة ») وغزال (لا «ظبى») وبلبل (لا « هزار ») ٠

ويجب ان تكون غايتنا أولا : امداد الطفل بوسائل التعبير ليصف ما حوله فى مرحلة أولى ٠ ثانيا : اطلاعه على ما يوجد فى بلاده خارج وسطه فى مرحلة ثانية ٠ ثالثا : اطلاعه على ما يوجد عند غيرنا من البلدان الاخرى ٠ وبعبارة أوضح نسهر على تكوينه من حيث حاضر بلاده وحاجياتها (التكوين الوطنى) ثم على تكوينه من حيث حاضر العالم الذى يعيش فيه (التكوين الانسانى العالمى) حتى يتلاءم فكره الفتى مع حاجيات وطنه الصغير ، وينسجم فيما بعد مع مقتضيات وطنه الكبير وهو الانسانية جمعاء ٠

وأتذكر أننا فى صبانا لما كنا فى المدارس الفرنسية الاسلامية كما كانت تسمى آنذاك ، تعلمنا بلغة أجنبية جميع أشياء الحضارة البعيدة عن وسطنا فى ذلك الزمن ٠ واتذكر الى يومنا هذا ، اذ ما زالت راسخة فى ذاكرتى ، تلك الصور بأسمائها المطبوعة باللون الاحمر التى كنت أراها على جدار القسم ، وفى الكتاب الفرنسى ، من قطارات ومحطاتها وأثاث أوروبى مرتب حول المدخنة فى « الصالون » ، والبيانو بارز فى جانب اللوحة ، ومن بواخر على البحر ماخرة يتعالى بخارها فى السماء ، كما اتذكر تلك الصور الخاصة بالبدو ، رجالهم على أفراسهم والبنادق مرفوعة فوق رؤوسهم ، ونساؤهم جالسات امام الخيمة فى صف واحد ، كل واحدة مشتغلة بعمل من أعمال تحضير الغذاء ، هذه تعجن وتلك تفتل « الكسكس » وأخرى عند الفرن تدفع بالحطب الى النار ٠ كل هذا وانا قاطن فى قعر مدينة فاس لم أكن رأيت من قبل لا قطارا ولا باخرة ولا بيانو ولكن مخيلتى الفتية كانت تحلق بى فى ذلك العالم البعيد الذى كان يبدو لى غريبا وشد ما كان شوقى عظيما لرؤيته والتعرف عليه والسفر اليه على متن ذلك القطار أو تلك الباخرة والعزف على ذلك البيانو والحصول على أثاث تلك المنازل الجميلة والركوب على الخيل واطلاق نار الفرح من فوق صهواتها ثم الاستراحة داخل الخيمة والتمتع بطرافة حياة البادية لان الطفل يستهدف الحركة والمغامرة ويصبو الى المزيد من التعرف على كل شىء وبالخصوص على ما لا يحيط به من الغريب والجديد فى كل ميدان ٠

والتعليم اذن مرحلتان مرحلة ادماج الطفل أولا فى وسطه حتى لا يقتلع عنه ويكون ذلك

بتسديد لغته الفصيحة منذ البدء وبث حبها فى قبله وامداده بأداة الوصف مع تمرينه على ثروة لغته حتى يستطيع التعبير عما يختلج فى نفسه ، ثم بعد ذلك الاخذ بيده ورفعه الى ادراك حقائق الامور التى تحيط به وابراز سر تركيبها وقوانين حدوثها واسباب وجودها ليدرك ان مــن وراء الشيء اشياء أخرى لم يكن يشعر بوجودها من قبل وان الملاحظة والتأمل واجادتهما كفيــلان بجعله يكتسب عنصر العلم ألا وهو النظــر الى العالم بعين جديدة مدققة كاشفة شاكة متسائلة فى آن واحد ٠

ووعاء العلم فى التعليم هو الكتاب هذا مــن جهة ، ومن جهة أخرى فاننا نعتبر طفلنا فى ذكاء أى طفل من أطفال العالم ٠ فاذا كان المستوى الذى يحصل عليه طفلنا باللغة الفرنسية لا بأس به فلماذا لا يحصل على نفس المستوى بلغته الام ؟ واذا كانت اللغة العربية تنخر من حصة اللغــة الفرنسية لفائدتها أليس بطبيعي ان يبقى المستوى فى نفس الدرجة التى كان عليها باللغة الفرنسية؟ واذا انخفض المستوى فهناك سبب وهذا السبب **هو اننا لا نعلم بلغتنا ما نتعلمه بلغة غيرها ٠**

هذا هو القصد الاول الذى يجب على المشرفين على التعليم ان يقصدوه ولا ينبغى بل ليس مــن الجد فى شيء ان يرموا المعلمين بعدم الكفاءة ٠ فلو كان هذا صحيحا لبرزت مدارس أو أقسام بتعليم فى المستوى اذ من المستحيل ان يكون جميــع المعلمين عديمى الكفاءة دفعة واحدة فى جميــع مدارس البلاد لا سيما وان هؤلاء المعلمين كونهم هؤلاء المسؤولون انفسهم فأصبحوا يرمونهم اليوم بالضعف ٠

فى دروس ألاشياء والعلوم :

أما فى موضوع دروس الاشياء فنقول :

ان المستوى بالنسبة الى أوروبا يجب ان يحافظ عليه٠ وهذا المستوى ليس مراعا فى كتبنا ٠ فيجب ان نبوئه فيها أولا ثم ان نحافظ عليه فيها ثانيا ٠ فلم لا يتعلم طفلنا بالعربية من العلوم ما يتعلمه بالفرنسية الطفل العربى أو الطفــل الفرنسى ؟ اذلك لان بعض العلوم خاصة بالاوروبيين وبعضها الآخر خاص بالعرب ؟ قد يمكن ان يكون ذلــك صحيحا بالنسبة الى باب أو بابين مثــل باب الخنزير أو باب الخمر ولكنه غير صحيح بالنسبة الى الابواب الاخرى ٠ ولماذا تفصل أجزاء العين للطفل الاوروبى فى الابتدائى الاول ولا تفصل بنفس الدقة للطفل العربى فى نفس السنة وباضافــة معلومات أخرى زائدة لاسباب منها مرض الحثار (التراكوم) مثلا الذى يفتك بمناطق الجنوب فى بلداننا ٠

ولماذا يكاد درس العين هــذا الذى يلقــن فى الابتدائى الاول الفرنسى لا يساويه درس العين فى المتوسط الثانى العربى ؟ واذا أرجأناه الى هذا القسم الاخير أفظنا منا ان الطفل الفرنسى سوف لا يتقدم فى دراسة العين وينتظر ان يلحق بــه الطفل العربى حتى يصلا الى الشهادة الثانويــة أو الباكالوريا فى مستوى واحد ؟ انا لا افهــم ذلك ٠

ولقد قارنت غير ما مرة مستوى استاذ عربى حاصل على اجازة فى العلوم الطبيعية بالعربيـة (بمعناها الطبيعى لا الفيزيائى !) قارنته بمستوى استاذ فرنسى حاصل على نفس الاجازة فى نفس المادة فوجدتان هذا يفوق ذلك أضعافا مضاعفة · وان كنتم فى ريب مما قدمنا · فقارنوا بانفسكم بينهما يتضح لنا جميعا خطر الداء !

الهندســـة :

وفى الهندسة ، لماذا يزخر الكتاب الفرنسى بالتمهيدات والتطبيقات والتواضيح البسيطـة المفصلة والمنطقية معا ، فيقول بان النقطـة هى عنصر الخـط يبدأ هـذا بها ، ثم اذا تحركت النقطة نتج عن اثر تحركها ما يسمى بالخط الذى هو بدوره ، مهما تغير اتجاهه ، اصبـح عنصر الزوايا التى هى بدورهـا عنصر المثلـث · واذا تعددت الزوايا نتجت عن .لك اشكال المربـع والمخمس والمسدس الخ · واذا تحرك هذا الخط فى اتجاه جانبى نتج عن ذلك التحرك السطـح ومركباته من هرم ومخروط ومكعب الخ · ولماذا ينحو الكتاب العربى نحوا مخالفا يؤدى الى الابهام والغموض والتعقيد لا سيما وان الدرس الهندسى الذى مثلنا به خاص بتلاميذ السنة الاولى مـن الثانوى أى بأطفال عمرهم لا يتعدى اليوم أربع عشرة سنة على أكثر تقدير ، ويبدأ بالخط وأى خط ! ذلك الخط الوهمى الذى يجب أن يقـدره التلميذ على جدار ويقدر ان سببه هو الفاصل بين لبناته ! ثم يقول الكتاب بان النقطة هى ملتقى خطين من خطوط ذلك الجدار فيختم بهذا التعبير المدهش لعقل التلميذ : « هو كل وضع مجرد عن الطول والعرض والارتفاع » فأى وضع ؟ وما هو الوضع ؟ وأى تجريد ؟ وما معنى التجريد ؟ ! ومعنى هذا كله فى الحقيقة لا شىء ؟ ، العدم ! وقل مثل ذلك فى الكتاب الآخر الذى ينتقل من « بند » الى « بند » ويرجع ويستدرك الخ ··· كل هذا مما يفسر لنا تلك الغرابة فى التفكير التى نلاحظها عند المكونين علميا بالعربية !

الخلاصة فى موضوع الكتاب المدرسى :

هذا هو الامر الواقع ! اضيف ان هذه المقارنة الموضوعية تتبعناها حتى نهاية السنة الثالثـة للثانوى أى سنة الشهادة الثانوية ، شعبة شعبة ومادة مادة وصنفا صنفا ثم بعد ذلك عكفنا على طوائف الالفاظ من حيث المفهوم ومن حيث الدقة ومن حيث الحيوية ومن حيث المسايرة والتدريج والدرجان ، ولم نعرها اهتماما من حيث الغرابة اذا كانت الكلمة تؤدى معنى حديثا وتسد لنـا فراغا فى اللغة ، الى غير ذلك من عمليات البحث والاحصاء المتداولة, متفحصين أنواع الكتب المقررة فى سائر الاقطار العربية للقـراءة والمحفوظات والنحو والرياضيات والعلوم والتقنيات الخ ···

واما المقارنة من حيث الاخراج والطباعـــة والتجلية والتقديم ، فنتيجتها ان الفرق شاسع جدا بين الكتب العربية والكتب الفرنسيـــة اذ الكتاب العـربى لا يلبى مقتضى المبـادىء التربوية الاساسية من وضوح الحروف وشكلها وتنوعهـا

ومن ضبط الصور والرسوم ودقتها ونصاعتها وتلوينها ومن ترتيب الصفحة وابراز فصولها وفقراتها الخ ...

فتبين لنا علميا لا مجال لاى شك فيه ان هذا التباين العظيم بين محتوى الكتاب العربى وشكله وبين محتوى الكتاب الاوروبى وشكله ، لهو أول الاسباب فى انخفاض المستوى وعدم تقدمنا فى القضايا التعليمية والمشاكل اللغوية بصفة عامة .

اذ كيف نريد ان يكون تعليمنا فى المستوى ومحتواه ناقص بالنسبة الى هذا المستوى الذى نريد ؟ .. كيف نريد ان يكون تلميذنا عالما بما لا نعلمه اياه ؟ كيف نريده معبرا ونحن لا نمده بوسائل التعبير ؟ ونريده واصفا ونحن لا نقدم له أداة الوصف ؟ كأننا نريده ان يحسب دون ان نعلمه الحساب ! أو نود ان يدافع عن نفسه فى معركة بينما نكبل يديه !

ما يعرف أبناؤنا الا ما علمناهم ! وانهم لفى المستوى الذى أردناه لهم انهم يعبرون كما علمناهم ان يعبروا لا أقل ولا أكثر ويصفون بما سمحنا لهم ان يصفوا وجعلناهم يحسبون بالارقام القليلة التى علمناها اياهم ، واخيرا فانهم يدافعون كما تاتى لهم ان يدافعون بل هم صورة واضحة لما نحن عليه ، صورة وفية مخلصة .

الكتاب المدرسى والمعلم :

وما قلناه فى تلميذنا نقوله فى معلمه حرفا بحرف ، اذ المعلم الا تلميذ أنهى دراسته ، تلك الدراسة التى وضعناها له بمستواها ومحتواها ، من حيوانات ونباتات وأوصاف وأفعال ومعلومات وأشياء الخ ... فكوناه بلغة وكتب وأدوات تعليمية وبرنامج الكل ناقص واذا كان تكوينه ناقصا فاننا نحن الذين قصرنا فى تكوينه ! واذا قصرنا فى تكوينه فذلك لانه نقصنا الجهاز الفنى الذى يبين لنا الدرجة التى يجب ان نتمسك بها فى التكوين ويمدنا بالادوات الصالحة لذلك التكوين . وهذا الجهاز الفنى هو « المعهد التلقينى » Institut Pédagogique الذى يوجد عند كل الامم الراقية ولا يوجد عندنا ! ووجوده حيوى بالنسبة الى الامم المتخلفة غايته تتبع رقى شؤون التعليم عند سائر الامم والسهر على ان تكون دوما

فى بلاده مسايرة لما هى عليه عند الامم الرائدة حتى لا يحصل أى تأخر وبالتالى أى تخلف (اذا تكافأت الاوضاع) .

وان قال قائل ان هذا المعهد موجود عندنا فى البلاد العربية ومع ذلك لم تتحسن أوضاع التعليم ولا مستواه قلت : وجود الجهاز لا يكفى بوحده ان لم توضع رهن اشارته الطاقات والوسائل الكفأة الكافية وان لم يعره المسؤولون ما يجدر به من اهتمام وما يليق به من انصات .

ولنتأمل ما جاء فى التوصية 48 لوزارات التربية الوطنية المنبثقة عن الدورة 22 للمؤتمر الدولى حول التربية الوطنية المنعقد فى جونيف 1959 .

تصنيف الكتب المدرسية للتعليم الابتدائي ، اختيارها واستعمالها .

« يجب ان يعكس كتاب التعليم الابتدائي **التقدم** الذى حصلت عليه علوم التربية ، وان يتضمن المناهج المتناسبة مع **نفسية الطفل** ... وان تكون مواده معروضة **بمنطق** ومراعاة **اهتمام الطفل وقدرته الذهنية** – يجب ان يحتوى كل كتاب مدرسى ابتدائى على مجموعة من الحوادث والافكار والايحاءات مطابقة **للواقع وللعلم** مع السهر على **تجديدها يوما بعد يوم** – يجب ان تعطى عناية خاصة **للمفردات والاسلوب** حتى يكون تقدم التلميذ **تدريجيا** لا مبعثرا وغير منظم – يجب ان يكون لدى **الهيئة المختصة** بشؤون الكتاب المدرسى قائمات الكتب المختارة الصالحة التى « توجد عند **الامم الراقية** حتى يتسنى لها ان تقارن بين ما يصدر فى بلادها وبين ما يصدر عند غيرها » وذلك **للمحافظة على المستوى** – الكتاب المدرسى هو الكتاب الاول **الذى يدخل الاسرة** – يجب ان يكون الكتاب المدرسى **فى يد كل تلميذ** – فى البلدان التى فيها حرية الطبع يجب بصفة خاصة ان **ينتقد المسؤولون محتوى الكتاب المدرسى وقيمته العلمية** بالرجوع الى **الاختصاصيين فى الموضوع** وطلب رأيهم فيه ويحسن ان يجرب نوع من الكتاب على نطاق ضيق قبل اقراره حتى تتبين **صلاحية نشره على نطاق** واسع – يجب ان يتوفر فى الكتاب المدرسى على تدريج العلوم **من قسم الى قسم** الخ ....

لغوفي اللغة

محمد عزيز الحبابي
ترجمة :
فاطمة الجامعي الحبابي

صدر هذا الحديث بالمجلة الجزائرية:

Réalités - Alger وقدمته بما يلى :

« نشرت ، مؤخرا زميلتنا (Histoire du Maroc) بالدار البيضاء ، تدخلا لصديقنا الاستاذ محمد عزيز الحبابى ألقاه فى ملتقى حول « ازدواجية اللغة » ، انعقد بالربـاط فى 21 جانفى 1960 ، شارك فيه ثمانون عضوا من رجال التعليـم ، أغلبيتهم فرنسيون •

ورغم مرور ثلاثة عشر عاما ، فان ملاحظات فيلسوفنا المغربى (المستشار حاليا ، فى البحث العلمى بوزارة التعليم العالى بالجزائر) ما تزال تحتفظ بقيمتها • ولذا نقدمها لقرائنا » •

ايها الزملاء ، نلاحظ ان المناقشات حادة حول « **اللغة العربية** » وقابليتها على مسايرة العصر بتقنياته وتجدده المسترسل ، وحول صعوبتها ، تعلما وتعليما . ويتدخل ممن لهم المام بالعربية ، وممن لا المام لهم بها ، وانما يسمعون عنها ، من قريب أو بعيد .

★ ★
★

ان موقف المستعربين من اللسان العربي واضح ، لانهم تعلموا العربية بالطريقة التى يتعلم بها آخرون اللغات الميتة ، فمعرفتهم بقواعد النحو والصرف لا تنكر ، واتصالهم متين بالنصوص الوسيطية الكلاسيكية . بيد انهم لا يستخدمون ، ابدا ، هذه اللغة كوسيلة فى المعاملات اليومية ، لذا يحملون تبعية هذا النقصان العربية ذاتها . لقد تعلموا الحديث «عن» العربية لا الحديث «ب» العربية ، كما تعلموا الكتابة «عن» العربية ، لا «ب» العربية (الا أقلية ضئيلة منهم) اذن ، تجربتهم ليست حجة على اللّسان (العربى) ولكنها برهان على اخفاق منهجية بعض المستشرقين المطلعين ، فرغم سعة اطلاعهم تنقصهم البيداغوجية والتطبيق بالنسبة لتعليم اللسان العربى .

انصتنا ، فى هذه الندوة ، الى كلمات بعض الزملاء ، حول اللغة العربية وهم لا يتقنون الحديث بالعربية وليسوا مستعربين .

لا احد يستطيع ان يقاوم تعجبه منهم ، مع كل الاحترام الذى نكنه لحسن ارادتهم . لقد قضيت عدة اسابيع فى الصين ، فهل يكفى هذا لكى أسمح لنفسى بالمقارنة بين اللغة الصينية واللغة العربية أو الفرنسية ؟ لكى نكون جديين ، فليتكلم كل منا عما يجيد معرفته . ان الاقامة فى المغرب ، أو فى أية دولة عربية ، بضعة شهور لا تكفى ، ابدا لاصدار أحكام على اللغة العربية . فواجب الدارس لاية لغة ان يأخذ بعين الاعتبار العامل الزمانى ، ليتمكن من معرفتها فى محيطها المجتمعى والتاريخى والثقافى ، قبل ان يتصدى للحكم عليها . كذلك لا يجوز ان تقبل احكام بعض المثقفين المغاربة على اللسان العربى ، فهم وان تكلموا بالعربية الا انهم كانوا ضحايا لنظام الحماية الفرنسيةفاتقنوا لغة المستعمر ولم يتعلموا الا النزر اليسير من العربية .

ان تدخلنا هذا يرمى الى وضع نقط على حروف ، لنبلور بعض مشاكل نظنها اساسية .

لن يخطر لنا ، ابدا ، ان ننصح الفرنسيين بان يبدلوا لغتهم الوطنية باللغة الانجليزية ، لما تفوق به الولايات المتحدة فرنسا من تقدم تكنولوجى وعسكرى واقتصادى . ولن نتجرأ ، ابدا ، فنحرض الفرنسيين على ان يوثروا اللغة الروسية لكونها لغة الصواريخ ، على لغتهم الام . فى حين يبدو انكم تبذلون جهودا لاقناعنا بان احسن وسيلة تساعدنا لكى نخرج من التخلف ، تتمثل فى التخلى عن تعريب ثقافتنا والعمل على فرنسة عقليتنا ، وبعبارة أخرى ، ان نتنكر لانفسنا ، كأمة لها تاريخها وشخصيتها ، فنصبح مجرد طفيليين على هامش ثقافة أجنبية .

اننا نتقبل ضرورة التلاقح الثقافى ومعـرفة اللغات الاجنبية • فالاوساط العربية المثقفــة تردد ، منذ القديم ، بيتا شعريا أصبح مثـلا ، يؤكد ان كل لغة مكتسبة تمثل ، عمليا ، شخصية تنضاف الى شخصية الفرد الاساسية : « كــل لسان فى الحقيقة انسان» • ان كل شخص مزدوج اللغة يعادل شخصين ، شريطة ان ينطلق مــن الاصالة ، أى من لغته الام ومن ثقافته الوطنيــة اللتين يقوم عليهما كيانه• فاليابانيون والصينيون مثلا ، يكونون أمتين عظيمتين ، والسر فى هــذا المجد انهم استطاعوا المحافظة عــلى مميزاتهم الشخصية •

ان روح المواطنة والشخصية القومية كلتاهما تتجسد فى التاريخ (وجذور تاريخ الشعــوب هى اللغة ، والمعتقدات ، والاعراف ، •••) • لذا يجب علينا ان نناصر لغتنا القومية ، وان لا نجحدها حق المواطنة حتى لا يجرفنا الضياع • علينا ان نختار احد موقفين : **اما ان نلتحــم وننصهر فى قومنا ، واما ان نتلاشى فى الغـير ،** لكن الملايين من المواطنين الذين ضحوا بحياتهم من أجل استقلال البلاد ينيرون لنا سبيل الاختيار ويلقنوننا الواجب •

★ ★
★

نحن وان سلمنا بضرورة التمسك بالعربيــة كلغة قومية فى كل مرافق الحياة ، لانجيز لانفسنا سياسة النعامة ، فندعى ان اللسان العربى يتمتع اليوم بكل قوة المناعة والحياة ، دون احتياج الى اى تجديد او اثراء • فليس من المعقول ان نساير فى هذا الادعاء ، بعض المغاربة من الذين فاتهم الركب ، ولم يبق لهم محل من الاعراب •

نعم ، ان مشاركة بعض المثقفين المغاربة فى هذا الملتقى لدليل على تاييدهم لكل مبادرة تساعد على مصارعة التخلف ، سواء فى الميدان الثقافى أو فى الميدان التعليمى •

اننا نعى، حق الوعى ، كل ما ينقصنا ، وكل ما يجب ان نحققه ، كما نعى ما يلزم ان نفكه وما يلزم ان نركبه • واننا ، كذلك ، نقدر مساعدتكم التقنية لنا ، حق قدرها ، ولكنا نرفض الحلول الجاهزة مسبقا ، كما نرفض القردية (التقليــد الاعمى) ، ونرفض ، بالاخص ، كل ما يدخل أى عطب على شخصيتنا الاصيلة •

لا شك ان اللغة العربية فى حاجة الى تحويرات والى روافد لتزداد نموا ، طبقا لقانون تطور كل ما هو انسانى • اننا نعترف بكل ذلك ونحـاول علاجه ، فلا يرفض النقد الذاتى الا متشـــائم يائس ، او بليد •

★ ★
★

اسمحوا لى ان انتهز فرصة ملتقى اليـــوم ، لأؤكد تعجبى من « أبويه » (Paternalisme) بعض الزملاء : انهم يناشدوننا ، بالحاح ، ألا نضـحى باللغة الفرنسية ، خوفا علينا من ان نصبـــح صما بكـــما •

لا خوف ايها السادة ! ان اللغة الفرنسية اثراء ثقافي لنا ، وستظل كذلك ما دامت تسهم في تطعيم الثقافة المغربية ، دون ان تحاول اجتثاء شخصيتنا من تاريخها الاصل .

أمن اللائق ان يتخذ بعض الزملاء موقفا معاكسا لاختيارات المسؤولين الاكفاء في هذا البلد ؟ انهم يحذروننا من « مغبة » تعريب التعليم والاجهزة الادارية . انه لموقف تنقصه اللياقة والظرف ، وقد لا يخلو من مس بالكرامة القومية المغربية ؛ ذلك ان الاستقلال الوطني لا يتم الا باسترجاع الاصالة الشخصية التاريخية . والواقع ان ما يطلبونه منا يتلخص فيما يلي :

« قوموا انتم انفسكم بما لم ينجح المستعمرون في تحقيقه ؛ اى اعملوا على فرنسة شعبكم » .

★ ★
★

لقد اصبحت اللغة العربية نجمة سينمائيه يحتضنها البعض بشغف احتكارى (وبما ان للعشاق منطقا يخالف منطق الآخرين فمن الصعب التفاهم معهم) .

هناك زملاء آخرون يهتمون بنجمتنا ، غير انهم يعاملونها وكأنها مراهقة . فمن كثرة ما يحرصون على صيانتها واحتضانها جعلوا الحياة لديها غير محتملة الى حد الاختناق .

ايها الزملاء ! ان لم اكن قد اسأت الفهم ، فاجتماعنا اليوم هنا يضم لجنة تحكيم في مباراة انتخاب ملكة جمال المغرب ، من بين مرشحتين : الاولى خرجت من شاطىء نهر « السين » حيث ما فتىء خالدو «الاكاديمية الشهيرة بباريز» ، منذ ثلاثة قرون ، يلبسونها ويزينون ملامحها وينعشون شبابها وجمالها ، بكل ما وسعهم من قدرات ووسائل . ما اجملها ! رشاقة ، وأناقة ، دعابة ، وخفة روح !... لقد حببت بلطف ومواهب جمة ، منذ (كورناى) و (باسكال) و (ديدرون) و (بودلير) حتى السيدة (دو بوقوار) والسيدة (صاغان) ، بالاضافة الى المحظوظين الذين احرزوا على جوائز «غونكور» و « روندو » و «فيمينا» . فملاحة اللغة الفرنسية تتوالد وتتجدد باستمرار ، كمياه « السين » .

اما المرشحة الثانية فليست الا « النجمة » الصغيرة التى ذكرناها سالفا ؛ فلا هى أنيقة في لباسها ، ولا هى حاذقة فى حركاتها ، راعية صغيرة أصلا ، غير انها على العكس من الراعية الشهيرة (برنديت) قدسية (اللورد) ، لم تحظ ، منذ عدة قرون ، لا بالهامات ولا برؤى ..

اذن ، لقد وقع الاختيار مسبقا ، فلم يبق الا ان يصدر الحكام قرارهم بالاجماع . لكن ، ويا للاسف ، المشكل لا ينحصر فى اعتبارات جمالية ولا فى أوضاع جغرافية ، انه يتجاوز ، بكثير ، الاناقة والملاحة والجغرافيا (على ان لكل نوع من الجمال جاذبيته) . المشكل جد معقد ، لا يمكن ان ينحصر فى المظاهر .

سيداتي سادتي • ليست اللغة العربية ، بالنسبة للمغاربة ، مجرد أداة ثقافة وتبادل فكري بل انها اساس التعبير عن كل ما هو اساسي في حياتهم ، بصفتها وسيلة تواصل ، في كل اللحظات ، بين أمهات واطفالهن ، كما هي أداة تواصل بين مقومات الحياة ، (اقتصاديا ، ودينيا ، وسياسيا ، ومجتمعيا) • **فاللغة الام وحدها هي التي تستطيع اجلاء كل اللوينات العاطفية • انها روح الشعب وكل وشجاته الوجدانية ، الواضح منهما والمعقد**• اللغة الام هي ماضي الام الحاضر • انها ذكرياتنا العاطفية ووجداننا ومنطقنا وقد نشأت كلها من دم ولحم الاجيال التي توالت على هذا الوطن • انها نحن انفسنا • فالذين لا يفهمون ذلك لا يمكنهم ان يتفاهموا ، وبالاحرى ان يفهموا اللهفة التي تعانيها كل الشعوب الفتية وهي تجهد نفسها لبعث تراثها الثقافي ، واحياء ماضيها وشخصيتها عن طريق اللغة الام •

★ ★
★

قد يرى البعض اننا نتعصب للمرشحة البدوية واننا بالغنا في الاعجاب بجمالها • وقد ينصحنا آخرون : « انظروا عن قرب نجمتكم العربية ! جردوها عن زينتها ، ستبدو لكم أقل شبابا مما تظنون ، كالممثلة في مقصورتها وقد ابتعدت عن الديكور والاضواء • فعوضا عن العضلات والاعصاب ، ستجدون تجاعيد واعضاء مرتخية مشلولة » •

جوابا على هذا ، نؤكد اننا لا نخاف من النقد الذاتي ، فبكل موضوعية ، نعترف بان العربية لغة عريقة في القدم ، لكنها لم تمت ، وليست محتضرة • كل ما هناك انها متعبة ، لما اصابها ، الى حد ما ، من جمود وهمود •

فالواجب هو ان نفك الحصار من حواليها لنقضي على الجمود • لا بد لهذه اللغة ان تتحمل بعض التحويرات ، كما هو الشأن بالنسبة لكل اللغات الحية ، مثلها كمثل الشجرة المسنة التي تتحمل التخلي عن الاغصان الجافة المتصلبة كي تستعيد فتوتها ، هنا نذكر عبارة يتداولها الفلاحون في المغرب : « لجودة الزيتون يجب القضاء على رбايب الشجرة » ، ويعنون « الربايب » الاغصان اليابسة والطفيلية •

اذن ، من الواجب احصاء ربايب اللغة العربية ، وأخذ القرار الجازم لازاحتها •

فما هي تلك الربايب ؟ •

سنترجم هذا السؤال في العدد المقبل •

(يتبع)

التعريب والازدواجية في تونس

اصدر مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس الكراس الثالث من السلسلة اللغوية في نوفمبر 1970 (213 ص) وهو خاص بدراسة بعض اوجه الازدواجية اللغوية في تونس (1) ، ويضم ثلاثة بحوث :

1 ـ **رشاد الحمزاوي** : تعريب وزارة الداخلية ص 11 ـ 73 + ملحق ص 75 ـ 97 (يضم صورا لبعض الوثائق التي اعتمدتها الدراسة)

2 ـ **زهرة الرياحي** : استعمال تلامذة الثانوي للعربية والفرنسية ص 99 ـ 165 (يضم 19 جدولا) .

3 ـ **الحبيب العونلي** : لغة الطلبة ـ ص 167 ـ 213 (يضم 10 جداول) .

وقد صادف ظهور هذه النشرية احتدام النقاش في موضوع التعريب والازدواجية ، فرأينا أن نقدم هذه البحوث ، لا للتعريف بها فحسب ، وانما خاصة لتحليل ما تضمنته من وصف مجرد لبعض المظاهر اللغوية في تونس وما يمكن ان تثيره من مشاكل وتوحي به من افكار تتعلق بظاهرة الازدواجية اللغوية وتبعا لذلك ، بمشكلة التعريب ، وما ذلك الا لايماننا بضرورة وصف الواقع اللغوي التونسي من جميع جوانبه بالطرق العلمية الخالية من كل عاطفة أو تعصب حتى يمكن فهم هذا الوضع كما وكيفا ليمكن بعد ذلك التأثير فيه ، ومعالجته بانجع الوسائل واسلمها حتى نسلم من خطرين الانبتات من ناحية وعقلية عصور الانحطاط من ناحية اخرى وان ايجاد التوازن الضروري لابطال هذين الخطرين اصبح امرا حيويا ، وهو لا يتم الا بالموضوعية والنزاهة في معالجة المشاكل بعد فهمها وتحليلها تحليلا مجردا .

وان هذه البحوث لترمي الى هذا التحليل قبل كل شيء ، وتستحق فيما نعتقد ان توضع في هذا الاطار باعتبارها محاولة ومشاركة في تصوير واقع لغوي معقد ، يخرجنا من الاحساس الغامض بالحدس والتخمين ، الى المعرفة الصحيحة بالاحصاء والارقام .

تحليل البحوث

تحليل البحث الاول :

يتميز البحث الاول بانه لا يصور واقعا لغويا قديما موروثا ، وانما يصور واقعا جديدا ، ناتجا عن تجربة تتمثل في تعريب احدى الادارات التونسية في نطاق وزارة الداخلية ، وهي ادارة حرس المرور .

(1) Quelques aspects du bilinguisme en Tunisie. Cahiers du C.E.R.E.S, série linguistique 3 novembre 1970, 213 p.

وقد بدأ صاحبه بتقديم المشكل تاريخيا (9 ص) ، وذلك بالرجوع الى عهد الحماية حيث كانت مسألة التعريب مندرجة في نطاق المطالب الوطنية عموما ، ولكنها اخذت شيئا فشيئا تتميز بالمرونة والواقعية مراعاة للاوضاع والمصاعب .

ثم حدد بعد ذلك **اختيارين** في موضوع البحث (15 ص) ، معللا حصر الاختيار الاول في وزارة الداخلية بانعدام التقاليد العربية في هذه الوزارة قبل الاستقلال اذا ما قورنت بوزارة العدل . اما الاختيار الثاني ، فاننا نجد فيه تحليلا لخصائص ادارة الحرس الوطني اكثر مما نجد تعليلا ولا سيما انه كان يمكن زيادة اختيار ثالث يتعلق بحرس المرور الذي هو موضوع البحث الاساسي .

ويحلل القسم الثالث (4 ص) **وسائل التعريب** البشرية وكذلك المادية المتمثلة في مدرسة الحرس الوطني والمكتبة ، وفيه جدولان يبين اولهما مواد الدراسة وساعاتها ويضبط ثانيهما مطالعات الحرس باللغتين العربية والفرنسية حسب المواد ، وهما يستحقان تعليقا استنتاجيا يبين اهميتهما بالنسبة للبحث اي من حيث اهمية دورهما في التعريب .

ويعدد القسم الرابع ــ وهو يقع في صفحتين ــ الوثائق المكتوبة التي اعتمدت في البحث وهي « المقتطعات المالية » و « دفاتر الخدمة » و « دفاتر التصريحات » و « المحاضر » و « متفرقات » مشيرا الى انها تجسم مختلف مراحل التعريب . واننا نعتقد ان تحليل هذه المراحل من اهم ما يجب القيام به في المستوى اللغوى للمس قيمة هذه التجربة في التعريب بفهم اتجاهها وتطورها وتبين مدى نجاحها حتى تكون من المعايير في هذا المجال .

ــ اما القسم الخامس الاخير وهو اضخمها واهمها (33 ص) فهو خاص **بالوصف اللغوى** وينقسم الى خمسة محاور رغم ان فقراته غير واضحة تمام الوضوح احيانا :

يتضمن المحور الاول (6 ص) مشكلة **الرسم** ، رسم الكلمات العربية ، الفصيحة والعامية ، ورسم الكلمات الاجنبية بالاحرف العربية . وقد استعملت للتعبير عن هذا المفهوم الواحد ثلاثة مصطلحات فرنسية (2) حملت من المعاني مالا تحمله في الواقع ، ودون حاجة الى ذلك ولاسيما ان الكلمة الثالثة بدت في التبويب مقابلة للاولى ، بينما قصد الكاتب فيما يبدو مقابلة الثانية للثالثة في نطاق محور واحد عبر عنه بالكلمة الاولى . وكان يحسن في نظرنا ــ اجتنابا لهذا الغموض والالتباس ــ الاقتصار على اللفظ الثالث مع اضافته الى اللغة المقصودة .

ثم ان الامثلة العديدة التي قدمت في نطاق هذا المحور ، باعتبارها اغلاطا رسمية ، تمثل مادة هامة جدا يمكن ان تحلل تحليلا لغويا مفيدا ويمكن أن تثير مسألة صلاحية الخط العربي التقليدي لرسم لغة ادارية شديدة التأثر بالعامية خاصه وكذلك بالفرنسية . وان الاضطراب الموجود في ذلك ليدل بوضوح على الحيرة والتردد وعلى انا ازاء لغة مازالت تبحث عن نفسها حتى في الرسم . كما أن عددا كبيرا من هذه الامثلة لا يخضع للرسم وانما يرجع الى اسباب صوتية محضة ، تستحق تحليلا وتعليلا مستقلين ولاسيما ما يتعلق منها بالحركات التي لا شيء يدل عليها في وثائق غير مشكولة مما يجعل درسها علميا غير ممكن .

ويتعلق المحور الثاني (16 ص) **بالناحية الصرفية** . الا انه ليس دراسة صرفية ، وانما هو شبه معجم يضم عددا كبيرا من الصيغ والكلمات الواردة في الوثائق مبوبة حسب ابنيتها الصرفية وتضم مختلف مشتقات المجرد حسب الترتيب الالفبائي ، متبوعة بمشتقات الافعال المزيدة ولاسيما اسماء الفاعل والمفعول والمصادر . ولانجد ذكرا للأسباب الداعية الى طرح الافعال قصدا والاقتصار على المشتقات التي تتفاوت في قيمتها الاسمية .

وينتهي هذا المحور ببعض الملاحظات المتعلقة بالمحاكاة اللغوية ، مدعمة بامثلة من قانون الطرقات ، والترادف ، المتمثل في اعطاء الكلمة الاجنبية مقابلين او اكثر في العربية ، وهذه الظاهرة في حاجة الى تحليل ، واخيرا الشرح الذي هو حل السهولة عندما لا يتوفر لفظ مقابل للمصطلح الاجنبي .

اما المحور الثالث (6 ص) فيتعلق **بالنحو** وتدور الامثلة المقدمة حول الاغلاط الاعرابية من ناحية والجملة من ناحية اخرى بتركيز امثلة الجمل على المحاكاة والقوالب المبتذلة . وكل هذه الامثلة في حاجة الى تبويب وتحليل .

ويتعلق المحور الرابع (صفحة واحدة) **بالدخيل** . ولانجد درسا للالفاظ الدخيلة وانما نجد ملاحظات حول استعمال بعض المصطلحات الطبية المتعلقة بالفحوص والتقارير .

اما خامس هذه المحاور وآخرها (صفحة ونصف) فيتعلق **بالخصائص اللهجية** في تقارير الشرطة ولانجد هنا ايضا بحثا في تأثير اللهجة التونسية في عربية الشرطة في مستوى الالفاظ والابنية والتراكيب والتعابير ، وهو ميدان زاخر ثري ، وانما نجد خاصة اثارة لمشكل هام يتمثل في تردد الشرطة بين تسجيل تصريحات الناس بلغتهم التونسية وبين ترجمتها الى العربية وما ينتج عن ذلك من تأويل وتحريف قد يكون له تأثير في الاحكام الصادرة . وحتى عندما تسجل التصريحات بأمانة فان الرسم العربي الذي جعل للغة مختلفة ، لايؤديها بكامل الامانة ايضا .

وفي الخاتمة لاحظ الكاتب ان « لغة الحرس » تمثل تداخلا بين الفصحى والعامية . واستنتج من هذا وجود ثلاثة مستويات من العربية « الفصحى » - عربية الادب وعربية الصحافة وعربية الادارة المتأثرة بالصحافة ، وقد اعتبر الكاتب لغة الادارة حلا وسطا بين الفصحى والعامية وصفه بأنه « لغة ثالثة » تمثل العربية « الوسطى » الشائعة .

ونحن لا نوافق الكاتب على ذلك لان لغة الادارة لا تمثل الا مستوى فنيا لا يمكن ان يكون شائعا او ان يتخذ نموذجا للغة عصرية ، خلافا للغة الصحافة ذات الاثر العميق في تطوير اللغة لما لها من انتشار .

وكنا نود ان تقع الاشارة في الخاتمة الى جوهر المشكل وهو التعريب ، فما هي حدود هذه التجربة في التعريب الاداري ، وما هي قيمتها الذاتية ؟ ما هي ايضا فوائدها ومضارها أن وجدت ؟ هل المنهاج الذي أتبع في حاجة ألى المواصلة أم الى التغيير او التنقيح والتعديل ؟ والى اي حد يمكن لهذه التجربة ان تكون نموذجا لغيرها في سائر الادارات ؟

(2) a) Ecriture, l'orthographe,
b) transcription.

ان صعوبة تقييم هذه التجربة علميا بالاجابة عن مختلف هذه الاسئلة التي تخامر ذهن قارىء البحث عند الانتهاء منه ، ترجع الى مالمح اليه الكاتب نفسه (ص 72) من ان لغة الحرس ، بما فيها من مستويات وتداخل بين الفصحى والعامية في حاجة الى تحديد وتدقيق وهو مايجعل قيمة هذا البحث تتمثل في مادته الغزيرة المتنوعة وفي محاولة تبويبها . فهذه المادة الثرية جديرة بان تكون موضوع بحث لغوي يحلل كنه هذه اللغة ويحدد ابعادها . وان لنا في الختام على الكاتب بعض المآخذ الطفيفة المتعلقة بهيكل البحث فنحن نلاحظ من خلال اقسام البحث ومحاوره تفاوتا كبيرا بينها لا تبرره اهمية المحاور لعل بعض ذلك يرجع الى ان الكاتب فضل الاختيار على الاستيعاب فاهتم ببعض النواحي اكثر من البعض الآخر ، الا انه افرط في تحليل الاختيارات التي هي نوع من التقديم اذ استغرقت ربع البحث . ثم ان اهمية الفقرات لا تبين احيانا بوضوح اضطراب العناوين وطريقة ترقيمها كما يظهر ذلك ص 31 (حيث « اولا » بدون « ثانيا ») و 36 و 37 (حيث تتداخل الحروف والارقام) ، وكذلك بين ص 41 و 44 . وقد تكون رداءة الطباعة مسؤولة عن بعض ذلك . ولئن كان القارىء يتعثر احيانا ، فان ذلك لا ينقص كثيرا من الفائدة التي تحصل له وهو يتابع تفكير الكاتب ويتامل عديد الامثلة التي يعرضها عليه .

اما الملحق الواقع في 22 صفحة والذي يضم تقريبا عشرين وثيقة مصورة فانه يبدو كالزائد او الخالي من الفائدة لا فتقاره الى تعليق او تقديم يبين الغاية منه أو اساس الاختيار ولاسيما ان بعض الوثائق لا يكاد يقرأ . ولعله كان من المفيد ان تقع الاحالة عليها اثناء المقدمة التاريخية فتكون مرجعا يدعم البحث . الا انها رغم ذلك تدل على ضخامة المجهود الذي بذله الكاتب لاستقرائها .

تحليل البحث الثاني :

يعتمد هذا البحث المتعلق بلغة تلامذة الثانوي ، تحقيقا اجري في اواسط سنة 1968 بثلاثة معاهد ثانوية بالعاصمة ، اثنان للفتيات وواحد للفتيان . وقد تم استجواب مائة تلميذ (68 فتاة و 32 فتى) من السنتين الخامسة والسادسة آداب عصرية وعلوم من شعبة « ب » ، وهي اهم الشعب كما انها تضم التلامذة الذين تساوي قوتهم في اللغتين العربية والفرنسية مبدئيا وان كان جانب الفرنسية فيها اوفر بكثير . فهي اذا شعبة الازدواجية اللغوية المثلى (خلافا لشعبة « ء » العربية و « ج » الفرنسية) . وينقسم البحث الى ثلاثة اقسام كبرى يمكن ارجاعها الى المحاور الاربعة التالية :

1 ـ اللغة التي يستعملها التلامذة في **الوسط العائلي** (12 ص) : في مستوى القول ، اي الحديث ، يستعمل اغلب التلامذة اللهجة التونسية الا بالنسبة لمن يعيشون في وسط مثقف ، فانه يغلب عند ذلك الخلط بين اللغتين . غير انه خلط لا يشوه الهياكل النحوية الخاصة باللغة التونسية حتى نعتبر هذا الخلط « لغة مزيجا » من نوع « السبير » .

الا انه من الغريب ان ثلث التلامذة يؤكدون انهم يستعملون الفرنسية عندما يكونون في حالة غضب او حالة اخرى من حالات الانفعال . ونحن نعتقد ان في هذا التأكيد مبالغة ترجع الى ظن التلامذة في هذا المستوى : انهم يتكلمون الفرنسية حين يستعملون بعض الكلمات في لغتهم اليومية . واللجوء الى كلام اجنبي في حالات البذاءة وما يتصل بها ، يرجع في ما يبدو لنا الى ظاهرة الكناية والتورية لغاية التلطيف وبدافع الاحتشام

اللاشعوري . فالكلام الاجنبي ليس له نفس الشحنة العاطفية التي تكون للغة الانسان الاولى . وهذه ظاهرة طريفة يمكن ان تدرس من حيث علم النفس وعلم اللغة .

ــ اما فى مستوى المكتوب ، اي التراسل مع افراد الاسرة ، فان الاجوبة تدل على انه اذا توفر الاختيار ، يميل التلامذة الى استعمال الفرنسية . وهذه الظاهرة ليست هي السبب فى ضعف نسبة الذين يراسلون اسرهم كما يبدو من استنتاج البحث وانما يرجع ولاشك الى الظروف الخاصة التي لم تقع الاشارة اليها ايضا مطلقا ، فقد كان من الواجب النظر فى نسبة من لا يعيشون وسط اسرهم لتبرير الحاجة الى المراسلة .

وقد ركزت خاتمة هذا القسم على ابراز نزعة التلامذة الى تفضيل الفرنسية ولاسيما لدى الفتيات . ونحن نرى ان هذه الظاهرة ترجع الى عاملين جوهريين :

ــ يتعلق الاول بنزعة عامة ، تتمثل فى الميل الطبيعي الى استعمال لغة هي فى نفس الوقت لغة دراسة ولغة عمل بالاضافة الى انها لغة ثقافة . فلا يمكن ان يعاب على الشباب التونسي استعمال الفرنسية فى الحديث لان السياسة التربوية قد منحت هذه اللغة اهمية تفوق اهمية اللغة القومية اضعافا وهو ما جعل التونسي يعيش فى جو تطغى عليه الفرنسية من كل جانب ولا يمكن ان يسلم من تاثير ذلك الجو .

ــ اما العامل الثاني المتعلق ببروز هذه النزعة بصفة اقوى لدى الفتيات ، فانه يتمثل فى تعلق الفتيات عامة بكل ما هو عصري مميز ، والفرنسية مظهر من مظاهر العصرية فى مجتمع كالمجتمع التونسي .

2 ــ اللغة المستعملة فى الوسط المدرسي (23 ص) .

ان الظروف المدرسية لما يساعد على استفحال الازدواجية . كانت العربية تفوق الفرنسية فى برامج السنوات الثلاث الاولى من التعليم الابتدائي فان الفرنسية تاخذ فى التفوق ابتداء من السنة الرابعة ، ويتواصل ذلك تصاعديا فى الثانوي والعالي حيث يصبح البون شاسعا والهوة عميقة .

ونظرا لندرة قدرة التلاميذ على التعبير عن افكارهم فى كلتا اللغتين بنفس المقدرة فان اغلبهم يستعين باحدى اللغتين على فهم الدروس الملقاة بالاخرى . ويتبين من الاحصاء ان نسبة الذين يستعينون بالفرنسية لفهم درس عربي تساوي ضعف نسبة الذين يستعينون بالعربية لفهم درس فرنسي . ونجد نفس النسبة لدى الذين يجدون صعوبة فى مستوى فهم الالفاظ وهو تقريبا خمسون فى المئة من المستجوبين : ويدل على ضعف فادح فى رصيدهم اللغوي الادبي وهو ما يلجئهم الى الاستعانة بالفرنسية والعامية . ونحن نرى ان ذلك يرجع الى ان جل المفردات التي تعلموها ليست مما يحتاجون اليه فى الحياة العملية او للتعبير عن افكارهم العصرية . ويرجع هذا ولاشك الى خلل فى الاختيارات الادبية وانتقاء النصوص الملائمة الى جانب عوامل اخرى اكثر تشعبا تفسر انعدام الحافز . وينتج عن كل ذلك سوء فهم للدروس ، وعجز عن التعبير فى القول والمكتوب يزيده التمزق بين الفصحى والعامية استفحالا .

اما فى حديث التلاميذ فيما بينهم خلال الدروس من ناحية ومع الادارة من ناحية اخرى ، فان الخليط اللغوي يسود . وانه لجدير بان يدرس من حيث تركيب الجمل . الا ان الفرنسية تتفوق هنا ايضا لاسباب لغوية ونفسية : فالفصحى لغة كتابة ، والعامية لغة الشعب والالفة ، بالاضافة الى انها قد تكشف عن خبايا الشخص فتدل على نسبته

الجغرافية والاجتماعية . وهكذا فان العامية تكسر الحدود القائمة بين التلميذ والمسؤول وتبدد الهالة التي يحيط بها المسؤولون انفسهم . فليس « اسلم اذن من الفرنسية » ، والحال هذه لانها « لغة الحياد » . وينتج عن كل هذه الاعتبارات أن ثلاثة ارباع التلاميذ يعتبرون الفرنسية اجدى من العربية واكثر ضرورة لتكوينهم الفكري والفني تكوينا عصريا . وهكذا نرى ان المدرسة وسط ملائم جدا لانتشار الازدواجية .

3 — في **مستوى الاصدقاء** (8 ص.) نجد تقريبا نفس النسبة السابقة . الا انه من الهام أن نلاحظ ان اكثر من ثمانين في المائة في هؤلاء التلامذة يعترفون بانهم يعبرون عن عواطفهم بالفرنسية في الكتابة — وان تساوت النسبة بين العامية والفرنسية في الحديث — وتقول فتاة من السنة الخامسة في ذلك « اني استطيع ان اقول كل شيء بالفرنسية **بدون احتشام** واشعر انني **اكثرحُرية** » . (3) .

4 — اما المحور الاخير (15 ص.) فيتعلق **بالاختيارات اللغوية الذاتية** ومواقف التلامذة ثقافيا . ويستنتج من الاجوبة أن ثلاثة ارباع التلاميذ يطالعون الجرائد الفرنسية وان نسبة ارفع تطالع الكتب الفرنسية . وبعض هؤلاء يصف العربية بانها لغةميتة . ثم ان ثلثي التلامذة يفضلون كتابة مذكراتهم وآثارهم بالفرنسية ان شعروا يوما بالقدرة على ذلك . ولايرى الا العشر أن العربية صالحة لكل ميدان .

ويظهر من مختلف الاجوبة ان التلاميذ يشعرون بضيق وقلق في المستوى اللغوي يرجع الى احساسهم بالضعف في كلتا اللغتين نسبيا . فالازدواجية اذا عممت دون مراعاةاختلاف المستويات الذهنية واقيمت على تعادل اللغتين ولو نظريا فانها تسيء اكثر مما تفيد وتؤدي في اغلب الاحيان الى الحصر والرتج والاضطراب والتذبذب ، وكل هذا يفسر تردد التلامذة في تحديد الثقافة التي ينتمون اليها ، فاكثر من الخمس امسكوا عن الاجابة ، بينما الثلث ذكر انه ينتمي الى الثقافة الفرنسية .

ولئن كانت نتائج هذا البحث غير قابلة للتعميم نظرا لقلة المستجوبين وانعدام تنوعهم اجتماعيا وجغرافيا ، فانها تعطي صورة صحيحة في خطوطها الكبرى عن واقع صنف من الشباب التونسي .فهذا الشباب لا يعارض الازدواجية مبدئيا ، لانه مقسم بين شعوره القومي تجاه العربية ورغبته في استعمال اداة لغوية طيعة عصرية هي الفرنسية التي لم يعدالتونسي يشعر ازاءها بمركب النقص المميز للمستعمر . لذلك يعبر التونسي عن أعجابه بالفرنسية بدون تحفظ لان عهد الاستعمار قد ولى ولم تعد اللغة نتيجة لذلك مطلبا قوميا ووسيلة من وسائل مقاومة المستعمر .

وقد ركز البحث في الخاتمة (4 ص) على الثنائية المتمثلة في الفصحى والعامية والتي تزيد مشكل الازدواجية تعقيدا ولاسيما ان الفارق بين الفصحى والعامية كبير يحتاج الى دراسة علمية تضبطه حتى لاتكون الاحكام ملقاة جزافا . وقد ادى هذا الموضوع الى شيء من الاسهاب في الحديث عن الموضوع الثقافي التونسي .

تحليـــل البحث الثـــالث :

اجري هذا البحث لمعرفة المشاكل التي تعترض الطلبة في المستوى اللغوي والطرق التي يعالجونها بها والمواقف النظرية والعملية التي يتخذونها ازءها وذلك بفضل استجواب قدم باللغتين العربية والفرنسية ، وينقسم الى قسمين كبيرين جعلا في البحث ثلاثة دونما مبرر ظاهر .

(3) من البديهي ان التربية التي تعتمد الكبت بانواعه تؤثر حتما في اللغة فاذا الكلمات العاطفية تصبح فيها ثقيلة على اللسان لذلك يلجأ المتكلم الى لغة أجنبية تبدو له الطف .

اولا — ظروف الطلبة اجتماعيا وثقافيا :

وهو قسم في الواقع تمهيدي ، يواصل المقدمة التي تحدد الموضوع وتضبط المنهجية المتبعة في البحث (3 ص) .

لم يذكر الكاتب عدد الذين استجوبهم ولا توزعهم على الكليات وهو سهومخل كما ان الجدول الاول الذي يضبط اللغات التي يستعملها الطلبة ودرجة اتقانهم لها بقي فيه الركن الخاص بهذه اللغات فارغا نتيجة خلل مطبعي ولاشك ، مما يجعل هذا الجدول الهام عديم الفائدة وحده . وقد وقع بعد ذلك استعراض مختلف اللغات المستعملة في الدراسة حسب مختلف الكليات المدروسة وهي على التوالي مدرسة ترشيح الاساتذة المساعدين وكليات الآداب والشريعة والحقوق والعلوم ، وكذلك لغة مهنة المستقبل .

ثم وقع الانتقال الى « **المواقف** » تجاه كل صنف من اللغات المستعملة وذلك بابداء الراي في المستوى الفردي وفي المستوى القومي ، فعبر الطلبة عما يفضلون من اللغات (الفرنسية والفصحى والعامية والوسطى) وعما يعتبرونه منها أصلح في الحياة فترددوا في التفضيل لوجود عدة اعتبارات تتجاذ بهم ، فالتفتح على العالم العصري يدفعهم الى الفرنسية ، والتمسك بالاصول يشدهم الى الفصحى ، واعتبار الواقع القومي يفرض العامية ، والانتماء الى الفكر والثقافة يميل بهم الى عربية وسطى .

لكن اعتبار الفائدة العاجلة في الحياة يغلب آخر الامر الفرنسية بنسبة تفوق النصف وتليها العربية الوسطى بنسبة الثلث وتتأخر الفصحى عن العامية طبقا لهذا الاعتبار .

اما في المستوى القومي فان الوسطى تصبح الاولى وتليها الفصحى ثم الفرنسية والعامية . فالطلبة يشعرون ان جعل العامية لغة قومية يحتاج الى جهد كبير ووقت يضيع في جعل هذه اللغة الشعبية لغة ثقافية .

اما موقف الطلبة من الازدواجية والتعريب فهو جدير بالاهتمام وان دل احيانا على سوء فهم لجوهر القضية : فثلاثة ارباع يفضلون بقاء الازدواجية عموما مما يدل على انهم لا يفرقون بين انواع الازدواجية ولا يشعرون بان الازدواجية السليمة هي التي تكون تفتحا واثراء للغة القومية لا التي تحل فيها لغة اجنبية محل لغة قومية . أما في مستوى التعليم فان النصف يحبذون بقاء الازدواجية والنصف الآخر يشعر بما في ذلك من ضياع للوقت الذي يذهب في محاولة امتلاك لغتين فكثيرا مايؤدي ذلك الى العجز في كلتيهما . الا ان جل الطلبة يفضلون تعريبا جزئيا في المواد غير العلمية وترك العلوم بالفرنسية لفقد ان العربية ماكان لها من دقة ولافتقارها الى المصطلحات الحديثة التي تزيد كل يوم بسرعة تفوق سرعة تعريبها ، لان دور العرب في ذلك دور مستهلك لا مشارك في الانتاج ، على ان المشكل في نظرهم ليس لغويا بل هو حضاري فمثلما كانت العربية لغة علم يوم كان العلم عربيا فان هذه اللغة لن تكون لغة علم الا عندما يشارك العرب في الحركة العلمية خلقا وابتكارا . وقد يبدو من الغريب ان نسبة الطلبة الذين ينكرون على العربية الفصحى القدرة المطلقة على التعبير عن الواقع الادبي نفسه تفوق لدى طلبة الآداب نسبة طلبة العلوم ، وما ذلك الا لان طلبة الآداب العربية يعرفون اكثر من غيرهم حدود الفصحى في التعبير عن الواقع اليومي العصري وهو ما يدفع بعض الادباء الى استعمال مستويات لغوية اخرى تصل احيانا الى العامية . على ان الطلبة يشعرون — اذا مادعت الحاجة يوما الى استعمال العربية الفصحى — بضرورة تبسيط

هذه اللغة وتنقيحها ولاسيما في مستوى نحوها ورسمها بالشكل وضرورة الحد من تنوع الحروف رسما وهو ما يذكر بمقترحات السيد الأخضر المغربي في هذا الصدد. ولم ينتبه الى خطر ذلك الا عشر الطلبة الذين شعروا بان كل اصلاح جذري للخط يقود الى فصم الروابط معالماضي ويجعل التراث الضخم القديم في حاجة الى نشر جديد يتطلب من الوقت والتكاليف والجهود ما يفل العزائم.

وقد وقع تخليص نتائج هذا القسم الكبير الاول المتعلق بآراء الطلبة في المشاكل اللغوية (ص 190 ـ 1) قبل الانتقال الى تحليل القسم الكبير الثاني المتعلق بالسلوك اللغوي الذي يصور الواقع بصدق اكثر ويكون من المفيد ان يقارن بالآراء.

وقد وقع الاعتماد في هذا القسم ، جانب الاستجواب ، على تسجيل بعض المحاورات التي جرت بين بعض الطلبة في موضوع اللغة.

وقد ركز هذا القسم الثاني على اربعة محاور تتعلق باللغة التي يستعملها الطلبة فيما بينهم ؛ ومع اساتذتهم ومع الادارة ومع افراد الاسرة.

1 ـ تختلف لغة الطلبة فيما بينهم باختلاف الاوساط :

ـ ففي الجامعة ـ بما فيها القسم ـ يغلب استعمال لغة الدرس واضخم نسبة للفرنسية ويليها الخليط العربي الفرنسي الذي تأخذ نسبته في الارتفاع كلما ابتعد الطلبة عن جو القسم ، الى ان يصبح في المرتبة الاولى اذا ما انتقلنا من مواضيع الدراسة الى مواضيع الساعة ولاسيما خارج الجامعة . وهذا الخليط يعتمد العامية اكثر مما يعتمد الفرنسية . وان تحليل هذا الخليط لغويا لا يخلو من طرافة وفائدة في المستويين النفسي واللغوي . فالتحليل العلمي الدقيق لهذه الظاهرة يمكننا من ان نعرف متى ينتقل المتكلم من لغة الى اخرى ولماذا . وقد حاول الكاتب ان يحلل بايجاز بعض النماذج من ذلك (ص 199) . ويمكننا ان نستنتج بصفة عامة ان نزعة الخلط ترجع الى نزعة المجهود الادنى ، فالخلط فرار من الصعوبة والبحث ، اذ يستعمل المتكلم اول لفظ يرد على لسانه بقطع النظر عن لغته وذلك لوثوقه من فهم السامع . لكنه عندما يجد نفسه في ظرف يحتم عليه استعمال مستوى لغوي واحد ، فانه يتعثر ويصبح كلامه ابطأ ومجهوده اكبر ، ولو تكرر الامر لا صبح الكلام بلغة واحدة دون خلط امرا يسيرا . لذا فمن المبالغة في نظرنا اعتبار الخلط خطر ، لانه مرتبط بظروف معينة ويسهل ازالته بتغيير تلك الظروف . **الا ان هذه الظروف لا تتغير الا بتعريب التعليم والادارة.**

2 ـ ونظرا الى ان حظ الفرنسية في الدراسة أوفر من حظ العربية فان الفرنسية تطغى كذلك في حديث الطلبة مع الاساتذة التونسيين لا في القسم فحسب ولكن حتى في الراحة وكذلك خارج الجامعة وان انخفضت نسبتها قليلا في هذه الحالة الأخيرة لصالح الخليط (4) والعامية.

3 ـ ولا يختلف الأمر كثيرا مع الادارة فنظرا الى انها غير معربة ، فان الفرنسية متفوقة حتى في حديث الطلبة مع المسؤولين الاداريين ، مع الملاحظة ان نسبة الفرنسية تنخفض تدريجيا كلما نزلنا في سلم المسؤوليات الادارية ، الى ان تتغلب العامية عليها مع العمال.

(4) نقتصر على لفظ « الخليط » للدلالة على الخليط العربي الفرنسي.

4 ــ اما فى نطاق الاسرة فان العامية تعود الى المرتبة الاولى بلامنازع متبوعة من بعيد بالخليط ثم بالفرنسية ويتبين من خلال هذا القسم الثاني الكبير ان للطلبة اكثر من لغة . وتستعمل كل واحدة وحدها حينا وممزوجة بغيرها حينا آخر دون ان يكون للطالب الخيار فى ذلك عادة وانما يخضع لحكم الظروف كالمكان والموضوع والسامع وهكذا فان استعمال الفرنسية والعربية الفصحى مقيد بينما استمال العامية والخليط مطلق تلقائى فى الغالب .

ويستنتج من خاتمة البحث ان الطلبة يعيشون وضعا لغويا حادا هم به شاعرون . وتتمثل حدة هذا الوضع فى انه لا توجد لديهم لغة واحدة قادرة على التعبير عن جميع تجاربها لجميع مخاطبيهم فى جميع الاوساط والمستويات ، مما يجعلهم يشعرون بنوع من التمزق وعدم الرضى والا طمئنان : فالعربية الفصحى اقلها استعمالا رغم قداستها ورغم انها اللغة الرسمية وذلك لانها ابعدها عن الحياة ، مما يجعلها لغة اعتزاز لا يتقنها الا انفار . والفرنسية انسب لكل المستويات لكن جل الشعب لا يفهمها فهي لغة اجنبية يرفض الشعور القومي احلالها محل اللغة القومية . اما العامية فانها قد لا تصلح الا للشؤون اليومية لانها ليست بعد لغة ثقافة .

ونظرا لتكامل هذه اللغات لدى الطالب التونسي ، فمن الطبيعي ان يلجا الى الخلط بينها فى شيء من الاستسلام لوضع ازدواجي غير طبيعي ولحل السهولة امام مشكل معقد . ولكن يبدو ان نزعة المزج اللغوي ، رغم استفحالها ، قد اخذت تزاحمها نزعة اخرى تتمثل فى استعمال لغة عربية وسطى مزيج من الفصحى والعامية . تظهر عندما يتحدث المثقفون فى مواضيع جدية وهي شبيهة بلغة رجال السياسة حين يخطبون وهي لغة لم تدرس بعد علميا ، الا انه يبدو لنا انها تخضع اجمالا للخصائص الآتية :

نحوها هو فى الغالب نحو العامية وابرز ما فيه اسقاط الاعراب . وصرفها مزيج من الابنية الصرفية العامية والعربية القديمة . وهذه الخاصية احوجها الى الضبط العلمي لصعوبة الحكم فيها بدون احصاء تواتري . اما معجمها فهو مزيج طريف يملأ فيه المتكلم كل شغور باحسن ما تجود به كلتا اللغتين دون استنكاف من الدخيل عند الحاجة .

وقد ختم البحث برسم مثالي يجعل من الفصحى والعامية والفرنسية قاعدة مثلث ، ينتج فيه عن التقاء الفصحى بالعامية ، لغة عربية وسطى تقابل الخليط الناتج عن العامية والفرنسية . وهذان المستويان يتطوران ليلتقيا فى « **لغة الغد** التي مازالت فى طور المخاض وهي ما يمكن تسميته باللغة العربية العصرية » ، وهي قمة هذا الرسم وغايته . ولكننا لا نرى اين يضع الكاتب لغة الصحافة مثلا ؟ فهي بدون ريب مظهر من مظاهر العربية العصرية رغم انها اقرب الى الفصحى نحوا وصرفا ولا تبتعد عنها الا فى بعض التراكيب وفى جانب من معجمها .

على اننا نود فى خاتمة هذا العرض التنبيه الى امرين يبدو ان لنا من قبيل الخلل فى هيكل البحث : اولهما التفريق بين القسمين الاولين من البحث بينما يمثلان قسمين من محور واحد يمكن ان يقابل هيكليا المحور الاخير . وقد شعر الكاتب نفسه بذلك عندما جعل لهما خاتمة واحدة (ص 190) .

ثانيهما عدم ذكر اللغة الخليط فى القسم الاول من البحث لمعرفة موقف الطلبة منها ولاسيما ان مايقابلها وهي اللغة العربية « الوسطى » قد ذكرت مما يضفي على البحث شيئا من التوجيه غير المقصود . لكن هذا البحث يمتاز رغم ذلك بميزتين كبرتين : الدقة فى التزام الموضوع واحكام الربط بين مختلف اجزائه مهما دقت .

خاتمة العرض

يتبين لنا من خلال هذا العرض ان لهذه النشرية مكانة خاصة نظرا الى ان ظهورها صادف كما اسلفنا عودة قضية التعريب فى تونس الى الظهور بشكل اشد حدة من ذي قبل . ثم انها ـ اذ تصور بعض المظاهر من الواقع اللغوي التونسي وتحلل ظواهر هامة منه ـ تثير عديدا من المشاكل التي لا تقل تعقدا عن هذا الوضع ذاته نظرا لما يطغي عليه من تصارع بين اللغتين العربية والفرنسية وما بينهما من مستويات تتقابل حينا وتلتقي لتمتزج حينا آخر . وان هذا الصراع ليجسم احسن تجسيم التمزق الذي تعيشه البلاد باكملها فى جميع الميادين ، فى مرحلة انتقالية دقيقة تحاول فيها المحافظة على توازن صعب بقدر ما هو ثري مفيد . هو توازن بين **الاصالة** (5) وما تقوم عليه من ارث حضاري عربي اسلامي لغة وثقافة ، وعقائد وتقاليد ، وبين **العصرية** (5) وما تفرضه من تفتح على العالم الغربي المتمدن وتقبل لثقافته وتقنيته وعلومه واساليب تفكيره وما تتبع ذلك من قيم روحية ومادية كثيرا ما تصطدم بالقيم التقليدية الموروثة هذا التوازن يفرضه وضع تونس التاريخي والجغرافي . ويبدو لنا ان الخوف من فقدان هذا التوازن هو الذي حمل المسؤولين على المحافظة على الازدواجية اللغوية في التعليم والادارة بشكل لا يختلف كثيرا عما كان عليه الوضع قبيل الاستقلال . الا ان ظروفا متعددة الجوانب جعلت هذا التوازن ـ الذي لم يكتمل ابدا ـ يختل بموضوع تدريجي ، عوض ان يتواصل حتى يبلغ النضج والاكتمال وان هذه البحوث التي حاولنا تحليلها لتدل بوضوح على ان الاعتدال والتوازن مفقودان وهو امر يدعونا الى التفكير فى الوضع اللغوي الراهن بكل جد ورصانه لما للغة من ابعاد نفسية واجتماعية وثقافية تجعلها التعبير الحضاري الأمثل .

الطيب البكوش
دار المعلمين العليا الجامعة التونسية

(5) هذان المفهومان لا يمثلان هنا طرفي نقيض وانما تربطهما علاقة تلازم تجعلهما ملتحمين التحاما حركيا يجعل الواحد منهما لا معنى له بدون الآخر .

عَبد الله بن المقفع

زعيم التعريب في عَصره

عبد الحميد حاجيات
كليـة الآداب
جامعـة الجزائر

لقد اصبح موضوع التعريب يشغل بال الجميع فى سائر الاقطار العربية· ويرجع ذلك ، قبل كل شىء ، الى الجهود الجبارة التى تبذل فيها على مستوى السلطات المعنيـــة ومختلف المؤسسات العلمية واجهزة الاعلام وغير ذلك· وتهدف هذه الجهود الى احلال اللغة العربية المنزلة اللائقـة بها فى الحضارة العصرية ، وجعلها قادرة عــلى مواكبة التطور العلمى والاقتصادى والاجتماعى ، وذلك بانماء رصيد اللغـــة القومية ، ووضـــع المصطلحات للتعبير على المفاهيم الجديدة ، وكل ما اخترعه الانسان فى عصرنا هذا ·

وقد كثر الحديث حول مشـاكل التعريب ، فى وقتنا هذا ، الى حد أن كثيرا من المواطنين ، ممن ليس لهم اطلاع واسع على الحضارة الاسلامية ، أصبحوا يعتقدون أن العــرب لم يواجهوا هذه المشاكل ولم يصطدموا بقضايا التعريب الا أثناء القــرن العشرين ٠

والحقيقة أن هذا النــوع من النشاطات ليس خاصا بلغة من اللغات أو عصر من العصور ، بل يمكن القول بأن التجديد فى المجال اللغوى حركة دائمة ، تزدهر اللغة وتنمو باستمرارها ، وتسقط فى هوة الركود والانحطاط بانقطاعها٠ وقد كان تاريخ العرب مسرحا لحركات قوية من هذا القبيل، امتدت عبر القرون الخالية ، وقطعت باللغة العربية أشواطا بعيدة فى طريق التحول والتطور ؛

وقد رأينا أن نعيد الى الاذهان بعض الحقائق التى تشهد بأهمية حركــة التعريب فى القــرون الثلاثة الاولى للهجرة ، ونجاحها الباهر فى سائر المجالات ، مما كان له أعظم الاثــر فى ازدهار الحضارة الاسلامية٠ وبما أن هذا الموضوع واسع جدا ، وأنه يتعدى الحجم الذى يسمح بــه هذا المقال ، ذهبنا الى الاقتصار على الدور الذى قام به عبد الله بن المقفع فى حركة الترجمة ، والتركيز عليه لاظهار مدى أهميتها ونجاحها ٠

وقبل أن نتناول الحديث عن ابن المقفع ودوره هذا ، يجدر بنا أن نتبــين الخطوط العــريضة للاوضاع الثقافية خــلال القــرن الاول للهجرة وأوائل القرن الثانى ، أى الى عصر ابن المقفع ٠

لقد كانت أول خطوة فى طريق التعريب ناتجة عن اختلاط العرب بمختلف الشعوب اثر حــركة الفتح ، حيث ان العرب وجدوا بفارس والعراق والشــام وغيرها من الاقطار ، ثقافات قديمة ، فتأثــروا بها وأخذوا عنها ماشاؤوا من أنظمة وتقاليد ، وأهم ما نتج عن ذلك تعــريب دواوين الدولة وما يتصل بها من مصطلحات ٠

والجدير بالملاحظة أن القرن الاول الهجــرى لــم يشهد نشاطا ملحوظا فى مجــال استيعاب ثقافات الاقطار المفتوحة ، ونقــل آدابها وعلومها الى العربية٠ والظاهر أن رجــال العلم وجهــوا عنايتهم آنذاك الى نشر الاسلام ، وتفهم أصــول الشريعة من قرآن وحديث ، وايضاح ما غمض من ذلك ، فانحصرت الحياة الفكرية فى تمكين نفوذ الدين الجديد ونصرته على الاديان الاخرى ٠

ووافــق ذلك اقبــال الشعوب المختلفة على الاسلام ، ودخولها فيه أفواجا متتالية ، وانتشار تعاليمه البسيطة وتغلغلها فى سائــر الفئــات والاوساط ، مما يسر ذيوع اللغة العــربية بين الاعاجم والموالى٠ وقد أتقنها بعض هؤلاء ، فنبغ من بينهم كتاب وشعراء وعلماء٠ وأخذت اللغــة تصطبغ بصبغة جديدة من تأثير هؤلاء الموالى ، الذين أعرضوا عن استعمال الغريب الشاذ مــن المفردات ، وعمدوا الى السهل المألوف منها ، كما أخذوا يستسيغون الاطناب فى رسائلهم وخطبهم ٠

غير أن الثقافة العــربية لم تــزل أثناء ذلك منحصرة فى الفنون المألوفة ، من شعر وخطــب وأمثال وقصص ، ولم تتفتح آنذاك لعلوم اليونان والفــرس وآدابهم٠ وكانت الثقافات الفارسية واليونانية والهندية لا تزال تحظى باقبال الاعاجم من أهالى فارس والعراق والشام ومصر ، وان كانت قد دخلت فى مرحلة فتور وانحطاط٠ وظلت بعض المراكز الثقافية القديمة ، فى تلك الاقطار ، تمارس نشاطها العلمى الى العصــر العباسى

الاول ، واشتهرت من بينها الاسكندرية بمصر ، وحران فى شمال الشام ، والرها ونصيبين فى العراق ، وجنديسابور بفارس ٠

وهكذا أصبح العالم الاسلامى الجديد يحتضن ثقافات مختلفة ، تنتمى كل واحدة منها الى شعب عريق فى الحضارة ، وتتميز عن غيرها بما لها من خصائص ٠

وفى تلك الظروف ظهر الى الوجود رجل كان من أشهر عباقرة الادب والفكر ، ألا وهو عبد الله ابن المقفع ٠

* * *

ولد ابن المقفع بفارس ، فى قرية تدعى جور ، وهى فيروز اباد الحالية ، سنة ١٠٦ هـ٠ واسمه الفارسى روزبه بن داذويه٠ أما البيئة التى نشأ فيها فكانت فارسية ، اذ تربى فى احضان الديانة المجوسية ، وتثقف بثقافة أجداده ، واطلع على آثارهم التاريخية والاخلاقية والادبية فحصل على ثروة علمية وافرة ، وأدرك حكمة الهنود عن طريق ما ورد منها باللغة الفارسية ٠

ثم حدث لابيه أن انتقل الى العراق واستقر بالبصرة ، فاخذه معه٠ وكانت البصرة قاعدة هامة للجند العربى ، ومركز اشعاع للثقافة العربية فى العراق ، وعندئذ ، وجد ابن المقفع نفسه فى بيئة جديدة تختلف تماما عن التى عرفها بفارس ، وتمتاز بقيمها الروحية التى جاء بها الاسلام ، وبلغة العرب وآدابهم٠ وكان والده من الموالى المستعربين الذين شغلوا المناصب الادارية ، وتمتعوا بحماية أنصار الدولة الاموية من العرب٠ فكان من الطبيعى أن ينصرف ابن المقفع الى التطلع على الثقافة العربية ، والاجتهاد فى استيعاب لغة العرب والتعرف على شعرهم وخطبهم وقصصهم وكثر تردده على المربد ، قرب البصرة ، حيث كان ملتقى الشعراء والادباء والخطباء ، يفتخر كل بقومه وقبيلته ، وينافس الآخرين فى مجال الفصاحة والبلاغة ٠

وكان ابن المقفع يصبو الى انتهاج الطريق التى سلكها أبوه ، والدخول فى سلك موظفى الدولة ، قد أصبح الكتاب آنذاك يحتلون منزلة سامية لدى الامراء والولاة والعمال ، اذ كانوا يلعبون دورا هاما فى المراسلات الرسمية ، بما يظهرونه فى رسائلهم من براعة وفصاحة٠ وقد أدى به طموحه هذا الى توجيه كل ما لديه من جد وعزم نحو اتقان اللغة العربية ، فلم يأل جهدا حتى ملك ناصيتهاوتشبع بفصاحة العرب ، فاكتملت بذلك ثقافته ، بل صار يفوق كثيرا من أبناء عصره ، بحصوله على الثقافتين الفارسية والعربية ، واتساع أفقه الفكرى بما تحمله كل منهما من قيم وآداب وعلوم ٠

وحينئذ انصرف ابن المقفع الى العمل فى دواوين الامراء والولاة ، فعين كاتبا فى كرمان لعمر بن هبيرة ، ثم فى العراق ، لابنه يزيد ، وذلك فى عهد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ٠

ثم اندلعت الثورة العباسية فى خراسان ، فاجتاحت بلاد فارس ، فالعراق ، وقضت على مقاومة عمر بن هبيرة وابنه يزيد ، فانهارت الدولة الاموية ، ودانت الاقطار لبنى العباس ، وقد نتج عن هذا الانقلاب فى الاوضاع السياسية أن قوى شأن الموالى الفرس فى أجهزة الدولة الجديدة ، وانفسح أمامهم المجال للعمل فى دواوينها٠ أما ابن المقفع فاتصل بوالى الاهواز عيسى بن على ،

عم الخليفة العباسي ، فاعجب بمواهبه الادبية ، وغزارة علمه ، وعلوهمته ونبله ، فعينه كاتبا له ، وعهد اليه بتاديب ابناء اخيه اسماعيل ٠

وهنا تبدأ مرحلة حاسمة فى حياة ابن المقفع ، ظهر فيها من انتاجه الادبى ما اثار اعجاب الادباء والكتاب ، فمنهم من أولاه محبة وتقديرا ، ومنهم من ابغضـه غيـرة وحسدا ٠ وفى مقدمـة هذه المرحلة ، هناك حادث بالغ الاهمية ، هو اعتنـاق ابن المقفع للاسلام ، على يد الوالى عيسى بـن علي ٠ فكان اسلامه دليلا على انتمائه الى التيار الفكرى الجديد ، وعلى رغبته فى الاندماج فى الملة الاسلامية اندماجا كليا ، وخدمة حضارتها الفتية الناشئة ٠

وقد وردت أخبار متضاربة عن اسلام ابـن المقفع ، وقضية اتهامه بالزندقة ٠ وقد تكون معظم هذه الاخبار قد اخترعت بعد وفاته ، لتبرير مقتله وصرف الانظار عن الاسباب السياسية وعلى كل ، فمناقشة هذه المزاعم تخرج عن نطاق موضوعنا ، والتعرض اليها قد يبعدنا عن غرضنا وهو ابراز دور ابن المقفع فى حركة التعريب ٠

فعلينا اذن أن نلتفت الى انتاجه الادبى ، وأن نلقى نظرة عابرة الى ما وصـل الينا من ذلك الانتاج ، وخصوصا ما يندرج فى حركة الترجمة ، مكتفين ببيان خصائصه وقيمته ٠

وينحصر انتاج ابن المقفع الادبى فى اتجاهين رئيسيين ، أحدهما سياسى محض ، وهـو ما يتناول الواقع السياسى فى عصره ، ويتمثـل فى « رسالة الصحابة » ، والآخر أدبى وتاريخى واخلاقى ، ويشمل أغلب ما جادت به قريحته ، وهو الذى يهمنا لانه مترجم كله عن الفارسية ٠

فلنضع جانبا « رسالة الصحابة » ولنستعرض هذا الانتاج المترجم ، الذى يشمل مجالات عديدة ، من تاريخ وحكمة وأخلاق وقصـة ٠

فمن كتب التاريخ التى نقلها ابن المقفع ، كتاب « التـاج » فى سيرة كسرى أنو شروان ، وكتاب « خداي نامه » فى سير ملـوك الفرس ، وقـد اعتمـد على هذا التاليف الفردوسى فى نظـم ملحمته الشهيرة « شاهنامه » ٠

ومن كتب الديـن والاخـلاق ، كتاب « الدرة اليتيمة والجوهرة الثمينة » فى أخبار الصالحين ، وكتاب «مزدك » ، وكتاب « آيين نامه » فى عادات الفرس وآدابهم ٠ وقد ضـاعت كل هذه التآليف واندثرت ، ولم تصل الينا الا عناوينها ٠

ومن التآليف التربوية والادبية « الادب الكبير » و « الادب الصغير » ، وهما كتابان فى الحكمـة والاخلاق ، نقل فيهما ابن المقفع الاقوال المأثورة عن الفرس ، فى هذا المجـال ، وقد وردت هذه الاقوال فى غير ترتيب ، فتجد الحكـم الاخلاقية تتخللها أقوال فى السياسة ، وأخرى فى آداب الصداقة ، ومعاملة الناس ، وغير ذلك ٠

غير أن أهـم ما ترجمه ابن المقفـع عن الفارسية ، كتاب « كليلة ودمنة » ، وقد نقلـه الفرس بدورهم عن الهندية ، وأضافوا اليه مقدمات لشرح الظروف التى وقعت فيها ترجمته من الهندية الى الفارسية ، وما يتصل بذلك من استطرادات أخلاقية وأدبية ، وزاد ابن المقفع على تلك المقدمات مقدمة أخرى ضمنها شرح غرض الكتاب ، ومغزاه الاخلاقى العميق ، وارشاد القارىء الى أنجـع سبيل للاستفادة منه ٠

وقد جاء هذا الكتاب فى صورة طريقة ، غير مألوفة لدى العرب آنذاك ، وهى تلقين الحكمـة

للناس ، وخصوصا منهم الملوك والوزراء وسائر رجال السلطة ، عن طريق القصص ، وعلى السنة الحيوانات والطير · وكليلة ودمنة هما اخـوان من بنات آوى ، ورد ذكرهما فى باب الاسد والثور، وفى بـاب الفحص على أمر دمنة ، ثـم أطلق اسمهما على الكتاب أجمع· ويمثل دمنة المحتال الخداع ، وكليلة ، الصديق الوفى المخلص ·

والغرض من هذا الكتاب تهذيب الاخـلاق ، وتزويد القارىء بمختلف النصائح والحكـم ، بغية تثقيفه وتوجيهه نحو سبل النجاح فى الحياة ، والتغلب على ما يعترض طريقه من عقبات وصعاب فالهدف الرئيسى لكتاب « كليلة ودمنة » هو اصلاح المجتمع ، وحث المـرء على التحلى بالاخـلاق الفاضلـة ، واجتناب الرذائل · وهو موسوعة تتضمن تجارب القدماء وأمثالهم وحكمهم ، وردت فى قالب تسلية وترفيه ، وفى أسلوب يمتـاز بسلاسـة العبارة ، ووضوح المعانى ، واجتناب التصنع والتكلف ·

ويظهر من هذه التآليف أنها ترمى ، قبل كـل شىء ، الى تكوين الانسان الكامل ، وذلك بتلقينه الاعتماد على العقل والارادة للتغلب على الاهواء والنزعات النفسية· وقد يكون من أسباب انصراف ابن المقفع الى ترجمتها ، ما أسند اليه من مهمة تربوية وتاديبية· ولا شك ان هذا الانتاج كـان خير ما يقدم لابناء اسماعيل بن على ، من كتب الحكمة والاخلاق والادب ·

* * *

وبعد ، فان ما نقله ابـن المقفع عن اللغـة الفارسية قد أثرى الادب العربى بادخال فنـون جديدة على ما كان معهودا من قبل ، ممـا كان له أثر محمود فى اتساع الافق الثقافى ، وبعث الاجيال التالية الى التطلع على الثقافات القديمة ، والتعرف على آدابها وعلومها ·

ثم ان الترجمة ، فى حد ذاتها ، تتطلب وضع المصطلحات الجديدة ، وانتقاء المفردات القـادرة على تادية المعنى المطلوب · ولا شك أن حـركة الترجمة ، التى ازدهرت فى أواخر القرن الثانى الهجرى وطوال القرن الثالث ، وشملت سـائر الفنون والعلوم ، قد ساهمت فى وضع مصطلحات عديدة ، بأخذهـا عن اللغـات الاخـرى ، أو باستنباطها من أصول عربية ·

فاصبحت اللغة العربية فى عصـر ازدهار الحضارة الاسلامية ، اللغة العلمية ، لا بالنسبة للعالم العربى فحسب ، بل بالنسبة للعالم الاسلامى أجمع ، وحتى بعض شعوب حوض البحر الابيض المتوسط المسيحية ·

أما دور ابن المقفع ضمن حركة الترجمة هذه ، فانه كان عظيما · ويمكننا ان نلمس اهميته باعتبار اسبقية ابن المقفع فى هذا المجال· نعم ، لقد كان ابن المقفع أول من ترجم الى العربية ونقل اليها آثار الثقافات القديمة ، وذلك أن انتاجه ، الذى يرجع الى السنوات العشر الاخيرة مـن حياته ، يقـع بين سنة ١٣٢ هـ ، تاريـخ التحاقه بوالى الاهواز عيسى بن علي ، وسنة ١٤٢ هـ ، تـاريخ وفاته ، أى قبل تخطيط بغداد بثلاث سنين ، أيام أبى جعفر المنصور · واذا اعتبرنا أن الترجمة لم تزدهر الا ابتداء من عهدى الرشيد وابنه المأمون ، وانها كانت قليلة الانتاج فى عهد المنصور ، تكاد تنحصر في علمى الطب والتنجيم ، ثم ان المنصور كان منشغلا ، قبل تخطيط بغداد ، بالتخلص من منافسيه فى الحكم ، أمثال أبى مسلم الخراسانى ،

وعمه عبد الله بن علي ، وزعيـم الشيعة محمد النفس الزكية ، أدركنا أن ما ترجـم بأمر من المنصور كان جله بعد تأسيس بغداد ، وبعد وفاة ابن المقفـع ٠

وبنـاء على هذه الاعتبارات ، يمكن لنا أن نستنتج أن نشاط ابن المقفع ، فى مجال التعريب ، لا يندرج فى اطار حركة أو مدرسة تتمتع بتأييد الخليفة وتشجيعه وتعمل وفق أوامره ورغباته ، كما كان الامر بالنسبة لمعظم ما ترجم بعد ذلك ، وانما كان نشاطا تلقائيا لا يهدف الا خدمة الثقافة والمعـرفة ٠

وقد يكون ما أحرز عليه كتاب « كليلة ودمنة » وغيره مما ترجمه ابن المقفع ، من شهرة عظيمة بين الناس ، أكبـر حافز على اعتنـاء الخلفاء والامراء والوجهاء بالترجمة ، وازدهارها فيما بـعد ٠

ولذا ، فاننا لا نظن اننا نبالغ اذا أسندنا الى عبد الله بن المقفع دور الرائد الطلائعى فى حركة الترجمة والنقل ، وفى حركة التعريب بصفة عامة ، وهذا أجـل ما يحـق الافتخار به فى المجالات الثقـافية ٠

المــــراجــع

1) ابن المقفع : كليلة ودمنة تقديم وتحقيق عبد الوهاب عزام وطه حسين ، القاهرة ، دار المعارف ، 1941.
2) ابن المقفع : الادب الصغير والادب الكبير ورسالة الصحابة ، تقديم وتحقيق يوسف أبو نخلة ، بيروت مكتبة البيان ، 1960 .
3) آثار ابن المقفع ، تقديم وتحقيق عمر ابو النصر ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، 1966 .
4) حنا الفاخوري ، ابن المقفع ، سلسلة نوابغ الفكر العربي رقم 20 ، القاهرة ، دار المعارف ، بدون تــــاريخ .
5) خليل مردم ، ابن المقفع . دمشق ، 1930 .
6) عبد اللطيف حمزة ، ابن المقفع ، القاهرة ، 1941.
7) محمد سليم الجندي ، عبد الله بن المقفع ، دمشق ، 1355 هـ .
8) احمد امين ، ضحى الاسلام ، .الجزء الاول ، القاهرة ، 1938 .
9) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي، الجزء الثالث ، القاهرة ، 1902 .
10) بطرس البستاني ، ادباء العرب في الاعصر العباسية ، بيروت ، مكتبة صادر ، 1958 .
11) احمد الاسكندري وغيره ، المفصل ، الجزء الاول ، مصر ، بدون تاريخ .
12) محمد كرد علي ، امراء البيان ، الجزء الاول ، ص 99 ـ 158 ، القاهرة ، 1937 .
13) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، ص 24 ـ 79 ، القاهرة ، 1936 .
14) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص 44 ـ 52 ، القاهرة ، 1946 .
15) حنا الفاخوري ، تاريخ الادب العربي الطبعة الثالثة ، ص 434 ـ 471 ، حريصا ، 1960
16) عبد الرحمن بدوي ، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، القاهرة ، 1946 .

17) C. Brockelmann, Gerch. der arab. littér. ,I , p. 151.

18) Cl. Huart, Littérature arabe, p. 211-12 et 278-314, Paris, 1902.

19) F. Gabrieli, l'opera di Ibn al-Mugaffa, dans Rivista degli studi orientali, XIII, 1932, p. 197-247.

20) P. Kraus, Zu Ibn al-Mugaffa, dans Rivista degli studi Orientali, XIV, 1934, p. 1-20.

21) G. Richter, über das Kleine Adabluch des Ibn al-Mukaffa, dans Der Islam, XIX, 1931, p. 278-81.

22) D. Sourdel, la biographie d'Ibn al-Mugaffa d'après les sources anciennes, dans Arabica, I, 1954, p. 307-23.

23) P. Charles - Dominique. le système étique d'Ibn al-Mugaffa d'après ses deux épîtres « al-sagir » et « al-kabir 4 dans arabica, XII, 1965, p. 45-66.

24) F. Gabrieli, Ibn al-Mukaffa, dans Encyclopédie de l'Islam (nouvelle), III, p. 907-9.

25) C. Brockelmann, Kalila wa Dimna, dans Encyclopédie de l'Islam, II, p. 737-41.

التعريبُ قديمًا وحَديثا

د. أحمد فؤاد الأهواني

لا اريد ان اتحدث كلاما عاطفيا في هـــذا الموضوع ،وانما أود ان اسجل افكارا علمية ، فنحن نعيش فى عصر العلم ومن المناهج التى لابد ان نتبعها فى بحث هذه القضية ان نرجـــع الى التاريخ ننظر فيه لنستقى منه العبرة ... هذا من جهة ، ثم من جهة أخرى لابد ان ننظر فــى قضية التعريب هذه ما هى ، وما المقصود منها ، فان للتعريب معانى كثيرة ، مفاهيم كثيرة .

نص المحاضرة التى ألقاها المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى بمركز الاعلام العربى ، وكان المرحوم استاذ فلسفة بجامعة الجزائر قبل ان يوفيه الاجل .

وقد نبدأ من أعلى المستويات فى التعريب ٠٠٠ ثم نهبط من هذه المستويات العليا الى المستويات السفلى فى التعريب أو ترتفع من أسفل المستويات ، ثم نصعد مرة أخرى الى أعلى المستويات ، قد نفهم من التعريب انه تعريب التعليم الابتدائى ثم الثانوى ثم الجامعى ، وقد نفهم من التعريب مستوى ثقافيا محضا ، وهذا مختلف عن المستوى الخاص بالتعريب فى التعليم ، وقد يفهم من التعريب انه خاص بتعريب الادارة وقد يفهم من التعريب انه خاص بأعلى مستوياته فى وضع العلوم الحديثة فى تعريب عربى ٠

كل ذلك حق ، وأولئك الذين يقصرون التعريب على ناحية واحدة فقط ، انما يلتفتون الى جانب واحد من هذه القضية ٠

ومن أجل ذلك لا بد ان تنظر الىمسالة التعريب ككل من شتى نواحيها ولم اتطرق الى قضية التعريب الخاص بالتعليم الابتدائى مثلا أو الثانوى أو غير ذلك ٠٠٠ أو تعريب الثقافة العادية لرجل الشارع أو تعريب الادارة فهنا شيء ممكن ان ينفذ اذا استطعنا ان نصل بين حلقات التعريب حلقة حلقة وان نبدأ باعلى المستويات التى سأتحدث عنها عما قريب ٠

ونبدأ أولا بان نربط بين التعريب حديثا والتعريب قديما ، ولن احدثكم عن اشياء معروفة ولكن لضيق الوقت سأتحدث عن نقاط جديدة كل الجده ، فالتعريب قديما كان مختلفا عن قضية التعريب حديثا كل الاختلاف ٠ ففى الوقت الذى ظهر فيه الاسلام ٠ والعروبة والاسلام لا ينفصلان وانا اهنىء شعب الجزائر لانى سمعت هذه النغمة هنا وهى عقيدتى ٠

فمن أقدم العصور والعروبة والاسلام صنوان لا يفترقان ٠٠٠ جاءت من كتاب الله الذى يتلى فى كل مكان ٠٠٠ كتاب خالد على مدى العصور والازمان ٠

نقول ان الاسلام عندما ظهر ، فى جزيرة العرب ، ثم بدأ ينتشر ، فغزا الفرس والروم أولا ، وكان الفرس يتحدثون بلغة فارسية وكان اهل الشام أو ما يسمى بالروم يتحدثون بلغة اخرى ، اما باللغة السريانية أو باللغة اليونانية أو شىء من هذا القبيل ٠٠٠ ثم فى مصر لم يكن اهل البلاد يتكلمون اللغة العربية بطبيعة الحال ، وانما كانت اللغة القبطية المنحدرة من أصل هيرو غليفى ٠

ولا بأس من الاستطراد بعض الشيء فى قضية تعريب الدواوين قديما نقول :

عندما دخل العرب فارس والشام ومصر وأخضعوا تلك البلاد للاسلام منذ عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، أبقوا الدواوين على ما هى عليه ، فان كانت بالفارسية بقيت بالفارسية وان كانت بالرومية بقيت بالرومية ، وظل الحال كذلك حتى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فى أواخر المائة الاولى من الهجرة ، حيث تم نقل الدواوين فى عهده الى العربية ٠

لم يكن للعرب فى مواجهة هذه المشكلة سبيل غير الانتظار هذه الفترة الطويلة من الزمن الى ان تنتشر اللغة العربية على الالسنة ٠

لقد كان المسلمون الاوائل فى شغل شاغل لنشر الاسلام ، وتعليم الدين ، وتحفيظ القرآن، وبخاصة فى البلاد التى لم تكن تدين بدين سماوى ، ويعتنقون النصرانية ٠

كان ذلك قديما فيما يختص بتعريب الدواوين، اما حديثا فان الدواوين كانت معربة ، والاصل فيها كذلك ، ثم جاءت اللغة الفرنسية فشاءت ان تقطع الصلة بين عروبة الدواوين وبين العصر الحاضر ٠٠ ان تعريب الدواوين لا يعدو ان يكون عودا على ما جرى عليه العمل منذ مائة عام ٠

وليس هذا النوع من التعريب معقدا او صعبا، لان اللغة العربية واحدة فى كل مكان ، ونعنى هنا بالعربية الفصحى لا اللهجات المحلية الخاصة بكل قطر عربى ٠٠ ولنا ان نتمثل باقوال البيرونى ، وهو عالم اسلامى هندى ، وصاحب الكتب المشهورة فى الفلك ، فانه يقول ما فحواه اعجابا باللغة العربية : والهجو بالعربية احب الى من المدح بالفارسية ٠ كما قال ايضا ما فحواه : ان العربية لغة عاطفية ما دامت هى لغة الصلاة فى المساجد ، ولغة الخطباء من فوق المنابر يوم الجمعة ٠

وما اريد ان اصل اليه هو ان الاسلام عند ما انتشر فى ارجاء الارض شرقا وغربا على مدى قرن من الزمان حتى عندما جاء الى شمال افريقيا وذهب الى الاندلس لم يكن أهل تلك البلاديتكلمون اللغة العربية ٠ فهذا فارق اساسى بين التعريب قديما ، والتعريب حديثا ، نحن الآن فى البلاد العربية فى الجزائر مثلا ، اهلها لا يزالون يتكلمون اللغة العربية ، فهى لغتهم ونريد ان نعيدها اليهم ولم يكن الحال كذلك فى التعريب قديما ٠

واذا كان هذا هو الفارق بين التعريب للشعوب قديما وحديثًا ، فهناك نقطة يلتقى فيها التعريب بين القديم وبين الحديث ، عند ما ظهر الاسلام ولم يمر قرن من الزمان لم يكن عند العرب علوم ، لان العلوم انما جاءت من فلاسفة اليونانيين ، وقد نقلت هذه الفلسفة ونقلت هذه العلوم واتخذ الخلفاء العباسيون ابتداء من المأمون ، حركة التعريب هذه كانت اقدم من ذلك ، وانما نشأت منظمة عند ما نشأ فى بغداد ، او انشىء فى بغداد بيت يسمى دار الحكمة ، وضع فيها اكابر النقلة ينقلون العلوم المختلفة التى نشأت وكتبت باللغة اليونانية ثم باللغة الهندية وغير ذلك ٠ ونقلت الى اللغة العربية ٠

ان اللغة العربية اتسعت لجميع هذه العلوم ووجد بها جميع هذه المصطلحات ، فلا يمكن ان يقال ان اللغة العربية عاجزة عن ان تساير التطور العلمى ، واذا كانوا فى القديم قد انشأوا بطريقة منظمة بيت الحكمة لكى ينقل هذه العلوم ، فمن الممكن ان نستفيد من الماضى عبرة ننشىء فى الوقت الحاضر بيوتا للحكمة تقوم على نقل العلوم الحديثة السريعة التطور بسرعة سريعة جدا الى اللغة العربية ٠

وقد كان فى قديم الزمان لبلاد المغرب دور فى نقل العلوم لم يكن المشرق وحده فى بغداد هو الذى قام بنقل هذه العلوم ، بل ان المغرب العربى وفى الاندلس وفى صقلية وفى كثير من

الاماكن وجد بها نقلة . وكذلك العلوم المختلفة ، ويقال ويروى ان ملكا من ملوك الاندلس اراد ان ينقل كتابا فى النبات يسمى كتاب الحشائش « لدنفور بدس » وهو باليونانية مزين بالصور ، فطلب وهو فى قرطبة من ملك بيزنطة ان يرسل اليه احدا ممن يعرف اللغة اليونانية لينقل هذا الكتاب الى اللغة العربية • وهذا كتاب فى العلوم، لانه يبحث فى النبات وفى الاعشاب الخاصة بالعلاج •

اذكر هذه الواقعة لأبين ان المغرب العربى كان له دوره فى التعريب ••• لا نريد ان نطيل فيه ، ولكن فى الوقت الحاضر يستطيع ان يقوم بمثل هذا الدور •

كان ذلك هو التعريب قديما ، وكانت تلك هى خيوطه الرئيسية بعد ان نقلت تلك العلوم ثم استفاد منها القدماء وتطوروا بها واصبح هناك علماء من العرب انفسهم ، كما هو معروف من اطباء ومن فلكيين وغير ذلك من علماء وفلاسفة وقفت هذه الحركة وجمدت . فنحن الآن قد شرعنا نترك هذا الدور من الجمود ، ولكن ما نستطيع ان نأخذ به وان نعترف به ، هو ان اللغة العربية قادرة على ان تستوعب الحركة العلمية الموجودة فى الوقت الحاضر كما استطاعت فى القديم ان تفعل ذلك •

فاللغة العربية لغة عالمية ، كانت صالحة للتعبير والحديث بين العامة من الناس ، لانها لغة الثقافة ، وبين طائفة العلماء لانها لغة العلم ، فهى اللغة التى كان يعبر بها من اعلى المستويات الى ادناها . من طبقة العلماء والفقهاء الى طبقة العامة ، ان صح هذا القول ، لان الاسلام فى طبيعته دين مساواة ، لا فرق بين عربى واعجمى الا بالتقوى ، والعلم طريق مفتوح لكل طالب علم ، فقيرا كان ام غنيا •

وكما اتسعت اللغة العربية للعلم والحضارة قديما ، فانها لا شك تصلح حديثا . وجدير بنا ان ننظر فى قضية التعريب قديما كيف تمت فقد نستطيع الاستئناس بما فعله القدماء ، والاستفادة من تجاربهم ، لنحل مشكلة التعريب حديثا •

لقد مرت حركة تعريب العلوم فى الزمن القديم فى مراحل ثلاث ، الاولى مرحلة عفوية غير منظمة بدأت فى القرن الاول للهجرة منذ اختلاط العرب باهل الشعوب التى خضعت للفتح الاسلامى • بل يمكن القول ان هذا النقل بدأ منذ الجاهلية • فقد استقرت الحضارة اليونانية بما فيها من علوم وفلسفة ، وبخاصة علم الطب فى مدينة جند يسابور بايران منذ القرن الثالث بعد الميلاد • واتسعت الحركة العلمية بجند يسابور بعد ان قرر الامبراطور اغلاق المدارس الفلسفية فى اثينا سنة 527 ميلادية ، فهاجر فلاسفتها وعلماؤها الى جند يسابور ، ونقلت هذه العلوم الى اللغة السريانية التى اصبحت لغة العلم ، وكادت ان تشيع بدلا من اللغة اليونانية ، لولا ظهور الاسلام وانتشار اللغة العربية فانتزعت الراية وحملتها بدلا عنها ، وظلت اللغة السريانية الوسيط العلمى حتى القرن الثالث للهجرة •

وقد ألف الكندى فيلسوف العرب رسائل باللغة السريانية للرد على اطباء من النصارى ٠

ولقد ذهب بعض عرب الجاهلية الى جنـــد يسابور يتعلمون الطب منهم الحارث بـن كلـدة ، الذى تعلم هناك ، وعاد الى بلاد العرب ، وكـان معاصرا للرسول عليه الصلاة والسلام بعـــد البعثة ٠ وقد مرض احد المسلمين فى ذلك الحين فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم وســالـه ، فأجاب : «ايت الحارث بن كلدة فانه شخـص يتطبب » ٠

غير ان الحركة المنظمة لم تنشأ فى الاسـلام الا مع الدولة العباسية ٠ ذلك ان المنصـــور العباسى ، مؤسس الدولة ، والذى بنى مدينــة بغداد ، استقدم من جند يسابور جبريل بـــن بختيشوع ، وجعله رئيس اطبائه ٠ ومع استقرار الدولـة العباسيــة انتقلت اسرة بختيشوع الى بغداد ، وأفل نجم جند يسابور ثم انشأ المأمون بيت الحكمة ٠ وقام على حركة النقل من السريانية ومن اليونانية حنين بن اسحاق وتلامذته مـــن بعده ٠ وهنا بدأت الحركة الثانية فى النقل نعنى النقل المنظم ٠ ولكن هذه الحركة لم تكن يسيرة ، ووجد النقلة كثيرا من المشقة فى ترجمة المصطلحات « فعربوها » اى وضعوها كما هى ولكن بحروف عربية ، مثل لفظة موسيقى ، وفلسفة ، وغـيرهما من آلاف المصطلحات التى بقيت كما هى حـــتى الآن بعد اكثر من ألف عام ٠

وقد نقلت الكتب العلمية والفلسفية اكثـر من مرة ، المرة الاولى كان النقل مشوشا ، غامضا ٠ والمرة الثانية ، ويسمى النقل الثانى ، اصلحت الترجمة السابقة ٠ والمرة الثـالثة اصلـحت الترجمتان السابقتان ٠ ومن الطبيعى ان ينظر العالم فى هذه الترجمات ، وان يتأمل فى معنى المصطلح ، وقد يبقيه كما هو باليونانية ، وقد يضع له معنى بالعربية يؤدى ما يقصد منـــه باليونانية ٠

ونضرب بعض الامثلة اليسـيرة لتوضيح مـا سبـــق :

قاطيقورياس : CATEGORIES اصبحت بالعربية المقـــولات

ب) سلجسموس SYLLOGISM اصبحت بالعربية القيـــاس ٠

ج) انتليخيا : ENTELECHIE اصبحت بالعربية كمـال اول ٠

وذلك فى تعريف النفس بان النفس كمال أول لجسم طبيعى

د) شيما ــ او سيمـا ASNEMA واصبحت بالعربية هيئـــة ٠

* * *

استمرت هذه الحركة الثلاثية ما يقرب من قرن ونصف من الزمان الى ان ظهر عند العـرب علماء لا مترجمون من امثال ابن سينا والبيرونى وابن رشد ٠ وقد إبتعد العهد فى القرن الرابع ، ثـم الخامس الهجرى عن الاصل اليونانى إبتعادا تاما ، فكان ابن سينا يجهل اليونانية ، وكذلك ابـن رشد ٠ والف هؤلاء العلماء الكتب المشهـورة فى

شتى الفنون ، كالطب والهندسة ، والفلك وغير ذلك • وكانت اوربا فى غاية التاخر ، فى الوقت الذى كان العالم الاسلامى فى غاية التقدم • عند ما ارادت اوربا ان تنفض عنها غبار التاخر والجمود قامت بنقل الكتب العربية . فنقلت قانون ابن سينا فى الطب ، وكذلك كليات ابن رشد وغيرهما من الكتب ، وظلت هى المراجع التى تدرس فى الجامعات الاوروبية حتى القرن السابع عشر •

فاليوم ، ليس عيبا ان ننقل العلوم عن الغرب ، فهذه دورة التاريخ نأخذ اليوم كما كنا ناخذ قديما وكما اخذت اوروبا عنا •

نقول، ان اللغة العربية كغيرها من اللغات ليست ،ية مقصود، الذاتها وانما اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر والت- بايجاز رموز ، هذه الرموز لها دلالات ، ثم هذه الدلالات تجرى فى سياق معين وفى بنية معينة . فاللغة اذا قرأت فى معجم لا يكون لها معنى ، وانما اذا جرت هذه الألفاظ حديثا بين النا، واستخدمت ، اتخذت من الحديث بها ومن التعامل بها ، ومن استعمالها ومن وجودها فى داخل هذا الاطار وهذه البنية حياة جديدة • ومن اجل ذلك فلا بد اذا شئنا لقضية التعريب ان تنجح النجاح المرجو المرغوب ان تجرى هذه الالفاظ العربية فى داخل المجتمع وان يتعامل بها الناس وان تجرى فى الاصطلاح، وان يستخدمها العلماء والمثقفون فى كتبهم وفى احاديثهم حتى تستطيع ان تستقر هذه الالفاظ وان تتحدد معانيها ، ان تحديد المعانى فى المعاجم لا يمكن ان يؤدى المقصود منه من دلالة بمقدار ما تدل به هذه المعانى عند ما يستخدمها الناس بغرض الى ما بدأنا به فنقول ان قضية التعريب متصلة الحلقات من اعلا الى اسفل ولا بد اذا شئنا لهذه القضية ان تنجح لا فى الجزائر وحدها بل فى جميع انحاء الوطن العربى هو ان تبدأ من اعلا هذه المستويات وهو ان تنقل بواسطة جماعة من ابرز العلماء العلوم الحديثة فى شتى الميادين • وهذا ممكن اولا فى كل وطن عربى وثانيا فى الجزائر نفسها باعتبار اننا نخص بالذكر دولة الجزائر • فاذا كانت البلاد العربية الاخرى تنقل اكثر ما تنقل عن اللغة الانجليزية لان لغة التعليم كانت اللغة الانجليزية وقد رأيت بعض المحدثين ينقلون عن اللغة الروسية فهناك كتاب مثلا اعرفه لانه يتصل بالفلسفة وبتاريخها الفه مستشرق روسى مشهور اسمه كراتشوفسكى تحدث فيه عن تاريخ الجغرافيا عند العرب . نقله بواسطة جامعة الدول العربية احد من يعرفون اللغة الروسية ، اقول ان بلاد الجزائر ممكن ان تسهم فى هذه • ولعلكم ادركتم الآن من اى لغة يستطيع العلماء الجزائريون ان ينقلوا العلوم ، انها من اللغة الفرنسية ، فهم اقدر من غيرهم على النقل من هذه اللغة • وبذلك يمكن ان نضيف حصيلة جديدة الى الوطن العربى يقدمها لنا اهل الجزائر • وأيضا يمكن ما دمنا نتحدث فى هذا المستوى العالى من التعريب فلا يتم التعريب بمجرد نقل العلوم الحديثة فى كتب فقط ، وانما ايضا لا بد من الاتفاق على الالفاظ العربية التى نضعها

للعلوم الحديثة المتطورة ، هذا التطور فى الوقت الحاضر فى معظم البلاد العربية نجد جهـــات متخصصة للاتفاق على تعريب هذه المصطلحات تسمى مجمع اللغة، فيوجد مجمع فى العراق، وآخر فى سوريا ، وثالث فى مصر وهكذا • ولكن يحسن ان ينشأ ايضا فى الجزائر مجمع لوضع المصطلحات الحديثة باللغة العربية • ومن المقطوع به ان هناك اتصالا بين هذا المستوى الرفيع من التعريب فيلتقى شهرا من كل عام وفود من شتى الدول فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وممثل الجزائر هو الاستاذ توفيق المدنى للاتفاق على وضع المصطلحـــات واقرارها بحيث تكون موحدة وبحيث تـــكون هذه الالفاظ العربية ، التى توضع الفاظا جارية فى سائر انحاء الوطن العربى ، احسب انـــه بهذين المقترحين يمكن ان تسهم بطريقة مجـدية بهذا المستوى الراقى فى التعـــريب بحيث اذا انتشرت هذه الكتب وهذه المصطلحات وجرت فى التعامل بين الناس استطاعت معظم المستويـات الاخرى الاقل من هذا المستوى ، سواء عـــلى المستوى الادارى ام على مستوى التعليم الثانوى او الابتدائى ، ام على المستوى الثقافى العـام ، استطاعت جميع هذه المستويات ان تاخذ روافدها من هذا النبع الكبير العام • ليست قضية التعريب مشكلة الا فى رؤوس الذين لا يريدون للتعريب النجاح • انها مشكلة عند اولئك المستعمـــرين الذين يرغبون فى قطع الصلة بين اللغة العربية التى هى اصل من اصول الشخصية العربيـــة الاسلامية لكى يتمكنوا من العودة الى ذلك الغزو الصليبى بين الشرق وبين الغرب • وليســت هذه المشكلة بالنسبة لنا قائمة ما دام العـــزم موجودا ، وما دامت الارادة ماضية حازمة • ولا يمكن للتاريخ ان يرجع الى الوراء • وقد بـدأت البـــلاد العـربية فى جميـــع انحـاء الوطـن العـــربى أن تمضى فى طريـق التقـــدم وفى طريـق الـرقى ، وفى طريق استعادة ما كانت له من قديم الزمان • لا يمكن لهذه الانطـلاقـة ان تتوقف عند حد ، ولا بد ان تمضى قدما الـى الامام • قد يقوم فى سبيلها بعض العقبـــات ، ولكن النهاية معروفة ، والمستقبل للامة العربية ، وستنهض بعون الله ، وتستعيد ما كان لها من عظمة وحضارة فى قديم الزمان • وسيعود الغرب بما تسوده الآن من مادية بغيضة ومن انحـــلال سيعود مرة أخرى الى احضان الهمجية كما تنبأ بذلك كثير من الفلاسفة من امثال شبنجلر مثلا •

وتعود الحضارة ومشعلها فى يد العرب ــ ان شاء الله ــ فى القريب العاجل •

صفـــوة القول :

ان الافكار الاساسية فى التعريب هى :

1) التعريب متصل الحلقات ، يبدأ من اعـلى المستويات ويتدلى الى ادناها •

2) لا بد من انشاء هيئة منظمة جزائريـــة لتعريب الكتب العلمية عن اللغة الفرنسية •

3) انشاء مجمع للغة العربية فى الجزائر •

اما وقد اوضحنا هذه النقاط ، فان مشكلـة تعريب التعليم تصبح يسيرة يمكن حلها بانشاء مدارس ابتدائية وثانوية تعلم باللغة العربيـــة وييسر وضع المعلمين بالعربية ، مع تزويـــدهم بالكتاب العربى •

والسلام عليكم ورحمة الله